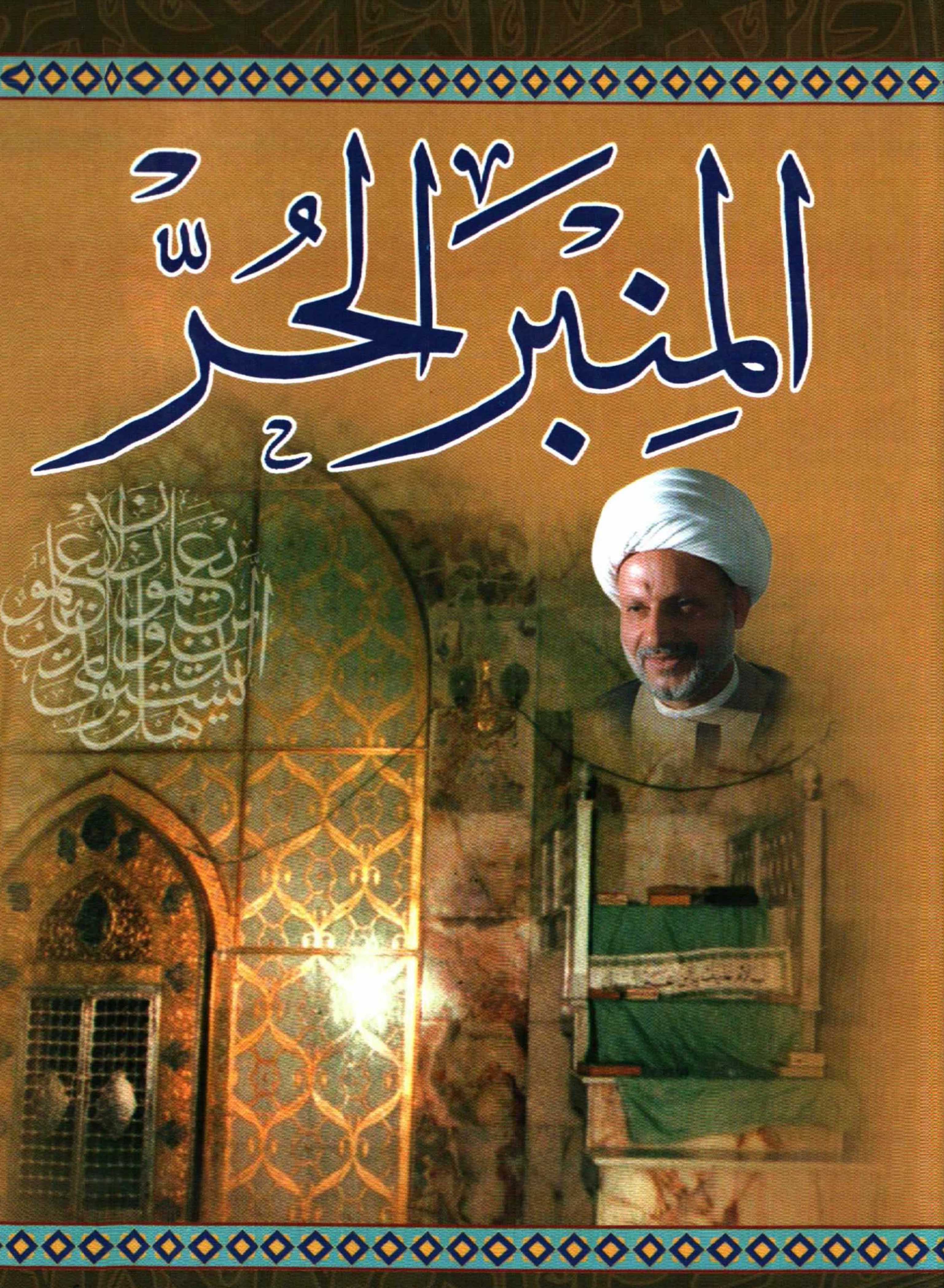
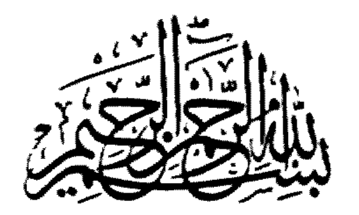
المنبر الحر



الشيخ عبد الحميد المهاجر

المجلد الأول

المنبر الحُرّ



المنبر الحرّ

عبد الحميد المهاجر

المجلّد الأوّل

الكتاب .... المنبر الحرُ (المجلد الأول)
المؤلف....... الشيخ عبد الحميد المهاجر
الناشر.................. عاشوراء / قم المقدسة
الطبعة .... الأولى
تاريخ الطبع.................. ٢٠٠٨م - ١٤٢٩ هـ
الكمية.................................. ٢٠٠٠
المطبعة..............................معراج
رادمك .... ٧ - ٩١ - ٧٢٦٣ - ٩٦٤ - ٩٧٨

مراكز التوزيع
مكتبة النجار - نقال - ٠٩٣٥٨٢٢١٥٢١ - ٠٩١٢٧٥٧٠٧٢١
E- mail : maktabat_alnajar@naseej.com
معرض الشهيد محمد باقر الصدر - بغداد - مدينة الصدر - داخل - قرب محطة الوقود



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير لإدارة الدار

لماذا المنبر الحرّ . . . ؟

كان المنبر ولا يزال، عبر التاريخ كلّه، من أفضل الوسائل وأمثلها، للاتصال بالناس، وإيصال الفكر الهادف إليهم، وصولاً إلى عقولهم وقلوبهم . . ذلك أنه اتصال مباشر، تمارس من خلاله لعبة التأثير والإقناع .

فكيف إذا كان هذا المنبر هو منبر الحسين عليه السلام . . ذلك العملاق الذي صاغته أنامل الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم، وحاك نسيجه الفريد قلب سيِّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، سلام الله عليها، وتفنَّن في صناعته أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام الذي غرس في أعماقه عمق الإيمان وروعة الشجاعة الحيدريَّة التي تجلَّت بأبهى مظاهرها وأحلى تجلياتها فوق رمال الطفّ في العاشر من محرم .

لذلك كانت هذه الثورة، وسوف تبقى فريدة من نوعها، يزيِّن بها التاريخ جيده . . إذ ليس في التاريخ ثورة تداني ثورة الحسين عليه السلام، فضلاً عن أنّ تماثلها تجسَّد في نبل أهدافها وضخامة تضحياتها وجلال وقائعها وعظمة أبطالها . .

إنها ثورة عصماء. . سوف تبقى مهاجرة وجوّالة عبر التاريخ والعصور، توزّع أهدافها في كل زمان ومكان. . فتفجّر الثورات وتقوّم ما اعوج من الأمور، وتصلح ما فسد من الأنظمة لكي تعيد للإسلام سيرته الأولى ووجهه الناصع. .

ذلك أن ما يميّزها عن غيرها من الثورات عبر التاريخ الإنساني برمّته، هو أنها عملت على تصحيح حركة الحياة من جهة، ودأبت جاهدة لكي تجعل الإسلام يتألّق من جديد في كل سنة من جهة أُخرى، فينفض عن جسده ما تراكم من صدأ الأيام والمفسدين، وغبار السنين والحاقدين، ممّا يؤدي إلى تجدُّد حلّته القشيبة واستعادة بريقه ووهجه الجذّاب وألقه المشرق.

ذلك هو المنبر الحسيني الذي يمتاز بالغنى الإنساني والعطاء الذي لا تحدّه الحدود لأنه بذل بلا حدود، وتضحيات بلا حساب، فهو امتداد لمنبر نبيّ الرحمة (ص) ومنبر أمير المؤمنين سلام الله عليه.

فلا نعجب بعد ذلك إذا كان سماحة العلامة الشيخ عبد الحميد المهاجر قد وقف منبره للحديث عن الكتاب والعِترة، وخصّصه لأهل البيت وعالم الثقلين. . . فقد آمن بعقله وقلبه وكل جوارحه أن هذا المنبر هو المدخل المميّز الجذّاب إلى فهم الإسلام والباب الفريد إلى عالم الإيمان والتقوى، والنافذة المثلى التي نطلّ منها على روائع الدين، والمصباح الأضوأ الذي ينير دروب التائهين ويبدّد عتمة الباحثين عن الحقيقة. .

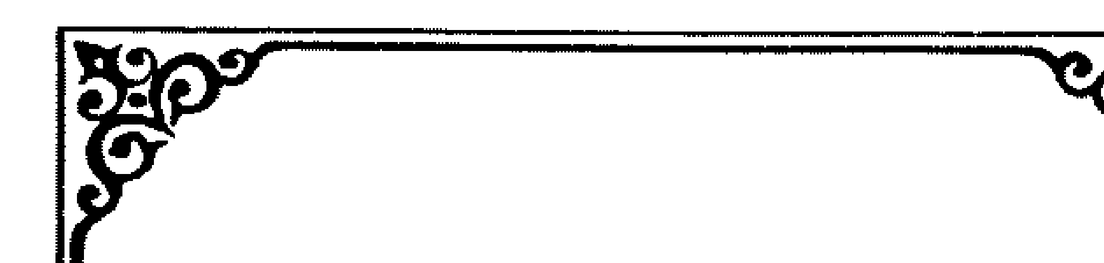
وعلى هذا الأساس كان كتاب «المنبر الحرّ» الذي وضعه سماحته، وضمّنه مجموعة من الأبحاث القيّمة التي تتناول بعضاً من روائع القرآن الكريم ومآثر النبيّ الأعظم وفضائل أهل البيت وفكرهم الحضاري

المتميِّز، ودورهم الريادي العامل على استمرارية الخط الإسلامي القويم، وأودع فيه ما جاد به يراعه ومقوله من نصائح ومواعظ وحكم كثيراً ما انتظرها المؤمنون عند كلّ طلَّةٍ ميمونةٍ له على شاشات التلفزيون، وفي أشرطته المهاجرة إلى شتَّى أقطار العالم الإسلامي الواسع، ومن على منابره الحرَّة التي لا تعرف إلَّا الثبات في الموقف والجرأة في القول..

إنَّ «المنبر الحرّ» يأتي مباشرةً بعد موسوعة سماحته «اعلموا أني فاطمة» التي ستحتل، بلا شك، مكانتها الواعدة في المكتبة الإسلامية، آملين أن تُتاح لنا الظروف لطبع ما تبقَّى من إنتاج سماحته الضخم، الذي ما يزال مخطوطاً ينتظر دوره في الصدور، وكلّه في السيرة النبويَّة العطرة والأجواء الحسينية الشريفة.

وباختصار.. فإن «المنبر الحرّ» كتاب مادَّته الإيمان والتقوى، مقروء ومكتوب بأنفاس الحسين وذريَّة الحسين.. وهل هناك من هو أجدر من سيِّد المنبر الحسيني الشريف، سماحة العلامة الشيخ المهاجر حتى يضفي عليه هذه الأنفاس العطرة العابقة بالفضيلة وتمجيد ربِّ العالمين، وحتى يجعله إطاراً لعالم الطهر والاستقامة، عالم أهل بيتِ النبوَّة؟؟

لا عجب في ذلك.. فسماحته يعرِّف نفسه بأنه خادم الحسين وخادم أهل البيت عليهم السلام.



الفصْــل الأوّل

القرآن عقيدة ونظام حياة ومجتمع

* القرآن عقيدة ونظام حياة ومجتمع.
* القرآن والإنسان.
* معصومان لا يفترقان: القرآن والعترة الطاهرة.
* نبي الله إبراهيم (ع) وصرخة التوحيد.
* التكافل الاجتماعي في الإسلام.

القرآن
عقيدة ونظام حياة ومجتمع

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم * أهم يقسِمونَ رحمةَ ربِّك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ ليتَّخذ بعضُهم بعضاً سُخرياً ورحمةُ ربِّكَ خيرٌ مما يجمعون﴾ [سورة الزخرف: الآيتان ٣١ ـ ٣٢].

القرآن المكّي والقرآن المدني

في القرآن الكريم نوعان من السور والآيات. الأول نزل في مكة المكرمة، وهو الآيات والسور المكية، والثاني نزل في المدينة المنورة (يثرب) وهو الآيات والسور المدنية. ومن هنا قولنا قرآن مكّي وقرآن مدني.

ونستطيع أن نلاحظ أن السور المكيّة تركّز على العقيدة، بينما السور المدنية تركّز على تنظيم المعاملات والمجتمع والتشريع.

يتحدث القرآن المكّي عن التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد، أي عن مبادىء العقيدة الإسلامية التوحيدية. ثم يأتي القرآن المدني

ليتحدث عن المجتمع والاقتصاد والسياسة والحرب والسلم والزواج والطلاق والإرث، وسائر وجوه الحياة الاجتماعية.

وهذا الفرق بين الاتجاهين في الآيات والسور اقتضته مسيرة الدعوة وضروراتها.

ففي البداية لا بد من وجود الإنسان المؤمن المسلم حتى تستطيع أن تتوجه إليه بالتشريعات الإسلامية. أي لا بد من وجود المجتمع الإسلامي لكي توجد تشريعات اجتماعية، وإلاَّ يكون التشريع غير ذي موضوع. في مكة بدأت الدعوة. وفي المدينة تأسست أول جماعة إسلامية منظمة في مجتمع إسلامي. ولذلك اقتضى هذا المجتمع تشريعات وقوانين توجّه حياته وتنظم أموره وتبيّن له الحقوق والواجبات والحدود.

القرآن يوحّد المسلمين في مجتمع واحد

تكوَّن المجتمع الإسلامي الأول في المدينة المنورة من المهاجرين والأنصار. المهاجرون هربوا من مكّة ومن ظلم قريش، وكانوا فقراء مجرّدين من أموالهم وممتلكاتهم. والأنصار كانوا مستقرّين في مدينتهم على أموالهم وممتلكاتهم وفي يُسر من العيش. وعندما استقر المسلمون من مهاجرين وأنصار في المدينة، نظر الرسول الأعظم إلى هذا المجتمع الجديد فوجد فيه اختلافاً واضحاً في مستوى الثروة، في حين أن الإسلام يوحّد بين الجميع في العقيدة والإيمان.

وهنا كان لا بد للعقيدة الواحدة والقرآن الواحد أن يوحّد عناصر المجتمع ويلغي ذلك التناقض الطبقي الذي هو سمة المجتمعات الرأسمالية والكسروية، وينقله إلى الحالة الإسلامية. لذلك قام الرسول (ص) بعملية إصلاح اجتماعي اقتصادي ضخمة ورائدة، تمثّلت

بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. المؤاخاة في العقيدة والدين والاقتصاد والاجتماع. وهكذا بادر الأنصار إلى اقتسام أموالهم وممتلكاتهم مع إخوانهم من المهاجرين، وهذا مما جعل المجتمع الجديد جسماً واحداً متضامناً متحداً في السرّاء والضراء، وصار كالبنيان المرصوص يصمد أمام العواصف ويواجه التحديات. وكان هذا من الأسرار الأولى العظيمة الكامنة وراء انطلاقة الإسلام وانتشاره.

قوة الإسلام الأولى

في مكة توفّرت للرسول (ص) ثلاثة عوامل أساسية ساعدته في إطلاق رسالته: أموال أم المؤمنين خديجة ومنعة أبي طالب وسيف علي ـ عليهم السلام ـ. وهذه العناصر الثلاثة ضرورية لأية دعوة في المجتمع لأنها تمثل سلطة المال والسلطة الاجتماعية والسلطة العسكرية.

كانت خديجة تملك تجارة واسعة وكانت تعد من كبار أغنياء قريش. فوضعت جميع أموالها بين يدي رسول الله وأنفقت جميع ما تملك في سبيل الدعوة الإسلامية حتى بلغ بها الأمر أنها كانت تنام هي والنبيّ على جلد كبش. وكان أبو طالب يمثل القوة الاجتماعية (بني هاشم) التي حمت الرسول من عدوان قريش، فلم يجرؤ أحد على مسّ الرسول بسوء طوال حياة أبي طالب. فقد كان أبو طالب زعيماً في قومه مطاعاً مهاباً، يخشاه زعماء قريش، لذلك استطاع أن يحمي الرسول. ولما مات أبو طالب أحسّ الرسول بأن سنداً قوياً قد غاب، فكان ذلك العام عام الحزن. ونزل جبرائيل على رسول الله وقال له: يا رسول الله، أُخرج من مكة، لقد مات فيها ناصرك.

ومن الأسف الشديد أن نرى بعض المسلمين يقولون بأن أبا طالب مات على الجاهلية ولم يُسلم!

أما القوة العسكرية التي حمت الرسول في بداية دعوته فقد تمثلت بعليّ بن أبي طالب. فكان علي وهو ابن عشر سنوات يدفع الأذى عن الرسول بسيفه، وساعده. كان الرسول يمشي في طرقات مكة فيحرّض تجار قريش الأطفال حتى يرجموه بالحجارة. فكان النبي يعود إلى بيت خديجة ودماؤه تسيل من جروحه، فيخرج عليّ إلى الأولاد فيضرب هذا ويقطع أذن ذاك حتى ضجَّ منه أهل قريش فجاؤوا إلى أبي طالب وقالوا له: امنع ولدك عن أولادنا. فقال لهم: امنعوا أولادكم عن ابن أخي رسول الله.

وعليّ بن أبي طالب في سن العاشرة لم يكن ولداً مثل سائر الأولاد، وإلّا لماذا توجه الرسول إليه ودعاه إلى الإسلام في مثل هذه السنّ؟

في جمع كبير من العلماء والفقهاء المسلمين كانوا في حضرة المأمون العباسي، قال المأمون: أول من أسلم من الرجال عليّ بن أبي طالب. قالوا: ولكنه كان صغيراً في العاشرة من عمره ولم يكن في مصاف الرجال. قال: أسألكم، أكان رسول الله عرض الإسلام على عليّ بأمر من نفسه أم بأمر من الله؟ فسكتوا. قال: لا تقولوا هو من نفسه، لأن القرآن يقول: ﴿**وما ينطق عن الهوى**﴾.

وهذا يعني أن الأمر من الله، وأن الله سبحانه هو الذي أوحى إلى رسوله أن يدعو علياً إلى الإسلام وهو في العاشرة من عمره ليكون سنداً للنبيّ (ص) وسيفاً للإسلام مسلولاً.

وقد أثبت الإمام عليّ أنه سيف الله المسلول في جميع المعارك والمواجهات التي خاضها النبيّ مع قريش قبل الهجرة وبعدها. وكانت

بداية الفتح الإسلامي بسيف عليّ يوم معركة الأحزاب حيث قال النبيّ: لقد برز الإيمان كله إلى الشرك كله.

كل ذلك كان بسيف الإمام عليّ. أما بعد هذا فإن الفتوحات الإسلامية اللاحقة حدثت بعدما أصبح الإسلام يمتلك قوة كبيرة انطلقت باتجاه الشرق والغرب سواء في عهد أبي بكر أو في عهد عمر بن الخطاب.

لو نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم

نزل القرآن الكريم في مجتمع جاهلي ماديّ. كانت القيم الماديّة السائدة في مكة وبين أوساط قريش هي القيم المادية التي تقدّس المال والجاه والسلطان، ولا تحترم إلاَّ الأغنياء والتجار. لذلك عندما نزل القرآن الكريم على محمد (ص) قال أهل مكة: هذا شيء غير معقول. إذا كان لا بدَّ من وحي وقرآن فإن هذا القرآن ينزل على رجل عظيم ثريّ من أثرياء العرب في مكة أو الطائف. وكانوا يقولون إن هذا القرآن لا بد أن ينزل إما على الوليد والد خالد بن الوليد أو على عروة بن مسعود الثقفي. فالوليد شخصية مالية كبيرة في مكة، وعروة شخصية اجتماعية مرموقة في الطائف: **﴿وقالوا لو نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾**.

والمراد بالقريتين مكة والطائف. وكانوا يرون أن محمداً بن عبد الله (ص) ليس أهلاً لهذا الشرف العظيم مع وجود أصحاب المال والجاه والسلطان. فهو عاش يتيماً، ولم يكن يملك في شبابه ورجولته شيئاً من المال، بل كان يعمل عند خديجة بنت خويلد.

هذه هي النظرة المادية التي كانت تتحكّم بعقول أهل قريش. فالذين يسعون وراء المادة والمال يقدّسون الثروة والذهب والفضة. وخير

مثال على هذه العقلية اليهود. فهؤلاء منذ مبدأ أمرهم وحتى اليوم لا يعبدون إلاّ المال. حتى إنهم لما اتخذوا عجلاً ليعبدوه اتخذوه من الذهب: ﴿واتّخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً جسداً له خوار﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٨].

وإذا نظرنا اليوم إلى الامبراطورية المالية في العالم نجد أن ثلاثة بنوك في سويسرا هي التي تتحكم بجميع بنوك العالم وتتحكم بأسعار العملات. وهذه البنوك الثلاثة تديرها هيئة مؤلفة من ستة خبراء في الاقتصاد والمال والسياسة أحدهم مسيحي وخمسة من اليهود. وهذه السلطة المالية تتحكم أيضاً بالسياسة، وخاصة بسياسة أميركا الخارجية والداخلية.

ومن هنا نرى أن المجتمعات المادية تخضع لقيادات ورؤساء يتحكمون برؤوس الأموال والتجارة والصناعة. أما القيم الأخرى الروحية والعقائدية، وقيم الحرية والعدل والمساواة فهي بضاعة غير رائجة في سوق المادة والمال. لذلك فقد جاء الإسلام ليعطي العقيدة الأولوية وليضع المال في مكانه الصحيح. فقيمة المال في الإسلام هي بمقدار ما ينفع الناس والمجتمع. لذلك فرّق الإسلام بين الأغنياء المترفين والأغنياء المؤمنين. فالمترفون هم الأغنياء الذين استعبدتهم المادة، فلا يهتمون إلاَّ بجمع المال ولا ينفقون على فقير أو محتاج. أما الأغنياء المؤمنون منهم فهم الذين باركهم الإسلام لأنهم ينفقون من مالهم على السائل والمحروم ويدفعون الحقوق ويساعدون المشاريع الخيرية الإسلامية.

وفي الحديث الشريف: «لا تجالسوا الموتى» قيل: وكيف نجالس الموتى يا رسول الله؟ قال: أن تجالسوا كل غنيّ مترف».

ويقول الإمام الحسين (ع): «الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على

ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون».

ويقول رسول الله (ص): «من عظّم غنياً لأجل غناه أكبّه الله على منخريه في نار جهنم».

إذن جاء الإسلام ليرفع من شأن العقيدة والإيمان وليبيّن أن قيادة المجتمع هي للعظيم في عقيدته وإيمانه ومنهجه السليم الذي يرفع من شأن المجتمع وينقله من شريعة الجاهلية والغابات إلى شريعة الحرية والعدل والمساواة. والعظيم الذي اختاره الله لرسالته هو محمد بن عبد الله وليس أي رجل آخر من عظماء قريش أو الطائف أو غيرهما.

التشريع من الله

﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣٢].

إن رحمة الله بالعباد تتمثّل بتشريع الأنظمة. والقرآن الكريم هو التشريع الإلّهي الذي نزل رحمة للعباد، لأنه بغياب القرآن والأنظمة الإسلامية يعيش الناس في حالة من الفوضى والبؤس والشقاء.

وإذا نظرنا إلى العالم من حولنا نرى المجاعات والحرمان والاضطهاد تسود المجتمعات. وهذا كله نتيجة ابتعاد الناس عن الله: **﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾** [سورة طه: الآية ١٢٤].

والتشريع الصحيح لا يمكن أن يأتي إلاّ من الله، لأنه هو الخالق والصانع وهو أعلم وأدرى بمصلحة الإنسان وبما ينفعه أو يضرّه: **﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾** [سورة الملك: الآية ١٤].

وهذه المسألة من البديهيات التي يقبلها كل عقل سليم. فالصانع الذي يصنع جهازاً يكون أدرى الناس بقوانين عمله وهو أعلم بما يطرأ عليه من أعطال. وبالتالي إذا تعطّل جهاز كهربائي أو ألكتروني عندك فإنك تذهب مباشرة إلى العالم الخبير به ولا تذهب إلى نجّار أو حدّاد.

والإنسان هذا الجهاز المعجزة هو من صنع الله عزَّ وجلّ. ومهما تطوّر العلم وتقدّم فإنه يكتشف كل يوم معجزة جديدة في التكوين البشري، ويكتشف أن هذا الجهاز الذي يحوي آلاف الأجهزة الدقيقة إنما يسير على نظام محكم وقوانين دقيقة ثابتة، وبالتالي فإن العقل السليم كلما تعمّق في معرفة هذا الإنسان كلما آمن بقدرة الخالق وعظمته وأقرَّ له بكامل الهيمنة والسيطرة على خلقه وبكامل المعرفة بأسرار هذا الخلق وقوانينه وتشريعاته.

إذن الله سبحانه هو أعلم بما يصلح للإنسان كفرد أو كمجتمع وهو صاحب الحق في التشريع وسنّ القوانين. فإذا مرض المجتمع هل نعرضه على قوانين ماركس وأنجلز وفرويد؟ إن علاج الأمراض الاجتماعية لا نجده إلّا في القرآن الكريم.

ومن هنا فإن القانون الإسلامي يعني أن الحكم لله. وفي مقابل ذلك نجد القوانين الجائرة الديكتاتورية التي تعني حكم الفرد على الناس، والقوانين الديمقراطية التي تعني حكم الناس بالناس. والإنسان سواء كان فرداً أو مجموعة يبقى ناقصاً قاصراً، وبالتالي فإن أحكامه وتشريعاته تكون ناقصة قاصرة.

العدالة الإلٓهية والتفاوت بين الناس

تقول الآية الكريمة: **﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضُهم بعضاً سخرياً ورحمةُ**

ربِّك خيرٌ مما يجمعون﴾.

هناك نوعان من التفاوت والاختلاف بين الناس: نوعٌ مصدره الإنسان والمجتمع، ونوعٌ مصدره الله سبحانه.

ربما يتساءل البعض: كيف نبتت عدالة الله ونحن نرى فقراء معدمين إلى جانب أغنياء مترفين، ونجد رزق هذا أكبر من رزق ذاك، ونجد ذكياً عبقرياً وآخر غبياً محدود العقل والتفكير؟

إن الآية الكريمة تشير إلى التفاوت والاختلاف بين الناس، وتشير إلى أن هذا التفاوت هو بإرادة الله وبموجب قوانينه.

ولكن حتى نفهم الأمر على حقيقته لا بد لنا من التمييز بين أمرين: ما هو من صنع الله، وما هو من صنع البشر.

إن التفاوت والاختلاف قانون إلٓهي. ولكن الفقر والغنى، والخمول والنشاط، والكسل والاجتهاد، والسعي والاستكانة، والخنوع والطموح، كلها من عمل الإنسان وهو مسؤول عنها.

فالله سبحانه لم يخلق فقراء وأغنياء بالمعنى الاصطلاحي المعروف. فهذا شيء مصدره الظلم الاجتماعي والقوانين الجائرة التي يصنعها الإنسان ويسير عليها فتخلق في المجتمع طبقة غنيّة مستبدّة وطبقة فقيرة مستضعفة. كذلك فإن الله سبحانه زوّد جميع الناس بالقدرات الأساسية من عقل وطاقة، وأعطاهم الحرية وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشرّ، وبناء على ذلك جعل المسؤولية والتكليف وبالتالي سنَّ الثواب والعقاب. والإنسان في هذه الحالة يتمتّع بالإرادة والقدرة على الاختيار، فيكون إما شاكراً وإما كفوراً. بعض الناس يختار طريق الخير فيتّبع الأحكام الإلٓهية فيكون خيراً. وبعضهم يختار طريق الشر والطمع والهوى فيبتعد عن طريق الله ويصبح

شريراً ظالماً لغيره طامعاً في السلطة أو المال، وهنا يحدث التفاوت والاختلاف.

لنأخذ مثلاً رجلين يعيشان في قرية واحدة وأحوالهما المعيشية واحدة. ولكن الأول اجتهد وعمل طوال سنين فتحسنت أحواله وأصبح ثرياً بطرق مشروعة، بينما الآخر تكاسل وتقاعس وفضّل الاستكانة فبقي على حاله ثم أصبح فقيراً معدماً. هل تستطيع القول إن فقر هذا من الله وإن غنى ذاك من الله؟ الإسلام يقول: إن غنى هذا هو من عمله وبتوفيق من الله، وإن فقر ذاك هو من عمله وبموجب حكم وشريعة الله. فالعدل الإلّهي سنَّ قوانين التوفيق والنجاح وقوانين الفشل والسقوط. فمن اتّبع قوانين النجاح فاز، ومن اتّبع دروب الفشل خسر.

ومن جهة ثانية فإن الله سبحانه قضت حكمته أن يكون الناس في المجتمع غير متساوين. وإلاّ إذا تساوى الناس في الطاقات والقدرات والعقل والذكاء والسعي والنشاط لبطلت حركة المجتمع وتوقفت. فإذا كان جميع الناس بمستوى أنشتاين في الذكاء، أو كانوا جميعاً أطباء فمن يفلح ومن يزرع ومن يعمل في الحدادة أو النجارة أو غير ذلك؟

ولكن هل يعني ذلك أن الله هو الذي جعل من هذا طبيباً ومن ذلك فلاحاً ومن الثالث نجاراً؟ بالطبع لا. إذن أين يكمن الاختلاف والتفاوت الذي أشارت إليه الآية؟ إنه يكمن في القانون. أي أن الاختلاف لا بد من وجوده لصالح المجتمع وسير الحياة وانتظامها، ولكن اختيارك وعملك وسعيك هو الذي يجعل منك طبيباً، ومن ذاك فلاحاً، ومن الآخر معلماً أو صانعاً أو متسولاً في الطرقات.

والحكمة من الاختلاف أشارت إليها الآية الكريمة بقولها: ﴿ليتّخذ بعضهم بعضاً سخريّاً﴾.

أي ليسخّر بعضهم بعضاً. والمراد هنا تبادل المنافع والخدمات وتكامل الوظائف الاجتماعية بما يعود بالنفع والخير على الجماعة كلها.

فإذا كنت طبيباً مثلاً فإنك تداوي المرضى. وبهذا المعنى فإن المريض يسخّرك لخدمته. ولكنك في الوقت نفسه، بحاجة إلى الخباز الذي يصنع لك الخبز، وبحاجة إلى الحائك الذي يصنع ملابسك، وبحاجة إلى الفلاح الذي يزرع الأرض حتى تستطيع أن تأكل من زرعها وثمارها... وهكذا نرى كل واحد يحتاج إلى الآخرين. فكأنما الواحد منّا يسخّر مجموعة كبيرة من الناس في مجالات مختلفة لخدمته. فكل واحد مسخِّر (بكسر الخاء) ومسخَّر (بفتح الخاء). وهذا هو المعنى المراد من التسخير، أي معنى التعاون والتكامل.

أما التسخير بالمعنى السلبي المعروف، وهو أن تستغلّ إنساناً لمصلحتك دون أن تعطيه أجراً فهو أمرٌ مرفوض عقلاً وشرعاً.

إذن التسخير بالمعنى الوارد في الآية الكريمة يفترض قيام كل واحد بواجبه حسب طاقته واختصاصه. وهنا يكمن العدل في التشريع الإلـهي.

والعدل لا يعني المساواة بالمعنى الظاهري للكلمة. فإذا كان عندك ثلاثة عمال يعملون في حقلك. هذا يعمل ثلاث ساعات، والثاني خمس ساعات، والثالث عشر ساعات، فهل من العدل أن تساوي بينهم في الأجر؟ إذن ما هو العدل؟ العدل أن تعطي كل واحد حسب عمله وجهده.

وإذا كان لديك ثلاثة أولاد، هذا يتمتّع بذكاء كبير، والثاني له قدرة جسدية متميِّزة، والثالث متخلّف عقلياً لسبب من الأسباب، فهل من العدل أن توجههم جميعاً إلى عمل واحد؟ العدل هو أن توجه كل واحد منهم إلى العمل الذي يلائمه.

إذن العدل ليس المساواة، وإنما هو وضع الأمور في نصابها، ووضع الشيء في موضعه الصحيح، وإعطاء كل ذي حقّ حقَّه.

والإسلام جاء بالعدل الاجتماعي ليعطي كل إنسان حقَّه. كما أن الإسلام فرض التكافل الاجتماعي عن طريق الزكاة وبيت المال حتى لا يكون في المجتمع فقير أو محروم لا يجد قوته عندما تضعف قواه ويصبح شيخاً هرماً.

رأى أمير المؤمنين (ع) ذات يوم رجلاً فقيراً يتكفَّف، فالتفت إلى صاحب بيت المال عبد الله بن أبي رافع وقال: ما هذا؟! (أي أنه سأل عن حالة الرجل مستنكراً ولم يسأل عن شخصه). قال عبد الله بن أبي رافع: هذا رجل مسيحيّ ذميّ يعيش في بلادنا. قال أمير المؤمنين: «أشغلتموه حتى إذا أتعبتموه تركتموه!». أي أنه لا يجوز للمجتمع الإسلامي أن يترك رجلاً يتسوّل بعد أن عمل طوال حياته ثم أعجزه المرض أو كبر السنّ. مثل هذا الرجل، مهما كان دينه أو عقيدته، هو في ذمة المجتمع الإسلامي وفي رعاية وكفالة الدولة الإسلامية. لذلك يجب احتضانه ورعايته وضمان شيخوخته.

خلاصة

إن القرآن الكريم يمثل عقيدة إيمانية ويمثل تشريعاً اجتماعياً. وهذان الجانبان يتكاملان لتحقيق خلاص الفرد والجماعة ولتحقيق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

فالإيمان بالله هو خشبة الخلاص وهو الزاد الأساسي الذي يحمله الإنسان إلى آخرته. والتشريعات القرآنية تكفل للإنسان حياة كريمة في مجتمع تسوده العدالة والمحبّة والتعاون. فلنتمسك بهذا الدستور العظيم

الذي فيه شفاء لكل أمراضنا الفردية والاجتماعية. إنه مصدر قوة ومنعة المجتمع الإسلامي، وهو في الوقت نفسه الرجاء الذي لا بديل عنه للبشرية جمعاء: **﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾**.

فمن اتّبعه فقد اهتدى وفاز بالحسنى، ومن أعرض عنه فقد خاب وضلَّ ضلالاً بعيداً.

• • •



القرآن والإنسان

القـرآن والإنسـان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿**أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ [سورة محمد: الآية ٢٤].

المـدخـل

إن البحـوث الإسـلاميـة تكتسب أهميتها من كـونها تهـدف إلى صنع الإنسان المتكامـل وتوجـه سلوكه وحـركته في هـذا الكون العـظيم، ولأنها تتسم بـالمنهجية العلميـة والفكريـة من خـلال طـرح مسـائلهـا؛ ومن هـذه البحوث الهامـة مسألـة المنهج الـذي تقوم على أسـاسه النـظرية المتكـاملة للكون والإنسان والحيـاة. فكيف ينظر القـرآن إلى هذه المفـردات الكونيـة الثلاث؟ ذلك ما سوف نحاوله في هذا البحث.

إن الآية الكريمة تقول: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾.

ومن الواضح أن الاستفهام الوارد فيهـا ما هـو إلاَّ طلب ودعوة إلى أن نتدبر القرآن أي أن نقرأه قراءة واعية بقصد الفهم العميق لآياتـه وما تختـزنه من علوم وأسرار وما تطرحه من مسائل وقضايا وما تثيره من شؤون وشجون. لذلك يقول الإمام الرضا سـلام الله عليه: «مـا مررت بـآية إلاَّ وفكـرت في سبب نزولها ومؤداها ومضمونهـا وفي أي مكان نـزلت وإلى أي فئة تشير». وتلك هي القراءة الصحيحة للقرآن الكريم؛ أمـا أن يُقرأ القـرآن دون تدبّـر

أو تفكّر وتأمّل فهذه قراءة جوفاء لا تسمن ولا تغني من جوع، لأن صاحبها يترك الكنوز وهي له معرضة ويتعامى عن الحقائق وهي له ظاهرة ويغلف العين ويمنعها عن النور وهو أمامه ماثل؛ ذلك أن الآية الكريمة تتابع قولها: ﴿**أم على قلوب أقفالها**﴾.

والقلوب المقفلة هي العقول الجامدة حيث لا بصر ولا بصيرة تحركها.

ومهما يكن من أمر فإن الآية الكريمة تريدنا أن نتدبر القرآن الكريم لكي نطل من خلاله على الكون والحياة والإنسان، ذلك لأن القرآن الكريم يختزن نظرة شاملة لها جميعاً. فما هو المقصود، بداية، بهذه المفردات الثلاث؟

إن المقصود بالكون هو كل ما خلق الله سبحانه وتعالى في هذا العالم الواسع والشاسع بدءًا بالخلية والذرة وصولاً إلى السموات والمجرات، مروراً بالنملة والنحلة والنخلة والجبال والبحار وغيرها من سائر الكائنات والمخلوقات. أما الحياة فهي القوانين والنظم والسنن التي تنظم حركة الإنسان وتوجه سلوكه. والإنسان هو ذلك المخلوق الذي ميزه الله سبحانه وتعالى بالعقل فجعله سيد المخلوقات جميعاً، وهو يشمل هنا أيَّ إنسان، مؤمناً كان أم كافراً.

الإنسان والكائنات

على أن الإنسان ما هو إلّا جزء من هذا الكون الذي ينتظم ثلاثة أصناف من المخلوقات إضافةً إلى الإنسان، هي على التوالي: الجماد والنبات والحيوان. وهو ــ أي الإنسان ــ يشترك معها بمميزات ويفترق عنها بأخرى. إنه يشارك الجماد مثلاً بالكتلة أي الوزن أو الثقل، فلا فرق بينهما

من هذه الناحية لذلك تجدهما كليهما يخضعان لقانـون الجاذبية، ولو بقي الإنسـان على جماديتـه لمـا أمكن لـه أن يتـطور أبـداً، فلو أخـذت حجـراً ووضعته في مكانٍ ما وعزلته عن المؤثرات الخارجية لبقي على حـاله بعيـداً عن مؤثرات الزمان والمكان فلا يتطور ولا يتغير.

أما النبات فإن الإنسان يشتـرك معه بخـاصة النمـو، فلو وضعت بذرة في الأرض ثم سقيتهـا بالمـاء فإنهـا سوف تنمـو وتتحول إلى نبتـة أو شجرة أو غير ذلك بفعل بعض العمليات المعـروفة في علم النبـات إذ تتفاعـل مع الأرض والشمس والهـواء فتنمو وتعـطي ثمراً. وكـذلك الإنسـان فإنـه ينمـو ويكبر بناءً على ما يحدث في جسمه من عمليات تتعلق بـأجهزتـه التنفسية والهضميـة والدمـوية، حيث يبـدأ بخلية واحـدة تنقسم على نفسها فـإما أن تكون ذكراً وإما أن تكون أنثى.

يقول الله تبارك وتعالى: **﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تُمْنَى﴾** [سورة النجم: الآية ٤٦].

وهذا يعني أن الرجل هو المسؤول عن تحـديد نـوع الجنين وجنسه، أما البويضة عند المـرأة فما هي إلاَّ مخـزن يحتضن مني الرجـل. وإذا كان العلم قد اكتشف هذه الحقيقـة فإن القـرآن الكريم قـد أشار إليهـا منذ زمن بعيد. لذلك يخطىء الرجل الذي يضع اللوم على زوجتـه عندمـا تضع لـه بنتـاً. فهي ليست السبب في ذلـك، بـل الـرجـل هـو السبب وإن كـان الله ــ سبحـانه وتعـالى ــ هو المسبِّب، لأن النـطفـة هي التي تحمـل الجنس، والنطفة من الرجل نفسه وليس من المرأة.

على أن العلم مـا يزال عـاجزاً عن اكتشـاف السر المكنـون في هـذه الخلية التي تنقسم إلى ذكر أو أنثى. فمن أمرها بـذلك غيـر الله ــ سبحانـه

وتعالى ـ الذي تحيط قوته وقدرته بالكون كله؟ لذلك عندما يتحدث أحدنا عن الله جلت قدرته عليه أن يحسن آداب الحديث، فهو لا يتحدث عن مخلوق، بل عن خالق الخلق وباسط الرزق ومدبر الكون: **﴿هو الله الذي لا إلـه إلاَّ هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر﴾** [سورة الحشر: الآية ٢٣].

أما الحيوان فإن الإنسان يشترك معه بالغريزة والحركة أي الانتقال من مكان إلى آخر. يقول الله سبحانه وتعالى: **﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاَّ أمم أمثالكم﴾** [سورة الأنعام: الآية ٣٨].

وهذه حقيقة ثابتة في علم الأحياء تجدها في جماعة النمل وعالم الفيلة والغزلان والطيور والزواحف وغيرها: **﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾** [سورة الأنعام: الآية ٣٨].

إن هذه الحيوانات تسيِّرها غرائزها وتتحكم بها ولها قابلية التكيف مع الحياة، والإنسان من هذه الناحية يشارك الحيوانات غرائزها وقابليتها للتكيف.

أما الميزة التي امتاز بها الإنسان دون سائر المخلوقات من جماد ونبات وحيوان، وعلى أساسها سخر الله سبحانه وتعالى له كل ما في هذا الكون فهي ميزة العقل الذي ينبثق عنه الفكر المؤدي إلى الوعي، والوعي بدوره يؤدي إلى الاستقامة، حيث لا وجود لهذه الظواهر عند سائر الكائنات، بالإضافة إلى ميزة البيان التي خص الله بها الإنسان لكي يعبر بها عن مكنوناته وأفكاره وحركة عقله التي سيطر بموجبها على سائر المخلوقات مما جعله حراً في عملية الاختيار والتصرف. لذلك عندما عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال أبت أن تحملها خوفاً

وإشفاقاً منها: ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢].

والأمانة هنا هي المسؤولية والحرية، لذلك أصبح الإنسان مسؤولاً بموجب هذه الحرية عن كل حركة يقوم بها وكل كلمة يتفوه بها. وهذا ما تؤكده الآيات التالية: ﴿ما يلفظُ من قول إلاَّ لديه رقيب عتيد﴾ [سورة ق: الآية ١٨].

و: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [سورة المدثر: الآية ٣٨].

و: ﴿كل امرىءٍ بما كسب رهين﴾ [سورة الطور: الآية ٢١].

و: ﴿كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٣].

و: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٤].

شريعة القرآن أم شرائع البشر

لقد سبق القول إن المقصود من الحياة هي جملة السنن والقوانين التي تنظم حركة الإنسان أي الإنسان يجب أن يخضع لهذه القوانين حتى تنتظم حياته وتستقيم حركته. فما هي هذه القوانين التي ينبغي أن يخضع لها الإنسان في حركته؟ هل شريعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أم الشرائع التي وضعها الإنسان نفسه؟ ومما لا شك فيه ولا ريب أنه على الإنسان أن يعمل بقوانين رب العالمين، وليس بالقوانين البشرية، وذلك لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو خالق الإنسان وبالتالي هو أدرى بمصلحته وبما ينفعه ويضره.

لذلك علينا أن نتوجه إلى شريعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا إلى

قوانين ونظريات فرويد أو داروين أو كارل ماركس أو إنجلز أو برتراند راسل وغيرهم، إذ ماذا يعرف هؤلاء عما يصلح الإنسان وينفعه؟ إن القوانين التي يجب أن يخضع لها الإنسان هي قوانين رب العالمين لأنه هو الخالق وهو المدبر وهو الذي يحيي ويميت وإليه ترجع الأمور. ولعل الحوار الرائع الذي جرى بين نبي الله إبراهيم عليه السلام وبين النمرود ما يوضح حقيقة الخلق وبالتالي المسؤولية.

لقد ادّعى النمرود الربوبية وأنه هو الذي يحيي ويميت، فصفق له الناس طويلاً لأنهم غارقون في الجهل والظلام، في حين أن إبراهيم عليه السلام كان يعيش وسط هذا المجتمع الذي لا يدرك من أمر الألوهية الحقة شيئاً. لذلك عندما كان يعمل عند صانع الأصنام كان يجبره على بيعها، فكان يجر الصنم بحبل ثم يصيح ساخراً: أيها الناس من يشتري رباً لا يضر ولا ينفع ولا يعقل؟ كما أنه كان يسخر من عبدة الكواكب بقوله أمامهم وعلى مرأى منهم عن القمر بأنه هذا ربه وعن الشمس كذلك حتى يغيبا فيقول: إني لا أحب الآفلين؛ كل ذلك لكي يؤدبهم ويقول لهم: كيف تعبدون آلهة تظهر وتختفي؟ ومن هنا كان حكمهم عليه بالإحراق.

إذاً النمرود الذي ادعى أنه يحيي ويميت سأل إبراهيم قال: يا إبراهيم من ربك؟ **﴿قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت. قال أنا أحيي وأميت﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٥٨].

قال له إبراهيم: كيف؟ قال: إذا عفوت عن إنسان حكم عليه بالإعدام فأنا أحييه، وإذا أعدمته فأنا أميت. وبما أن القرآن يرفض الجدل العقيم ويرفض الزوايا الحادة في النقاش والجدل، فقد جاءه إبراهيم من حيث لا ينتظر: **﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٥٨].

إن ما فعله إبراهيم بسؤاله هذا، إنما أراد أن يربط بين الخلق وبين القوانين، أي أن من يخلق الكون هو الذي يضع القوانين والشرائع للناس والبلاد والعباد، أي أن الذي بيده حركة الكون هو الذي يجب أن تكون بيده حركة الحياة دون غيره من المخلوقات. فمن ليس له سلطان على الكون لا يملك أن يكون له سلطان على الناس.

إن وحدة الله ــ سبحانه وتعالى ــ تتراءى في وحدة الكون لأن الخالق واحد. ومن هنا كان قول أمير المؤمنين ــ عليه السلام ــ : «واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولكنه واحد أحد، فرد صمد...». إن وحدة الله ــ سبحانه ــ تظهر في مخلوقاته، فهل نظر الإنسان إلى الفقرات السبع في رقبة الإنسان؟ إنها نفسها سبع في عنق الزرافة والقنفذ والجمل والخروف وغيرها؛ فإذا كان الخالق واحداً فرداً صمداً، وجب على البشرية أن تعمل بشرائعه ــ سبحانه وتعالى ــ لا بشرائع غيره من الناس.

الأسلوب القرآني في الخطاب

إن القرآن الكريم الذي انتظمت فيه الشرائع والقوانين الإلٓهية تجد فيه أسلوباً رائعاً في حديثه عن الكون والحياة وفي خطابه للإنسان الذي يشكل جزءاً من هذا الكون. ففي مجال الرقة والعطف يختار العبارة التي تنبض بالرقة والعطف، وفي مجال العذاب والإنذار والترهيب تجد الألفاظ صاخبة هادرة بالقوة كأنما تقرع الأذن قرعاً وتضرب القلوب ضرباً مثل: الصاخة والآزفة والقارعة، وكأنه يريد أن يوقظ النائمين الغارقين في خمولهم المستسلمين لنزواتهم وانحرافهم. أما المتقون والمنعمون والمؤمنون فقد جاءت الألفاظ تدغدغ قلوبهم وتلامس آذانهم رقيقة عذبة

كأنما تهمس فيهم همساً: ﴿**على الأرائك متكئون**﴾ [سورة يس: الآية ٥٦].

﴿**وتتلقاهم الملائكة**﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٣].

﴿**سلام عليكم**﴾ [سورة الرعد: الآية ٤٦].

﴿**ادخلوها بسلام آمنين**﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٦].

وغيرها من الآيات التي تعبر عن موقف الأمن والرقة والرحمة.

وفي مجال الجدل والحجاج تجد القرآن الكريم لا يمارس أي لون من ألوان الضغط والإكراه: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦].

بل يتوجه إلى العقول يحاول أن يحركها وإلى الفطرة من أجل إيقاظها وإلى القلوب لكي يحرك فيها النبض والنور؛ يقول تبارك وتعالى: ﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون**﴾ [سورة الطور: الآية ٣٥].

أي من الذي خلقك، فقد مر عليك زمن لم تكن موجوداً ثم وجدت، فمن الذي أوجدك؟ هل أوجدك العدم؟ لا، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. هل خلقت من قبل أمك وأبيك؟ لا، لأنهما يموتان: ﴿**ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً**﴾ [سورة الفرقان: الآية ٣].

أم أن الطبيعة هي التي أوجدتك وخلقتك؟ لا، لأن الطبيعة مجموعة من الأنظمة والقوانين، والأنظمة لا بد لها من منظم، لا سيما أن أينشتاين يقول: الطبيعة شبكة من المعادلات الرياضية هي في غاية من الدقة والتعقيد، وهناك مهندس حكيم وعظيم وعليم سيّرها وأوجد فيها هذه المعادلات ونظمها، هو الله ــ سبحانه وتعالى ــ .

وبالرغم من ذلك ما زلت تجد من يقول لك: إن الطبيعة هي التي خلقتنا. وهل يعقل أن تخلق الطبيعة نفسها؟ إنها أشبه ما تكون بالكمبيوتر الذي تلقنه بعض المعلومات ثم تطلبها منه في وقت آخر بناء على نظام معين. فهل هو الذي أوجد هذا النظام أم هناك من اخترعه ونظمه؟ لذلك من يؤمن بأن هذا الكمبيوتر له صانع يجب أن يؤمن بأن للطبيعة خالقاً. والعكس صحيح أي من آمن واعتقد بأن الطبيعة لا خالق لها عليه أن يؤمن بأن الكمبيوتر قد أوجد نفسه بنفسه، وهذا محال واقعاً وعقلاً، وساعتئذٍ لا بد من الرجوع إلى ذاتٍ خلقت الكائنات ولم تسبق بعدم، وهذه الذات هي الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

القرآن والعلم

إن القرآن الكريم الذي يحيط بكل المسائل التي تتعلق بالكون والحياة والإنسان، لم يغفل الجانب العلمي لهذه الموجودات، علماً أن القرآن الكريم ليس كتاباً في الفيزياء أو الكيمياء أو الجغرافيا أو غيرها، بل هو كتاب هداية بالدرجة الأولى، ولكنه تعرض لبعض المسائل العلمية عن طريق الإشارة واللمحة والإجمال.

فهو يشير مثلاً إلى كروية الأرض وحركتها في بعض آياته حيث يقول: ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ [سورة النازعات: الآية ٣٠].

أي جعلها كالدحية أي البيضة، والكل أصبح يعلم أن الأرض في تكورها بيضاوية الشكل. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن عملية الدحي لا تكون في أرض منبسطة لأنه يلزم عن ذلك أن يكون لها أول وآخر أي بداية ونهاية، فلزم أن تكون عملية الدحي في أرض متكورة أطلقت في الفضاء، وإن بدا للناظر إليها أنها منبسطة ظاهرياً. كما أن هذه الدحية

المتكورة تدور بنا دورة كاملة حول نفسها خلال أربع وعشرين ساعة لكي يتعاقب عليها الليل والنهار؛ وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة بشكل رائع حيث قال: **﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾** [سورة الزمر: الآية ٥].

إن كلمة يكوّر الواردة في الآية الكريمة تشير إلى كروية الأرض بما لا يقبل الجدل؛ وهي لا يمكن أن تستقيم في مكانها إلاَّ إذا كان نصف الأرض مضاءً والنصف الآخر غارقاً في الظلام فينزلق الليل خلف النهار ويذوب النهار في الليل وهذا ما تشير إليه الآية التالية: **﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾** [سورة الأعراف: الآية ٥٤].

وقد لاحظ هذه الحركة التعاقبية بين الليل والنهار أحد روّاد الفضاء حين شاهد بأم عينه كيف يلاحق الليل النهار فيطلبه حثيثاً.

ومن الآيات العلمية التي يوردها القرآن الكريم على سبيل الإشارة لقومٍ يعلمون ويعقلون ويتفكرون، قوله تعالى: **﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾** [سورة يس: الآية ٣٩].

والعرجون هو فرع النخلة الذي يعوج ويبقى على النخل يابساً بعد أن نقطع عنه الشماريخ، فهو يابس لا حياة فيه ولا رطوبة ولا خضرة، ولعله أروع ما يشبّه القمر به، ذلك القمر الذي لا حياة فيه ولا ماء ولا أي أثر للحركة الحياتية.

وتتوالى الآيات القرآنية في هذا المجال، وإليك بعضها: **﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون﴾** [سورة يس: الآية ٤٠].

﴿والسماء ذات الحبك﴾ [سورة الذاريات: الآية ٧].

أي المسارات والطرق؛ ومن المفيد القول في هذا المجال إن القرآن الكريم لم ينل حقه من المسلمين دراية وعناية ودرساً، فهم مصرّون على سطحية القراءة بعيداً عن التعمّق والغوص على الدرّ الكامن في أعماقه: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

ومما يدعو إلى الأسف أن قراءة القرآن في مجتمعاتنا الإسلامية أصبحت ملازمة للمآتم وكأن القرآن وجد للأموات لا للأحياء. وإني لأرجو ألّا يفهم من كلامي أنني ضد قراءة القرآن في المآتم، بالعكس فإن ذلك فيه أجر عظيم وثواب عميم ينفع الميت والحي على حد سواء. ولكن ما أود قوله هو أن القرآن يجب أن يدخل في كل حياتنا، لا سيما في أفراحنا كحفلات الزفاف مثلاً؛ فمن قال إن حفلات الزفاف لا يصلح فيها إلّا الغناء والرقص والخلاعة؟ في حين أن الموتى يؤتى لهم بالحصري أو الشيخ الطبلاوي؟ إن القرآن يصرخ وينادي لكي نزيل من أمامه كل ألوان الحواجز حتى يتغلغل في كل حياتنا ومناسباتنا فيصلَ إلى قلوبنا وعقولنا ونفوسنا فينيرها ويبدد ظلامها الدامس، لا سيما أن القرآن أُنزل لكي يقود البشرية إلى شاطىء الأمان والسلام ويوفر للناس السعادة والرخاء، في حين أننا علقناه على الجدار أو زيّنا به مكتباتنا، وتلك مسؤولية كبرى نتحملها أمام الله ورسوله وأمام الحسين بن عليّ ــ عليهما السلام ــ .

الحسين (ع) والقرآن

ولسائل أن يسأل: لماذا نحن مسؤولون عن القرآن أمام أبي عبد الله الحسين ــ عليه السلام ــ ؟ ذلك أن الحسين كان يضع القرآن على رأسه الشريف يوم عاشوراء وهو يقول للناس: «أيها الناس هذا كتاب الله وسنّة جدي بيني وبينكم». وهو عندما قدم دماءه السخية كان ذلك من أجل

الحفـاظ على القرآن ومضـامينه ومبـادئه؛ فقـد كان يعلم ويـدرك أن القرآن الكريم يكرم الإنسان ويحترمـه ويحفظ حقوقـه، بل يُعلي من إنسـانيته إلى أبعد الحدود: **﴿من قتـل نفساً بغيـر نفس أو فساد في الأرض فكـأنما قتـل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾** [سورة المائدة: الآيـة ٣٢].

ذلـك أن الله ــ سبحـانـه وتعـالى ــ لم يخلق الإنسـان للعـذاب والحـرمان، بـل خلقه لكي يعيش في سعـادة وطمأنينـة. لذلـك من يتجاوز قانون الله ــ سبحانه ــ ومن يحـاول الاعتداء على إنسـانية الإنسـان فإن الله ــ سبحانه وتعالى ــ له بالمرصاد: **﴿تلك حدود الله فـلا تعتدوهـا ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك الظالمون﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٢٩].

والحدود ما هي إلَّا شريعة الله ــ عز وجل ــ. لذلك على المسلمين أن يقيموا حكم القرآن والشريعة الإسلامية. وبذلك نكون قد حققنا أهداف الحسين ــ عليـه السـلام ــ، فقـد استشهـد من أجـل هـذه المبـادىء والأهداف، بعد أن رأى حدود الله يُعتدى عليها ورأى الإنسان يذبح وتهتـك كرامته وتُهان إنسانيته من قبل يزيد الفاجر.

يزيد يلغي حكم القرآن

إن يزيد بن معاوية قد ألغى القوانين والشـرائع الإسـلامية وحـطمها، وتجرأ على أقدس المقدسات عندما ضرب مكة المكـرمة بـالمنجنيق ودكّها حجراً فحجراً وسفك الدماء البريئة وهتك أعراض الناس في أقـدس مدينـة في العـالم الإسلامي وهي المـدينة المنـورة، مدينـة رسـول الله ــ صلَّى الله عليـه وآله وسلَّم ــ، وذلـك في وقعة الحـرّة؛ فهل كـان بمقـدور الحسين ــ عليه السلام ــ أن يقف مكتوف الأيدي أمام هذا الوضع الذي لا يصدقـه

عقل مسلم آمن بالله ورسوله وشرائعه.

إن يزيد هذا هو هاتك الأعراض وهو صاحب وقعة الحرّة المشهورة وهو الذي أباح لجيشه مدينة رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ، وهدم بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً. فهل هذا هو الإسلام الذي جاء به محمد ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ، يلهو به فاجر سكير يحمل بيده كأس الخمرة وبالأخرى سوطاً يلهب به أجساد الأبرياء وفي قلبه حقد أسود دفين يصبه على شرائع الله وعلى خلقه وذلك في قوله:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسلْ
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تشلْ
لستُ من خندف إن لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فعلْ
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزلْ

* * *

وقد عكس هذه الصورة المزرية ليزيد الشاعر الكبير بولس سلامة الذي نجد في ديوانه قصائد رائعة في أهل البيت لا سيما ملحمة الغدير في علي بن أبي طالب وقصائده في الحسين ــ عليهما السلام ــ. هذا الشاعر عرف الحسين حق معرفته وعرف يزيد أيضاً حق معرفته في حين أن بعض المسلمين من الكتبة المرتزقة والمأجورين ما زالوا يحاولون أن يلَمِّعُوا صورة يزيد السوداء، ولكن أنَّى لهم ذلك، لأن التاريخ أعطى حكمه الصارم الذي لا يرحم فرفع من يجب أن يرفع وأسقط من يجب أن يسقط. لذلك لن تجد يزيد إلاَّ في قاذورة التاريخ يرجمه الراجمون ويلعنه اللاعنون إلى يوم الدين. يقول الشاعر بولس سلامة:

رافعَ الصّوتِ داعياً للفلاحِ	أخفضِ الصوتَ في أذانِ الصباحِ

وتـرفّقْ بصـاحب العـرش مشغو لاً عـن الله بـالقـوام المـلاحِ
ألـف «الله أكبـر» لا تـسـاوي بيـن كـفَّـيْ يـزيـدَ نَـهْـلَةَ راحِ
تتلظّى في الكـأسِ شعلة خـمـرٍ مثـل طيّ اللهيب في المصبـاحِ
عنستْ في الـدنـان بكـراً فلم تُـدَ نَّسْ بـلـثـمٍ ولا بـمـاءٍ قـراحِ

لمن يريد أن يعتبر

إن التـاريخ قـد أعطى حكمـه، وعندمـا يحكم التـاريـخ فليس لأيـة محكمة أن تنقض حكمه، مهما بلغ شأوها ومهما علت درجتها؛ فأين يـزيد وأين الأمـويون جميعـاً، بل وأين العبـاسيون؟ لقـد حكموا جميعهم عشـرة أجيال ومضوا دون أن يبقى لهم أي أثر باستثناء سوء الأحدوثة وقبيح الخبر؛ بل وأين هارون الـرشيد وقصـر الخلد ودار الرقيق على ضفـاف دجلة حيث كانت تعج بعشرة آلاف من الغلمان والخدم وقد انتشر في أرجائهـا وغرفهـا ومقاصيرها الراقصات والمغنون والمغنيات وسيدهم، غيـر الرشيـد، يشرب الخمرة وإبراهيم الموصلي أبو إسحاق يغني له:

ألا عـلّلانـي قـبـل أن نـتـفـرقـا وهاتِ اسقني صرفاً شراباً مُروّقـا
فقد كاد ضوء الصبح أن يفضح الدّجى وكـاد قميص الليـل أن يتمـزّقـا

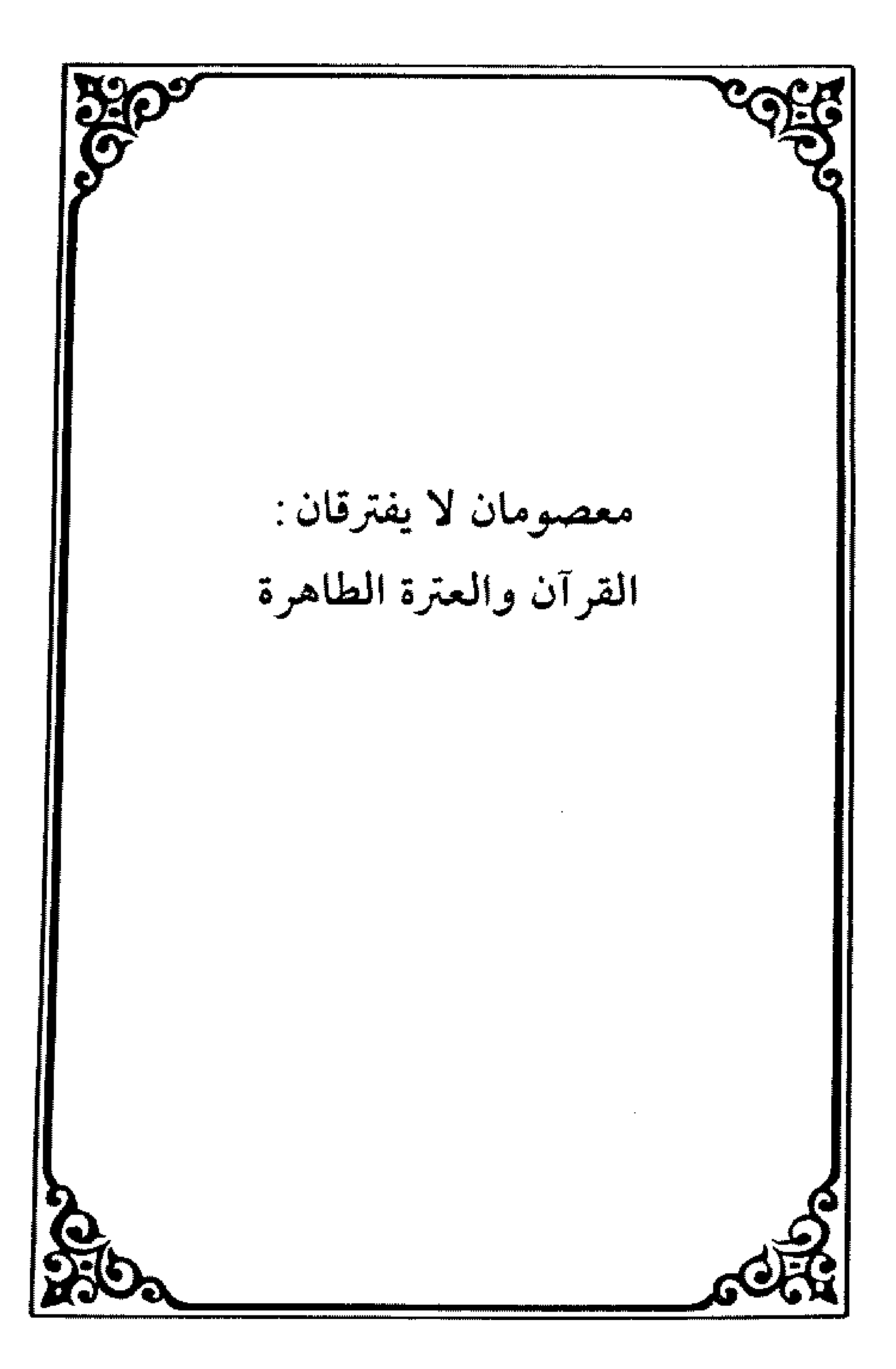
كـان يغني أبو إسحـاق لهارون في حين أن الإمـام مـوسى بن جعفـر ــ عليهمـا السلام ــ في كـوخ خرب في الكـرخ يعـاني وطـأة السجن وهـو يصلي ويدعو الله ــ سبحانه وتعالى ــ .

ومرت الأيام وتعاقبت الأجيال وعبرت القرون، وإذا بالكوخ الكـرخي يستحيل قبة سامقة تناطح السحاب علوّاً وسموّاً وارتفاعاً، والـذهب الإبريـز يستجـد على أعتاب أميـر المؤمنين وأعتـاب مـوسى الكـاظم وأعتـاب أبـي عبـد الله الحسين ــ عليهم السلام ــ ، بـل وعلى أعتـاب طفلة صغيـرة في

الشام هي رقيّة.... فتبارك الله ما أعظمه... فهو يذل من يشاء ويكرم من يشاء... يهب الملك من يشاء ويردي في الهوان من يشاء... بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

﴿وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ [سورة القصص: الآية ٨٣].

• • •



معصومان لا يفترقان :
القرآن والعترة الطاهرة

معصومان لا يفترقان:
القرآن والعترة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿**إن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعو شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣].

منابع الإسلام

إن المنابع التي نستقي منها الإسلام وننهل منها الفكر الإسلامي الصافي تتحدد بمصدرين هما: القرآن الكريم وأهل البيت عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام. والذي حدد هذين الموردين هو رسول الله بنفسه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّمَ ـ. وقد فعل ذلك في مواطن كثيرة، وهي أكثر من أن تعد وتحصى لا سيما في حديث الثقلين الذي كاد أن يكون أوضح من طالعة الشمس في رائعة النهار، وذلك لوفرة المصادر والجهات التي روته في عدة مواضع.

فقد أورده جمهور المسلمين كافة في صحيح البخاري وصحيح مسلم وفي مسند أحمد بن حنبل وسنن الترمذي وابن ماجه وسائر الكتب الأصولية والفقهية والتاريخية التي يعتمدها المسلمون كافة، حيث أكدوا أن الرسول الأعظم قد حدد مصدري الإسلام بالقرآن وأهل البيت في هذا

الحديث القائل: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

ولا عبرة في قول من يقول ويروي «كتاب الله وسنتي». ذلك أنه عندما نقول «وسنتي» فأهل البيت يدخلون في السنة قطعاً، علماً أن رواة الحديث على هذا النحو قلة قليلة. أما الحديث المشهور فهو الذي أشرت إليه والذي يذكره البخاري في صحيحه بطرق عدة عن جابر بن عبد الله الأنصاري ـ رضوان الله عليه ـ، وعن كبار الصحابة، والمخلصين، أن الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ، قال: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا من بعدي أبداً. وإن اللطيف الخبير أنبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض».

التحدي القرآني

بعد هذه الإشارة السريعة إلى حديث الثقلين أعود إلى الآية المباركة التي بدأت بها البحث، حيث نلاحظ أن فيها تحدياً صريحاً لكل الناس ويشمل كل الأجيال، بأن يأتوا بسورة تماثل سور القرآن الكريم وذلك في قوله: **﴿وإن كنتم في ريب** (أي في شك) **مما نزلنا على عبدنا** (يلاحظ إطلاق لفظة العبد على رسول الله لأن العبودية أفضل من الرسالة، لأنه كان عبداً ثم أصبح رسولاً، كما تقول في الصلاة: أشهد أن محمداً عبده ورسوله فتقدمت العبودية على الرسالة) **فأتوا بسورة من مثله﴾**.

إنه تحدٍ صريح لكل الناس منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً حيث لم يستطع أحد أن يأتي بسورة بل بآية يمكن أن تماثل ما في القرآن الكريم بالرغم من محاولات الكثيرين. ذلك هو إعجاز القرآن المجيد لأنه ليس كلاماً بشرياً بل هو كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ خالق الكون ومدبر شؤونه، على أن التحدي ما يزال قائماً وسيبقى دون أن يقترب منه مقترب.

إن أي مؤلف يضع كتاباً سواء كان فيلسوفاً بمستوى سقراط أو عالماً فيزيائياً بمستوى أينشتاين أو عالماً إسلامياً مهما بلغ علمه، لا بد أن يتعرض كتابه للنقد من خلال سقطات أو هفوات يرتكبها أو من خلال أخطاء يكشف عنها الزمن فيما بعد؛ وهذا ما حدث لسقراط أبي الفلسفة اليونانية وأينشتاين في نظريته النسبية.

إلّا القرآن الكريم فهو حتى الآن، وسوف يبقى، لم يستطع أن يجد فيه الطاعنون ثغرة أو مغمزاً من قناته برغم وفرة المحاولات التي سقط أصحابها في النهاية يتمرغون بأوحال الأوهام والهوان، لأنهم ما استطاعوا أن يصمدوا أمام جبروت العلم القرآني الباقي والخالد على مرور الأحقاب والعصور.

يقول الله سبحانه: **﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾** [سورة الحجر: الآية ٢٢].

إنها حقيقة علمية قرآنية تتحدى العصور لأن الرياح كانت وما زالت تقوم بعملية التلقيح من شجرة إلى شجرة ومن أرض إلى أرض ومن فسيلة إلى فسيلة ومن سحابة سالبة ترميها في أحضان سحابة موجبة فيكون التلقيح الذي يتبعه برق ورعد ومطر: **﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾** [سورة الروم: الآية ٤٨].

ويقول ــ سبحانه وتعالى ــ : **﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾** [سورة يس: الآية ٣٨].

ولطالما قال الجغرافيون وأكدوا أن الشمس ثابتة في مكانها لا تتحرك بالرغم من تأكيد القرآن الكريم على تحركها. وأخيراً اهتدى العلم إلى حركة الشمس في هذا الفضاء الرحب.

كما يلاحظ أن القرآن الكريم قد أطلق لفظة السباحة على الكواكب لأنها موجودة في مدارات باردة: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ [سورة يس: الآية ٤٠].

بينما أطلق لفظة الجريان على حركة الشمس. ولعل ذلك ما يشير إلى الدقة القرآنية في كل كلمة من كلماته وفي كل عبارة من عباراته.

على أنه يجب أن نتنبه منذ البداية إلى أن القرآن الكريم ليس كتاباً في النظريات العلمية في مجالات الفيزياء والكيمياء والذرة والفضاء وغيرها، بل هو كتاب هداية للبشر وكتاب تربية لكل الأجيال، على الرغم من أنك تجد فيه إشارات علمية رائعة ودقيقة لأنه لم يغادر كبيرة أو صغيرة في الكون إلاَّ وأظهرها ولكن على سبيل الإشارة لا على سبيل التفصيل.

حتى في الأمور العبادية والطقوس تجد أن القرآن لم يعمد إلى التفصيل فيها. فالصلاة التي هي عمود الدين في الإسلام تراه يشير إليها من غير تفصيل في عدد ركعاتها تاركاً للرسول الأعظم هذه المهمة.

والغاية التي أردت الوصول إليها من خلال هذا البحث هو أن القرآن الكريم تكسرت على أقدامه كل النظريات العلمية. وإذا تراءى لك أن هناك تعارضاً بينه وبين بعض النظريات فاضرب بها عرض الحائط لأن الخطأ فيها وليس في القرآن الكريم، كما أنه لا داعي إلى حشر القرآن الكريم في هذه الزاوية الضيقة حيث تجد بعض الناس الذين يتابعون الاكتشافات العلمية في الغرب، وعند كل اكتشاف يبحث في القرآن الكريم عن آية تطابق هذا الاكتشاف. إنها ذيلية مرفوضة، فضلاً عن أن هذه النظريات المكتشفة يمكن أن تتعرض في المستقبل إلى هزات ونقد، وقد تسقط إلى الهاوية. فلماذا هذه الذيلية التي تجعل من القرآن ذيلاً

للعلم، مع أن العكس هو الذي يجب أن يكون. فاترك العلم يبحث عن القرآن ويلهث خلفه، لأن القرآن كما قلت كتاب هداية تشريعي تماماً كما أن الطبيعة كتاب هداية تكويني.

القرآن والعترة الطاهرة

إن هذا القرآن الذي جاء لهداية الإنسان، هو كتاب، معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لذلك عندما يقول الرسول الأعظم: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي» فهو يضع العترة الطاهرة على مستوى واحد مع القرآن الكريم. فإذا كان القرآن معصوماً يلزم عن ذلك أن تكون العترة الطاهرة معصومة أيضاً.

هذا من جهة ومن جهة أخرى يقول: «ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً» فجعل التمسك بالقرآن والعترة في آن معاً، وهذا التمسك بهما يمنع من الضلالة ويجعل الحياة كريمة سعيدة عزيزة. أي أن عدم التمسك بهما يؤدي، ليس فقط إلى الضلال، بل إلى الشقاء والذل. فإذا كان القرآن الكريم: **﴿يهدي للتي هي أقوم﴾** [سورة الإسراء: الآية ٩]. فإن العترة الطاهرة أيضاً تهدي للتي هي أقوم، لأنهما يخضعان للحكم نفسه.

يضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم نفسه لم يغفل عن الحديث صراحة عن عصمة أهل البيت. لأن الله ــ سبحانه ــ إذا كان قد أراد لأهل البيت أن يكونوا حملة القرآن فمن الطبيعي أن يضعهم في مستوى القرآن من العصمة ومن المنع من الضلال، وذلك في قوله ــ تعالى ــ: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾** [سورة الأحزاب: الآية ٣٣].

ويلاحظ في هذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿إنما يريد الله﴾ وهي إرادة تشريعية وتكوينية، وإذا أراد الله فلا راد لمشيئته وإرادته. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا أراد الله أن يذهب الرجس عن أهل البيت؟ والجواب: لكي يقوموا بتبليغ الرسالة السماوية فهم القادة إلى ذلك وهم الذين يطبقون القرآن الكريم على الناس في حركتهم الحياتية.

وإلى الذين يقولون: إن هذه الآية لا تدل على عصمة أهل البيت، أتوجه فأسأل: ما معنى كلمة «الرجس» الواردة في الآية الكريمة؟ إن الرجس يعني الخبائث بكل أنواعها. ومن الطبيعي القول: إن من يمارس الذنب ليس معصوماً، أما المعصوم فهو لا يمارس الذنب أبداً، فإذا كان الرجس من معانيه الذنب، باعتبار أنه أقوى من الذنب، وإذا كان الله سبحانه قد أذهب عنهم الرجس، فمعنى ذلك أنه عصمهم من ممارسة الذنب، وطهرهم تطهيراً. والنتيجة هي أن أهل البيت لا يذنبون، على الأقل بموجب هذه الآية، وبالتالي كانوا معصومين عن الخطأ وعن الذنب بأي لون من ألوانه.

آية التطهير ونساء النبيّ

هناك من يصرف الآية هذه إلى نساء النبي. وإلى من يقول بهذا القول نشير إلى أن في سياق النص القرآني الواضح والصريح ما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه. فلو كانت الآية تقصد نساء النبي لجاءت على السياق نفسه الذي وردت فيه الآيات السابقة واللاحقة عليها. من ذلك قوله: ﴿يا نساء النبي لستنَّ كأحد من النساء﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٢].

فقد وردت لفظة «لستن» بنون النسوة. وجاء بعد هذه الآية قوله: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٣].

كذلك بنون النسوة فيها. فلو كانت آية التطهير في نساء النبي لجاءت بنون النسوة أي ﴿ليذهب عنكن الرجس ويطهركن﴾ ولكن ذلك لم يحصل.

كما أن هناك دليلاً آخر على أن المقصود بالآية أهل البيت دون نساء النبي، فقد كانت أم سلمة موجودة عند نزول الآية، فقالت: يا رسول الله وأنا فيهم؟ فقال: لا.. ولكنك على خير. فأم سلمة على جلال قدرها وعلو منزلتها بين سائر نساء النبي لم تكن ممن شملتهم الآية.

يضاف إلى ذلك أن بعض نساء النبي قد ظهرت منهن مخالفة واضحة، نستطيع أن نتعرف إليها في سورة التحريم. فإليك القصة كاملة.

العسل المحرم

ورد في كتب التفسير كافة أن زينب بنت جحش قد جاءتها هدية، هي زق من العسل. وكان من عادة الرسول الأعظم إذا أراد الخروج، أن يمر على نسائه واحدة واحدة. وعندما مرّ بزينب بنت جحش أطعمته عسلاً. وقد علمت عائشة بذلك فداخلتها الغيرة من ذلك، لا سيما بعد أن أرسلت جاريتها تتنسّم لها الأخبار فعادت إليها بخبر العسل الذي قدمته زينب لرسول الله ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ.

عند ذلك، ذهبت عائشة إلى حفصة بنت عمر وأخبرتها بذلك ثم أشارت عليها إذا دخل عليها النبي أن تقول له: إني أشم منك رائحة اليعافير، وهو نوع من صمغ بعض الأشجار له رائحة كريهة. وعندما دخل على حفصة قالت له ذلك. وعندما وصل إلى غرفة عائشة مثلت الدور ببراعة فوضعت عباءتها على وجهها لتبدو وكأنها قد تأثرت كثيراً من هذه الرائحة، وقالت له: إني أشم منك رائحة اليعافير، فماذا أكلت؟ قال:

يا عائشة أنا لم آكل إلاَّ العسل. ثم حرَّمه على نفسه، عند ذلك نزل قوله ـ تعالى ـ : **﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾** [سورة التحريم: الآية ١].

وواضح من الآية أنها ليست حرمة تشريعية، باعتبار أن النبي قد حرم العسل على نفسه ابتغاء مرضاة أزواجه.

هذا من جهة ومن جهة أخرى في السورة نفسها قوله ـ تعالى ـ : **﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض﴾** [سورة التحريم: الآية ٣].

فما هو السر الذي أفشاه بعض أزواج النبي، وكيف يحق لهن أن يفشين سر رسول الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ؟ وتتابع الآية قولها: **﴿فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير﴾**.

أي أطلعني جبرائيل على أنك قد أفشيت السر الذي استودعتك إياه.

وأنا لا أدري بعد كل هذا كيف يمكن أن نصرف آية التطهير إلى نساء النبي وفيهنّ من تتآمر على الرسول وتتظاهر عليه بالاتفاق مع غيرها، وعندما يأتمنها الرسول على سره تبوح به وتفشيه. فهل مثل هؤلاء النسوة يمكن أن ينالهن بعض من آية التطهير؟ لا أظن أن عاقلاً بعد كل ذلك يمكن أن يزعم بأن آية التطهير قد نزلت في نساء النبي وقد لمس لمس اليد هذه المظاهرة النسائية الموجهة ضد حبيب الله ورسوله الذي أرسله لهداية الناس، حيث أن وقته لا يتسع لمثل هذه الألاعيب التي يندى لها الجبين. لأن وقته ينتظره ما هو أهم من ذلك وأخطر، إذ أن هناك دعوة إسلامية تحتاج منه الكثير ليفعله.

إن سورة التحريم لم تقتصر على ما أوردناه فقط بل تقول أيضاً:

﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير * عسى ربّه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيّبات وأبكاراً﴾ [سورة التحريم: الآيتان ٤ ـ ٥].

إن السياق في هاتين الآيتين واضح وصريح، إذ أن الكلام موجه إلى اثنتين من نساء النبي بدليل ألف الاثنين في قوله «تتوبا» و«قلوبكما» و«تظاهرا» فمن هما؟ إن كتب التفسير جميعاً قد أشارت إليهما على أنهما عائشة وحفصة.

وفي الآيتين أيضاً وردت دعوة إلى التوبة «إن تتوبا» والتوبة لا تكون إلّا بسبب ذنب ارتكب ومعصية مورست. فكيف يمكن أن تكون صاحبتا الذنب ممّن تشملهم آية التطهير التي تطهر من الرجس.

كما ورد فيهما قوله ـ تعالى ـ: **﴿فقد صغت قلوبكما﴾** أي مالت إلى الكفر بارتكاب المعصية. والتهديد في الآية واضح إذا لم يكفا عن التظاهر على النبي فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو مولاه أي ناصره وجبريل وصالح المؤمنين بالإضافة إلى الملائكة. ثم جاء تهديد آخر لهؤلاء النسوة، باعتبار أن هناك ثلاثاً من نساء النبي قد وقفن إلى جانب عائشة وحفصة في هذه المؤامرة، وكان التهديد بالطلاق وبأن الله ـ سبحانه ـ سوف يبدله خيراً منهن.

وإذا كان هناك من هنَّ خير منهنّ، فكيف يمكن أن نصرف آية التطهير إلى هؤلاء النسوة اللواتي يتهددهن رب العالمين في قرآنه الكريم،

وفي السورة نفسها التي وردت فيها آية التطهير؟ لذلك أتوجه إلى كل أولئك الذين يدسون في الكتب مزاعمهم بأن آية التطهير يراد بها نساء النبي، أتوجه إليهم أن يخافوا الله رب العالمين وأن يتّقوه حقّ تقاته لأن مثل هذه المزاعم يترتب عليها أمور خطيرة، نربأ بالإسلام أن يقرها، لأن الإسلام ليس دمية نلهو بها حسب أهوائنا وميولنا فإن الله ــ سبحانه ــ بصير بالعباد وشديد العقاب.

القرآن المعصوم لا يؤخذ إلاَّ من معصوم

وهكذا يتضح لنا بالحجة والبرهان القاطع أن آية التطهير ما كانت لتنزل إلاَّ في أهل البيت، وأنهم معصومون بلا إشكال. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا أراد الله ــ سبحانه وتعالى ــ العصمة لهم؟ إذ لا بد أن تكون هناك غاية من وراء هذه العصمة، وإلاَّ لما كان لهذه العصمة من معنى إذا انتفت الغاية وغاب الهدف.

ومما لا شك فيه ولا ريب أن الغاية من هذه العصمة التي تجلل أهل البيت هي تبليغ القرآن الكريم. فقد علمنا أن القرآن معصوم لأنه كلام رب العالمين، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فيلزم عن ذلك أن من يبلغ هذا القرآن المعصوم لا بد أن يكون معصوماً، أي على مستوى القرآن نفسه من العصمة. ذلك أن القرآن وحده لا يكفي ولا يمنع من الاختلاف، لذلك جاء فيه: ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٧].

فمن هم أهل الذكر الذين يجب على الناس أن يتوجهوا إليهم بالسؤال عن الذكر؟ عندما سئل الإمام الصادق ــ عليه السلام ــ: من هم أهل الذكر؟ أجاب: «نحن أهل الذكر لأن القرآن نزل في بيوتنا ونحن أعلم

بالقرآن من غيرنا».

ولو فرضنا أن أهل البيت ليسوا هم عدل القرآن وثقله، فمن نضع مكانهم مع القرآن؟ هل نضع بني أمية الذين عرفوا بالشراب والسكر والعربدة؟ أم نضع بني العباس الذين كان هارونهم يشرب الخمرة ويرقص بين الغواني، وكان سفاحاً جلّاداً غارقاً بدماء الأبرياء، وكان أمينُهم لا يستفيق من سكره أبداً، ويكفي أن متوكّلهم كانت لديه أربعة آلاف جارية فضلاً عن أنه حرث قبر الحسين حراثة كي يزيل أثره من الوجود، ولكن خسىء المتوكل وخسىء أمثاله من المتوكلين على الشيطان والخمرة؟ ودع عنك كل ما يقال عن العصر الذهبي أيام العباسيين لأنها نكتة سمجة لا تنطلي إلّا على أصحابها.

إنه عصر أسود ذلك العصر الذي كان فيه أبو إسحاق الموصلي يغني لهارون غير الرشيد قائلاً:

ألا عللاني قبل أن نتفرّقا
وهات اسقني صنفاً شراباً مرّوقا
فقد كاد ضوء الصبح أن يفضح الدجى
وكاد قميص الليل أن يتمزّقا

إذاً الإسلام لا يفهم والقرآن لا يؤخذ إلّا من أصحابه وأهله الذين لو دققت في أقوالهم وأفعالهم وما صدر عنهم لما وجدت حديثاً عنهم أو حقيقة علمية وضعوها أو أشاروا إليها تخالف العلم أو العقل، لأن كلام أهل البيت صافٍ وفي منتهى النقاء لأنه من رب العالمين.

باب مدينة العلم

وخير مثال نتحدث عنه في هذا المجال هو الإمام عليّ ـ سلام الله

عليه ـ. فهل هناك من هو أعلم بالإسلام والقرآن منه بعد رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ؟ إن أحاديث الرسول فيه ما زالت تتردد أصداؤها في كل مكان، وسمعها كل من يريد أن يسمع: «عليّ أقضاكم بعدي» و «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» ودع عنك ما رواه سمرة بن جندب «ومعاوية مفتاحها» لأنه قبض ثمنها من معاوية عشرة آلاف دينار. إنها مهازل وترّهات وأباطيل لا تبقى: ﴿**فأما الزبد فيذهب جُفَاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**﴾ [سورة الرعد: الآية ١٧].

كما أن عمر بن الخطاب كثيراً ما كان يردّد «لا يقضينّ أحد منكم وعليّ في المسجد» و «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن» و «لولا عليّ لهلك عمر» و «بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن» وغير ذلك كثير مما يضيق عنه المقام.

إن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ كان يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني» وما قالها أحد قبله ولا بعده. ويقول: «سلوني عن طرق السماوات فأنا أعلم بها من طرق الأرض» وأنا في الحقيقة ألفت النظر إلى قوله: «طرق السماوات» التي يحاول العلماء اليوم أن يغزوا الفضاء من أجلها، فقد كان أمير المؤمنين يعلمها من غير أن يصعد في سفينة فضائية إلى السماء. فقد تعلمها من رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ الذي عرج إلى أقاصي السموات السبع على ما هو أخطر من السفن الفضائية: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣].

لقد قال ـ سلام الله عليه ـ سلوني، ولكنهم لم يسألوه سامحهم الله، فلو سألوا لوجدوا عجباً. عذراً للقارىء الكريم، نسيت أنهم سألوه. فقد سأله أحدهم كم شعرة في رأسي وفي لحيتي؟؟!!! ويكفيك

أن تعلم أن السـائل هـو من العشرة المبشـرين بالجنـة!!! وأنا لا أدري أي عشـرة هؤلاء وأي جنة هـذه وكم عرضهـا وكم طولهـا. وأترك لـك أن تقـرأ التاريخ لكي تتعرف أن هذا الجهبذ الذي تفتحت قـريحته عن هـذا السؤال الخطير!!!

بقي أن تعـرف بماذا أجـابه سيـد الأوصياء. قـال له: لا أدري ولكن أخبرك بولـدك عمر بن سعـد الموجـود في بيتك والـذي سوف يقتـل ولدي الحسين.

ولا بـأس من أن أورد جـواب أميـر المؤمنين ـ سـلام الله عليـه ـ حرفياً. فقد سأله السائل وهو سعـد بن أبـي وقاص (لقـد ذكرت لـك اسمه لكي أغنيك عن البحث والتنقيب): أخبرني كم في رأسي ولحيتي من طاقة شعر؟

فقـال أمير المؤمنين ـ عليـه السـلام ـ: «والله لقـد حـدثني خليلي رسـول الله ـ صلّى الله عليه وآلـه وسلّم ـ بما سـألت عنـه، وأن على كـل طاقة شعر في رأسك ملكاً يلعنك، وعلى كل طاقة شعر في لحيتك شيطانـاً يستفـزك[1] وأن في بيتك سخـلاً[2] يقتـل ابن رسـول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ. . . .». وكان ابنه عمر في ذلك الوقت صبيّـاً صغيراً مـا يزال يحبو أي يزحف على يديه وبطنه.

ذلـك لتعرف أن البيت المنحـرف لا يلد إلاّ منحرفـاً والعائلة الـطيبـة لا تعطي غير الطيب، وهو أمر طبيعي لا غرابة فيه ولا عجب. ولو أردت أن أعدّ لك المنحرفين الذين أنتجوا منحرفين لـرأيت من أمرهم عجبـاً. ولكن

---

(١) استفزه: استخفّه واستدعاه.

(٢) السخل: ولد الشاة. والسخل من القوم ضعيفهم ورذيلهم.

دعك من ذلك لأنه ليس هو بيت القصيد وليس هو الذي إليه قصدنا.

إنه ــ سلام الله عليه ــ يقول لكميل بن زياد صاحب الدعاء المعروف الذي علمه إياه أمير المؤمنين، يقول له: «يا كميل إن هاهنا (أي في صدره) لعلماً جمّاً، لو أصبت له حملة». ويقول من على المنبر: «لو ثنيت لي الوسادة لأفتيت أهل الزبور بزبورهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم وأهل التوراة بتوراتهم وأهل القرآن بقرآنهم، ولقال كل منهم لقد أفتاكم علي بن أبي طالب».

هذا هو علي بن أبي طالب الذي حفظ التراث الإسلامي وصان الإسلام والقرآن بعلمه، وقارع الأبطال، وصرع الشجعان، وذبّ عن الإسلام بسيفه ذي الفقار. إنه الشخصية الثانية بعد رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ، ودع عنك ما يقوله المرجفون والمغرضون لأن الشمس المشرقة لا يستطيع أن ينكرها منكر مهما بلغ من عناده وانحرافه، ومهما وسوس له الشيطان وباض وفرخ في قلبه. يقول المتنبي:

وتركت مدحي للوصيّ تعمّداً — إذ كان نوراً مستطيلاً شاملا
وإذا استطال الشيء قام بنفسه — وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

* * *

جامعة الصادق العلمية

إن مدرسة أهل البيت ما زالت تتكامل وتتنامى حتى وصلت إلى أيام الإمام الصادق ــ عليه السلام ــ. فإذا بالعلم ينطلق ويمتد من جامعته العلمية كما يصدر النور من الشمس الساطعة لكي يغمر كل مكان. فتقاطر الطلاب والتلاميذ من كل الأرجاء إلى هذه الجامعة ينهلون من نميرها ويبردون الغلّة ببارد زلالها، فلم يبق فقيه أو عالم من فقهاء الإسلام وعلمائه

إلاّ وغرف من مدّها الطامي.

ويكفي أن تعلم أن فقهاء المذاهب الأربعة قد تتلمذوا على يدي الصادق في هذه الجامعة، اثنان منهم بالمباشرة واثنان بالواسطة. فقد كان في ذلك الوقت أربعة آلاف عالم وكل واحد منهم يقول «حدثني جعفر بن محمد»، في كل العلوم والاختصاصات حتى العلمية منها.

ومن تلاميذه المشهورين جابر بن حيان الكيميائي الشهير الذي قامت الكيمياء في أوروبا أثناء نهضتها على علمه ونظرياته. يُروى أن يحيى بن خالد البرمكي قد طلبه إلى قصره في بغداد لكي يداوي ابنته حسّانة التي كانت طريحة الفراش لحولين كاملين. وبعد أن أجرى الفحص وجد أنها بحاجة إلى مادة الكالسيوم التي تحتاجها عظامها. وعندما زودها بهذه المادة شفيت تماماً. ويروى أنه قد تزوج منها وسار بها إلى الشام.

وقد قرأت في كتاب لأحد العلماء الغربيين قوله عن جابر: «إنه مكتشف الذرة وأسرارها». إنه واحد من تلامذة مدرسة أهل البيت المتمثلة بجامعة الصادق العلمية.

أهل العدالة وأعداؤها

إن العدالة التي ينشدها الناس لن تجدها إلاّ عند أهل البيت، حيث تبدو لك العدالة الإسلامية بأحلى مذاقها وأبهى صورها. وقطعاً لن تجدها عند يزيد بن معاوية أو عند أبيه. ولن تجدها عند الحجاج الذي كان لا يجد لذة إلاّ إذا مر على سجنائه يسمع أنينهم وهم يتعرضون لأشد أنواع القهر والتعذيب. ولا ذنب لهم إلاّ أنهم يخالفونه الرأي ويصلون ويصومون ويؤمنون بالله العظيم ورسوله الكريم ووصيه الأمين.

فهل يمكن لهذا الطاغية أن يطبق القرآن، أو يطبقه أمير المؤمنين

ـ عليه السلام ـ الذي يقول: «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت» والذي كان يأكل خبز الشعير قائلاً: «لعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص» أي خبز الشعير.

ويُروى أن أحد الفقراء كان يأكل على مائدة الإمام الحسن ـ عليه السلام ـ فرآه يأخذ من الطعام بعضه ويضعه في إناء. فسأله الإمام الحسن عن سر تصرفه؟ فأجابه: عندما كنت في طريقي إليكم شاهدت شيخاً بيده المسحاة، يعمل تحت حرارة الشمس، وعندما حان وقت طعامه رأيته يخرج من جيبه قطعة من خبز الشعير اليابس. فأردت أن آخذ له بعض هذا الطعام. فقال له: يا هذا أتعرف من هو؟ قال: لا. قال: هذا أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

هؤلاء هم أهل القرآن، لا معاوية الذي قال عنه أحد المستشرقين: لو كان عندنا معاوية بن أبي سفيان لنصبنا له تماثيل من ذهب. وعندما سئل: لماذا؟ أجاب: لأن معاوية شوه الإسلام. وهذه حقيقة لا ريب فيها لأن بني أمية أخروا عجلة الإسلام وكانوا سبباً في الفتنة التي مزقت وحدة المسلمين، تماماً كما مزق الوليد بن يزيد القرآن الكريم بكل كفره وصفاقته ووقاحته.

وإنني لأجزم لو أن الإسلام ترك لأصحابه أهل البيت وعمل الناس بموجبه لكان العالم بأجمعه تحت لواء الإسلام. لأن الإسلام الذي قدم للناس قدمه أناس فجرة سفاكون جلادون لا يخافون الله ولا يرعون للإسلام حرمة.

سفينة النجاة

بالإضافة إلى آية التطهير وإلى حديث الثقلين، تجد أن الرسول

الأعظم قد مثّل أهل البيت بسفينة نوح، وهو حديث روته كتب الشيعة والسنة: «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهلك».

ونحن نلاحظ من خلال هذا التمثيل ومن خلال ما ورد في القرآن عن قصة السفينة، أن الذين تخلفوا عنها هم أناس كفار بدليل قوله ــ تعالى ــ على لسان نوح ــ عليه السلام ــ مخاطباً ابنه: **﴿يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء. قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾** [سورة هود: الآيتان ٤٢ ــ ٤٣].

وبالرغم من أنه ولده فإنه لم ينج من الغرق. وكذلك تجد أن أبا لهب بالرغم عن أنه عم الرسول فقد تحدد مصيره إلى جهنم، وذلك في قوله ــ تعالى ــ: **﴿تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد﴾** [سورة المسد: الآيات ١ ــ ٥].

لذلك تجد أن القرابة الوحيدة التي تقرب من الله ــ سبحانه وتعالى ــ هي القرآن وأهل البيت. فإذا أردنا الخلاص والنجاة فلا بد لنا من العودة إلى القرآن الكريم وإلى عدل أهل البيت لأنهم هم الصادقون في قوله ــ تعالى ــ: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾** [سورة التوبة: الآية ١١٩].

في حين أنه علينا أن نبتعد عن الظالمين لئلا يكون مصيرنا إلى النار، وذلك قوله ــ تعالى ــ: **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾** [سورة هود: الآية ١١٣].

بعد هذه الجولة مع أهل البيت نلتفت إلى نقطة الدائرة فيهم، وهو أبو عبد الله الحسين ـ سلام الله عليه وعليهم أجمعين ـ ، وذلك لأنه قتيل العبرة والدموع. يقول أحد القساوسة المسيحيين: «لو كان لنا مثل الإمام الحسين لنصبنا له في كل شبر علماً باسمه وجمعنا الناس حوله لكنكم معاشر المسلمين لديكم أكثر من شمعة ولا تستطيعون إضاءتها». ويقول الشيخ محمد عبده شارح النهج: «لولا الحسين لما بقي للإسلام من أثر». ويقول غاندي محرر الهند: «لقد تعلمت من الحسين كيف أصبر وكيف أنتصر».

كل هؤلاء يقدمون الاعتراف بثورة الحسين وأهميته، ومع ذلك تجد من المسلمين من يقول لك: لماذا البكاء على الحسين، فهو مظهر من مظاهر التأخر، وتجده يستنكر ذلك كل الاستنكار. وكأني بهذا «المتحضر» يعتبر أن الرقص والغناء في الملاهي والفنادق هو دليل على التقدم والرقي والتحضر في حين أن البكاء على الحسين هو مظهر من مظاهر التخلف.

ولهذا «المتحضر» أقول: هل البكاء على الحسين هو علة تأخرنا وتخلفنا؟ هل البكاء على الحسين هو الذي جعل إسرائيل تعربد في سمائنا وتقصف جنوب لبنان وليس من يردعها؟ هل نحن هيأنا كل شيء من أسباب القوة والمنعة فوقفنا في وجه أعدائنا الذين لا يحصون عدداً ثم كان البكاء على الحسين هو السدّ بيننا وبين ذلك؟ هل نحن نهضنا من كبوتنا وأخذنا بكل أسباب التقدم الحقيقي والحضارة الحقيقية ثم جاء البكاء على الحسين لكي يحول بيننا وبين هذه المسيرة؟

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هل السيطرة الغربية علينا سببها أن

الغرب لا يبكي على الحسين؟ وهل السيطرة الإسرائيلية والعربدة الصهيونية قائمة لأن اليهود لا يبكون على الحسين؟ وأنت تعلم أن اليهود يبكون لدى حائط المبكى ومع ذلك فإن البكاء لم يحل بينهم وبين أن يتجاوزونا بأشواط ويتحالفوا مع الغرب لضرب حريتنا واحتلال أرضنا.

إن البكاء على الحسين لم يكن في يوم من الأيام هو علة تخلفنا. والعكس هو الصحيح لأن الدمعة على الحسين تحرق عروش الظالمين. وهل نسيت أيها المسلم «المتحضر» أن الرسول الأعظم قد بكى يوم مولد الحسين، وأخذ من تربة كربلاء بيده وأعطاها لأم سلمة قائلاً لها: عندما ترين هذه التربة تفور دماً عبيطاً فاعلمي أن ولدي الحسين قد قتل؟

فهل كان بكاء رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ علة تأخر، وهل كان بكاء جبرائيل وملائكة السماء، وبكاء السجاد وسائر أئمة الهدى ومصابيح الدجى علة تأخر؟ إن الدموع عندما تنسكب حزناً على مأساة الحسين لا يفقهها إلاّ من يذرفها لأنه يعلم كل العلم أنها تفجر فيه طاقات من القوة لا عهد له بها.

يجب أن تعلم أيها المسلم «المتحضر» الذي أعمت بصيرتك حضارة الغرب الزائفة وطمس على عقلك بهرجها، يجب أن تعلم أنه لن يكون لنا مكان في هذا العالم إلاّ إذا أخذنا سبيل أهل البيت فهم رمز التقدم والحضارة والفكر. ولكن أنّى لك أن تفهم ذلك وتدركه إذا لم تنزع غشاوة الغرب عن بصيرتك وبصرك؟

معاناة العقيلة زينب

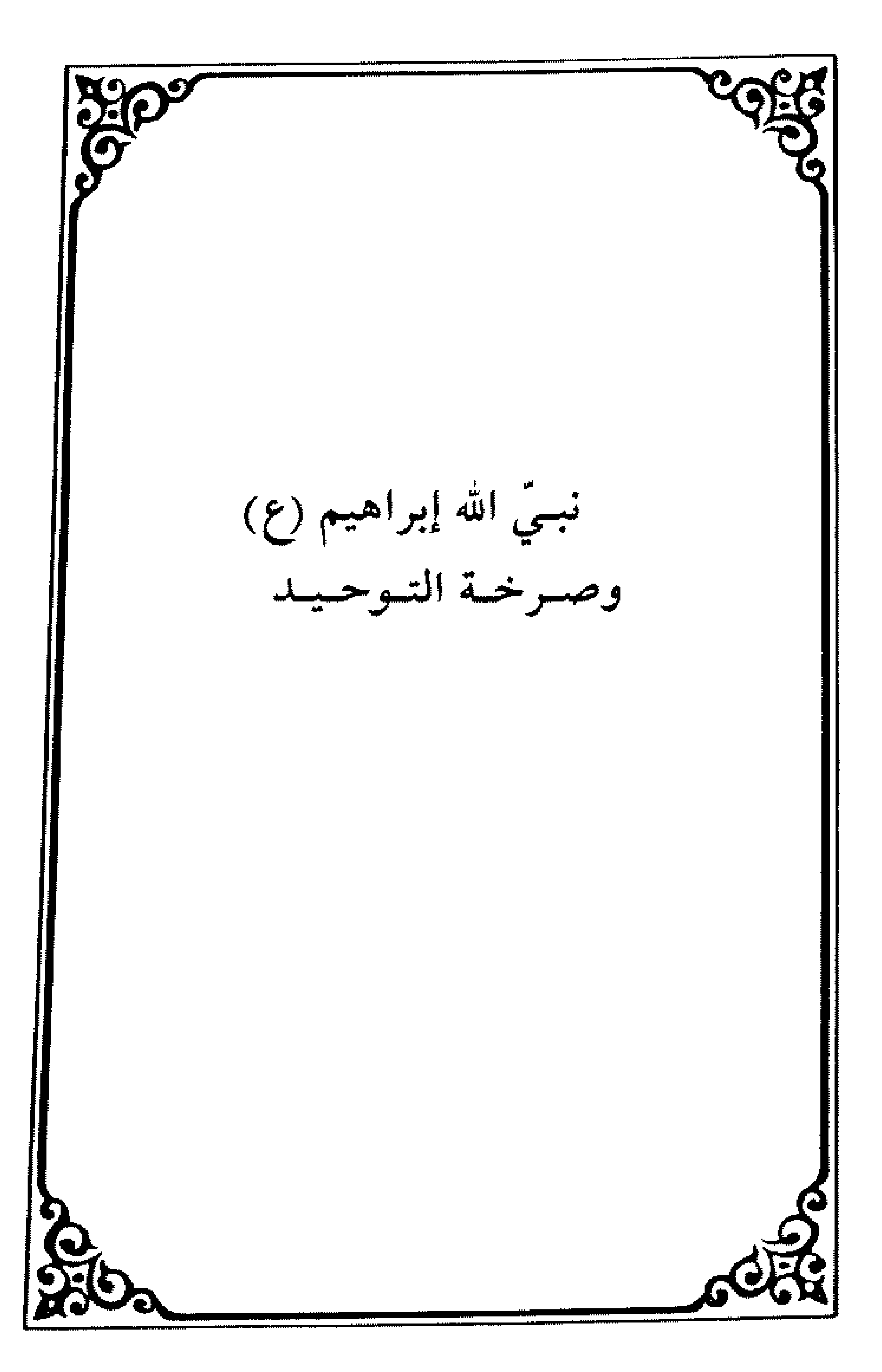
إن الكلام على الحسين لا يكتمل إلاّ بذكر العقيلة زينب ـ سلام الله عليها ـ . فقد عانت كل المعاناة وتحملت ما تعجز عن حمله الجبال،

ولعمري فقد ترك لها الحسين حملاً ثقيلاً.. ثقيلاً. وقد نهضت له بين الدموع والأشلاء واليتامى والسبايا.. واستطاعت أن تجتاز درب الآلام ببطولة لا نظير لها وهمة لا توازيها همة.

فقد تجلى ذلك في كثير من المواقف الرائعة. لأنها بالرغم من فداحة الخسارة التي لا تعوض، وبالرغم من المأساة التي لا مثيل لها في التاريخ كله، وبالرغم من كثرة اليتامى، وبالرغم من الجوع والعطش والسفر الطويل، بالرغم من كل ذلك استطاعت أن تقف بوجه عبيد الله بن زياد وقفة لا تُنسى، وخطبت بأهل الكوفة وخطبت في مجلس يزيد خطبة ما زال دويها يتردد في آذان الزمان، إلى غير ذلك من المواقف البطولية الرائعة.

لقد عانت العقيلة زينب مرتين: مرّة عندما تحملت معاناة الحسين فتقطر قلبها دماءً لما جرى له، ومرّة ما بعد المأساة فتضاعفت آلامها وأوجاعها. ومع ذلك فقد استطاعت أن تعود بموكب السبايا إلى مدينة جدها المصطفى وأن تقوم على تربية الأيتام وأن تحافظ على البقية الباقية من حلقة الإمامة المتمثلة في الإمام السجاد الذي سوف يكمل الرسالة التي بدأها الرسول الأكرم والتي استشهد من أجلها سيد الشهداء أبو عبد الله الحسين ـ سلام الله عليه ـ.

● ● ●



نبـيّ الله إبراهيم (ع)
وصـرخـة التـوحـيـد

نبيّ الله إبراهيم (ع)
وصرخة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قومي إني بريء مما تشركون﴾ [سورة الأنعام: الآيات ٧٥ ـ ٧٨].

تمهيد

إن القرآن الكريم عندما يعرض علينا قصص الأنبياء فهو لا يفعل ذلك من أجل التسلية أو مجرد رواية الحكايات، بل من أجل وضع مناهج تربوية وتعليمية لأن الذي قد يبقى ضائعاً وحائراً لا يدري إلى أين يتجه من دون هذه المناهج. والآيات التي بين أيدينا هي مطلع قصة نبيّ من الأنبياء، هو إبراهيم ـ عليه السلام ـ أبو الأنبياء، بل أبو المسلمين لأن القرآن الكريم يصرِّح بأنه هو الذي سماهم بالمسلمين، حيث كان لهم أسوة حسنة بهذا النبي العظيم.

إن الآيات في ظاهرها ترينا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يرى كوكب

الزهرة ليلاً فيقول هذا ربـي ، ثم يرى القمر بازغاً فيقول هـذا ربـي ثم يرى الشمس بازغة فيقول هذا ربـي لأنها أكبر؛ على أن الأمر ليس بهذه البساطة الظاهرية، ذلك أن إبراهيم كان يعيش في مجتمع غارق في الكفـر والشرك والفساد والظلام الدامس حيث القلوب خاوية من أي نور تحت سلطة حاكم ظـالم هـو النمـرود. وقـد أراد إبـراهيم أن يـوجـه هـذا المجتمـع إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ . فكيف فعل ذلك؟

وقبـل الإجابـة على هذا السؤال، أحب أن أشيـر إلى أن الأنبيـاء في دورهم الـرسالي قسمـان: قسم يبدأ في حـركته التبليغيـة من القمة أي من السلطان، وقسم يبدأ من القاعدة أي من الناس المحكومين؛ فالنبـي موسى مثـلاً بدأ من القمـة حيث جـاء الأمـر الإلّهي أن: «**اذهب إلى فـرعـون إنـه طغى**» [سورة طه: الآية ٢٤].

في حين أن غيره بدأ من القاعدة: «**قال يا قوم اعبدوا الله مـا لكم من إلّه غيره**» [سورة الأعراف: الآية ٥٩].

أما إبراهيم فقد بدأ رسـالته التبليغيـة من القمة والقـاعدة في آن معـاً حيث أثار مجتمعه من جهة وواجه الحاكم الظالم وهزَّه من جهة أخرى.

إن النبـي إبـراهيم «**نظر نـظرة في النجوم * فقـال إني سقيم**» [سورة الصافات: الآيتان ٨٨ ــ ٨٩].

على أن السقم الـذي يشير إليـه إبراهيم ليس مـرضاً مادياً بـالمعنى الذي يفهمه الناس، بل هو حزن ناتج عن الـوضع المتـردي الذي آل إليـه الناس في مجتمعه الذي يفتقر إلى الوعي حيث تجد الناس يعبدون الأصنام من الحجارة أو الخشب، أو يعبدون الكواكب كالشمس والقمر والزهرة. إن مثل هذا الوضع هو الذي أدخل الحزن إلى نفس إبـراهيم فعبَّر عن الحـزن بالسقم.

وهكذا نجد أن مسألة التوحيد التي افتقدها إبراهيم في المجتمع هي التي أثارته وأفزعته فأسقمته؛ ذلك أن الشرك بالله أمر خطير وواد سحيق يتردى فيه الناس فيهلكون: «**ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق**» [سورة الحج: الآية ٣١].

في حين أن التوحيد هو الذي يؤكد إنسانية الإنسان ويحترمها مما يؤدي إلى عزته وحريته وتخلّصه من الرق، لا سيما إذا توجه إلى الواحد الأحد الفرد الصمد.

إني لأعجب كيف يكفر الإنسان، لا سيما في هذا العصر من العلم والنور، وهو يرى ويتأمل هذه المليارات من النجوم والكواكب التي تمتد أمام بصره في هذا الفضاء الواسع بلا حدود. على أن العلم الحديث قد اكتشف في هذا الكون مئات الألوف من المليارات من المجرات والمجمعات الكوكبية. كيف يكفر الإنسان وأمامه هذا الكون المعجز حيث تجد أن كل شيء فيه، من الذرة إلى المجرة ومن الخلية إلى أكبر المخلوقات والكائنات، يناديه ويصرخ فيه ليلاً ونهاراً بوحدانية الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له على الإطلاق.

كيف يكون لرب العالمين شريك ونحن ندرك كل الإدراك أن النقيضين لا يجتمعان في وقت واحد أو ذلك من المستحيلات. إذ كيف يمكن أن يكون الشيء متحركاً وساكناً معاً وكيف يكون اللبن أبيض وأسود في الوقت نفسه. فلو قلنا أن لله شريكاً معنى ذلك أننا جعلنا له نقيضاً. ولو حصل مثل ذلك لكان فيه خراب الكون ولذهب كل إلّه بما خلق، ولحاول أحدهما أن يتعالى على الآخر. يقول أمير المؤمنين ــ سلام الله

عليه ــ : «واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولكنه إلَه واحد أحد فرد صمد» ويقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿**لو كان فيهما آلهة إلاَّ الله لفسدتا**﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢].

فهذا يريد للشمس أن تشرق من المشرق وذاك يريدها أن تأتي من الجهة المعاكسة، ويستفيق الناس على شمسين؛ وهذا يريد للعينين أن تكونا في الوجه وذاك يريدها أن تكونا في مؤخرة الرأس.. وهكذا مما يؤدي إلى خراب الكون. ولكن الواقع يؤكد أن وحدة الخالق تتجلى في وحدة الخلق الذي فُصِّل من قماشة واحدة وكتب بقلم واحد ومداد واحد وخط واحد.

الله نور السموات والأرض

يقول الله ــ سبحانه وتعالى ــ : ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ [سورة النور: الآية ٣٥].

أي أن كل المخلوقات والكائنات قد استمدَّت النور من الله ــ سبحانه وتعالى ــ الحي القيوم المدبِّر لكل الأمور، لا سيما أن الرسول ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يوضح هذه المسألة عندما يؤكد أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد خلق خلقه في الأساس في ظلمة؛ فالسماء مثلاً يؤكد العلم الحديث أنها ليس فيها نور. والقرآن الكريم يؤكد ذلك أيضاً: ﴿**ثم استوى إلى السماء وهي دخان**﴾ [سورة فصلت: الآية ١١].

إن الإنسان، بمجرد أن يخرج من الغلاف الجوي، يغرق في ظلام. ذلك أن النهار الذي يأتينا بالنور من الشمس إنما يكون بواسطة الغلاف الجوي الذي تحدث انعكاسات الضوء بواسطته. أما إذا خرج من الغلاف

الجـوي فهو يـرى الشمس كتلة ملتهبـة لا تعـطيـه أي نـور. يقـول القـرآن الكريم: ﴿**وأغطش ليلها وأخرج ضحاها**﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٩].

أي جعـل ليلهـا شـديـد الـظلام، ويقـول: ﴿**الحمـد لله الـذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور**﴾.

فجعل الظلمات مقابل السماء والنور مقابل الأرض التي تأخذ نورهـا من الشمس عبـر الغلاف الجـوي. وكـذلـك القمـر فهـو يستمـد نـوره من الشمس التي تنير وجهه المقابل لها بينما وجهه الآخر غارق في ظلام أبدي لأنـه لا يرى الشمس أبـداً؛ وإذا كانت السمـاء مظلمـة فالبحـار أيضاً كلهـا ظلام، يقول القرآن الكريم: ﴿**أو كـظلمات في بحـر لجّيّ يغشاه مـوج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**﴾ [سورة النور: الآية ٤٠].

ويقول ــ تعالى ــ في قصة نبـي الله يونس ــ عليـه السلام ــ: ﴿**وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنـادى في الظلمـات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٧].

حيث تراكمت عليه ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت.

الطفل كذلك: ﴿**يخلقكم في بـطون أمهاتكم خلقـاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث**﴾ [سورة الزمر: الآية ٦].

هي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. وتجـدر الإشارة هنـا أن الطفل الجنين يقبع في بطن أمه في حالـة من السجود فتبـارك الله خالق الخلق لا إله إلا هو، على كل شيء قدير.

وهكذا تجد أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ هو نـور السماوات والأرض، وهو الخالق الذي أبدع الكائنات، فتعالى عما يصفـون. فكأنهم لم ينـظروا

إلى خلقه وإبداعه حتى أبسط الظواهر التي يمرون بها مر الكرام. فلينظر الإنسان إلى البيضة التي استدل بها الإمام جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ على وجود الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ؛ هذه البيضة التي لم يجعلها الله ـ سبحانه ـ لا أسطوانية ولا مكعبة، بل جعلها بيضاوية لكي يكون فيها مناعة ضد الكسر وجعل الجنين في داخلها يقبع مدة واحد وعشرين يوماً يتغذى بالصفار ويتحرك وينزلق بالبياض ويتنفس بالهواء الذي يتوفر آلياً داخل البيضة، يحميه من الخارج ذلك الجدار من الكلس الأبيض. ثم بعد ذلك يتهيأ للخروج إلى الدنيا فينقر البيضة ثلاث نقرات ثم يستريح عشر ثوان، ثم ينقر من جديد ثلاث نقرات لكي يستريح عشر ثوان أخرى وهكذا حتى يخرج. ولماذا عشر ثوان هي مدة الاستراحة؟ لا يعلم ذلك إلاَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي جهزه ودبره وهداه إلى عمله.

وبعد هذا الجهد الكبير تنفلق البيضة ويخرج منها بألوانه لكي يلتقط الحب وهو يسير خلف أمه يتبعها كأنه ظلها. يفعل كل ذلك من غير أن يخطىء أبداً. فمن ألهمه صنيعه هذا غير الله ـ سبحانه وتعالى؟ ـ وكذلك الخلايا في سائر المخلوقات، إنها لا تخطىء أبداً، فدودة القزّ لا تعطيك نملة وحبة القمح لا تعطيك فاصولياء، وحبة العدس لا تعطيك شعيراً. فمن سيَّرها ومن أنبتها ومن هداها إلى عملها غير رب العالمين ـ تبارك وتعالى؟ ـ ومن الذي خلق الإنسان؟ أهو الذي خلق نفسه أم أبواه؟ ومن أوجد الطبيعة؟ أهي التي خلقت نفسها؟ فتعالى الله عما يصفون ويزورون ويكفرون.

آزر أبو إبراهيم أم عمه

كان آزر يبيع الأصنام، وكان ملازماً لنمرود الحاكم الظالم، ويعطي الأصنام لإبراهيم كي يبيعها للناس، حيث كان ـ أي إبراهيم ـ يضع حبلاً

في عنق الصنم ثم يجره في الأسواق قائلاً: أيها الناس من أراد منكم أن يشتري رباً لا يسمع ولا يعقل فليشتر هذا الصنم.

يقول القرآن الكريم: **﴿وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر﴾** [سورة الأنعام: الآية ٧٤].

وظاهر الآية يُشعر أن آزر هو أبو إبراهيم، وبعض المفسرين هكذا قالوا. ولكن الحقيقة هي أن آزر هو عمّ إبراهيم، ذلك أن آزر مشرك والأنبياء والمعصومون لا يولدون من أب مشرك، لأن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد اختار لأنبيائه الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة. علماً أن كلمة أبِ في اللغة العربية قد تطلق على العم.

إن سورة مريم تتوالى فيها الآيات على النحو التالي: **﴿واذكر في الكتاب إبراهيم أنه كان صديقاً نبياً * إذ قال لأبيه يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً * يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً * يا أبتِ لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً * يا أبتِ إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً * قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنتهِ لأرجمنك واهجرني ملياً * قال سلام عليك سأغفر لك ربي إنه كان بي حفياً﴾** [سورة مريم: الآيات ٤١ ــ ٤٧].

ولكن المغفرة التي كان يأملها إبراهيم له ردَّت عليه. قال إبراهيم: **﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾** [سورة الشعراء: الآية ٨٦].

ولكن الله ــ سبحانه ــ قال لإبراهيم ما كان لك أن تستغفر لهذا لأنه مشرك: **﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاه حليم﴾** [سورة التوبة: الآية ١١٤].

ومما يدل على أن آزر هو عمّ إبراهيم وليس أباه القرآن الكريم نفسه لا سيما عندما يذكر كلمة الأب وهو يريد منها العم والجد أيضاً: ﴿**أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق**﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٣].

فإسماعيل هو عم يعقوب وإبراهيم جده. لذلك نخلص إلى القول: إن إبراهيم عندما يخاطب آزر بأبيه فهو يعني عمه. وشبيه هذا قول يوسف الصديق: ﴿**إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله... * واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب**﴾ [سورة يوسف: الآيتان ٢٧ ــ ٣٨].

إبراهيم والتجربة الصعبة

إن إبراهيم الخليل ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ رأى هؤلاء الناس يعبدون الأصنام والكواكب: ﴿**فلما رأى كوكباً قال هذا ربي**﴾.

وهو عندما يقول عن الكوكب إنه ربه إنما أراد أن يسخر من هؤلاء القوم وأن يهز عقولهم وضمائرهم. وكذلك الأمر عندما قال عن القمر إنه ربه وعن الشمس أيضاً. وكأنه يقول لهم: كيف تعبدون مخلوقاً دون خالقه: ﴿**قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**﴾ [سورة الأنعام: الآيتان ٧٨ ــ ٧٩].

بعد ذلك اتجه إبراهيم إلى نمرود حيث دار بينهما حوار رائع. وأخيراً قرر القوم أن يحرقوه بالنار فجمعوا الحطب من كل مكان: ﴿**فنظر نظرة في النجوم * فقال إني سقيم * فتولوا عنه مدبرين * فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضرباً باليمين * فأقبلوا**

إليه يزفون * قال أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون * قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم * فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين * وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين * ربي هب لي من الصالحين * فبشرناه بغلام حليم﴾ [سورة الصافات: الآيات ٨٨ ـ ١٠١].

وكانت النتيجة أن أنجاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ فذهب إلى بيت المقدس ثم حمل زوجته هاجر ومعها رضيعها إسماعيل إلى بيت الله الحرام حيث بنى هناك بيت التوحيد الذي كانت آثاره ما تزال موجودة بدليل قوله تعالى: **﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾** [سورة إبراهيم: الآية ٣٧].

ولكن هل تهوى قلوب المسلمين وهل بإمكانهم حج بيت الله الحرام حيث توضع الحواجز والموانع لكي تحول بينهم وبين البيت الحرام الذي جعله الله ـ سبحانه وتعالى ـ شعيرة من الشعائر ومناسبة لكي تتجلى من خلالها وحدة المسلمين جميعاً؟

ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل ثم عاد إلى بيت المقدس يواصل رسالته ويدعو إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، وعندما كبر إسماعيل عاد إبراهيم إلى مكة وأكمل بناء البيت مع ولده. وهناك كانت التجربة الصعبة: **﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إنشاء الله من الصابرين﴾** [سورة الصافات: الآية ١٠٢].

إن الامتحان الصعب للأب والابن معاً. ولكن اشترط إسماعيل على أبيه ألا يخبر أمه بذلك وأن يخمّر وجهه بخمار وأن يشد وثاقه. عند ذلك

رفع إبراهيم عينيه إلى السماء لحظات مسلماً أمره إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه المحنة التي قد يسقط فيها كثيرون، من أولئك الذين يعبدون الله على حرف: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ [سورة الحج: الآية ١١].

وهؤلاء من الذين قال فيهم الإمام الحسين ـ سلام الله عليه ـ: «الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم فإذا محّصوا بالبلاء قل الديانون».

﴿فلما أسلما وتلّه للجبين﴾ [سورة الصافات: الآية ١٠٣].

أي وضع جبينه على التراب حتى لا تقع عيناه على عيني ولده، وعندما همّ بأن يمّر السكين على عنقه إذا بجبرائيل يأخذ بيد إبراهيم: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم﴾ [سورة الصافات: الآيات ١٠٤ ـ ١٠٧].

ثم أكمل إبراهيم وإسماعيل بناء البيت الحرام: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٧].

بين إبراهيم وحجر بن عُدي

لا شك أن التجربة كانت صعبة للغاية، أبٌ نبيٌّ صدرت إليه الأوامر الإلّهية بذبح ابنه، وابن استسلم لأبيه وهو يمُرُّ السكين على عنقه، أبٌ صادع لأمر ربه، وابن مستسلم لمصيره؛ وصعوبة التجربة هذه كان النجاح فيها أعظم منها وأروع، ذلك أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان أُمَّةً قد بلغ قمة الوعي والرشد القاضيين بأن إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا رادّ لها،

وبأن رب العالمين لا يريد لعباده إلاَّ الخير والرحمة، وبأن الإنسان المؤمن لا يظهر إيمانه ومدى تماسكه إلاَّ من خلال التجربة والابتلاء والامتحان. ومن هنا كانت روعة النجاح، التي تجلت في سمو الوعي، وذلك ما يحتاجه الإنسان المؤمن في حركة الحياة.

يقول أمير المؤمنين ـ سلام الله عليه ـ لكميل بن زياد ـ رضوان الله عليه ـ: «القلوب أوعية وأوعاها أحفظها، أو، وخيرها أوعاها». وجاء في القرآن الكريم: ﴿**وتعيها أذن واعية**﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٢].

لذلك فإن الصلاة لا تكفي، وسائر العبادات من صيام وحج وزكاة لا تكفي، بل لا بدٌ للمؤمن أن يكون واعياً، يعرف ما يدور حوله، لكي تكون حركته منسجمة مع درجة وعيه، تماماً كما كان نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنَّا به عالمين**﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٥١].

وبذلك كان إبراهيم أُمَّةً.

لذلك تجد المسلمين اليوم يعيشون في انحدار رهيب، يستسلمون للأغلال، لأنهم يفتقرون إلى الرشد والوعي بواقعهم وإسلامهم. لذلك يجب أن يكون إبراهيم ـ عليه السلام ـ خير أسوة حسنة: ﴿**إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه**﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٨].

وهو الذي يقول: ﴿**فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم**﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٦].

لقد واجه إبراهيم حاكماً طاغية ومجتمعاً فاسداً، واستطاع أن ينهض بالأمر وأن يؤدي الرسالة في هداية الناس التي هي هدف الأهداف. لذلك يقول رسول الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ لأمير المؤمنين ـ عليه

السلام ــ لما أرسله إلى اليمن «يا عليّ لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس». تلك هي المسألة.

إن القرآن الكريم حافل بالأمثلة والشواهد على الذين ينجحون في الامتحان وعلى الذين يسقطون. فهذا أحد الأنبياء يختبر قومه فقال لهم: **﴿إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٤٩].

لقد شاء الله ــ سبحانه ــ أن يجعل هذا النهر مقياساً يميز المؤمن من الكافر والطيب من الخبيث. فنجح من نجح وسقط من سقط. وفي زيارة وارث يقول الإمام الصادق ــ عليه السلام ــ مخاطباً جده الحسين ــ عليه السلام ــ : «السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله» ذلك أن أبا عبد الله قد ورث إبراهيم في كل مواقفه وحركته ومبادئه ومناهجه.

وكذلك نجد حجر بن عدي قد واجه المسألة بالروحية نفسها التي واجهها إبراهيم عندما رأى في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل. لقد أمر معاوية بن أبي سفيان بقتل حجر وجماعته ومعه ابنه. لذلك قدَّم حجر ولده للقتل قبله وعندما قيل له في ذلك قال: لم أخف الموت ولكني خشيت أن تضربوا عنقي أمام ولدي فيهتز قلبه فيتبرأ من علي بن أبي طالب. لذلك أردت أن أراه مخضباً بدماء الولاية أمام عيني. أما أنا، يا جلاوزة معاوية، فإذا ضربتم عنقي فلا تحلّوا القيود عني ولا تغسلوا عني الدماء فإني سوف أجتمع مع معاوية على هذه الصورة بين يدي رب العالمين. ومما لا شك فيه أن هذه الروح هي روح إبراهيمية وجرأة خليلية زرعها إبراهيم في الأجيال حتى وصلت إلى حجر بن عدي فكان قمة الرشد والوعي بإسلامه ودينه على خط الخليل إبراهيم ــ عليه السلام ــ .

بمن يقتدي المسلمون

إن الإنسان ليعجب كيف تقهقر المسلمون وفي تاريخهم رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ بسيرته الرائعة ومواقفه التي لا تُنسى وحركته التي كتبتها الأيام وحفرتها الأحقاب والأجيال. إن الرسول الأعظم هو النور الذي يضيء الدرب والحجة التي تقف في طريق السالكين إلى نور رب العالمين، تهديهم سواء السبيل وتنير لهم عتمة الأيام والسنين، لا سيما أن سنته الشريفة ماثلة أمامنا سواء في قوله أو فعله أو تقريره.

لذلك يجب أن نأخذ إسلامنا من رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ . ومن السنن التي تركها نبي الرحمة معاملته للحسين منذ كان طفلاً. والأخبار في ذلك متواترة ومختلفة تؤكد أن النبي ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ قد بكى يوم مولد الحسين ــ عليه السلام ــ . وهو الذي يقول فيه: «حسين مني وأنا من حسين»، أي أن من علامات الولاء لرسول الله محبة الحسين ــ عليه السلام ــ ومن آيات الإخلاص والالتزام بخط رسول الله التعلق بالحسين ومودة الحسين ــ سلام الله عليه ــ . لذلك يقول: «أحب الله من أحب حسيناً».

ولطالما امتطى ظهر النبي وهو يصلي في المسجد فيطيل النبي السجود إلى أن ينزل الحسين عن ظهره، حتى أن ابن عباس قد ظَنَّ بأن الوحي قد نزل على رسول الله ــ صلّى الله عيه وآله وسلّم ــ وهو في حالة السجود. وكثيراً ما كان نبي الرحمة يأخذ الحسين إلى حضنه ويقبله في نحره. لذلك يجب أن يعيش الحسين في القلوب كما كان يتربع في قلب جده ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ : **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** [سورة الحشر: الآية ٧].

بأبـي وأمي يا أبـا عبد الله . . . إن إبـراهيم ــ عليه السـلام ــ عندمـا أراد أن يذبح ابنه إسماعيل، هبط جبرائيل في اللحظة الحاسمة ورفع البلاء عنه بالكبش يذبحه بدلاً من ولده، ولكنك يا سيـدي ومولاي عنـدما حملت رضيعك على صدرك لم يهبط جبرائيل بجرعة مـاء تروي عـطشه ولم ينـزل من السماء بكبش يفتديه من السهم الذي ذبحه من الوريد إلى الوريد فراح يرفرف كالطير المذبوح، ذلك أن رسالتك يا سيدي أعـظم وأكبر، فقـد شاء رب العـالمين أن تكون أنت وولـدك الكبش الذي تسيـل منه الـدماء أنهـاراً لكي ترتوي نبتة الإسلام التي كانت ما تزال طرية العود تحتاج إلى مزيد من الفـداء والعطاء. . فبين أن يُـذبح الإسـلام على يد يـزيد وأعـوانه وبين أن تـذبح أنت وولـدك يا سيـدي، قد اختـرت الحل الثـاني. . وبـذلـك كـان انتصارك العظيم وفـوزك الرائـع الذي مـا زال يخترق الأيـام ويفرِّخ في كـل زمان ومكان، فما أروع الدماء عندما تنتصر على السيوف. . .

●●●



التكافل الاجتماعي في الإسلام

التكافل الاجتماعي في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم﴾** [سورة التوبة: الآية ٦٠].

تكافل وتكامل

إن الاقتصاد في الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع عزيز وكريم يكون سيد نفسه، لذلك أفرز نظاماً اجتماعياً هو نظام التكامل الاجتماعي. وفي بعض الأحيان نطلق على هذا النظام «الضمان الاجتماعي». ولكنني أعتقد أن كلمة التكافل أكثر دقة من الضمان، لأن التكافل يشكل حركة جماعية يشارك فيها كل أفراد المجتمع في حين أن كلمة الضمان يفهم منها أن الحاكم هو الذي يوكل إليه أن يضمن حاجات الناس.

هذا من جهة ومن جهة ثانية يعتبر الناس في الإسلام سواسية كأسنان المشط. على أن هذه المساواة هي على صعيد العدالة الاجتماعية في توزيع الثروة، أما على صعيد الفكر والطاقات والعمل فهم ليسوا سواسية باعتبار أنهم يتفاوتون فيما بينهم من هذه الناحية.

وقد أشار الإمام عليّ ـ عليه السلام ـ إلى هذه المسألة في عهده إلى مالك الأشتر حين ولاه مصر. يقول له في هذا العهد: «واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلاَّ ببعض». والرعية هي الشعب والجماهير، إذ ليس المقصود من الطبقات، المجتمع الطبقي الذي أرادته النظرية الشيوعية. فالإمام عليّ ـ عليه السلام ـ يشير إلى تفاوت الناس في العطاء، ولولا هذا التفاوت لما تحركت عجلة الحياة.

فلننظر إلى أصابع اليدين لنجد فيها دليلاً على أهمية التفاوت في الأداء العملي والعطاء الاجتماعي. إن أصابع اليدين ليست متساوية ولا متجانسة، ولو كانت الأصابع متساوية في الطول والوظيفة لكان الإنسان أشبه بالبهيمة. وفي هذه الأصابع التي تتفاوت في الأداء والوظيفة تتجلّى عظمة رب العالمين، لأن هذا التفاوت هو السبب في إبداع الإنسان الذي أعطاه الله القدرة على إنشاء الحضارة الإنسانية وبناء صرحها العلمي والتكنولوجي ولولاه لما استطاع الإنسان أن يمسك قلماً أو يبدع في حرفة أو يستخدم آلة من آلات التقدم.

إذاً التفاوت الاجتماعي بهذا المعنى هو دليل التقدم. لذلك يقول الإمام عليّ ـ سلام الله عليه ـ : «لو تساوى الناس لهلكوا» أي لو تساوى الناس في الطاقات والوظيفة الاجتماعية لكان في ذلك هلاك البشرية واندثار الحضارة الإنسانية. فلنتصور أن كل الناس عباقرة، أو أنهم جميعاً مهندسون أو أطباء، أو كلهم حدادون أو نجارون، فما الذي يمكن أن يحدث؟ لا شك أن ذلك يصبح محنة تقضي على البشرية.

والمؤسف أن ما يحدث اليوم هو أن الحضارة الراهنة قد حددت ذهن الإنسان بشهادات ميتة وجامدة، على أن الفكر الإنساني لا يحدد بشهادة أو ورقة، لا سيما إذا كان الأمر يتعلق بفكر كفكر أهل البيت ـ عليهم

السلام ــ الذي يتجلّى من خلاله فكر الإسلام العظيم. إن الإسلام يعتبر أن العلم لا يحد بحدود الشهادة التي تمنحها الجامعة، أو أية مؤسسة أخرى، باعتبار أن العلم والمعرفة بلا حدود. وفي هذا المجال يقول الإمام عليّ ــ سلام الله عليه ــ : «العلم ثلاث درجات، من يصعد الدرجة الأولى يغترّ، ومن يصعد الدرجة الثانية يتواضع، ومن يصعد الدرجة الثالثة يدرك أنه لا يعلم شيئاً».

على أن العلم في الإسلام هو لون من ألوان العبادة كما العمل الصالح تماماً. فإذا كان الإنسان في الحضارة المعاصرة يقوَّم على أساس شهادة تمنح له أو تعطى، فإن الإسلام يقوّمه من خلال التقوى. فقد يقوم الإنسان بعمل بسيط بنظر الناس ولكنه عند الله عظيم إذا كان مقبولاً منه ــ عز وجل ــ ، كأن يمحو دمعة يتيم ويبلسم أحزانه أو يساعد عائلة محتاجة، أو يسعى في سبيل عائلته «فالكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله» حسبما جاء في الحديث الشريف. وقد قيل لرسول الله ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ : يا رسول الله، هذا الشاب مفتول العضلات، لو أنه أنفق عضلاته في سبيل الله. فقال: «إن هو خرج يسعى من أجل نفسه فهو في سبيل الله وإن خرج يسعى من أجل أبوين شيخين فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى من أجل أطفاله فهو في سبيل الله».

أي كل طاقة تبذل وكل عمل يقوم به هو محفوظ عند الله ــ سبحانه وتعالى ــ مهما بلغ هذا العمل من البساطة في نظر كثير من الناس، على الرغم من التفاوت الطبقي الموجود لأن الرسول ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ يقول: «لكل كبد حرّى أجر عند الله». فقد يطعم الواحد منا هرة أو يقدم الماء لحيوان عطشان. فمثل هذه البهيمة تكون سبباً لدخولنا الجنة. فالله ــ سبحانه ــ لا يضيع أجر أحد من عباده على عمل صالح قام به.

وهكذا نجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أوجد هذا التفاوت بين الناس لكي يتكاملوا وحتى تسير عجلة الحياة. وقد قال في كتابه الكريم: **﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾** [سورة الزخرف: الآية ٣٢].

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن التفاوت سوف يخلق لوناً من ألوان الصراع الاجتماعي والتنافس الذي يفترض أن يكون بنّاءً وشريفاً. أي بشرط ألّا يؤدي الصراع إلى حرمان بعض الناس، لأن الإسلام لا يمكن أن يقبل أن يأكل الأقوياء حقوق الضعفاء وأن يستغل الأغنياء الفقراء أو أن يجعل العلماء علمهم أداة ليسخروا من الجهلاء. فكل إنسان في المجتمع الإسلامي له مكانته وحقوقه وكل إنسان له رسالته «فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»، وبالتالي فإن التفاوت الحاصل لا يعني حرمان الناس من حقوقهم لأنها حقوق يجب أن تصان وتحفظ.

لمن الصدقات

بعد هذه المقدمة التي كان لا بد منها أعود بكم أيها الأحبة إلى أجواء الآية موضوع بحثنا: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم﴾**.

إن الصدقات تعني الزكاة، وقد سمّيت صدقة لأنها مشتقة من الصدق وهو صدق الإنسان مع ربه ومع نفسه ومع الناس، لا كما يظن البعض أن فيها لوناً من ألوان الذل باعتبار أن صدق الإنسان في هذا المجال يعني أنه صدّق الله وصدّق الرسول. وقد تمّ توزيعها بموجب الآية الكريمة على ثمانية أصناف من الناس:

أولاً ـ على العاملين عليها:

أي على الجباة يوم كان بيت المال موجوداً.

ثانياً ـ على المؤلفة قلوبهم:

فهؤلاء يستميلهم الإسلام بالمال. قسم منهم مشركون والقسم الآخر منافقون. ومن المشركين مثلاً صفوان بن أمية الذي كان في الطائف. وقد أرسل إليه الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ إبلاً محملةً بالعطاء وعن هذا الطريق دخل الإسلام. يقول: جاءتني جماله ـ أي جمال النبي ـ وهو أبغض الخلق إليّ، ولكني يوماً بعد يوم شعرت بحبه يدخل قلبي.

ومن المنافقين الذين أعطاهم الله ـ سبحانه ـ من سهم المؤلفة قلوبهم أبو سفيان وولده معاوية. بدليل أن الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عندما دخل مكة عام الفتح أراد أن يتجنب سفك الدماء فطلب من أبي سفيان أن يعلن إسلامه بقوله الشهادتين لأن ذلك سوف يكون له أثره في الوضع الداخلي في المجتمع المكي. ولكن أبا سفيان وجد سهلاً عليه أن يقول: أشهد ألاَّ إلَـه إلاَّ الله، ولكنه وجد الأمر صعباً في أن يكمل الشهادة قائلاً: وأن محمداً رسول الله.

إن أبا سفيان ما دخل الإسلام قلبه في يوم من الأيام على الرغم من أن الكثيرين يجعلونه بطلاً من أبطال الإسلام وهذا هراء لا يحمل شيئاً من الحقيقة. لقد جعلوه بطلاً مقابل أبي طالب الذي جعلوه مشركاً وهو الذي حمى الإسلام بموقعه وبماله. هكذا يقلبون الحقائق ويزوِّرون التاريخ فيجعلون من أبي طالب الذي دافع عن الرسول وعن الإسلام إلى آخر لحظة من حياته، يجعلونه كافراً، في حين أنهم يجعلون من أبي سفيان الذي ما دخل الإسلام قلبه قط، يجعلون منه بطلاً. وهذا التاريخ دليل معروض أمام كل من يشكك في هذه الحقيقة التي لا تقبل الجدال.

ثالثاً ـ في الرقاب:

أي أن الإسلام يشتري العبيد ويحررهم. ولطالما كان أهل البيت يفعلون ذلك. لا سيما الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ والإمام علي والزهراء والحسن والحسين ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ.

رابعاً ـ الغارمون:

أي الذين استدانوا مبلغاً من المال فأنفقوه في سبيل الله وفي صلاح أنفسهم وعوائلهم، لا في معصية ثم عجزوا عن إيفاء الدين. فالإسلام يدفع عنهم من الزكاة.

خامساً ـ الفقراء والمساكين:

إن الإسلام يشن حرباً لا هوادة فيها على الفقر ويقف إلى جانب الفقراء والمساكين ويخفف عنهم آلامهم ويبلسم جراحهم، فجعل أقواتهم في أموال الأغنياء باعتبار أن الحياة بنظر الإسلام هي للاختبار والامتحان من خلال التفاوت الاجتماعي الموجود. لذلك يقول الإمام عليّ ـ عليه السلام ـ: «ما جاع فقير إلَّا بما متِّع به غني» والله ـ سبحانه وتعالى ـ سوف يسأل الأغنياء عن ذلك يوم القيامة. ويقول أيضاً: «ما رأيت نعمة موفورة إلَّا وإلى جانبها حق مضيَّع».

لذلك عندما تجد في المجتمع كفتين إحداهما متخمة والثانية جائعة فاعلم أن السبب من الأرض وليس من السماء لأن الناس لم يؤدوا الحقوق المفروضة عليهم. فلو دفعت الزكاة لما كان هناك جوع أو حاجة ولما كان هناك فقر أو فقراء لأن الصدقات للفقراء والمساكين.

على أن المسكين هو من كان أقلّ حالاً من الفقير. فالفقير في الإسلام هو الذي لا يملك أكثر من قوت سنته، علماً أنه من الناحية

الشـرعية والفقهيـة نحن لا نعطي زكـاة الفطرة مثـلاً لمن كـان يملك قـوت سنته. لكن النظام الإسـلامي يعتبر أن من يملك قـوت سنته دون أن يكـون لديه فائض، يعتبره فقيراً بنظر نظام التكافل الاجتماعي.

ويروى في هذا المجـال أن أبا بصيـر سأل الإمـام الصادق عن رجـل يملك داراً وعنـده جاريـة وغلام ويستقي على جمله كـل يـوم بـالـدرهمين والأربعة. هل يعطى هذا الـرجل من زكـاة الفطرة؟ فسـأله الصـادق ــ عليه السلام ــ : وله عيـال؟ قال: نعم. قـال: نعم، يُعطى. وعنـدما استغـرب أبو بصير ذلك قال له الصادق ــ سلام الله عليه ــ : أفتـأمرني أن آمـره ببيع داره وهي عزه أو خادمه الذي يقيه الحر والبرد ويصون وجهـه ووجه عيـاله؟ أم آمـره ببيع جمله وهـو معيشته وقـوته؟ إن الـزكاة تحـل لـه فـلا يبيـع داره ولا خادمه ولا جمله.

ولا يستغـربنّ أحد هـذا المـوقف الحضـاري الإنسـاني، لأن الإمـام الصـادق هو القرآن الناطق. لا سيمـا أن القـرآن الكـريم قـد يتحـدث عن الفقراء والمساكين فـلا يجعلهم من المعدمين. فقـد جاء في سـورة الكهف على لسـان الخضر عنـدما قـال لموسى: ﴿**أمـا السفينـة فكـانت لمسـاكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبهـا. وكان وراءهم ملك يـأخذ كـل سفينة غصباً**﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٩].

فهؤلاء الـذين يملكون سفينـة في البحر ويعملون عليهـا يطلق عليهم القرآن الكريم مساكين.

ذلـك أن الإسلام لا يـريدك أن تكـون فقيراً ولا يمنعـك أن ترفـه عن نفسـك وعن عيـالـك وأن تحفظ لهم مستقبلهم شـرط أن تـدفـع الحقـوق الشـرعية التي فـرضها عليـك الإسلام. فيـروى أن رجلاً من الأنصـار كـان

يملك مالاً، فأنفق أمواله ولم يُبقِ منها شيئاً لعياله وأطفاله ثم مات فصلى عليه رسول الله. وبعد الدفن قالوا للنبي ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: إن هذا الرجل قد ترك أيتاماً دون أن يبقي لهم شيئاً من أمواله فقد أنفقها كلها في سبيل الله. قال: أما لو علمت بذلك ما صليت عليه.

إن النبيّ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قد وقف هذا الموقف لأن هذا الرجل قد ترك أولاده يتكففون أيدي الناس. فأنت إذا أنفقت كل أموالك وتركت أولادك فقراء تكون قد تسببت بمشكلة يحاول الإسلام أن يعالجها. في حين إذا أنفقت من أموالك في الأبواب التي حددها الشرع فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينمي رزقك ويضاعف لك الحسنات مئات الأضعاف، فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٦١].

ومن المؤسف أن نرى اليوم في مجتمعنا ونسمع منطقاً غريباً، ذلك إذا شاهد الناس رجل دين معمّماً يركب سيارة يتنقل بها يشيرون إليه بأصابع الاتهام، فإنني صادفت مرة أحدهم وقد رفض أن يصلي خلف إمام في المسجد وعندما سألته عن السبب؟ قال: عنده سيارة. فقلت له: السيارات تملأ الشوارع يقودها معظم الناس، فلماذا لا يسمح لرجل الدين بذلك؟ فهل عليه أن يمشي إلى المسجد على قدميه حتى تكون صلاته صحيحة؟ وهل الناقة أو الفَرس التي كان يمتطيها الإمام عليّ ـ عليه السلام ـ إلَّا كالسيارة في يومنا هذا؟ وهل إذا كان أهل البيت موجودين في مثل هذا العصر، يرفضون ركوب السيارة أو الطيارة؟ بالطبع لا.

نحن والمبشرون

وعلى سبيل المثال سمعت أحد المراجع ـ رحمه الله ـ يقول: لو

تمكنت من أموال الزكاة ومن حقوق الإمام الحجة ـ عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ لكنت أمّنت لكم أنتم معشر الخطباء والمبلغين طائرات تنقلكم إلى إفريقيا وسائر أنحاء العالم حتى ترفعوا صوت الإسلام في كل مكان. فاستحسنت هذا الاقتراح لا سيما أن المرجعية البابوية عند المسيحيين قد نفّذت ذلك منذ زمن بعيد. فالبابا يوجد عنده أسطول جويّ من الطائرات مخصص للمبشرين، في حين أن الواحد منا لا يمتلك حتى ثمن التذكرة التي تسمح له بركوب الطائرة والذهاب إلى حيث تدعو الحاجة لكي يقوم بتكليفه الشرعي من نشر الدعوة الإسلامية.

إن لديهم كافة أنواع الطائرات التي يمكن أن تحط بهم في أي مكان، حتى في الأماكن الضيقة بين الأدغال. وأذكر أننا كنا ذات مرة في زائير فرأيت طائرة صغيرة تحط في منتصف إحدى الغابات فيترجل منها اثنان من المبشرين المسيحيين قد أتيا إلى القرية التي كنا فيها يحملان معهما الأدوية والعلاج والكتب المقدسة يوزعانها على الناس وهما يضاحكان ويداعبان الناس وصولاً إلى بناء كنيسة ولو من سعف النخيل من أجل التبشير بالمسيحية ونشرها.

إنهم في كل مكان، يعملون ليلاً ونهاراً في حين أننا نحن لا نقوم بأي جهد في هذا المجال. وإذا وجد من يعمل فهو لا يستطيع المواصلة، ناهيك عن إقامة المشاريع وبناء المؤسسات الإسلامية. ولكن يبدو أن هناك مشروعاً في الوقت الحالي، وهو مشروع ضخم يعمل على التبليغ وإرسال المبلغين وتحضير الخطباء وطبع الكتب ونشرها وتزويج الشباب وقضاء حوائج الناس وإعالة الفقراء وحفر الآبار. وقد وقف وراء هذا المشروع ثلّة من المؤمنين، طلقوا الدنيا، ولا هم لهم إلّا العمل على نشر الإسلام وتعاليمه السمحاء، أرجو أن نقف جميعاً إلى جانب هؤلاء الأتقياء نساندهم

بالمال والجهد من أجل إنجاح مشروعهم الإسلامي الحضاري والإنساني، وبالتالي من أجل إيصال صوت الإسلام وفكر الرسول وأهل البيت إلى سائر أنحاء العالم.

إنها مسؤولية كل مؤمن أيها الأحبة. فمن يؤمن بالله واليوم الآخر يعمل من أجل آخرته لأنه يعلم أنه مسؤول أمام الله ــ عز وجل ــ: ﴿**ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ**﴾ [سورة الحشر: الآية ١٨].

لقد التقيت بأكثر من عشرة من هؤلاء المبشرين في أفريقيا، وعلمت منهم أنه قد مضى على وجودهم هناك مدة ستة أشهر. كما علمت أنهم قد بدأوا عملهم بتعلم لغة الناس هناك. إن ذلك مما يشعرنا بتقصيرنا من هذه الناحية، لا سيما أن مسألة تعلم اللغات لدى الشعوب التي ينبغي أن ينتشر فيها العمل الرسالي، هي مما يولّيها الإسلام أهمية كبرى، فقد كان الرسول الأعظم يبعث الرجال من أمثال خباب بن الأرتّ لكي يتعلموا لغات الشعوب يومها على أساس «من عرف لغة قوم أمن شرهم»، فضلاً عن سهولة التبليغ الرسالي. لذلك ينبغي علينا أن نتعلم اللغات الأجنبية لكي نوصل صوت الإسلام إلى كل مكان من الدنيا، وإن كانت اللغة العربية هي أفضل لغات الأرض لأنها قادرة على التعبير عن أدق خلجات النفس الإنسانية وأدق الأفكار بمنتهى الجمال والبلاغة.

في نيجيريا

منذ حوالى ثلاث سنوات كنت في نيجيريا خلال شهر رمضان المبارك. وقد قمت بزيارة وزير الإعلام هناك في اليوم الأول من شهر الصيام. فاستقبلنا الرجل بكل الترحاب واعتبر أن ذهابنا إليه نعمة من السماء لا سيما في أول هذا الشهر المبارك لأنهم يفتقرون في التلفزيون

إلى برنامج ديني لا سيما أن في نيجيريا حوالى مئة وعشرين مليوناً من المسلمين من أصل مئة وأربعين هم مجمل سكان البلاد. علماً أنك تلاحظ بوضوح احترام الناس هناك لشهر الصيام، فلست تجد مفطراً في الشارع حتى الصغار منهم، فضلاً عن المسيحيين الذين يحترمون مشاعر الناس.

عرض علينا وزير الإعلام أن أخصص نصف ساعة يومياً أطل من خلالها على الناس عبر التلفزيون، فقلت له: إنني على استعداد لتخصيص ساعتين بدلاً من نصف الساعة، شرط أن يكون هناك مترجم يعرف لغة البلاد. وبالفعل جاؤوا بشيخ قد درس في الأزهر، فطلبت إليه أن يكون أميناً في الترجمة لا سيما أن كلامي سوف يتناول أهل البيت عليهم السلام بدءًا بالرسول الأعظم وانتهاء بالأئمة الأطهار وعلى رأسهم الإمام علي والزهراء والحسنان ـ سلام الله عليهم جميعاً ـ ، وإلَّا فإن الرسول الأعظم سوف يحاسبه إذا خان الأمانة. وهذا ما حصل بالفعل فقد كان الرجل يترجم بالأمانة كلها لا سيما أن هناك جماعة من جنوب لبنان يتقنون لغة أهل البلاد، أعلموني فيما بعد أن ترجمته جيدة. وقد لاحظت أنه كانت تأخذه حالة من الحزن والخشوع تصل به إلى حد البكاء وهو يستمع إليَّ، ثم يقوم بالترجمة بشكل صحيح.

استمر بنا الحال على هذا المنوال طوال شهر رمضان. كنا نسجل الحديث على أشرطة الفيديو أولاً ثم يتم عرضه بعد ذلك على شاشة التلفزيون على مرأى من مسلمي نيجيريا جميعاً، بل على مرأى من الناس كلهم. وقد أسرّ لي هذا الشيخ بأنه لم يسمع من ذي قبل بمثل هذه الأحاديث. فقلت له: إنه حديث أهل البيت الذين نزل القرآن في بيوتهم. وقد علمت من أن هناك جهات تخصص له راتباً شهرياً لكي يخطب في المسجد شرط ألَّا يذكر أحداً من أهل البيت في خطبه وإلَّا انقطع عنه

الراتب الشهري. إذ يبدو أن أصابع النفط الخبيثة قد وصلت إلى هناك لكي تمارس لؤمها وخبثها تحت الظلام.

إن الناس هناك على فطرتهم يجهلون أن هناك سنّة أو شيعة، لذلك تجد من يذهب إليهم فيزرع في عقولهم الفرقة بمنطق عجيب فيقول لهم: هناك سنّة وشيعة والشيعة لن يدخلوا الجنة أبداً، وإذا خطب فيهم في المسجد فإنك لن تجد في خطبته بل في خطبه كلها أي أثر لأهل البيت الذين نزل الإسلام في بيوتهم دون غيرهم من سائر الخلق. يتحدث عن الصحابة جميعاً باستثناء الإمام عليّ ـ سلام الله عليه ـ متناسياً أنه سيد الصحابة وأخو النبي وابن عمه وزوج الزهراء وإمام المسلمين وحجة الله في الأرض وسيف الله.

وأذكر أني سمعت خطيباً في مدينة «لمباش» في زائير، كان إذا ذكر الإمام عليًّا فعل ذلك بكثير من الخشوع مع إظهار الحقيقة جلية واضحة، فاستغربت ذلك. وقد زال الاستغراب عندما قال لي: لقد جاءني نفر وأرادوا أن يشوهوا فكري ويغسلوا عقلي بنفطهم فما تمكنوا أن يصلوا إلى مآربهم ودسائسهم لأن إيماني أكبر بكثير من أن أعرضه في سوق البيع والشراء مهما كان الثمن ومهما كانت المغريات.

سادساً ـ ابن السبيل وسبيل الله:

بعد هذه الجولة التي أخذت بعنقي إلى المبشرين في أفريقيا وإلى تجربتي الرمضانية في نيجيريا أعود بكم إلى أجواء الآية الكريمة موضوع البحث وإلى رحابها فأقول:

أما ابن السبيل فهو المسافر في بلاد غريبة بعيداً عن موطنه إذا انقطعت به الطريق فأصبح محتاجاً إلى المساعدة. وهو في بلده قد يكون

غنياً، ومع ذلك يُعطى من الزكاة لا سيما إذا فقد ماله عن طريق السرقة أو الضياع أو ما شابه ذلك من أسباب.

أما سبيل الله فهو كل ما يعود بالمنفعة على المسلمين والإسلام. أي كل أمر يرضي الله كبناء المساجد والحسينيات والنوادي الإسلامية وفتح مدارس التربية والتعليم وإقامة المعامل والمصانع والمؤسسات الإسلامية. هذه كلها تُعطى من الزكاة لأن فيها ما يؤدي إلى تقدم المسلمين والأمة الإسلامية.

ومن هذا الباب أيضاً بناء دور الأيتام والمبرّات ودور العجزة وفتح الطرق وتعبيدها وتشجير المدن وطبع الكتب وترويجها بين الناس ودعم العلماء والمبلغين العاملين في سبيل نشر الإسلام الذين يحملون كلمة الحق ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من غير أن تأخذهم في الله لومة لائم. فكل هؤلاء وأولئك يعطون من الزكاة الوارد ذكرها في الآية. وإذا كنا نعلم أن العلّامة الحلّي قد ترك مئات المؤلفات والكتب، ومعظمها ما يزال مخطوطاً، فإن في باب الزكاة ما يمكن أن نستعين به لطبع هذه المؤلفات ونشرها، فضلاً عن مؤلفات غيره من العلماء والمفكرين الإسلاميين.

في الزكاة والخمس

لا شك أيها الأحبة في أنكم تعلمون أن الزكاة واجبة في الذهب والفضة وفي الأنعام الثلاث: الإبل والبقر والغنم، وفي الغلات الأربع: الحنطة والشعير والتمر والزبيب، ولا تجب فيما عداها. أما الاستحباب ففي كل شيء يمكن أن تدفع زكاة مندوبة ومستحبة.

وقد شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالإضافة إلى الزكاة الخمس.

وبعض المسلمين يرون أن الخمس موقوف وجوبه على الحرب، باعتبار أن الغنيمة الوارد ذكرها في الآية الكريمة: ﴿**واعلموا أنَّما غنمتم من شيء فأَنَّ لله خمسه وللرسول**﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤١].

لا تكون إلاَّ في الحرب. في حين أن الإمام الصادق ـ سلام الله عليه ـ يؤكد أن الغنيمة هي كل ما يغنمه الإنسان يوماً بيوم.

والخمس قسمان: قسم للإمام عليّ (ع) وقسم للسادة لأن الله ـ سبحانه ـ قد حرّم عليهم الصدقة. على أن قسم الإمام ـ سلام الله عليه ـ يعطى في سبيل الله أيضاً، لأن في ذلك ما يدخل السرور في قلب الإمام الحجة ـ عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ. ولا شك أنه مما يدخل السرور في قلبه هو تزويج الشباب. وهي مسألة خطيرة نعاني منها الكثير في هذه الأيام، لأن الشباب يعانون الكثير لا سيما في أدوار المراهقة وهم بأمس الحاجة إلى الزواج والسكن والهدوء والطمأنينة. ولكن العراقيل أمامهم كثيرة ومتنوعة كغلاء المهور وأزمة السكن وتزمّت وتعصب الآباء الذين يضعون الشروط العديدة التي تحول بين الشباب والزواج مما ينتج عن ذلك أن البنات يبقين في البيوت عوانس والشباب يبحثون عن المخرج في سبل محرمة تؤدي إلى فساد المجتمع.

ألا فليعلم الآباء أن الرسول الكريم في حديث له شريف يؤكد أن الأبكار بمنزلة الثمر على الشجر، إذا أدرك الثمر ولم يجتن أفسدته الشمس ونثرته الرياح. ويؤكد أيضاً أنهنّ إذا أدركن ما يدرك النساء فليس لهنّ إلاَّ الزواج وإلاَّ لم يؤمن عليهنّ الفساد باعتبار أنهن بشر لهن الإحساس والمشاعر والعواطف التي تحرك فيهنّ كل ما يؤدي إلى الانحراف.

زكـاة الفطـرة

أما زكاة الفـطرة أيها الأحبـة فهي من تمام قبـول الصيام. ووقتهـا من غروب الشمس ليلة العيد حتى الـزوال يوم العيـد أي صلاة الـظهر. أي أن الصـائم يخرجهـا عند غـروب ليلة العيد، ويجـوز له أن يـدفعها في الليـل وربما كان ذلك أفضل حتى يستطيع آخـذها أن يستفيـد منها قبـل بدء يـوم العيد فيشتري لأولاده المحتاجين ملابس العيد وغيرها. ومقدارهـا صاع من الـطعام من الغـلات الأربع: الحـنطة والشعيـر والتمـر والـزبيب. وإذا أراد الصائم أن يعطي أكثـر من صاع فـلا بأس، بـل أفضل لا سيمـا إذا كان من الموسرين والأغنياء القادرين.

وهـذا الصاع يـدفعه عن نفسـه ومثل ذلـك عن كل فـرد من عيـالـه. ولا شـك أيها الأحبـة أن الزكـاة أكثر ربحـاً من شركـات التأمين التي نسعى إليها وهي لا تدفـع عنّا مـوتاً وإنمـا تعوض علينـا، لأن الزكـاة تدفـع البلاء وتؤدي بنا إلى رضا رب العالمين.

وهي ـــ أي زكـاة الفطرة ـــ واجبة على البالـغ العاقـل. أما بـالنسبة للجنين فـلا يجب عليـك أن تـدفـع عنـه زكـاة الفـطرة ولكن ذلـك من المستحبات، كذلك إذا جاءك ضيف ليلة العيد يجب أن تدفع عنه الـزكاة. أما عيالك فتدفع عنهم حتى ولو كنت بعيداً عنهم بداعي السفر مثلاً. وزكاة الفطرة تُعطى للفقـراء والمساكين، وإذا كـان المستحق لها بعيـداً عنك في بلد آخر تعزلها له أيضاً ليلة العيد منذ الغروب حتى الزوال يوم العيد.

إن كـل ذلك هـو من باب الاهتمـام بالفقيـر في المجتمع الإسـلامي المتكافل، لا سيما في الأعياد لأن الفرح يجب أن يدخل إلى بيوت الفقراء كما هو موجود داخل بيوت الأغنياء. فكم هناك من فقـراء ويتامى ومسـاكين ومحتاجين يحتاجون إلى الفرح من خـلال ثوب جـديد يـرتدونـه يوم العيـد

أو طعام جيد يتذوقونه لا سيما الأطفال الصغار.

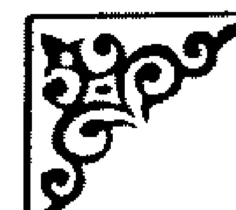
درب الآلام

إذا كنا نتحدث عن الفرح الذي يجب أن يدخل قلوب الأطفال واليتامى، فكيف كانت حالة يتامى أبي عبد الله الحسين في يوم الطف؟ لقد عانى أطفال الحسين ونساؤه كل ألوان الألم والعطش والجوع والسبي... لقد بدأت رحلة الآلام هذه في مكة وامتدت ما بين مكة ورمال كربلاء وتنقلت ما بين الكوفة والشام وصولاً إلى مدينة رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ...

فما زالت مياه الفرات تروي حكاية العطش الطويل... وما زالت رمال الطف تتحدث عن دماء الحسين وأصابع العباس... وعن العرسان من الشباب الغض يتساقطون فوق الرمضاء... وسوف تستمر الحكاية تتردد أصداؤها في كل مكان تتلقفها الأقلام ويرويها الرواة... وتذرف بسببها الدموع وتتلظّى الأكباد وتحترق الأفئدة... سوف تستمر الحكاية في سفرها وترحالها مع عشاق الحسين إلى يوم الحشر... يوم تقف الزهراء ـ سلام الله عليها ـ تطالب برأس الحسين ودماء الحسين... ويقف معها ملائكة السماء... ليرى الجميع كيف يقتصّ رب السماوات والأرضين من قتلة الحسين وظلمة الحسين... من لصوص الماء وأعداء الطفولة...

ولسوف تستمر السماء تردد صرخة الحوراء زينب... اللّهم تقبل منّا هذا القربان...

• • •



الفصـل الثّاني

الإسلام دين حضاري

* الإسلام دين حضاري.
* مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي.
* نظرية الخلط بين انحطاط المادة وسموّ الإسلام.
* التغيير والإصلاح في المنهج الإسلامي والتطبيق.
* الشخصية الإسلامية، خصائصها وأبعادها.
* الإسلام منهج فكري وعملي.

الإسلام دين حضاري

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور * ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون**﴾ [سورة الحج: الآيتان ٤٦ ــ ٤٧].

الإنسان ضالّة الإسلام

عندما نتعرض في بحوثنا لركائز الفكر الإسلامي يجب أن نتلمس الجانب الحضاري الذي ينطوي عليه هذا الفكر العظيم، فلو فاتنا ذلك لعزبت عنا مسألة من أهم المسائل فيه وهي حضارة الإسلام التي تشع وسط هذا الركام من الحضارات التي تملأ الكرة الأرضية.

ونحن إذ نعرض لهذه المسألة الخطيرة، يجب أن نعلم بادىء ذي بدىء أن الإنسان الذي أبدع الله خلقه إنما هو مخلوق حضاري بالدرجة الأولى لكي نعرف كيف نتعامل مع هذا المخلوق لا سيما أن الحضارة الغربية وقد عميت أو تعامت عن هذه الحقيقة الصارخة، إن هذه الحضارة المادية التي قامت على العقل فتطورت من الناحية التكنية، لو عرضناها على ميزان الإسلام وميزان الحضارة فيه لوجدناها حضارة ناقصة غير متكاملة.

ذلك أن الإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة إنسانية على أنه مخلوق حضاري يختلف عن سائر الكائنات الحية التي تفتقر إلى هذه الخاصة، فالإسلام يفهم من الحضارة أنها تمثل جانب التطور على ضوء العقل والقلب معاً، في حين أن الغرب يراها حضارة عقلية فحسب، لذلك تجد الجامعات العلمية والمؤسسات منتشرة عند الغربيين، ولكنها لا تقدم إلاَّ علماً مادياً يغذي العقل دون القلب ومن غير أدنى اهتمام بالجانب الإنساني عند هذا المخلوق الذي كرمه رب العالمين.

فلو تتبعنا الحضارة الغربية في إنجازاتها الحضارية لوجدنا أنها تركز على أدوات الدمار أكثر من تركيزها على أدوات البناء الإنساني، فهي تنتج القنابل الذرية والأسلحة الكيميائية الفتاكة والطائرات الحربية المدمرة أكثر مما تنتجه من أدوات السلام، وذلك دليل إفلاسها الحضاري ومؤشر على بداية احتضارها، وهذا ما أكده المفكر الإسلامي الفرنسي روجيه غارودي من أن الغرب يحتضر بدليل أن هناك سبعة أطنان من المتفجرات فوق رأس كل إنسان على الكرة الأرضية.

ذلك أن الحضارة الغربية في إنتاجها لا تطرح سؤال «لماذا» تصنع السلاح وإنما «كيف»، لذلك يمتطي الطيار الغربي طائرته النفاثة المتمونة بأسلحة الدمار ويلقي بها على الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ من غير أن يهتز في داخله أي ضمير، بل ربما يجد متعة ولذة وهو يلقي بقنابله على الأهوار فيرى الناس يموتون بعشرات الألوف، وكأنه يلهو كما يلهو الأطفال بالدمى.

وربما هناك من يعترض على كلامنا فيقول: إنكم تهاجمون هذه الحضارة الغربية العملاقة دون أن يكون لديكم البديل، فأين حضارتكم الإسلامية من هذه الحضارة الجبارة؟

أجل لدينا حضارة إسلامية، وقد عمرت ما يزيد على ألف سنة، وملأت الأرض نوراً وضياءً عندما كانت أوروبا غارقة في ظلام الجهل والتخلف والهمجية، لقد صدَّرت الحضارة الإسلامية العلم والعلماء والتطور في شتى ميادين التربية والأخلاق والاقتصاد والفلسفة والفكر إلى كل أنحاء العالم المعروف. وهذه الأندلس ما تزال ماثلة للعيان وتقف شاهداً على صحة ما نقول، إن صروحها الحضارية ما زالت تتحدى الزمان والمكان، فمنها انطلق الفكر الإسلامي لكي ينير ظلمة أوروبا، ويكفي دليلاً على صحة قولنا هذا أن معظم الجامعات الأوروبية في فرنسا وروما قد قام على تأسيسها علماء قرطبة ومفكروها.

إن الحضارة الإسلامية تستطيع أن تجدها في مجالس الحسين وفي المساجد لأنها مواقع حضارية ومنابر إشعاع ينطلق منها نور الإسلام. وهذه مسؤولية كل واحد منا أمام الله حتى لا نترك الوقت يموت هدراً. لا سيما أن الحسين هو أبو الأحرار، وقد هزَّ العالم بأسره بثورته والمبادىء التي استشهد من أجلها. إنه ابن أعظم الأنبياء محمد الذي خاطبه الحق قائلاً: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ [سورة القلم: الآية ٤].

وهو الذي قال فيه رسول الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: «حسين مني وأنا من حسين. أحبَّ الله من أحب حسيناً».

أدوات الحضارة

باعتبار أن الإنسان كائن حضاري فقد خلقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ وزوَّده بالأجهزة والأدوات التي تؤهله لكي يلعب هذا الدور، وفي طليعتها العقل والقلب، العقل للعلم والقلب للإيمان، بالإضافة إلى طاقة تسمح له

باختزان ما يعرف ويدرك عن طريق السمع والبصر وسائر الحواس المعروفة.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عندما يخلق الطفل يزوده بالسمع والبصر والفؤاد لاكتساب العلوم والمعارف. وذلك قوله ـ تعالى ـ : **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾** [سورة النحل: الآية ٧٨].

وواضح أنه لم يقل العقل بل الأفئدة. على أن أول جهاز يعمل عند الطفل هو السمع لأن العين تكون مغلقة بسبب الضوء في الخارج، فهو كان يعيش في ظلمات ثلاث في بطن أمه: **﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾** [سورة الزمر: الآية ٦].

لذلك كان الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يؤذن في الأذن اليمنى للحسنين ويقيم في الأذن اليسرى عند الولادة حتى يكون التوحيد والإقرار بالنبوة والأمر بالصلاة أول ما يسمعه المولود. أما العقل فيحتاج إلى وقت طويل حتى يستطيع أن يميز الخير من الشر والغثّ من السمين وحتى يستمع القول فيتبع أحسنه.

إذاً يولد الإنسان مزوداً بالعقل حتى يستطيع أن يختزن العلم، وبالقلب حتى يكون مخزناً للإيمان والرحمة والإنسانية، وبذلك يستطيع أن يكون مخلوقاً حضارياً لا سيما أن كل مولود يولد على الفطرة. على أن الطامّة الكبرى التي نزلت بالمسلمين في العصور الحديثة هي أنهم تجاهلوا الجانب الحضاري الذي يختزنه دينهم، وبالتالي ضلوا عن الدور الذي يجب أن يؤدوه، لا سيما أن رسولهم الأعظم صادق مصدق. وكل شعوب الأرض لم تقدر أن تجد أية ثغرة في قول له أو فعل أو فكر بالرغم من سعيهم الحثيث ومحاولاتهم الدائبة.

معجزة الرسول (ص) القرآن والعترة

إن الأنبياء جميعاً ماتت معجزاتهم بموتهم ما خلا رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ الذي ترك لنا معجزتين: القرآن الكريم والعترة الطاهرة، وذلك في قوله: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي..» باعتراف كل الصحاح وكتب الحديث.

ذلك أن القرآن وحده لا يحل المشكلة كاملةً، فهو يحتاج إلى إمام يرافقه في مسيرته ويوضح للناس ما يشكل عليهم من كنوزه التي لا يستطيع الكشف عنها غيره. إن القرآن وحده صامت يحتاج إلى إمام ناطق. ولن تجد هذا الإمام الناطق إلاّ في شخص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ سلام الله عليه ـ أخلاقاً وسيرة وعلماً. وهو الذي يعلم محكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وأحكامه وأسباب نزوله ويدرك كل أسراره. ألم يقل فيه النبي الأعظم «أنا مدينة العلم وعلي بابها»؟ بلى... قالها، وقال أيضاً: «فاطمة بضعة مني يرضيها ما يرضيني ويؤذيها ما يؤذيني» و«إنَّ الله ليرضى لرضاها ويغضب لغضبها» و«الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا» و«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» و«حسين مني وأنا من الحسين» وغير ذلك كثير.

إن نبيّ الرحمة ما كان ليترْك المسلمين نهباً للضياع، لذلك لم يترك القرآن وحيداً بلا إمام فترك معه عترته الطاهرة فضلاً عن التسعة المعصومين من ذرية الحسين. إنهم إثنا عشر إماماً يمثلون ثلاثة أجيال كافية لترسيخ العقيدة وتوضيح ما أشكل على المسلمين فهمه وتبيان كل المبهمات والإشكالات.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أن مسألة الإثني عشر إماماً

ليست مسألة خاصة بالشيعة، فكل الصحاح تشير إلى هذا العدد لا سيما البخاري في صحيحه إذ يقول نقلاً عن رسول الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «الأئمة من بعدي إثنا عشر إماماً كنقباء بني إسرائيل» فمن هم هؤلاء الأئمة الإثنا عشر؟

إن نقباء بني إسرائيل إثنا عشر نقيباً وحواريي عيسى إثنا عشر حوارياً ولكنهم من قبائل مختلفة وأنساب متباينة. أما الإثنا عشر معصوماً فهم سلسلة واحدة لأب واحد ولجد واحد هو رسول الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . إنهم من طينة واحدة هي جبلة النور والعلم والشجاعة والكرم والخَلْقِ والخُلُق وعلى مستوى واحد، ذرية بعضها من بعض. أما سائر الخلفاء وفي الإسلام فليس لهم علاقة بأهل البيت. علماً أن النبي الأكرم يقول لوصيِّه ووزيره: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، والوصي يقول: «أنا من أحمد كالضوء من الضوء» أو «الذراع من العضد».

إن أخبارهم موجودة في كل مكان من بطون الكتب تشهد لهم بالعلم والفضل والمرتبة الرفيعة. وقد تركهم النبي الأعظم والقرآن الكريم كركيزتين حضاريتين، انطلق الإسلام من خلالهما وبفضلهما إلى العالم أجمع.

حضارة بلا قلب

إن الحضارة المعاصرة قد اعتمدت العقل وحده كأساس لها وهو لا يكفي وحده، بل تزلّ به القدم إذا لم يدعمه قلب عامر بالإيمان. ومتى اجتمع العلم والإيمان بلغ الإنسان بهما كل علياء ونعمت الإنسانية بالسعادة والسكينة والتقدم.

إن الغربيين أنشأوا المؤسسات العلمية كالجامعات والمدارس،

ولكنهم لم يدعموها بمساجد يعمرها الدين والإيمان. أما الكنيسة فهي عاجزة عن أن تفعل شيئاً. إنك عندما تفتح جامعة عليك أن تبني إلى جوارها مسجداً. فهؤلاء علماء الإسلام من أمثال ابن سينا والغزالي وابن رشد تخرجوا من الجامعة الإسلامية التي تضم مدرسةً ومسجداً. فقد كان ابن سينا إذا استعصت عليه مسألة من المسائل يتوضأ ويصلي ركعتين متوجهاً إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ يستلهم منه الحل.

إن الحضارة الغربية هي حضارة بلا قلب ولا إيمان. والعقل وحده قد يتحول إلى حجرٍ قاسٍ من دون قلب مرتبط بالله ـ سبحانه ـ، لذلك يقول نبيّ الرحمة: «إن لله حجتين: حجة ظاهرة وهم الأنبياء وحجة باطنة وهو العقل» فالعقل نبيّ موجود معك باستمرار شرط أن يكون مرتبطاً بمناهج الأنبياء والسماء. ويقول أيضاً في حديث شريف: «العقل ما عبد به الرحمن وعصي به الشيطان».

لذلك لا يتوهمنّ أحد أن عقل معاوية أعظم من عقل عليّ بن أبي طالب الذي كان يقول: «والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس». عندما سئل الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ عن عقل معاوية قال: «تلك هي الشيطنة». ومن هنا نفهم كيف أشاروا على الإمام عليّ ـ سلام الله عليه ـ عندما تولى الخلافة أن يبقى معاوية وسائر الولاة المنحرفين في أماكنهم ثم يعزلهم بعد أن يتمكن من الأمر، فأجابهم: «ويلكم أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله..» ذلك أن الغاية عنده لا تبرر الوسيلة.

الغاية والوسيلة

إن الأصل في الحكم أن يكون الحاكم في خدمة الناس

ومصالحهم، لذلك ينبغي أن يفكر في الوسائل التي توصله إلى غايته. فإذا كانت الغاية شريفة، وهذا ما يجب أن تكونه، وجب أن تكون الوسيلة على القدر نفسه من الشرف، باعتبار أن همّ الحاكم الأساسي هو الناس ومصالحهم.

وبتعبير آخر لا يقر الإسلام القاعدة السياسية التي أطلقها فيما بعد ميكيا ڤيلي في كتابه «الأمير» وهي أن الغاية تبرر الوسيلة أي أن الغاية التي يطلبها الحاكم ويسعى لتحقيقها يمكن أن يتوسل لبلوغها كل الوسائل المتاحة أمامه، ولو كانت على حساب الناس والأبرياء. فالمهم أن يبلغ غايته بأي ثمن كان.

إن هذه القاعدة الوحشية يرفضها الإمام عليّ جملةً وتفصيلاً. ذلك أن الإنسان عنده هو الغاية وليست الخلافة أو الحكم. فالحاكم الذي تربع على كرسي الحكم إذا جلس فوقها من أجل نفسه لا يحق له أن يتحدث باسم الناس. أما إذا كان قد جاء إلى الحكم من أجلهم فلماذا لا يشركهم في الحكم. من هنا نفهم معنى قول الإمام عليّ: «والله إن خلافتكم هذه لا تساوي شسع نعلٍ عندي إلاّ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً».

وفي منزلة الإنسان وكرامته يقول نبي الرحمة: «المؤمن أعزُّ عند الله من الكعبة»، ذلك أن الكعبة وجدت من أجل المؤمن وليس العكس، لأنها وسيلته إلى الله ـ سبحانه ـ. ومن هنا كان التحريم في القرآن الكريم لإراقة دم المؤمن. وذلك في قوله تعالى: **﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾** [سورة المائدة: الآية ٣٢].

وفي نفس المعنى يقول رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيسٌ من رحمة الله».

إن الطغاة لكثرة الدماء التي سفكوها أصبحنا نتوهم بسببهم أن الإنسان بلا قيمة كالجراد. في حين أن الله ــ سبحانه ــ قد كرَّم الإنسان الذي لم يخلق الكون إلاَّ من أجله. إنه جانب حضاري ينطوي عليه الإسلام الذي لا يقر الوسيلة إلاَّ إذا كانت على المستوى نفسه من الشرف الذي تتصف به الغاية. لذلك تجد أن الإسلام الذي يعتبر بناء المسجد هو غاية شريفة لا يقبل أن يتم بناؤه إلاَّ بأموال جمعت من حلال. وذلك قوله تعالى: ﴿**لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه**﴾.

إن هذا الجانب الحضاري تفتقر إليه الحضارات الأخرى باعتبار أن هدف الإسلام هو المجتمع الطاهر من كل دنس أو عيب.

سر الصعود والسقوط

إذا كانت الحضارة الإسلامية على هذا القدر من الشموخ والقوة والغنى، فما الذي جعلها تتأرجح صعوداً ثم هبوطاً وسقوطاً وما الذي جعل حكام المسلمين سادة وقادة في الأرض ثم ما الذي جعلها تنتكس على رأسها؟

ويأتيك الجواب من بداية الطريق، صرخة مدوية من الزهراء ــ سلام الله عليها ــ ، إن سبب الصعود والسيادة هو حب أهل البيت والاعتراف بإمامتهم. وذلك في خطبتها حيث تقول: «وجعل الله ــ سبحانه وتعالى ــ طاعتنا نظاماً للملَّة وإمامتنا أماناً من الفرقة».

إن الإمامة بناءً على ما ورد في خطبة الزهراء، تؤلف بين القلوب، بسبب العدالة الاجتماعية التي تسود الناس في حين أن الظلم يفرق بين القلوب.

وقد جاء في الخطبة نفسها: «وجعل الله العدل تنسيقاً للقلوب». إذ

عندما يكون الحاكم عادلاً فإن القلوب تأتلف. أما إذا كان ظالماً فإن القلوب تتباعد. يقول تعالى: **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾** [سورة الأنفال: الآية ٦٣].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لا تعارض بين حكم هذه الآية وبين ما كان ينفقه الرسول الأمين على المنافقين ممن دعاهم القرآن الكريم «المؤلفة قلوبهم» من أمثال أبي سفيان، فقد كان الإسلام يشتري سكوتهم بما فرضه لهم حصة من الصدقات. إنهم كانوا من أصحاب القلوب المريضة الحاقدة على الإسلام وأهله. كان يسكتهم الإسلام طالما أنهم لا يعبثون بأمن البلاد ولا يفسدون في الأرض. وقد ظهرت حقيقة أبي سفيان بعد موت النبي ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ إذ كان يقول: «تلاقفوها يا بني أمية (أي الخلافة) تلاقف الكرة فوالذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار».

إذاً الله ألَّف بينهم بالعدالة وبسيرة نبيه العظيمة وبأهل بيته وبالقرآن **﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٥٩].

فعندما تتوافر العدالة في المجتمع وعندما تصبح الكفاءة هي المعيار والمقياس ولا يعود هناك فرق بين الرعية وعندما يصبح الحاكم قريباً من رعيته يهتم بشؤونهم ومصالحهم، عندها يسود الوئام وتتآلف القلوب فتنهض الأمة وتسود وتمتد في كل مكان.

يُروى أن رجلاً مسيحياً ادّعى على الإمام عليّ عند شريح القاضي بسبب درع. شريح يسأل: لمن هذه الدرع؟ فيقول الإمام: إنها درعي. فيقول المسيحي: لا. إنها درعي. فيسأل القاضي: يا أبا الحسن: أعندك بيّنة؟. قال: لا. قال: إذاً الدرع درعه. فيأخذها المسيحي ويخرج. ولكن

الإمام يغضب. فيسأل القاضي عن سر غضبه. فيقول: ما أنصفت الرجل إذ ناديته باسمه وناديتني بكنيتي.

إنه العدل بأبهى مظاهره والحضارة الإنسانية بأجلى معانيها. لذلك يتعجب الرجل المسيحي: عجباً! عليّ أمير المؤمنين يقاضيني إلى شريح القاضي؟! ثم يتشهد بالشهادتين ويسلم. ولعل هذه الطرفة أبسط ما يضرب من أمثلة على سيرة الإمام وسلوكه.

على أن العدالة ليست واجبة في المجتمع فحسب، وإنما هي واجبة في الأسرة أيضاً، فعلى الرجل أن يكون عادلاً في أسرته **﴿فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة﴾** [سورة النساء: الآية ٣].

إذ لولا العدالة لتهدمت الأسرة. إن الرجل يجب ألاّ يعتبر نفسه حاكماً مطلقاً في أسرته لأن زوجته وأولاده أمانة في عنقه وعليه أن يحفظ حقوقهم ويرعى مصالحهم فهو مسؤول أمام الله في كل حركة من حركاته داخل البيت.

وبالإضافة إلى العدالة الاجتماعية والعدالة في الأسرة هناك العدالة مع النفس. فيجب أن يكون الإنسان عادلاً معها بألاّ يرهقها وألاّ يدعها فريسة لحبائل الشيطان، وإنما يجب أن يردعها عن الشهوات والطمع والجشع وأن يجعلها في خط الله ــ سبحانه وتعالى ــ.

إن هذه العدالة المفروضة لكي تكون سبباً لرفعة الأمة قد حملها الإمام عليّ على ظهره عندما كان يطرق أبواب الفقراء والمساكين حاملاً الطعام والمأكل والملبس. ومن قبله كان رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ القدوة في هذا المجال. وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الأئمة. فالإمام زين العابدين كان يتستر بالليل ويضع لثاماً على وجهه حاملاً الطعام

على ظهره، لدرجة أن الأطفال كانوا يتصارخون كلما رأوه: جاء صاحب الجراب.

حتى الزهراء، كان همها الفقراء من أهل المدينة. ولطالما تحدَّثْتُ عن الدماء التي رآها سلمان الفارسي على مقبض الرحى. وعندما سألها عن الدماء، علم أنها تطحن على الرحى لبعض نساء المدينة ممن ليس لديهنَّ رحى. إنها ذرية بعضها من بعض، أصلها ضارب في الأرض وفرعها شامخ متطاول في السماء لا يربو عليها أصل لآخرين مهما كرموا. وهل يمكن أن يجهل أحد منا كيف باتوا صائمين ثلاثة أيام متتالية على الماء لأنهم كانوا يتصدقون بإفطارهم على المسكين واليتيم والأسير. وأي إفطار!!

فإذا كانت العدالة تجمع القلوب وتؤلف بينها، فما الذي يجعلها تتباعد وما الذي يؤدي إلى تمزق المجتمع؟ ويأتيك الجواب من الزهراء مرة أخرى، إنه الاستبداد والظلم. لذلك تقول في خطبتها: «فأبشروا بسيف صارم (لأنكم تركتم أهل البيت وتركتم الإمامة والولاية وذهبتم إلى غيرهم لتأخذوا الإسلام منهم) وسطوة معتدٍ غاشم واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيداً (أي مالكم وثروتكم) وجمعكم حصيداً... فيا حسرة لكم... أنلزمكموها وأنتم لها كارهون» أي أنكرهكم على الأخذ بالولاية ونجبركم وأنتم لهذه الولاية كارهون؟

هل نحن إرهابيون

إن الغربيين يطلقون علينا التهم بأننا إرهابيون لا سيما نحن الشيعة!! ومما لا شك فيه أن الإسلام وضربه هو المقصود والمستهدف من خلال هذه التهمة، على أن تاريخ الشيعة واضح وضوح الشمس لا سيما الأئمة

الأطهار الذين كانوا في سدة القيادة الإسلامية. فأين هو هذا الإرهاب في تاريخهم.

إن ثلاثة من قادة الإسلام خاضوا حروباً ضد الكفر والمروق وعلى رأسهم الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ الذي ما بدأ أعداءه بقتال قط. إن غزوات النبيّ كلها وحروبه جميعها إنما كانت دفاعية لا أثر فيها لأي اعتداء من قبل المسلمين. فأين هو الإرهاب؟

والإمام علي ـ سلام الله عليه ـ، كان في حروبه التي فرضت عليه فرضاً، كان يقول: لا تبدأوا القوم بقتال. هذا الموقف تكرر منه في حرب الجمل التي وقف بوجهه فيها طلحة والزبير وعائشة وفعلوا ما فعلوا بأصحابه من أهل البصرة لا سيما عثمان بن حنيف الذي نتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، فضلاً عن الذين قتلوهم صبراً.. ومع ذلك فإن الإمام لم يبدأهم بقتال عندما تمت المواجهة. وكذلك الأمر في حرب صفين مع معاوية بن سفيان وفي حربه مع الخوارج بعد ذلك. فأين هو الإرهاب؟

أما الحسين في عاشوراء فإنه لم يسمح لبرير بن خضير أن يرمي بسهمه الذي أراد أن يرمي به القوم بعدما رأى من فظاظتهم فقد كانوا أوباشاً أجلافاً، قال لبرير: إني أكره أن أبدأهم بقتال. إن الذي بدأ بالقتال يوم العاشر هو عمر بن سعد حين رمى بسهمه قائلاً: «اشهدوا لي عند الأمير ابن زياد أني أول من رمى». فمن هو الإرهابي: الحسين أم يزيد بن معاوية، برير بن خضير أم عمر بن سعد؟

هل يمكن أن يكون الحسين إرهابياً وهو الذي أتى المشرعة على الفرات راكباً فرسه يريد أن يشرب من مائه، ولكنه رفض أي يشرب قبل جواده لما رآه يمد بعنقه إلى الماء، قال: أنا عطشان وأنت عطشان.. والله لا أشرب حتى تشرب، فرفع الفرس رأسه وكأنه فهم الكلام.

أي إرهاب هذا الـذي يتهمون الشيعـة به!!؟ نحن دعـاة سلام ونحن ضد كل إرهاب وضد العنف. إنهم هم الإرهابيون الذين يتحكمون بمصائر الشعوب ويمتصون دمـاءهم وينهبون خيـراتهم. إننا وإيـاهم أشبه مـا نكون بحكـاية الحمـل والذئب التي يعـرفهـا الجميـع والتي تمثـل تحكم القـوي بالضعيف حيث يسيطر منطق القوة على كل ما عداه.

صورة الطاغية في القرآن الكريم

إن من طبيعة الحاكم الطاغية الاستبداد بالنـاس. ولنا من تـاريخ بني أمية والعباسيين شواهد تؤكد صحة ما نقول. حيث تجد الكرامات مسحوقـة والدماء كالأنهار. ومن لا يصـدق فليس عليه إلا أن يقـرأ سيرة الحجـاج بن يـوسف الثقفي صنيعـة الأمـويين وهـادم الكعبـة، ليـرى بـأم العين مثـالاً للطاغية.

إن القرآن الكريم يحلل لنـا نفسية الـطاغية في قـوله تعـالى: **﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصـام * وإذا تـولى سعى في الأرض ليفسـد فيهـا ويهـلك الحـرث والنسـل والله لا يحب الفساد * وإذا قيـل لـه اتق الله أخـذتـه العـزة بـالإثم فحسبه جهنم﴾** [سورة البقرة: الآيات ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

إن مثل هذا الحاكم ليس له علاج إلاَّ النار، تأخذه العـزة بالإثم لأنـه لا شيء عنده اسمه حلال أو حرام. يقتـل الناس على الـظنَّة والتهمـة، فقد كان الحجاج يملأ سجونه بالأبرياء ثم يمـر على السجون لكي يستمـع إلى الأنين والصـراخ، ولا يهـدأ لــه بـال أو يهنـأ لـه عيش إلاَّ إذا شنَّف أذنــه بالصرخات المكبوته تتعالى من سجونه.

وقد أردت أن أضع هـذه الصورة البشعـة مقابـل الصور الـرائعة التي

رسمتها يد علي بن أبي طالب أثناء حكمه وكيف كان يعامل الناس ويحنو عليهم، لكي نرى الفرق الواضح بين ما كان عليه حكام الجور وبين ما يجب أن يكونه الحاكم في الإسلام. ثم لأتساءل عن سر التهمة الموجهة للشيعة بأنهم إرهابيون.

لماذا لا يكون الجزاء في الحياة الدنيا

أريد الآن أن أعود من حيث بدأت لكي نستطلع ما تعرضه علينا الآيتان موضوع البحث. قرأنا في الآية الأولى: **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾**.

إن الآية تطلب منا أن نستعيد أخبار الماضين من الأمم وأن ننظر إلى الشعوب والمجتمعات لكي نرى ما أصابهم وأدى إلى هلاكهم من ذنوب ارتكبوها ومعاصٍ مارسوها وكيف وقفوا في وجه القوانين التي سنّها لهم رب العالمين فدمرهم. ومنهم نأخذ الدرس والعبرة **﴿أو آذان يسمعون بها﴾**.

إن هؤلاء أغلقوا القلوب والعقول وسدوا الآذان دون صوت الحق فاستحقوا النار: **﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾** [سورة الملك: الآية ١٠].

على أن أهم شيء في حياة الإنسان هو أن يستخدم هذه الأدوات الحضارية التي زوده بها رب العالمين، فيسمع ويعتبر. ويتابع القرآن حديثه: **﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾**.

أي أن العمى الحقيقي هو عمى القلب لا عمى البصر، فالويل لهذا الإنسان الذي يسد منافذ النور دون عقله وقلبه ليعيش معصية رب العالمين.

وهناك مسألة أخرى تطرحها الآيتان الكريمتان هي أن الحاكم المستبد قد يطول جوره وظلمه في المجتمع لأن الله ـ سبحانه ـ يرخي له الحبل. لذلك تجد من الناس من يشكو: إن هذا الطاغية ظالم، فلماذا يرخي الله له الحبل ولا يعجل له بالعذاب: **﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾**.

لقد حدث شيء مشابه يوم غدير خم عندما أعلن النبي الأعظم أن الإمام علياً هو خليفته من بعده فسأله أحدهم: هذا منك أم من الله؟ قال: بل من الله. قال: اللَّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء. وهكذا كان فعلاً إذ نزلت عليه حجارة من السماء فجعلته صريعاً على مرأى من المسلمين جميعاً.

إن هذا العذاب العاجل ليس قاعدة لأن الله ـ سبحانه ـ يؤخر العذاب لحكمة يراها ولأن الحياة الدنيا للبلاء والاختبار: **﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾**.

إن الله ـ سبحانه ـ لن يخلف وعده فقد قطع على نفسه عهداً ألاَّ يفوته الظالم وهو له بالمرصاد. ومع ذلك يبقى السؤال ما هي الحكمة في أن الله ـ سبحانه ـ لا يعجل بعذاب الظالمين والطغاة؟ وجواباً على هذا السؤال أقول: إن هناك مجموعة من الأسباب:

أولاً ـ إن الله ـ سبحانه ـ يريد أن يذل الطاغية ويعريه تماماً. فهذا معاوية وقبيل وفاته عين ولده يزيد خليفة على المسلمين. وراح يتساءل الناس: كيف يمكن لكاتب الوحي!!! أن يسمح لشارب الخمور ومرتكب الفجور أن يكون أميراً للمؤمنين؟ فأي مسلم هذا وأي كاتب للوحي يمكن أن يرتكب هذا الخطأ الفادح؟

ثانياً ـ إنما يعجل العذاب من يخاف الفوت. ولكن الله ـ سبحانه

وتعالى ـ لا يخاف أن يفلت الظالم من يده.

ثالثاً ـ إن الدنيا ليست دار جزاء كامل، إنما الثواب والعقاب في الآخرة، إن ما نراه في الحياة الدنيا من ثواب وعقاب ليس شيئاً إذا قيس بحجم الآخرة. فلو أراد الله أن يجازي يزيد في الدنيا ويجازي الحسين في الدنيا فماذا يصنع بيزيد وماذا يعطي للحسين. هل يقتل يزيد أكثر من قتلة واحدة؟

رابعاً ـ إن المقاييس يوم القيامة تختلف تماماً عنها في الحياة الدنيا. إن الله إذا أراد أن يثيب مؤمناً قام في جوف الليل يصلي فليس هناك ثواب دنيوي يعادل هذه الصلاة لأن الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ يقول: «ثواب ركعتين يصليهما المؤمن في جوف الليل أفضل من الدنيا وما فيها»، لذلك ترك ثوابه إلى الآخرة. أما عندما ينزل البلاء على الناس فهو للمؤمنين رحمة ونعمة، وللظالمين عذاب ونقمة.

خامساً ـ إن الله ـ سبحانه ـ إذا عاقب الظالم فوراً عندما يقترف المعصية فمعنى ذلك أنك لن تجد أحداً يمارس المعصية. وهذا خلاف تركيبة الإنسان وخلاف حكمة رب العالمين. لأن الله ـ سبحانه ـ خلق الإنسان وأعطاه حرية الاختيار، كما طلب من المؤمنين أن يجاهروا وأن يقفوا بوجه الظلم والظالمين. كما أن الله ـ تعالى ـ يقول في كتابه الكريم: **﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾** [سورة فاطر: الآية ٤٥].

وهكذا نجد أن رب العالمين قد اقتضت حكمته أن يمهل الظالمين ولكنه لن يهملهم يوم يقف الناس بين يديه لكي ينصف المظلومين من ظالميهم فهذا إلى جنة عرضها السموات والأرض وذاك إلى نار وقودها الناس والحجارة أعدت لكل ظالم أثيم.

أصحاب الحسين وصحابة الرسول

إن ما حدث في عاشوراء سنة إحدى وستين للهجرة ليس مجرد حادثة نائمة في التاريخ نمر عليها كما نمر على غيرها من أحداث التاريخ. إن قضية الحسين هي مسألة حياة تمتد عبر الأجيال وتغادر الزمان والمكان فقضايا الحياة لا تتقيد بتاريخ ولا تحنط برمان أو مكان، وتخرج عن كونها ملكاً لأمة من الأمم بما تكتسبه من بعد إنساني فتغدو ملكاً للإنسانية كلها.

إن الحسين أشبه ما يكون بنهر متدفق تتجدد مياهه في كل لحظة، وبشمس تشرق وتغرب كل يوم وفي كل مكان لأنها قضية المظلومين والمعذبين عبر الأجيال. لذلك نتَّجه إليه دائماً لكي نتعلم الدرس ونتقن الدور ونصحح حركتنا في الحياة، لأن أهم ما تتميز به قضية الحسين في كربلاء هو تصحيح حركة الإنسان في حياته.

والدرس لا نتعلمه من الحسين فقط، وإنما نقرأ الدرس أيضاً لدى أصحابه الميامين الذين وقفوا إلى جانبه وهم يعلمون ويدركون أن الموت ماثل أمامهم ولا مفر من ملاقاته. لذلك يرى البعض أن أصحاب الحسين أفضل من أصحاب رسول الله للأسباب التالية:

١ ـ إن الرسول يقول «حسين مني وأنا من الحسين». وعلى هذا فإن أصحاب الحسين هم بالمعنى أصحاب رسول الله لأن من ينصر الحسين هو في الواقع ينصر الرسول.

* * *

٢ ـ إن بعض أصحاب الحسين هم في الواقع كانوا من أصحاب رسول الله كحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة.

* * *

٣ ــ إنهم أفضل من أصحاب رسول الله لأن أصحاب الرسول قد كانوا يطلبون إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة في حين أن أصحاب الحسين لم يكن أمامهم إلاَّ الشهادة فقط. لا سيما أن الحسين يقول لهم: «إن الله قد أذن في قتلكم وقتلي».

* * *

٤ ــ إن أصحاب الرسول كان جبرائيل وميكائيل لهم ظهيراً في حين أن أصحاب الحسين قد سدت دونهم المنافذ وأخذت عليهم الدروب من كل جانب.

* * *

٥ ــ إن أصحاب النبي ما كان بمقدورهم أن يفروا من المعارك لأن الله ــ سبحانه ــ يعتبر فرارهم خيانة توصل إلى النار، بينما أصحاب الحسين خيرهم ليلة العاشر بقوله: «هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه لكم جملاً». لكنهم رفضوا واختاروا مصيرهم بأنفسهم، لا سيما عندما أجابوه بقولهم: «يا أبا عبد الله كيف نتركك وبماذا نجيب جدك رسول الله».

* * *

لا شك أنها مدرسة عظيمة لا تجد مثلها إلاَّ في رحاب أهل البيت وعند من تتلمذ فيها فوعى الدرس جيداً ففاز بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للصديقين والشهداء.

وإذا كان الموت ثلاثة أنواع: الموت على الفراش وموت المستضعفين الذين يذهبون ضحية الطغاة وموت الشهادة حين تختارها بنفسك، فلعمري إن النوع الثالث هو أعلاها مرتبة وأسماها منزلةً وأفضلها مطلباً لأن فيه الفوز الحقيقي الذي يقودك إلى جوار رسول الله وأهل بيته.

فما أحلى هذا الجوار.. وما أعذب الموت الذي يقود إليـه... لا سيما أن الحسين ـ سلام الله عليه ـ يقول: «خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة» فما أروع أن يختار الإنسان طريقـة موتـه في الموقـع نفسه الـذي مات فيـه واستشهد الإمـام الحسين.. أي في سـاحـات الجهـاد.. وبـذلك تكـون المواسـاة الفضلى لسبط النبـي المصـطفى ونجـل الـوصي المجتبـى وفلذة كبد الزهراء سيدة نساء العالمين وأخي الحسن الزكي الذي قضى بالسم مغدوراً ومظلوماً...

• • •



مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي

مدخل إلى الاقتصاد الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: **﴿واعلموا أنّما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾** [سورة الأنفال: الآية ٤١].

تمهيد

يعتقد بعض الناس واهمين أن كل شيء في الدين يجب أن يخضع لمقياس التطور، أي أن المرأة التي كانت تتحجب في الماضي تستطيع الآن بدافع التطور أن تترك حجابها وتسير في الشارع سافرة، وكذلك الأمر بالنسبة للصوم يمكن أن نطور فيه لا سيما إذا جاء شهر رمضان في أيام الحر؛ فبدافع من العصرنة نقدر أن نصوم نصف صوم أو ربع صوم، وهكذا.

ومقابل هؤلاء المتعصرنين ثمة أناس متحجرون متجمدون يرون أن الإسلام يجب أن يبقى كما كان في عهد الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ، فإذا كان في عهد الرسول الأعظم لا يوجد بنايات وعمارات وحمامات في مكة المكرمة فلا يجوز بناؤها اليوم، وإذا كان الحجاج قديماً يذهبون إلى الحج على ظهور الجمال فلا يجوز اليوم السفر بالطائرات وحجتهم أن القرآن الكريم يقول: **﴿وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر﴾** [سورة الحج: الآية ٢٧].

وبناءً على الآية الكريمة يرون أن الحجاج يذهبون إلى الحج على أرجلهم أو على البعير الضامر، التزاماً منهم بالنص القرآني.

ومما لا شك فيه ولا ريب أن الإسلام ليس على هذا النحو من الضحالة في التفكير لأنه يرفض كل أشكال السطحيات نظراً لما يتميز به من العمق، تماماً كما يرفض الإباحية في التفكير والتهور الذي لا تحدّه حدود؛ ففي الإسلام قواعد عامة يستحيل أن يطالها أي لون من ألوان التغيير.

إن هذه القواعد العامة التي لا يمكن أن تتغير لها نظير في الكون نفسه، حتى تجد قوانين كونية ثابتة؛ فسرعة الضوء مثلاً ٣٠٠ ألف كلم في الثانية، ولا يستطيع أي كان أن يزعم أنه يجب تعديل هذه السرعة زيادة أو نقصاناً.

إنها قاعدة فيزيائية عامة وثابتة غير قابلة للتعديل؛ ونظير ذلك القاعدة القائلة: «الكل أكبر من الجزء»، فاليد يستحيل أن تصبح أكبر من الجسد لأنها جزء منه. وكذلك القواعد العامة في الإسلام، لا تخضع لقانون التطور بأي حال من الأحوال.

على أن هناك موضوعات إسلامية يمكن أن نطورها؛ فإذا كان نبي الرحمة يقول: «من أضاء شمعة في مسجد من المساجد أضاء الله قلبه بنور الإيمان وأضيء قبره وجعل الله له من الضياء والنور يوم القيامة ما يسعى بين يديه»، فإن هذا لا يعني أننا لا نستطيع أن نضيء المساجد بغير الشمعة كالكهرباء مثلاً، فالمهم الحكم وهو الإضاءة: شمعة كان أم كهرباء، بل الكهرباء أفضل زيادةً في التنوير؛ وإذا كان القرآن الكريم يقول: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل**﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠].

فإن ذلك لا يعني أنني لكي أحارب الكفار ملزم بالسيف والرمح والخيل والإبل، وبالتالي يحرم عليَّ أن أعد لهم الطائرة النفاثة والصاروخ والدبابة، فالمهم أن تكون لدي القوة الضاربة لكي أقاتل الكفار.

بعض ركائز الاقتصاد الإسلامي

ذاك هو الإسلام في حقيقته، لا سيما أن الشريعة الإسلامية اكتملت بدليل قرآني: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾ [سورة المائدة: الآية ٣].

وبدليل نبوي شريف: «أيها الناس اعلموا أنه ما من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، وما من شيء يقربكم إلى النار إلاَّ وقد نهيتكم عنه».

وعلى ضوء هذه الحقيقة نفهم أن حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة، ولا يحق لأي كان أن يحلل حرامه أو يحرم حلاله؛ ومن القوانين الإسلامية في الاقتصاد التي تبقى ثابتة الخمس والزكاة والجزية والخراج. إنها تشكل العامود الفقري للاقتصاد ولا يحق لأي كان أن يمسّ بها أو أن يتجرأ عليها.

ورب معترض يقول: إن الاقتصاد الإسلامي لم يطبق طوال القرون الماضية والأمم الخالية، فكيف يمكن أن نطرحه اليوم للتطبيق في عصر الذرة والكمبيوتر وعصر الآلة والقوانين الاقتصادية المتطورة؟

ولهذا المعترض أقول: في علم المنطق والفلسفة قاعدة مُسَلَّم بها تقول «إن عدم تطبيق الشيء لا يعني عدم صلاحيته». فالدواء الذي اكتشف لمعالجة الحمى، إذا لم يستخدم فهذا لا يعني أنه غير صالح؛ ولو فرضنا أن الناس لم يستخدموا البنسلين، فعدم استخدامهم له لا يعني أنه غير صالح، والنفط الذي بقي دفين الأرض ملايين السنين لا يعني عدم

صلاحيته في حال لم يستخدمه الإنسان، لا سيما أن القرآن قد أشار إليه قبل اكتشافه بقوله: ﴿وما تحت الثرى﴾ [سورة طه: الآية ٦].

والإشارة إلى النفط وإلى غيره من الطاقة والمواد الأولية المدفونة في باطن الأرض، وإذا كان هناك طبيب حاذق ولكن الناس لا يذهبون إليه بمرضاهم، فهذا لا يلغي مهارته وحذقه.

وعلى هذا الأساس يمكننا الجزم بأن عدم تطبيق الاقتصاد الإسلامي لا يعني أنه غير صالح، بل يعني أن المسلمين لم يوفقوا إلى تطبيق هذا النظام العظيم؛ هذا من جهة ومن جهة أخرى، فمن هو الذي يزعم أن الاقتصاد الإسلامي لم يطبق؟ إن من يراجع التاريخ يكتشف أنه قد طبق ما يقارب القرن من الزمان لا سيما في حكومة علي بن أبي طالب. وأنا لا أدعي أنه كان مطبقاً حرفياً، إنما الصبغة العامة كانت صبغة اقتصاد إسلامي زكاةً وخمساً وخراجاً وجزيةً؛ حتى في أيام الأمويين، على فسقهم وفجورهم، كان المناخ العام اقتصاداً إسلامياً. وفي أيام العباسيين أيضاً يصح ما صح قوله أيام بني أمية. وكلمة هارون الرشيد في مخاطبته للسحابة التي مرت فوق بغداد دون أن تمطر، كلمة مشهورة. قال: «أمطري حيث شئت فإن خراجك سوف يعود إليّ».

وأنا لا أنكر أنه قد كان هناك فساد في التطبيق. فالمأمون مثلاً يعطي خراج أفريقيا إلى الحسن بن سهل الذي زوّجه من ابنته بوران؛ لقد تزوجها المأمون فنثر على الناس الهدايا وضمّن كل هدية ورقة صغيرة كتب فيها اسم بستان أو ضيعة لصاحب الهدية أو كُتب فيها مبلغ ضخم من المال. لقد فعل المأمون ذلك بل أكثر منه في حين أن هناك من يحتاج هذا المال أكثر من رجال الدولة الذين وهبهم المأمون المال. إن تصرّفه مخالف لأنظمة الاقتصاد الإسلامي ولتعاليم الإسلام.

وعندما نقول: خراج أفريقيا، فإن ذلك يعني أن الناس كانوا يدفعونه إيماناً منهم والتزاماً بمبادىء إسلامهم الاقتصادية. إذاً الصبغة العامة كما قلت هي صبغة إسلامية برغم انحراف الحاكم من خلال تصرفه الأرعن الذي لا تقره الشريعة الإسلامية.

أهل الذمة والجزية

إن الجزية التي يدفعها أهل الذمة وهم من غير المسلمين لا سيما أهل الكتاب من يهود ونصارى، دفعت البعض إلى القول: إن في ذلك إهانة لهم من قبل الإسلام. والحقيقة أنه ليس في ذلك أي لون من ألوان الإهانة؛ فإذا كان المسلمون يدفعون الخمس والزكاة فإن الجزية التي تدفعها الأقليات هي مقابل ذلك، علماً أنه على الدولة الإسلامية أن تسهر على حمايتهم ومصالحهم. يقول القرآن الكريم: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم﴾** [سورة الممتحنة: الآية ٨].

إن الإسلام كان يعاملهم معاملة حسنة فلا يفرض إرادته عليهم، من شاء فليؤمن ومن شاء أن يبقى على دينه كان يترك له كامل الحرية في ممارسة شعائره الدينية في كنيسته أو معبده، إلا إذا استخدم الكتابي طقوسه الدينية ضد المسلمين بأن يبشر بها في صفوف الشباب من المسلمين، فساعتئذٍ يتدخل الإسلام لكي يمنع الضرر عن المسلمين. والغريب اليوم أن الكنائس المنتشرة في الدول الإسلامية تحظى بحقوق واحترام أكثر من المساجد، كما أن حانات الخمور المنتشرة في الدول الإسلامية لا تحصى ولا تعد بالرغم من أن القرآن يحرم الخمرة تحريماً قطعياً ويعاقب على شربها فضلاً عن بيعها وتسهيل الحصول عليها؛ يضاف

إلى ذلك دور اللهو والفساد وصالات السينما التي تعرض الأفلام الخليعة.

إذاً الإسلام يسمح للأقليات أن يعيشوا في المجتمع الإسلامي، يمارسون طقوسهم وشعائرهم من غير أن يكون ذلك على حساب المسلمين. كما يسمح لهم بأن يطبقوا أحكامهم وقوانينهم في الأحوال الشخصية. وفي هذا المجال يقول الإمام الصادق ـ سلام الله عليه ـ : «ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم». إنها قاعدة شرعية من شأنها أن تعطي الإسلام القدرة على الانفتاح العالمي، وتشكل قاعدة التعامل مع الدول كل الدول سواء كانت هذه الدول مسيحية أم يهودية. ولكن مع الأسف لم تطبق هذه القاعدة الإسلامية الرائعة في التعامل الدولي.

وإذا كان الإسلام قد فرض على الأقليات الجزية فإنهم لم يكونوا ملزمين بالقتال، بل إن الإسلام كان ملزماً بالدفاع عنهم والسهر على مصالحم نظير هذه الجزية التي كانوا يدفعونها. وقصة الإمام عليّ ـ عليه السلام ـ عندما رأى الضرير النصراني قصة معروفة، فقد رآه يستجدي الناس فأخذه إلى بيت المال وأعطاه نصيبه وخصص له معاشاً يكفيه.

لماذا حرم الإسلام الربا

إن الإسلام في نظامه الاقتصادي يختلف عن سائر الأنظمة والنظريات الاقتصادية من شيوعية أو رأسمالية أو اقتصاد حر، لا سيما في مسألة الربا الذي يحرمه الإسلام في حين أن سائر الأنظمة تبيحه بقوة. والقاعدة التي التزمها الإسلام هي: ﴿**أحل الله البيع وحرَّم الربا**﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٥].

وذلك لأن الربا من أبشع أنواع الاستغلال. كيف؟

عندما يستقرض أحدهم مالاً من متمول ما فهو يفعل ذلك لواحد من

أمرين: إما لكي يشتري بعض الحاجات الأساسية له ولعياله من مسكن أو سدّ جوع أو كساء أو مداواة مريض، وإما لكي يعمل بهذا المال ويتاجر من أجل أن يحصل على ربح بعض المال.

ففي الحالة الأولى يكون المرابي قد استغل هذا المحتاج استغلالاً بشعاً، لأنه في الأصل فقير وإلاّ لما استقرض المال، استغلّ حاجته الماسة للمال فاشترط عليه مقداراً من الفائدة، علماً أن هذا الفقير يريد أن يشتري رغيف خبز لعياله، أو شراء دواء لمريضه، أو شراء ملابس لأولاده العراة، ومن هنا كان الاستغلال بشعاً. إن المرابي يكون قد سرق ربحاً سهلاً ومجاناً على حساب لقمة العيش من أفواه الأطفال الجياع، وبالتالي سرق أتعاب إنسان محروم مستضعف. ومما لا شك فيه أن المرابي الذي من هذا النوع تلعنه ملائكة السماء، واللعنة هي طرد من رحمة الله، ويوم القيامة يخلد في النار مهاناً.

أما في الحالة الثانية ــ أي استقراض المال للعمل والتجارة ــ فقد يستقرض المال ويتاجر، فإما أن يخسر وإما أن يربح وإما يحافظ على رأس ماله من غير ربح ولا خسارة، ففي حالة الخسارة يكون الربا ظلماً فوق ظلم الخسارة، ولا شك أن ذلك استغلال مضاعف، وفي حالة المحافظة على رأس المال بدون ربح ولا خسارة فإن الربا يبقى ربحاً غير مشروع لأن هذا الرجل سوف يدفعه من رأس المال فضلاً عن الجهد الذي بذله في أثناء عمله. إما في حالة الربح فإن المرابي يكون قد حصل على جزء من هذا الربح الذي جاء به المستقرض.

وفي هذه الحالة يقدم الإسلام مشروعاً أفضل يسمى المضاربة، وهو أن يتفق الفريقان الدائن والمدين على لون من ألوان المشاركة في حالتي الربح والخسارة وبنسبة مئوية معينة يتفق عليها الطرفان وساعتئذٍ يصبح

الربح مشروعاً.

من أجل كل ذلك يعتبر الإسلام الربا ربحاً غير مشروع، وبالتالي فهو يحرم ذلك. وهو من القواعد الإسلامية التي لا تقبل التطوير طالما أنه تصدق عليه كلمة ربا؛ ذلك أن الإسلام يريد مجتمعاً إسلامياً نامياً متعاوناً ومتآلفاً في السرَّاء والضرَّاء، لا مجتمعاً تحاصره الأزمات من كل جانب.

إن الإسلام يرفض مجتمعاً تسود فيه الرذيلة وتفتك به الأمراض كالخمر والربا والاستغلال والزنى والفساد والجريمة. إن المجتمع الإسلامي الذي يريده الإسلام هو مجتمع وسط بين الإفراط والتفريط، لا إسراف فيه ولا تبذير: **﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾** [سورة الأعراف: الآية ٣١].

﴿ولا تبذر تبذيراً * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ [سورة الإسراء: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧].

الخمس والزكاة

بعد هذه الجولة في رحاب أخلاقية الاقتصاد الإسلامي، أعود إلى الآية موضوع البحث: **﴿اعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾**.

ومن الواضح جداً في هذه الآية من هم أصحاب الخمس؛ إنهم على التوالي: الله والرسول وقربى الرسول واليتامى والمساكين وابن السبيل. على أن الأسهم الستة تنقسم إلى قسمين: الأسهم الثلاثة الأولى بعد وفاة الرسول يعود شأنها للإمام، وهذا القسم يسمى سهم الإمام وبقية الأسهم تشكل القسم الثاني وهو سهم السادة أي اليتامى والمساكين وأبناء السبيل منهم.

على أن سهم الإمام يصرف في مصالح المسلمين من طبع الكتب ونشر الوعي الإسلامي والإبلاغ والتبليغ في سبيل الله وبناء المؤسسات. وباعتبار أن هذا السهم قد لا يكفي احتياجات الدولة الإسلامية لذلك ترفده الزكاة؛ وهي تكون ـ أي الزكاة ـ في الأنعام الثلاثة: الإبل والبقر والغنم، وفي الغلات الأربع: الحنطة والشعير والتمر والزبيب، وفي النقدين الذهب والفضة.

أما الخمس فيكون فيما يلي: في الغنيمة من الغُنْم، وهي لا تقتصر على ما يربحه المسلمون في الحرب وإنما تشمل كل ما يغنمه الإنسان في حياته، ويكون الخمس أيضاً في المعادن السائلة والجامدة كالنفط والذهب.

ولو فرضنا أن الخمس والزكاة والخراج والجزية لم تكن كافية لتلبية الحاجات في الدولة الإسلامية، فللحاكم الإسلامي أن يفرض بعض الضرائب شرط أن تكون مؤقتة فتنتهي بانتهاء الحاجة إليها لا سيما في أثناء الحرب كما صنع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ، وذلك لتغطية نفقات الحرب.

على أن الخمس يطال أيضاً ما يستخرج من الأرض مثل الفحم والكبريت والمعادن المستخرجة من باطن الأرض، وكذلك اللؤلؤ الذي يستخرج من أعماق البحار، بالإضافة إلى الكنز. فهذه كلها يخرج منها الخمس على الفور من غير انتظار رأس السنة التي يحددها المكلف في أي وقت يريد من السنة القمرية.

أما الأرباح التي تخضع لتحديد رأس سنة فيخمس منها ما يبقى بعد إخراج المؤونة لسد أود صاحبها وعائلته وسائر المصروف من طعام وشراب

وملابس وأدوية وسيارة ودابة، حتى الضيافة تعتبر من ضمن هذه المؤونة أو المصروف، لأن الإسلام يريد أن يحافظ عليها باعتبارها تدل على إيمان صاحبها، وقد ورد في الحديث الشريف: «الضيف ينزل برزقه ويخرج بذنوب أهل المنزل» أي يمحوها.

أما ابن السبيل فهو الغريب في بلد انقطعت به السبل وفقد ماله ولا يستطيع العودة إلى بلده، إن الإسلام قد جعل له نصيباً من الخمس مما يؤمن له العودة إلى بلده كريماً سالماً وإن كان في بلده غنياً، فلا تنقطع به السبل وتسد في وجهه الأبواب، شرط أن يعامل معاملة تتناسب مع وضعه الاجتماعي في بلده.

صرخة في واد

إن المرء ليشعر بالراحة وهو يرى كم هذا الدين عظيم بقوانينه ونظمه، فهو لا يترك صغيرة ولا كبيرة في المجتمع الإسلامي إلا ويقدم لها العلاج والحل المناسبين، ولكن تعتصر قلبه المرارة عندما يلاحظ أن المسلمين لا يعملون به ولا يطبِّقونه؛ فإلام يبقى هذا الدين بنظمه وقوانينه راقداً في بطون الكتب والمكتبات، ومتى نطبق هذا القرآن العظيم الذي يخاطب المسلمين والمؤمنين والناس في كل آية من آياته ويستصرخهم آناء الليل وأطراف النهار؟

إن القرآن يحتاج إلى تطبيق والإسلام يجب أن يتحرك بين المسلمين لأنه دين العدالة والحرية والعلم والسعادة. ومع ذلك فإن المسلمين في شتى أنحاء العالم يعانون العذاب ويفتقرون إلى العدالة والحرية والعلم والسعادة، لا سيما أن الكفر يكيل ضرباته ويشن هجومه على الإسلام والمسلمين. لذلك يجب أن يعلم المسلمون وحكام المسلمين أنه لا عزة

لهم إلاَّ بالإسلام والعودة إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ . إن العزة لن تأتينا من أميركا ولا من البيت الأبيض لأن الأميركيين وسائر المستكبرين ما هم إلاَّ أوباش يفتقرون إلى الضمير والوجدان والإنسانية والرحمة.

لذلك لا شيء، ينقذنا، نحن المسلمين، إلا العودة إلى إسلامنا وإلى رسول الله وإلى علي بن أبي طالب وإلى القرآن وإلى أهل البيت. إنه من غير المعقول ولا هو مقبول أن يقف المسلم في صلاته يكبِّر الله ويشهد بأن لا إلّه غيره ويطلب منه العون ثم يخضع للمحاكم التي تقضي بقوانين الغرب.

إن الآية الكريمة التي مرت بنا تهدف إلى تربية المسلمين على العطاء مقابل الكفار الذين يكيدون للإسلام: **﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾** [سورة الأنفال: الآية ٣٦].

إن اليهود في شتى أرجاء العالم يؤلفون الجمعيات ويجمعون التبرعات لكي يحاربوا الإسلام والمسلمون ساهون نائمون يدفنون رؤوسهم في رمال الجهل والخمول كالنعامة تماماً ويتعامون عن الحقيقة التي تصرخ فيهم ولكنهم لا يسمعون أو أنهم لا يريدون أن يسمعوا. لا سيما أنهم يملكون ثروة من أكبر الثروات في العالم، عنيت بها الثروة النفطية التي يسطو عليها لصوص الغرب من أميركيين وأوروبيين، في حين أن الحكام الأغبياء من المسلمين يبذرون الأموال في كل مكان ما عدا ما يخدم الإسلام؛ فأين هي على الأقل المكتبات التي يجب أن ينشروها في شتى أرجاء العالم يوضحون من خلالها إسلامهم والكنوز الكامنة فيه.

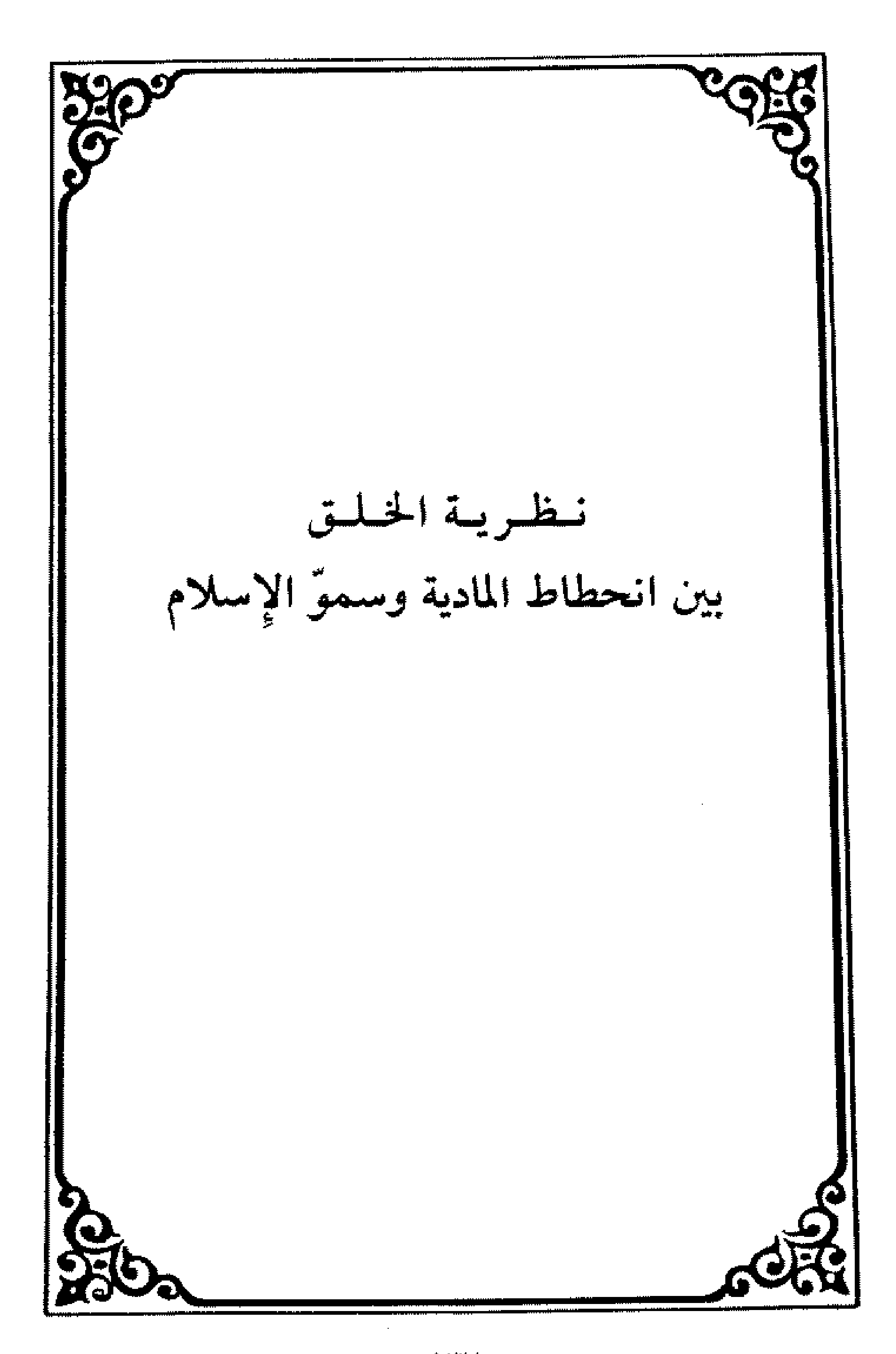
أين هم هؤلاء الغيارى، ولماذا تبقى أموالهم في غياهب البنوك وظلمات الصناديق والخزائن، لا يصرفونها إلاَّ في أماكن اللهو والترف

والبذخ، وكأنهم لم يقرأوا أو لم يسمعوا الحديث الشريف الذي يقول: «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم». يجب أن ينفقوا أموالهم في كل مكان يدعم الإسلام ويرفع من شأن المسلمين لا سيما ما يدعم ويساعد المبلغين الإسلاميين الذين يحملون الإسلام في قلوبهم وعقولهم وعلى ألسنتهم.

إني أخاف أن تبقى صرختي في وادٍ من غير صدىً لا سيما عندما نرى ونسمع أن فلاناً من المتولين قد علق على صدر الراقصة الفلانية شيكاً بملايين الدولارات لأنها كانت ترقص له، وأن فلاناً من الحكام قد ابتنى يختاً بلغت تكاليفه مليارات الدولارات!!! إنك لو طلبت من أمثال هؤلاء أن يتبرعوا من أجل الإسلام لراح الواحد منهم يدقق معك بالأسئلة عن طبيعة مشروعك وعن الإيصالات، فهل سأل الراقصة عن مشاريعها وعن إيصالاتها عندما علق الشيك على صدرها، علماً أنه لا مشاريع لها سوى الرقص وجمع الشياطين والانحدار الخلقي...

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب...

• • •



نظرية الخلق
بين انحطاط المادية وسموّ الإسلام

نـظـريـة الخـلـق
بين انحطاط المادية وسموّ الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بـدأ الخلق ثم اللَّهُ ينشيءُ النشأة الآخرة إن اللَّهَ على كل شيء قدير﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٢٠].

لعـل الموضـوع الذي يـطرحه القـرآن الكريم من خـلال هـذه الآيـة المباركة يعتبر من أدق المواضيع في الفكر الإسـلامي، لأنه يـرتبط بحركـة الإنسان في هذه الحياة ويرتبط بأعماق وجوده وآفاق مستقبله ومصيره.

وحتى لا يبقى فكـر الإنسان سجين جلده وذاتيتـه فإن القـرآن الكريم يدعوه للانطلاق في رحلة علمية استكشافية لأصل وجـوده وأبعاده ومـراميه. ورحلة المعرفة هذه هي رحلة باتجاه الدين، لأن الـدين هو معـرفة الخـالق والخلق ومـا يتـرتب على هـذه المعـرفـة من مـوجبـات وتكليف. ذلـك أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يجري عليه التكليف الشرعي.

وأول الدين معرفة الله سبحانه. لأن الذي لا يعـرف الله لا تستقيم له عبادة، وكل ما يقوم به يكون مجرد طقوس فارغة من أي محتـوى. ومن هنا يقول أمير المؤمنين (ع): «أول الدين معرفته» أي معرفة الله.

إن مسيرة الإنسان في هذه الحياة هي مسيـرة من أجل تعميق معـرفته

بالله، لأن هذه المعرفة هي مفتاح جميع المعارف وأم جميع الحقائق. إنها مسيرة كدح معرفي وعرفاني باتجاه الله: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك فملاقيه﴾ [سورة الانشقاق: الآية ٦].

وتعميق معرفة الإنسان بالله تبدأ من نظره في نفسه وفي الخلق من حوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحقُّ﴾ [سورة فصّلت: الآية ٥٣].

ومن هنا دعوة الآية الكريمة للإنسان أن ينظر أولاً في مبدأ الخلق، وهذا النظر يوصله مباشرة إلى معرفة الخالق.

إن طبيعة الفكرة التي نكوّنها ونتبنّاها عن مبدأ الخلق وأصله مرتبطة بطبيعة الفكرة التي نكوّنها عن الخالق وعن المخلوقات وعلى رأسها الإنسان.

فهذا الإنسان يمكن أن ينحدر إلى أسفل الدرجات إذا اعتبرنا أصله مادياً صرفاً وبإرادة المادة، ويمكن أن يسمو إلى أعلى الدرجات إذا اعتبرنا مبدأه وأصله من إرادة إلّهية سامية. وهنا يكمن الفرق الأساسي بين النظرية المادية والنظرية الإسلامية فيما يتعلق بأصل الإنسان ومبدئه ومصيره.

نظرية دارون في مبدأ الخلق

دارون رجل مسيحي من أم مجوسية وأب يهودي. قدم نظرية سماها نظرية التطور والنشوء والارتقاء. وتتلخص نظريته بأن جميع الكائنات الحيّة تفرعت من أصل واحد وتناسلت من خلية واحدة.

من أين جاءت هذه الخلية؟ يقول: هذه الخلية جاءت من كوكب آخر.

كيف استطاعت هذه الخلية أن تنتقل من مجموعة كوكبية أخرى إلى الأرض وكيف استطاعت أن تتخطى طبقات الجو العليا وحرارة الصفر المطلق والإشعاعات الكونية التي تبيد كل كائن حيّ يمر بها؟ يقول: وصلت!.. هكذا دون مجال للبحث العلمي.

وإذا سئل دارون عن دليله لكل ذلك يقول: الدليل هو أن الهيكل العظمي نفسه موجود عند الإنسان وعند القرد والحصان وسائر الحيوانات الفقرية. وأن القلب بغرفه الأربع هو نفسه عند هذه الحيوانات وعند الإنسان، كذلك الأمر بالنسبة للدورة الدموية. كما نستطيع أن نلاحظ أن الفقرات السبع في عنق الإنسان موجودة في عنق الفيل والنملة والزرافة والقنفذ.

لنفترض أن هذه الكائنات الحية كلها جاءت من خلية واحدة، فكيف حدث هذا التنوّع؟ يقول: حدثت حرب دامية بين الكائنات، وهذه الحرب قامت على قاعدة البقاء للأصلح والأقوى. فالحيوانات القوية استطاعت أن تحتل الأرض واتخذت من الغابات مركزاً رئيسياً لها. والحيوانات الضعيفة انقسمت إلى قسمين: قسم رمى بنفسه في أحضان الماء وعالج السباحة فتحولت أرجله إلى أرجل مبططة وما يشبه الحراشف، والقسم الثاني انطلق في الهواء خوفاً من السباع والأسود، وراح يحلّق في الهواء فنبتت له أجنحة بمرور السنين. وهكذا توزعت الحياة على ثلاث جبهات جبهة الأرض، وجبهة الماء، وجبهة الهواء.

يضيف دارون في كتابه «أصل الأنواع» بأن دراسة طبقات الصخور تدل على أن الإنسان نفسه هو جصيلة طبيعية لتطور الخلية الأولى. كيف؟ يقول: انبثق من الخلية الأولى حشرات ثم تحولت إلى طيور وأسماك وضفادع وكلاب حتى وصلت في تطوّرها وارتقائها إلى القرد الذي يعتبر

جدّ الإنسان الأول، ومن القرد جاء الإنسان.

سؤال علمي يحاصر دارون: كيف هذا القرد الأعمى استطاع أن يتحوّل إلى إنسان مفكر مبدع خلّاق؟ يجيب: قبل عشرين مليون سنة كان شعب القردة يعيش في أفريقيا وفي كينيا بالذات. وهذه القردة كانت تعيش في بحبوحة وراحة وسعادة. ثم ضربها إعصار الجفاف والقحط واستمرت تعاني من ذلك قرابة إثني عشر مليون سنة. ثم بعد ذلك حاصرتها الحيوانات الأخرى المفترسة فهربت القرود أمامها وابتدأ عصر يسميه دارون بعصر المطاردة. أخذت القردة تركض أمام الحيوانات المفترسة التي تطاردها، واضطرت هذه القرود لأن تجري على رجلين اثنتين بدلاً من أربع وأطلقت يديها في الهواء. وهكذا مع الزمن تحوّل القرد إلى إنسان يمشي على رجلين وحرّر يديه... هذا هو بشكل عام ملخّص نظرية دارون في أصل الأنواع ومبدأ الخلق.

تهافت نظرية دارون

إن نظرية دارون هذه تسقط وتتهافت أمام النقد العلمي والمنطق السليم.

في البداية يؤكد كبار علماء فسلجة جسم الحيوان، ويؤكد ذلك المنطق والملاحظة، أن الحيوان يجري بشكل أسرع إذا كان على قوائمه الأربع، وإذا اضطر أن يجري على قائمتين فقط فإن جريه يكون بطيئاً ولا يلبث أن يعود إلى قوائمه الأربع.

هذه ملاحظة بسيطة في البداية. ولكن النقد العلمي العميق يركز على نقطتين تفضحان هذه النظرية.

١ ــ الأولى اكتشاف العلم للخريطة الكرموزومية للخلية الحيّة، أي خريطة الجينات الوراثية.

إذا كانت نظرية دارون صحيحة بأن المخلوقات الحيّة تناسلت من خلية واحدة، فهذا يقتضي أن تكون جميع الخلايا عند جميع الكائنات الحيّة من إنسان وحيوان وطير وغير ذلك، أن تكون تلك الخلايا ذات تركيب كروموزومي واحد.

ولكن الاكتشاف العلمي أثبت بشكل قاطع أن كل فصيلة من فصائل الكائنات الحيّة تمتلك تركيباً خاصاً في نواة الخلية مختلفاً عن الفصائل الأخرى. فالتركيب الكروموزومي لخلية القرد تختلف كلياً عن التركيب في خلية الكلب أو الحصان أو الإنسان أو الفيل أو السمكة... إلخ. وهذه الخصائص الكروموزومية لكل فصيلة هي التي تحدد صفاتها المختلفة عن الفصائل الأخرى كما أنها تتحكم بمسائل الوراثة والصفات الفرعية عند كل فرد من أفرادها.

وهكذا نجد مثلاً أن الخطوط الجلدية (الموجودة على سطح الكف) تختلف من إنسان إلى آخر ولا يمكن أن تجد لشخصين مختلفين نفس بصمة الإبهام أو الكف. أي هناك مليارات من البصمات المختلفة يبلغ عددها عدد أفراد البشر.

ومن جانب آخر تجد لكل شخص نبرة صوتية خاصة، ولا يمكن أن تجد شخصين يمتلكان نفس الصوت والنغمة الصوتية. يمكن أن تتشابه بعض الأصوات وتقترب من بعضها كثيراً ولكنها لا تتطابق مطلقاً. يمكن لإنسان أن يقلّد صوت إنسان آخر إلى درجة كبيرة يلتبس معها الأمر عليك، ولكن التدقيق العلمي والمعاينة الدقيقة تثبت لك الفروق ولو البسيطة التي تجعل من صوت هذا غير صوت ذاك.

إذن اكتشاف خارطة الكروموزومات الخلوية أثبت خطأ النظرية الدارونية في هذا الجانب.

٢ ـ في الجانب الآخر أثبتت الدراسات العلمية والتجارب الدقيقة الاختلاف الكبير بين دماغ القرد ودماغ الإنسان. لقد أثبت العلم أن الخلايا الدماغية عند الإنسان تموج بمجال كهربائي يعطي أمواجاً فكرية، في حين أن الخلايا الدماغية للقرد تفتقد لهذه الموجات الكهربائية. وهذا هو السرّ الذي يفسّر قدرة الإنسان على التفكير وعدم قدرة القرد على ذلك. وبالتالي فإن الإنسان العاقل المفكر لا يمكن أن يتحدّر من ذلك القرد غير القادر على التفكير.

وبدراسة دماغ الإنسان تبيّن للعلماء أن القشرة الدماغية تحتوي على مناطق متعددة، وكل منطقة مختصّة بوظيفة من الوظائف التي يقوم بها الإنسان. فهناك منطقة مختصة بالبكاء وثانية بالضحك وثالثة بالكلام ورابعة بالكتابة وخامسة بالنطق وسادسة بالنوم، وهكذا إلى آخر الوظائف بحيث تشكل كل منطقة المركز العصبي الذي يتحكم بالوظيفة المكلف بها. وهذه الدراسات نفسها أجريت على القرد وتبيّن أن دماغه لا يحتوي على منطقة خاصة بالنطق. وهكذا فإن القرد غير قادر على الكلام وغير قادر على التطور إلى حيوان ناطق مهما أخضعته للتعليم.

خلال الحرب العالمية الثانية أصيب أحد الجنود بشظية في رأسه، ثم عولج وتماثل للشفاء. ولكن الأطباء لاحظوا أن هذا الشخص كان إذا مال برأسه يميناً يتملكه ضحك قوي لا يقوى على إيقافه، وإذا مال برأسه يساراً يتملكه بكاء شديد. ومن أجل أن يكون طبيعياً كان عليه أن يبقي رأسه مستقيماً.

وبنتيجة الفحوص الطبيعية الدقيقة اكتشفوا جزءاً صغيراً جداً من

الشظية مستقراً في دماغه بين منطقتي الضحك والبكاء، مما سبب له تلك الحالة الغريبة.

مجموعة تجارب أخرى أجراها العلماء على حليب الحيوانات ليروا حليب أية فصيلة من هذه الحيوانات هو أقرب إلى حليب الإنسان. وقد أجروا التجارب المخبرية على مائة صنف من الحليب فوجدوا أن أقرب صنف إلى حليب الإنسان هو حليب الحمير، ثم يأتي حليب البقر، ثم الغنم، ثم الإبل، ثم القطط... ثم في نهاية المطاف يأتي حليب القرود، أي الرقم مائة، وبذلك يكون أبعدها عن الإنسان.

ولو سلّمنا جدلاً مع داروين بأن البقاء للأقوى لكان من الواجب أن تنعدم الحيوانات الصغيرة والضعيفة ولا يبقى إلّا الحيوانات القوية، في حين نرى أن الأسد والفيل في الغابة يعيشان مع القردة والبقر الوحشي والنمل والبعوض والسلاحف وسائر أصناف الحيوانات المتنوعة. كما نرى في البحر أن الحوت والقرش يعيشان مع الأسماك الصغيرة، فكيف إذاً يكون البقاء للأقوى؟!

ثم لو كان الإنسان تحدّر من أصلاب القرود فكيف استطاع هذا الفرع أن يرتقي ويتطور ويتعالى على جميع الكائنات فكرياً وحضارياً فيغزو الفضاء ويجزّيء الذرة والخلية في حين بقي الأصل وهو القرد قابعاً في غياهب جهله وتخلّفه؟! كان الأولى بالأصل أن يتطوّر أكثر من الفرع.

وهناك تناقضات كثيرة تحملها نظرية داروين مما يجعلها لا تصمد أمام النقد العلمي، حتى أن المحافل العلمية المعتبرة بدأت تعلن منذ مدة طويلة أن نظرية داروين هي نظرية افتراضية وليست يقينية أو حقيقية.

الخلفيّات الهدامة لنظرية داروين

بعد هذه الجولة في نظرية داروين حول أصل الأنواع ومبدأ الخلق

يتساءل كل واحد منّا: لماذا يقدم دارون هذه الصورة البشعة للإنسان؟ والجواب يأتينا من الأدبيات الصهيونية واليهودية.

لقد وجد اليهود في نظريات دارون مطيّة سهلة لأفكارهم الهدّامة في العالم ولاحتقارهم لجميع البشر. فالأصل الحيواني للإنسان يتلاءم مع نظرتهم المتعالية على الناس واحتقارهم لهم.

ومن يراجع بروتوكولات حكماء صهيون يلاحظ كيف يعترفون بأنهم استطاعوا أن يرتبوا أفكارهم ومناهجهم على أساس نظريات دارون وفرويد وكارل ماركس. وهذه النظريات تعتبر الإنسان كياناً قائماً على ثلاثة أعمدة: المادية البحتة (ماركس) والحيوانية الوضعية (دارون) والغريزة الجنسية المحركة (فرويد).

وقد عوّل اليهود كثيراً على الأثر الهدّام الذي تتركه هذه النظريات على كيان الإنسان، خاصة فيما يتعلق بالدين والأخلاق. وفي أحد البروتوكولات يقولون: إن دارون ليس يهودياً، ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه ونظرياته في العالم حتى تسقط كل الأخلاق التي زرعها الأنبياء. وهم يركّزون بالدرجة الأولى على الإسلام.

ومن هنا نرى أن اليهود في العالم يجعلون همَّهم الأول تدمير الأخلاق في العالم والدفع بالبشرية إلى حيوانية خسيسة. وبعد هذا لا نستغرب إذا طالعتنا الصحف بأخبار من نوع ذلك الأميركي الذي اصطحب فرسه إلى الكنيسة وطلب من القس أن يعقد له عليها عقد زواج شرعي، أو تلك الممثلة العالمية التي طلّقها زوجها فأرادت أن تتزوج زواجاً شرعياً من قرد تحتفظ به في بيتها. ولما لم تجد من يعقد لها هذا العقد وضعت جميع ثروتها في يد محام ليوصلها إلى مبتغاها!..

هذه النماذج تفضح التشويه الإنساني والخواء الأخلاقيّ الذي أصاب المجتمعات التي أضلّتها اليهودية والصهيونية وشوّهتها أفكار داروِن وماركس وفرويد.

نظرية الإسلام: كرامة الإنسان

في مقابل هذه الصورة المشوّهة التي تقدّمها الداروينية والمادية والفرويدية واليهودية كيف نظر الإسلام إلى الإنسان في مبدئه ومصيره وما هي المكانة التي أعطاها للإنسان على مسرح الحياة وفي خارطة التكوين والخلق؟

في البداية إن مبدأ الخلق هو الله سبحانه فوجود الإنسان في هذا الكون هو بإرادة إلـهية. وعندما يدعو القرآن الكريم الإنسان إلى أن يسير في الأرض لينظر كيف بدأ الخلق إنما يدعوه إلى التفكير في مبدأ هذا الخلق، وهو الله سبحانه: **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾**.

فالسير في الأرض يعني البحث والتفتيش والاستقصاء، والنظر يعني التفكير والتأمل والاستنتاج واستخلاص العبرة والموعظة. إنها دعوة إلى رحلة علمية عرفانية تأملية توصل إلى النهاية السعيدة وهي الإيمان.

وقد حدّد الإسلام نهاية رحلة السعي والتفكير والتأمل بالوصول إلى الحقيقة والحق، فجاء في القرآن الكريم: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّنَ لهم أنه الحقُّ﴾** [سورة فصلت: الآية ٥٣].

وفي آية أخرى يقول: **﴿يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربّك كدحاً فملاقيه﴾** [سورة الانشقاق: الآية ٦].

إذن المبدأ هو الله والنهاية هي ملاقاة الحق والمثول أمامه: **﴿فأما من**

أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً * وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعوا ثبوراً * ويصلى سعيراً﴾ [سورة الانشقاق: الآيات ٧ ـ ١٢].

وفيما بين المبدأ والنهاية رحلة صعود وارتقاء وتكامل تسمو بالإنسان إلى أعلى الدرجات حيث زوّده الله سبحانه بجميع أدوات وإمكانات الارتقاء من عقل وحواس وإرادة.

إن الارتقاء الحقيقي والتطوّر الحقيقي هو ما يطرحه الإسلام كخط لمسيرة الإنسان، بعكس الخط الانحداري الذي ترسمه الدارونية والأفكار اليهودية.

إن الدارونية واليهودية تريد للإنسان أن يرجع إلى حيوانيته وغريزيته، في حين أن الإسلام يريد له أن يسمو فوق الملائكة. ومن هنا نأتي إلى النقطة الأخرى التي تتعلق بكرامة الإنسان ومكانته في هذا الوجود.

فالإسلام حدّد للإنسان دوراً خطيراً في هذه الحياة يتلخّص في أنه خليفة الله على الأرض: **﴿وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفةً﴾** [سورة البقرة: الآية ٣٠].

وهذه المكانة العالية والمهمة العظيمة نالها الإنسان بفضل الله الذي وهبه العقل والإرادة والاختيار. أما الغاية من هذه المكانة وهذا الاستخلاف فهي إقامة العدل والحكم بالحق: **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ﴾** [سورة صَ: الآية ٢٦].

إذن الإسلام يأخذ بيد الإنسان في مسيرة الحق والتكامل والسموّ، ويربط مصيره بتوحيد الله ومعرفته. أما إذا انحرف عن هذا الطريق فالنتيجة تكون انحداراً حيوانياً كما أرادت الأفكار الدارونية واليهودية، وبالتالي

يضيع الإنسان في متاهات الانحراف والسقوط من انجرار وراء الغرائزية والحيوانية واللهو والعبث والمخدرات وما شابه ذلك. وأمراض العصر الذي يعيش فيه خير شاهد على تلك الهاوية.

الإسلام إحياء ورجاء

إن النظرة المادية الداروينية هي إماتة للإنسان عن طريق الانحدار به إلى أسفل الدرجات وعن طريق قتل الرجاء في نفسه بوضعه أمام صورة تتميز بأصل وضيع ومسيرة حيوانية غرائزية ومصير غامض مبهم. أما الإسلام فإنه مصدر الإحياء للقلب والرجاء.

يقول أمير المؤمنين (ع) وهو يوصي ولده الحسن (ع): «أي بنيّ، أحي قلبك بالموعظة» فالقلب الذي لا يتّعظ بالحياة يعتريه الجفاف واليباس والموت. فهو بحاجة إلى إحياء بالموعظة، لأن الحرام يميت القلب، والقسوة تميت القلب والمعاصي تميت القلب.

إن المؤمن هو الذي يحسن التصرّف أمام المحن ويستخلص منها الدروس والعبر، ولا يسقط في هاوية اليأس والقنوط. وقد لاحظ علماء النفس والتربية والاجتماع أن هذه النفسية القوية الصامدة لا تتوفر إلاّ لدى المؤمنين بالله.

يقول أمير المؤمنين: «وأمته بالزهادة». أي أن هذا القلب يجب أن تحييه الموعظة والدروس فلا يسقط ويموت أمام المحن والمصائب، وفي نفس الوقت يجب أن تموت فيه النزعات الأنانية والانحرافات الشهوانية: «أمته بالزهادة» أي أمت فيه الطمع. والعبارة هنا تتضمن الإحياء للقلب لا الموت. فكأنه يقول: وأحيه بالزهادة، لأن الزهد يحيي القلب ويميت أمراضه.

والـزهد لا يعني الإعـراض عن الدنيـا وإنما يعني صـرف الدنيـا في خدمة الله وطاعته بالإسلام دين الحياة، والدنيا مزرعة الآخرة. فمن لا حياة له لا آخرة له.

يتابع أمير المؤمنين قائلاً: «قوِّه باليقين، ونوِّره بالحكمة، وذلِّله بـذكر الموت». إن قلب المؤمن هو قلب قويّ ثابت بالمعرفة والعلم واليقين. لأن العلم والمعرفة والموعظة تقـوّي القلب وتحييه، بعكس الشـك الذي يميتـه ويضنيـه. ولكن في نفس الوقت يجب أن لا يقـع قلب المؤمن في الغـرور والكبر والتعالي. ومن هنا قوله عليه السلام: «وذلِّله بذكـر الموت». أي أن تتذكر دائماً بأنك مهما بلغت من القوة والحكمة والمنعة فإن فوقك إلـهاً هو مصدر وجودك وإليه المصير. ومـا من إنسان تعـاظم واغترّ بقـوته إلاَّ ووقف في اللحـظة الأخيرة أمـام الموت الـذي يقهر كـل شيء. ومن هنـا نقـول: «وقهر عباده بالموت والفناء».

رأيـتُ بـنـي الـدنـيـا كـوفـديـن كـلـمـا
تـرحّـل وفـدٌ حطَّ فـي إثـره وفـدُ
وكـل يـجـدُّ الـسـيـر عـنـهـا ونـحـوهـا
فـيـمـضـي بـذا نـعشٌ ويـأتـي بـذا مـهـدُ

يقـول أمير المؤمنين (ع): «واعلم يـا بنيَّ أنك طـريد المـوت الـذي لا ينجو منه هاربه، ولا يفـوته طـالبه، فكن منـه على حذر». أي إحـذر أن يأتيك الموت وأنت على المعاصي وطريق الخطيئة. فإذا كان الموت حقاً، وكان لا بد للإنسان في نهاية المطاف من مواجهـة الموت، فـإن المؤمن هو الذي يحرص على مواجهته بقلب نظيف وسيرة صـالحة وإيمـان قويّ. لأن الموت هو القنطرة التي تنقلنا من هذا العالم إلى العـالم الآخر حيث نمثـل أمام الديّان ﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنـون إلاَّ من أتى الله بقلب سليم﴾ [سورة

الشعراء: الآية ٨٩].

يقول عليه السلام: «وبصّره فجائع الدنيا، وحذّره صولة الدهر، وأعرض عليه أخبار الماضين، وانظر في أخبارهم، وانظر فيما فعلوا وعما انتقلوا، وأين حلّوا ونزلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة، وحلّوا ديار الغربة، وكأنك عن قليل صرت كأحدهم».

إنها دعوة إلى الاعتبار والنظر في أحوال الناس لنأخذ الدروس التي تساعدنا على السير في هذه الحياة والإبحار في مياهها المتلاطمة.

إن الإسلام يريد للإنسان أن يكون قوياً في حياته ومسيرته، متواضعاً لله وحده. ويريد له أن يمتلىء قلبه بالرجاء ولا تتقاذفه أمواج الحيرة والشك، وأن يطمئن إلى قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته، القادر على كل شيء، الذي بدأ الخلق والذي **﴿ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾**.

﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك في أي صورة ما شاء ركّبك﴾ [سورة الانفطار: الآيتان ٧ ــ ٨].

خلاصة

إن الإسلام نظر إلى الإنسان كمخلوق كريم يتمتّع بقدرات هائلة على التطوّر والتكامل والسموّ، واختط له طريقاً يوصله إلى الحق واليقين والسعادة. في حين يقول أنجلز: «قيمة الإنسان لا تساوي إلاّ الأملاح التي في جسمه».

إذن أيها الإنسان عليك أن تختار بين الكرامة التي وضعك فيها الإسلام وبين المهانة التي وضعتك فيها المذاهب الداروينية والمادية والفرويدية واليهودية.

وإذا ألقينا نظرة سريعة على ما وصلت إليه حضارة اليوم المادية نجد أن الإنسان في هذا العالم يُحصد كما يُحصد الذباب والبعوض. في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية يُقتل الناس على طريقة رش الذباب بالمبيدات. فالإنسان في نظر هذه الحضارة حشرة لا تستحق الحياة. وإلاَّ فما معنى أن نكون في القرن العشرين ويقتني بعض الملوك يختاً في البحر بلغت تكاليفه خمسة عشر ملياراً من الدولارات في حين يموت الآلاف يومياً من الجوع في الصومال والسودان وسائر البلاد الإسلامية؟! ما معنى الحروب المدمّرة التي تريد أن ترتّب العالم حسب مشيئة حفنة من المستكبرين ولا بأس بقتل مئات الآلاف من البشر وتشريد الملايين وتفتيت الأوطان، ثم بعد ذلك يتباهون بالتصدّق علينا ببعض المعلّبات وأكياس الطحين؟!.

إن هذا العالم لا قلب له ولا ضمير ولا وجدان. الإنسان فيه يعامل كأحطِّ المخلوقات: يسجن، يعذَّب، يقتل، تهدر كرامته وتستباح حرمته في سبيل أن يتمكن الطاغوت... إنَّ كل ذلك نتيجة لابتعاد المجتمعات الدولية عن الإسلام وشرائع الإسلام وتطبيقاتها في الحياة والمجتمع، إنها نتيجة الابتعاد عن الله والاقتراب من شيطان الغرائز والحيوانية. هذا الشيطان الذي بشّرت به الصهيونية وأدواتها المادية والفكرية المتعدّدة.

ولكن هل يبقى الإنسان هكذا؟ نحن على يقين بأن الظلم له نهاية، وأن اليوم الموعود آتٍ، ذلك اليوم الذي سيملأ الله فيه الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً. إنه اليوم المنتظر على يدي المهدي المنتظر عجَّل الله فرجه.

ولكن هل ننتظر ذلك اليوم ونحن نقبع في زاوية الانتظار مكبلين باليأس والقنوط والسلبية؟ كلا. إن الأمل بظهور الإمام الحجّة يعني العمل

والجهاد والسعي الدائم لملاقاته، وذلك بإقامة الدين الصحيح، أي بإقامة العدل والشريعة في المجتمع. عندها لا بد للفجر أن ينبثق من ثنايا الظلام، ولا بد للعدل أن ينطلق من ثنايا القرآن وما ذاك على الله بعزيز. فالله سبحانه أطلق وعده وهو لا يخلف الوعد: ﴿**ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٣].

• • •



التغيير والإصلاح
في المنهج الإسلامي والتطبيق

التغيير والإصلاح
في المنهج الإسلامي والتطبيق

واجب التغيير والإصلاح

كان الإمام الحسين (ع) في طريقه إلى كربلاء، فعلم بمقتل مسلم بن عقيل، وعلم أن أهل العراق نكثوا العهد والميثاق معه، وأن الحر بن يزيد الرياحي مقبلٌ بأربعة آلاف من جيش يزيد بن معاوية. وقف الإمام الحسين في الناس خطيباً وقال:

«أيها الناس، إني سمعت جدّي رسول الله (ص) يقول: من رأى منكم سلطاناً جائراً، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في العباد بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا بقول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله».

هذا الكلام للإمام والحديث عن رسول الله (ص) يحدّد أمراً أساسياً في حياة المسلم والمجتمع الإسلامي، وهو واجب القيام في وجه السلطان الجائر وطلب التغيير والإصلاح في واقع الأمة.

فعندما يرى المسلم أن الحاكم قد ابتعد عن طريق العدل، ونكث العهد الذي أخذه الله على الحكام في رعاية مصالح الناس والضرب على أيدي الظالمين والأخذ بيد المستضعفين، وابتعد عن سنّة رسول الله في تطبيق أحكام الشريعة والدين، في هذه الحالة يكون من واجب المسلم

الشرعي أن يعارض الحاكم بالعمل، فإن لم يستطع فبالقول والموقف ذلك أن شرط إطاعة الحاكم هو خضوعه للشريعة وعمله بأحكامها. فإذا انحرف عن ذلك تسقط شرعية حكمه ولا تجب إطاعته، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. والجور في الحكم، والظلم في الدولة، هما من أشدّ المعاصي. ومن هنا كان موقف الأئمة من أهل البيت (ع) أنهم يبايعون الناس على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهادهم كأئمة معصومين.

وحديث الرسول (ص) في هذا المجال يشير إلى ناحية أخرى أساسية وهي أن تخلّف المسلم عن هذا الواجب يدخله مدخل السلطان الجائر، أي يدخله في عداد الظالمين، لأن الساكت عن الظلم شيطان أخرس.

ومن هنا خرج الإمام الحسين (ع) على السلطان الجائر، لا من أجل سلطة أو مال أو جاه، وإنما طلباً للإصلاح في أمة جدّه كما قال. وخروجه في نفر قليل من الناس كان أيضاً بعد أن رأى انحراف أكثر الناس عن الحق وسكوتهم عن الباطل واتباعهم المغريات التي قدمها الحكم الأموي الفاسد، فكانوا كما قال الرسول في عداد الظالمين لأنهم لم يغيّروا عليه بفعل ولا بقول.

المنهج الإسلامي في التغيير

يقول القرآن الكريم: **﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾** [سورة الرعد: الآية ١١].

وفي الحديث الشريف: «أبى الله أن يجري الأمور إلّا بأسبابها».

الآية الكريمة تحدّد منطلق التغيير. فإذا رأيت أنك تعيش في أوضاع فاسدة منحرفة، من سلطة جائرة، وفساد في المجتمع، فإن تغيير ذلك

لا يكون فقط بالدعاء والتوجّه إلى الله، وإنما بالعمل وعقد النيّة على التغيير.

والتغيير يبدأ من النفس. لماذا؟

إذا كان الظلم سائداً في المجتمع، والحرمات تتعرض للانتهاك الدائم، وحقوق الناس مضيّعة، وهناك سلطة جائرة وطغمة فاسدة تسرح وتمرح على هواها، فمعنى ذلك أن أكثر الناس قد استكانوا لهذا الوضع لأسباب مختلفة. فبعضهم استكان خوفاً، والبعض سكت طمعاً في رضا السلطات، وقسم همج رعاع ينعقون مع كل ناعق، ونفر قليل وجدوا أنفسهم غير قادرين على أية حركة. في هذه الحالة سوف يستمر الظالم في ظلمه والطاغية في طغيانه والانحراف في مساره. ولا يمكن أن تتغيّر الأوضاع بالدعاء والابتهال إلى الله. لأن الله ـ سبحانه ـ يقول لكم: إذا أردتم أن يتغيّر هذا الوضع المنحرف فعليكم أولاً بالتغيير في أنفسكم. بمعنى أن الساكت عن الظلم يجب أن يتكلم ويرفع صوته ويشير بإصبعه إلى مواطن الفساد، والذي يطمع بمكسب مادي عليه أن يترك هذا الطمع الحقير ويعلم أن ما عند الله خير وأبقى وأن إصلاح الفساد هو أكثر نفعاً للعباد. ومعنى ذلك أيضاً أن الخائف يجب أن يغادر خوفه ويتجرّأ على الظالم، وأن المؤمنين الواعين المتنوّرين عليهم أن يرشدوا الهمج الرعاع ويرفعوا من مستوى وعيهم وإدراكهم للأمور. هذه العملية الجهادية الشاملة المتكاملة تؤدي إلى تغيير في نفس المجتمع بجميع فئاته وأفراده، وهذا التغيير يكسب المجتمع قوة ومنعة تؤهله للإطاحة بالظالمين.

هنا يمكن أن تتدخل القدرة الإلهية والمدد الإلهي بمعنى أن الله ـ سبحانه ـ ينصر المؤمنين المجاهدين الصابرين الذين يؤدون واجبهم الشرعي والديني والاجتماعي. ﴿**ولينصرن الله من ينصره**﴾ [سورة الحج:

الآية ٤٠].

وهنا نأتي إلى الحديث الشريف الذي يلتقي مع المضمون القرآني في التغيير، وهو أن الله ــ سبحانه ــ أبى إلاَّ أن يجري الأمور بأسبابها.

فالنصر له أسباب، والهزيمة لها أسباب. والظلم له أسباب وأسس وقواعد يستند إليها، والعدل له قواعد وأسس يستند إليها. فمن أراد النصر عليه أن يهيىء أسباب النصر وإلاَّ لا يمكن أن ينصر الله قوماً استكانوا وتكاسلوا ولم يستعدوا للمواجهة. صحيح أن الله ــ تعالى ــ يقول: **﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾** ولكن هذا الكلام موجّه للمؤمنين الذين ينصرون الله وإلى الذين أعدوا العدّة للمواجهة: **﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة﴾**.

فإذا كان الله يريد أن ينصر المظلومين بمجرد كونهم مظلومين، وبصرف النظر عن عملهم وجهادهم، في هذه الحالة ينتفي الظلم من العالم وتصبح جميع الأمور بيد الله، فتسقط المسؤولية حتى عن الظالم، ويسقط الثواب والعقاب.

إذن عندما تقول الآية: **﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾** فإنها تشير إلى قانون أساسي من قوانين التاريخ والمجتمع. هذه القوانين أو السنن وضعها الله لانتظام الحياة وإقامة العدل. فمن اتبعها سار على الطريق الصحيح واستحق نصر الله، ومن ابتعد عنها انحرف وهوى وكان من المغضوب عليهم أو الضالين. وعندما يقول الرسول (ص): «أن يُجري الأمور بأسبابها» إنما يشير إلى تلك القوانين والسنن.

التغيير في النفس

هل يمكن للإنسان أن يغيّر ما بنفسه؟

بعض الناس إذا أصابته شدّة أو مكروه يقول: ما حيلتي، هذه إرادة الله! وإذا قصّر في واجبه وأخفق في حياته يقول: هكذا جعلني الله قاصراً، ولا أستطيع أن أغيّر المقدّر!..

هذا كلام ساقط وغير صحيح. فالمسؤولية في جميع الأحوال تقع على الإنسان. والله ــ سبحانه وتعالى ــ لا يأمرنا بشيء لا نستطيع القيام به. فإذا أمرنا بالصلاة فمعنى ذلك أننا قادرون عليها. وإذا أمرنا بتغيير ما بأنفسنا حتى نفلح في مواجهة الفساد فمعنى ذلك أيضاً أننا قادرون على التغيير.

ولتوضيح ذلك نقول بأن الكائنات الحيَّة على ثلاثة أنواع: النبات والحيوان والإنسان.

النبات لا يستطيع أن يغير نفسه ولا مكانه. نبتة الفاصوليا لا يمكن أن تعطي عنباً، وإذا وضعتها في مكان غير ملائم لها وحرمتها من الضوء والماء فإنها لا تستطيع الانتقال بحثاً عن حاجتها.

الحيوان قادر على تغيير مكانه، ولكنه غير قادر على تغيير نفسه. فالحيوان ينتقل من مكان إلى آخر بحثاً عن طعامه. والطيور مثلاً تهاجر من منطقة إلى منطقة أخرى ملائمة لها. ولكن هل يستطيع الذئب المعادي للحمل أن يغيّر نفسه ويصبح صديقاً له؟ هل تستطيع النحلة أن تغيّر غريزتها فتبني بيتاً رباعياً بدل البيت السداسي؟ هل تستطيع الفأرة أن تتحول إلى أسد أمام القطة؟

هذه أمور لا يستطيع الحيوان تغييرها لأنها ثابتة في غريزته وفي نفسه. إذن الحيوان يغيّر مكانه ولا يغيّر غريزته.

أما الإنسان فإنه المخلوق الوحيد القادر على تغيير مكانه وزمانه

ونفسه. وهذا بفضل العقل والحرية والإرادة. حتى الملائكة فإنها لا تستطيع تغيير ما بنفسها لأنها مسيّرة من قبل الله. أما الإنسان فإنه مخيَّر.

الإنسان إذا ضاق به العيش في مكان ما يستطيع أن يهاجر. المسلمون تعرضوا في مكة للضغوط القاسية فأشار عليهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة فإن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد.

ثم بعد ذلك هاجر الرسول والمسلمون إلى المدينة. والهجرة والانتقال من مكان إلى آخر أكثر ملاءمة هي واجب على الإنسان المسلم، لأن الهجرة هذه بحدّ ذاتها نوع من الاستعداد للتغيير، فالهجرة إلى المدينة كانت مقدمة ضرورية للتغيير الجذري الذي حدث في مكة: **﴿إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾** [سورة النساء: الآية ٩٧].

والانتقال بالنسبة للإنسان حاجة إنسانية وحضارية لأن الإسلام يربّي الإنسان على العالمية وليس على الإقليمية، ويخرجه من مكانه الضيق وبيئته المحدودة إلى الآفاق الواسعة.

أما تغيير النفس فهي من خصائص الإنسان وهو قادر عليها من دون سائر المخلوقات. الجبان يستطيع أن يتحوّل إلى شجاع بترويض نفسه والتأثير فيها عن طريق الفكر والتركيز والإيحاء. غاندي محرّر الهند كان في شبابه من أكثر الناس خوفاً من الظلام والعتمة يقول: استطعت أن أقنع نفسي بأنني يجب أن أصبح شجاعاً. وعن طريق التركيز والإيحاء أخذت أقطع المسافات الطويلة داخل الغابات المظلمة الموحشة حتى تحولت إلى إنسان شجاع.

والبخيل يستطيع أن يصبح كريماً جواداً. كذلك يستطيع الجاهل

البليد أن يتحول إلى عالم يتمتع بالحيوية الذهنية والفكرية. وغاندي نفسه كان في بداية أمره محامياً فاشلاً يخاف من المرافعة أمام الناس في المحاكم. ولكنه بفضل إرادته استطاع أن يتحول إلى واحد من كبار الخطباء في عصره، واستطاع أن يحرر ثمانين مليون هندي.

كذلك يمكن أن يتغيّر الإنسان باتجاه الأسوأ. فإذا ضعف أمام غرائزه وشهواته يمكن أن ينحدر في مهاوي السوء والمعاصي، ويتحوّل بالتالي من إنسان صالح إلى إنسان منحرف.

إذن النفس الإنسانية قابلة للتغيير. وهذا التغيير يتوقف على إرادة الإنسان وتفكيره واختياره. أما النفس الحيوانية والنباتية فإنها غير قادرة على ذلك لأنها لا تملك الإرادة والتفكير والاختيار، وإنما تملك الغريزة لا غير: **﴿ونفسٍ وما سوّاها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها. وقد خاب من دسّاها﴾** [سورة الشمس: الآيات ٧ ــ ١٠].

الحسين وثورة التغيير

عندما يحدث التغيير في نفس الإنسان فيقلع عن الاستكانة والذل والطمع والخوف والجهل، ويتسلح بالوعي والجرأة والبذل والإيمان، عندها يكون مهيئاً لمواجهة الظلم والسلطان الجائر، ومهيئاً ليستقبل نصر الله والمدد منه. فالأرض إذا لم تكن مهيأة لاستقبال البذرة أو النبتة لا يجديها هطول المطر ولا ينفعها الغيث.

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف إذا كانت النفس هي نفس إمام كالحسين (ع) هيأته العناية الإلهية والتربية الرسولية والاستعدادات الفطرية لدور الإمامة والقيادة في المجتمع؟

إن الواجب الشرعي والأهلية التكوينية والدور القيادي الإمامي

حتّمت على الحسين القيام في وجه يزيد بن معاوية.

ومن هو يزيد هذا؟ إنه السلطان الجائر الذي أشار إليه حديث رسول الله (ص). فهو ناكثٌ لعهد الله، مستحلٌ لحرمات الله، مخالف لسنّة رسول الله. وهذه الصفات تنطبق على كل سلطان جائر في كل زمان ومكان.

والإمام الحسين عندما ثار أعلن السبب الأساسي والحقيقي لثورته، وهو يتلخص بحديث جده رسول الله: «من رأى منكم سلطاناً جائراً... إلخ». وفي كلامه هذا لا يريد أن يقول: إني رأيت هذا السلطان الجائر وهاإني أغيّر عليه بقولي وفعلي. هو لا يريد أن يعني بنفسه فقط، فالإمام لا يتأخر أو يتخلّف عن واجب كهذا، وإنما أراد أساساً أن ينبّه الغافلين المستكينين إلى ذلهم وهوانهم، وأن يقول لهم: انتبهوا معشر الناس! إن الساكت على ظلم يزيد بعد أن رأى ما رأى وألقيت عليه الحجّة، الساكت هذا شريك ليزيد في الظلم والجور.

ونحن إذا نظرنا حتى إلى القوانين الوضعية في العالم نجد أن هذه القوانين تعاقب المجرم وتعاقب أيضاً المتستّر على الجريمة. فإذا وقعت أمامك جريمة وتستّرت عليها أو كتمت معلومات تفيد التحقيق في كشف المجرم أو لم تحاول منعها مع استطاعتك ذلك، في هذه الحال تكون شريكاً للمجرم في جريمته. وفي أقوالنا الشعبية: «سئل فرعون: من فرعنك؟ قال: لم أجد أحداً يردعني!».

والإمام الحسين (ع) بادر إلى الثورة وخاطب الناس: لا تسكتوا على ظلم يزيد. وها أنذا إمامكم وابن نبيّكم أتقدّم بنفسي وعائلتي وصبيتي وأطفالي ونسائي وكل ما أملك لأرد هذا الحاكم الظالم المسمى يزيد.

ويوضح الإمام الحسين من هو يزيد: «يزيد رجل شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة، رأس الفجور، ومثلي لا يبايع مثله. ونحن آل بيت النبوة، ومنبع الرسالة، ومختلف الملائكة. بنا فتح الله وبنا يختم».

إذن مثل هذا الشرف الرفيع والمقام السامي المنيع لا يمكن أن يهون أمام رأس الجور والفسق والفجور. إن الثورة تحتمها كرامة الأصل والموقع والقيم. ودعوة الناس إلى الثورة إنما هي دعوة للانتصار لكرامتهم وإنسانيتهم.

لقد بلغ فسق وفجور يزيد بن معاوية حداً لا يطاق. والشاعر يعبّر عن ذلك بقوله:

رافعٍ الصوت داعياً للفلاح	أخفض الصوت في أذان الصباحِ
وترفّق بصاحب العرش	مشغولاً عن الله بالقيان الملاحِ
ألف الله أكبر لا تساوي	بين كفّي يزيد نهلة راحِ
تتلظّى في الكأس شعلة خمرٍ	مثل طيّ اللهيب في المصباحِ
أيها المؤذن المبكر لا تهتف	وإن شئت فاعتصم بالبُحَاحِ

أجل، لقد بلغ يزيد من الفجورإلى حدّ أنه كان يستقبل صلاة الصبح مخموراً ويؤذيه سماع صوت الأذان. وفوق ذلك يعاقب من لا يدعوه بأمير المؤمنين!

إن ثورة الحسين التغييرية الإصلاحية انتهت بمقتله ومقتل القسم الأكبر من أهله وأصحابه ولكن هذه الثورة هي التي أسقطت عروش الظالمين من بني أمية. كيف كان ذلك؟

لقد شكّلت ثورة الحسين واستشهاده عنصر التغيير القوي والصاعق في نفوس المسلمين. وكانت بمثابة الشرارة والنار المباركة التي ألهبت

المشاعر وأيقظت العقول والنفوس الخاملة. وهكذا انتقل تأثير هذه الثورة من نفس إلى نفس حتى تحوّلت النقمة إلى تيّار جارف أطاح بالأمويين.

ومن الذي أطاح بالأمويين؟ وهل هم العباسيون؟ ظاهرياً كان الأمر كذلك، ولكن الحقيقة هي أن النفوس المضطربة والنقمة الشعبية العارمة هي التي أطاحت بالدولة الأموية، وإن كانت العصبيّة العباسية ركبت تلك الموجة وقادتها.

إذن استطاع الحسين (ع) بثورته أن يحدث التغيير المطلوب في الأمة، وبالتالي استطاعت الأمة أن تسقط ظلماً، لتتابع بعد ذلك مقاومة الظلم الجديد. وهذا ما تكشفه سيرة الأئمة من أبناء الحسين.

عنصر المأساة والمظلومية في حركة الحسين

هناك أسئلة عديدة تثار حول خروج الإمام الحسين بالرغم من اختلال موازين القوى، خاصة بعد تراجع أصحاب العهود والمواثيق. ولماذا اصطحب الحسين أولاده ونساءه معه مع علمه بأن القتل والسبي سيكون من نصيبهم؟. ولماذا البكاء على الحسين وشهداء كربلاء وتركيز أئمة أهل البيت على هذا الأمر؟ وإلى ما هنالك من تساؤلات مشابهة.

حقيقة الأمر أن الإمام الحسين أراد أن يركز على جانب هام وأساسي في هذه القضية وهو جانب المأساة والمظلومية.

إن تعميق الشعور بالمأساة والمظلومية من شأنه أن يفجّر طاقات دفينة ويحرّك النفوس من أعماق أعماقها. وهذا العنصر النفساني الوجداني مؤثر وفاعل في حركة الناس ومسيرة التاريخ.

الحسين كان يعلم تمام العلم أنه مقتولٌ لا محالة، وأن القتل

والسبي واقع على أهله. وهذا أمرٌ لا محيد عنه، لأن التراجع أمام يزيد يمثّل خسارة على الأمة أفدح بكثير من استشهاد الحسين وأهل بيته.

إنها معادلة واضحة: تراجع الحسين ورضوخه لشروط يزيد سوف يمعن في إذلال الناس ويأسهم وسوف يؤبد حكم الطغاة. إنه سيؤخر من نضوج الأسباب والظروف التي تساعد على الإطاحة بحكم يزيد بن معاوية. ومن جهة ثانية فإن استشهاد الحسين المدوّي سوف يحرّك النفوس ويستنهض الهمم ويقصّر من عمر الظلم. إلى هذا المعنى العميق أشار الحسين بقوله:

إن كان دين محمد لم يستقم إلّا بقتلي يا سيوف خذيني

هذا جانب من الموضوع. وهناك جانب آخر لم يهمله الحسين، وهو جانب إلقاء الحجّة. فالحسين ليس مغامراً متطرّفاً، وإنما هو إمام مسؤول عن الأمة. لذلك لم يفته أن يعلن أكثر من مرّة بأنه يرغب بتفادي المعركة ويعرض على الجيش المقابل المهادنة، مع علمه برفض الطرف المقابل. وهذا الجانب أيضاً له علاقة بإبراز المظلومية.

ومن ناحية ثالثة فإن الإمام الحسين (ع) كان يعلم أنه إن ترك أهله في مكة أو المدينة فإنهم سوف يتعرّضون للسجن والتعذيب والمهانة والقتل، وسوف يستغلّ يزيد الموقف لممارسة الضغوط على الإمام الحسين.

أما البكاء على الحسين فإنه عنصر هام من عناصر التذكير الدائم بالمأساة، ودعوة دائمة للقيام بوجه الظلم. لذلك يقول الحسين: «أنا قتيل العبرة، ما ذكرتُ عند مؤمن أو مؤمنة إلّا وبكاني». وبطلة كربلاء زينب (ع). كانت تعلم هذه الحقيقة، لذلك نراها في الكوفة تضرب رأسها

بمقدمة المحمل، فتسيل منها الدماء، وتقف على جسد الحسين في كربلاء وتقول: «اللّهم تقبّل منا هذا القربان فداءً لوجهك الكريم».

كانت في كربلاء مثالاً للقوة ورباطة الجأش والصبر على أهوال الحرب.

البعض يقول بأن زينب لم تستطع أن تتحمل المشهد في الكوفة فانهارت بكاءً وتفجعاً. والحقيقة أن زينب لم تتغيّر بين كربلاء والكوفة. ولكن الذي تغيّر هو الموقف: في كربلاء كان موقف ثورة وجهاد وعراك، وفي الكوفة كان موقف مأساة وعرض مظلومية.

أهمية عرض المظلومية تنبهت إليه قبل هذا الصدّيقة فاطمة الزهراء (ع). لقد طلبت من أمير المؤمنين أن يدفنها عندما ينتصف الليل وتنام العيون، وأن يخفي موضع قبرها، وأن لا يسير في جنازتها أحد.

لماذا؟ لأن هذا الأمر يبرز جانب المظلومية في قضية الزهراء. فالزهراء التي ماتت وهي تحمل ضلعاً مكسوراً وتشكو إلى الله من الذين سلبوها حقوقها، هذه الصديقة تريد أن تقول كلمة أخيرة قبل رحيلها: انتبهوا، أنا بنت رسول الله أفارقكم مظلومة!...

التخطيط للشهادة

إن إبراز جانب المأساة والمظلومية في استشهاد الحسين (ع) هو تخطيط مقصود لغاية محدّدة. فالحسين أراد أن يكون استشهاده المحتوم نقطة بداية وانطلاق وليس نهاية. إنه يريد أن يقول: هذا الدم الذاكي يجب أن يوظف لإسقاط الظالمين، وإلاّ يذهب هدراً. المظلوم وهو يسقط يجب أن يسقط الظالم. ذلك أن من صفة المؤمن المجاهد في ساحة الحرب أنه يَقتل ويُقتل. فالمجاهد لا يذهب إلى الظالم ليقتله الظالم، وإنما يذهب إليه ليدق في نعشه مسماراً جديداً.

الحسين يريد أن يقول: إن الموت من أجل الحرية وفي سبيل الله وكرامة الإنسان هو كالقلادة على جيد الفتاة.

والإمام الحسين (ع) لم يدعُ أنصاره إلى نزهة، ولم يموّه عليهم الأمور، بل قال لهم: «ألا ومن كان منكم باذلاً فينا مهجته، وموطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحلٌ مصبحاً إن شاء الله».

وهو يقول: «كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء.. لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ليوفينا أجور الصابرين».

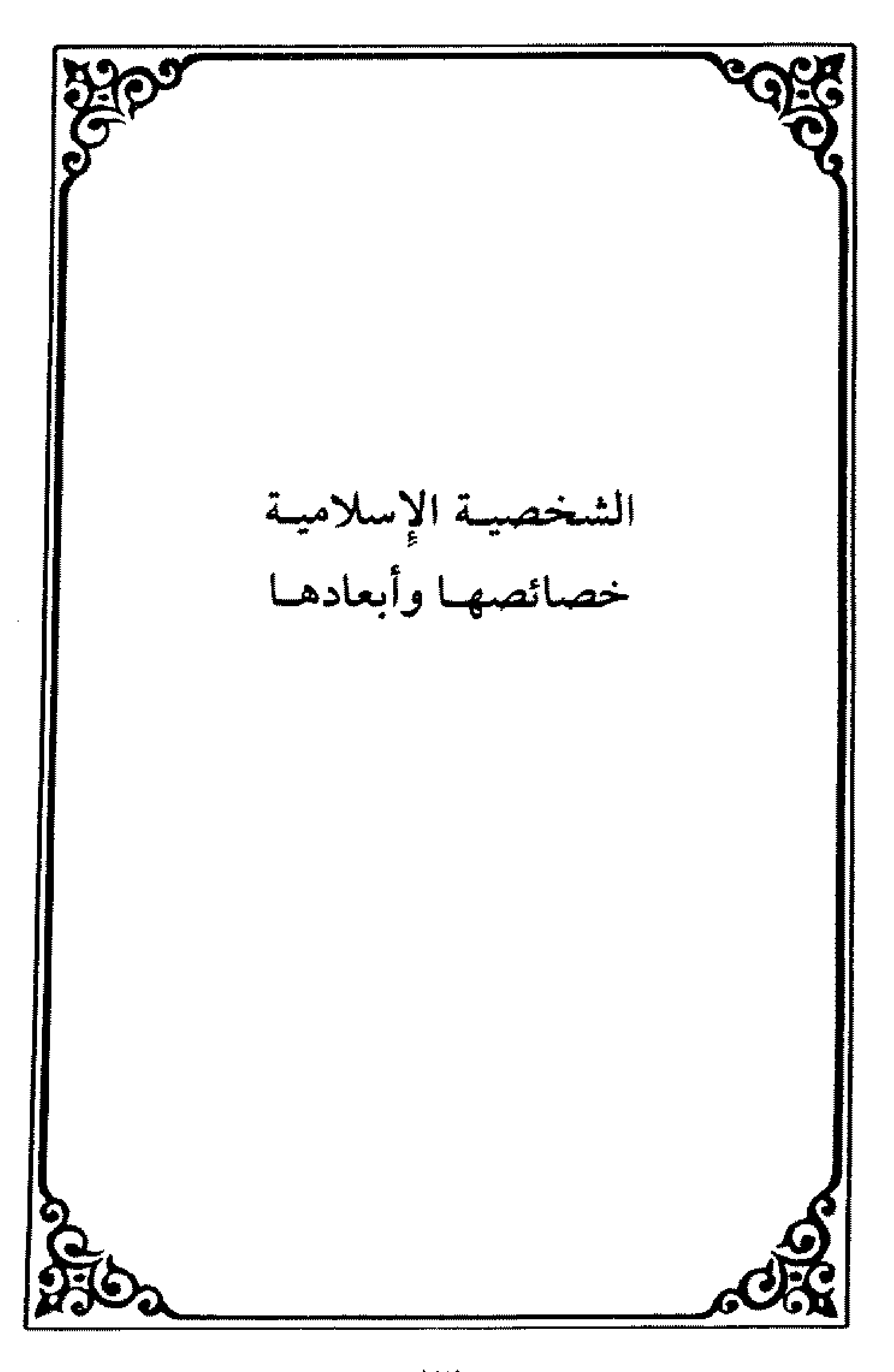
إذن عمل الحسين (ع) لم يكن عملاً ارتجالياً وعشوائياً، ولا هو مغامرة طائشة وغير محسوبة. إنه الشهادة الواعية المؤمنة بدورها، المدركة لقوانين وسنن الصراع، المخططة للنصر في مجرى التاريخ وليس في اللحظة الراهنة.

وبهذا كان الحسين مدرسة للأجيال ومصنعاً للأحرار ومنارة للمناضلين من كل الشعوب وعلى مرّ الأزمان. وليس غريباً بعد هذا أن نرى قائد أمة الهند ومحررها المهاتما غاندي يقول بملء فمه:

«إني تعلّمت من الحسين بن عليّ كيف أكون مظلوماً فأنتصر».

إن مدرسة الحسين (ع) هي مدرسة التغيير في نفس الفرد ونفس الأمة، هذا التغيير الذي يعتبر شرطاً ضرورياً لمواجهة الظلم، وشرطاً لاستمطار الرحمة والعون من الله سبحانه. وصدق الله العظيم في قوله: ﴿لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ وصدق رسوله الكريم حين قال: «أبى الله إلاّ أن يجريَ الأمور بأسبابها».

• • •



الشخصية الإسلامية
خصائصها وأبعادها

الشخصيـة الإسلاميـة
خصائصهـا وأبعادهـا

بسم الله الرحمن الرحيم

مـقـدمـة

يحـدد القرآن الكـريم معالم الشخصيـة الإسـلاميـة بـأنهـا شخصيـة استقلالية قوية، مؤثرة في المجتمع وقادرة على التغيير نحو الأفضل.

ومن أهـم صفـات الشخصية الإسـلامية أنهـا لا تكون تـابعة لغيـرها، ولا تذوب في غيرها، وإنما هي قائدة مؤثرها في محيطها. وهذا الدور عبّـر عنه القرآن الكريم بالشهادة والتوسُّط: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكـون الرسـول عليكم شهيداً﴾** [سـورة البقرة: الآيـة ١٤٣].

هذه الشهادة تقتضي أن تكـون الشخصية الإسـلامية في مـوقع رفيـع حتى تستطيع أن تلقي بنـورها على مـا دونها. فـالشمس تضيء ما تحتهـا، والنهر لا يسقي بشكل طبيعي إلّا الأراضي التي تكون دون مستوى مجراه.

ودور الشخصيـة الإسلاميـة مستمد من الـدور الـذي يحـدّده القـرآن الكـريم لـلإنسـان على الأرض. فـالإنسـان هـو خليفــة الله على الأرض، وبالتالي فإن دوره هو عمارة الأرض والارتقاء بالحياة وشدّها نحـو خالقهـا.

ومن هنا كان لا بد لشخصية الإنسان أن ترتفع بالوعي والحكمة والإيمان وتمتاز بقدراتها هذه على سائر المخلوقات.

ناصية العقل وناصية الغريزة

يولد الإنسان مزوداً بالعقل والحرية، في حين أن الحيوان لا يمتلك سوى غريزته. والعقل الذي يوجه الإنسان ناصيته بيد الإنسان نفسه. فإن شاء وجَّه عقله وإمكاناته نحو الخير وإن شاء وجهها نحو الشر. بينما نجد الحيوان لا يمتلك هذا الخيار، لأن ناصية غريزته هي بيد الله، فهو لا يملك توجيه نفسه خارجاً عن الخط الذي رسمته القوانين والنواميس.

إن الحيوانات تجري في حياتها على نمط واحد منذ ملايين السنين الماضية إلى ملايين السنين القادمة، فالنحلة تبني بيتها على طريقة معينة لا تتغيّر ولا تتبدل، وكل فصيلة من فصائل الحيوانات تعيش وتتحرك ضمن خطة ليست من صنعها ولا تملك القدرة على تغييرها أو مخالفتها.

لو أخذنا طفلاً صغيراً عمره بضعة أشهر وحيواناً صغيراً بنفس العمر، ثم وضعنا أمامهما صحناً مليئاً بالجمر، فماذا نلاحظ؟ نلاحظ أن الطفل يزحف باتجاه الجمر ويلتقطه بيده ليضعه في فمه، ظناً منه أن هذا الشيء الجميل الذي رآه أمامه يصلح للأكل. تحترق أصابعه ويعلو صراخه!.. أما الحيوان، الكلب مثلاً، فإنه يبتعد عن الجمر ولا يقع في الخطأ الذي وقع فيه الطفل.

ولكن هل يعني ذلك أن الحيوان متقدّم على الإنسان في الإدراك؟

إن حقيقة الأمر هي أن هذا الحيوان بحاجة إلى قوة غريزية لا تخطىء، لأنه لا يملك غيرها في تسيير حياته وشؤونه. ولكن الملاحظة الأساسية العميقة هي أن هذه الغريزة جامدة غير متطورة. أما إدراك الإنسان

فهو متطوّر متحرك. فالطفل الذي التقط الجمر انطلق من درجة الصفر في وعيه وإدراكه، أما الكلب المساوي له في العمر فقد انطلق من درجة أرفع، لنقل إنها تساوي ثلاثة أو أربعة بالمقارنة مع الطفل. ولكن هذا الصفر البشري يتطور ويكبر ليصل إلى درجات مذهلة، في حين أن الثلاثة أو الأربعة التي هي مستوى وعي وإدراك الحيوان بقيت على ما هي منذ ملايين السنين وإلى ما شاء الله.

لذلك يقول العلماء بأن وقوع الطفل في الخطأ دليل على أنه مطبوع على الحرية والاختيار. فهو يخطيء ويصيب، وفي مسيرة الخطأ والصواب يتعلم وتتّسع مداركه. وهو في جميع أحوال مسيرته قادر على الاختيار بين الخطأ والصواب، بعد أن يصبح قادراً على التمييز بينهما. أما الحيوان فإنه لا يملك الحرية في أن يختار.

يقول القرآن الكريم: **﴿وما من دابَّة إلاَّ هو آخذ بناصيتها إن ربّي على صراط مستقيم﴾** [سورة هود: الآية ٥٦].

أما بالنسبة للإنسان فيقول القرآن الكريم: **﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السُّبل فتفرَّقَ بكم عن سبيله﴾** [سورة الأنعام: الآية ١٥٣].

مما تقدّم نستنتج أن الإنسان يتمتع بقوة مبصرة مدركة نامية هي العقل، أما الحيوان فيتمتع بقوة الغريزة التي لا تتطوّر. ومن ناحية ثانية فإن الإنسان يتمتع بالإرادة وحرية الاختيار، وهذا ما يجعله مسؤولاً عن عمله. وهذه الخاصية الإنسانية هي مدار التكليف والثواب والعقاب.

بين حريَّة الإنسان وإرادة الله

قد يتساءل البعض قائلاً: لماذا لا يهدي الله الناس جميعاً؟ ولماذا

لم يأخذ الله بناصية الإنسان كما أخذ بناصية الحيوان؟ ألا نستطيع أن نفهم من قوله تعالى: **﴿فإن الله يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾** بأن الضلال أو الهداية هما بأمر الله؟

الجواب على هذه التساؤلات هو أن الله ـ سبحانه ـ يُضلُّ من أراد الضلال ويهدي من أراد الهداية. لأنه لو كان الضلال أو الهداية أمراً خارجاً عن إرادة الإنسان لما استحق هذا الإنسان الثواب على الصواب ولا العقاب على الخطأ.

ومن ناحية ثانية علينا أن نفهم الآية القرآنية الواحدة من خلال آيات أخرى تفسرها وتوضحها ذلك أن القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً. فإلى جانب الآية التي ذكرناها، يقول القرآن الكريم: **﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** [سورة المائدة: الآية ١٠٨].

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨٦].

﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٤].

إذن من يهدي الله؟ يقول القرآن الكريم: **﴿ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه﴾** [سورة التغابن: الآية ١١].

﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ [سورة محمد: الآية ١٧].

ويقول: **﴿وقل الحق من ربّك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾** [سورة الكهف: الآية ٢٩].

... إذن الإشاءة تعود إلى الإنسان وليس إلى الله سبحانه.

الشخصية الإسلامية وقانون التغيير

يقول تعالى: ﴿إن الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ [سورة الرعد: الآية ١١].

هذه الآية تطرح أمامنا قانوناً علمياً تقوم على أساسه عملية التغيير في واقع الإنسان وفي واقع المجتمع. وهذا القانون يتلخص بأن التغيير في حال الإنسان وفي حال المجتمع يبدأ من التغيير في النفس. فالله تعالى يسمح بالتغيير من السيِّىء إلى الحسن إذا غيّر الناس ما بأنفسهم من انحراف عن طريق الحق واتباع للشيطان. الإرادة بيد الإنسان والقدرة بيد الله. والخطوة الأولى يخطوها الإنسان والخطوة الثانية تأتي توفيقاً من الله.

والمسألة الأساسية التي تشير إليها الآية هي قابلية الإنسان وقدرته على التغيير في نفسه. وهذه القدرة أو القابلية هي منحة من الله تعالى اختصَّ بها الإنسان دون غيره من المخلوقات.

فإذا أخذنا النبات نراه غير قادر على التغيير لا في نفسه ولا في محيطه. فإذا وجدت النبتة في مكان معزول عن الشمس والهواء والماء فإنها لا تستطيع أن تنتقل إلى مكان آخر تتوفر فيه عناصر الحياة الضرورية لها، وبالتالي فإنها تموت. كذلك إذا تعرّضت إلى فساد داخلي بسبب خلل في المواد الكيميائية أو بسبب بعض الأمراض وأنواع البكتيريا، فإنها تستسلم لهذا الفساد ولا تستطيع مقاومته وإزالته.

كذلك الحيوان فإنه غير قادر على تغيير ما في نفسه، أي أنه غير قادر على تغيير طبيعته وغريزته، وإن كان قادراً على التغيير في محيطه بالانتقال من مكان إلى آخر. فإذا جاع الحيوان ولم يجد أمامه ما يأكله فإنه ينتقل

إلى مكان آخر بحثاً عن الغذاء. أما إذا كان هذا الحيوان كالذئب مثلاً معادياً للحمل، فإنه لا يستطيع أن يتحول إلى صديق له ويغيّر من طباعه.

أما الإنسان فإنه المخلوق الوحيد الذي يستطيع التغيير في الخارج وفي الداخل.

يقول القرآن الكريم: **﴿إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾** [سورة النساء: الآية ٩٧].

فإذا وجد الإنسان في مجتمع ظالم لا يستطيع تغييره فإنه قادر على الهجرة منه والابتعاد عنه، ومن ثم العمل على تهيئة الظروف المناسبة للتأثير فيه. وهذا ما حدث بالفعل عندما أمر الرسول الأعظم بالهجرة من مكة إلى المدينة.

والتغيير الداخلي أيضاً قادرٌ عليه الإنسان، بدليل أن الله أمره بذلك، والله لا يأمر الإنسان بشيء لا يقدر عليه. كذلك نلاحظ أن الإنسان قادر على تغيير طباعه. فإن كان جباناً يستطيع أن يحوّل نفسه إلى أشجع الشجعان. وإذا كان بخيلاً يستطيع أن يتحول إلى جواد كريم. وإذا دفعته غريزته إلى الحرام فإنه قادر بفضل إيمانه وتقواه أن يردع أهواءه ويقمع غريزته.

التغيير بين الإيمان وسجن الحتميات

هناك نظريات كثيرة تجعل الإنسان حبيس الحتميات.

فالماركسية مثلاً تقول بأن الإنسان خاضع للحتمية التاريخية المادية وأنه غير قادر على تغيير نفسه وإنما هو يتغيَّر بتأثير المجتمع. وهذا يعني أن

المجتمع هو الذي يصنع الإنسان وليس العكس.

ويضع فرويد الإنسان في سجن الغرائز، ويقول بأن الغريزة الجنسية هي التي تحرك الإنسان وتوجهه وتتحكم بجميع أوجه نشاطه وحركته.

أما سارتر الفيلسوف الوجودي فإنه يجعل الإنسان حبيس ذاته. أي أن حبَّ الذات وتأكيدها هو القوة الأساسية المحركة، ولا يستطيع الإنسان أن يخرج من هذا السجن.

هذه النظريات وأمثالها تجعل الإنسان مخلوقاً خاضعاً لحتميات ومسارات تحددها قوى معينة، وتضعه في سجن هذه الحتميات فلا يستطيع مخالفتها أو النجاة منها. وهذه النظريات في الحقيقة تقزّم حرية الإنسان إلى أبعد الحدود وتستلب إرادته.

هنا نسأل الماركسية: هل المجتمع الاشتراكي الماركسي هو الذي أنتج ماركس أم أن ماركس والنظرية الماركسية هي التي صنعت المجتمع الاشتراكي؟ الجواب واضح، وهو أن وجود الماركسية سابق على وجود المجتمع الاشتراكي.

وتقول الماركسية بأن كل شيء في الكون يتغيّر، ولا شيء فيه ثابت، بما في ذلك المبادىء والقيم والأخلاق. والحقيقة أن في هذا الوجود أشياء متغيرة وأخرى ثابتة لا تتغيّر. هناك حقائق ثابتة: فالصدق حسن والكذب قبيح، ولا يمكن أن يأتي يوم تتغيّر فيه هذه الحقيقة إلاَّ في حالة سيادة الظلم الذي يصوّر الأمور على غير حقيقتها. كذلك هناك حقائق علمية ثابتة لا تتغيّر. فالمعروف أن الضوء يسير بسرعة معيَّنة، وهذه حقيقة لا تتغيّر. كما أن قواعد المنطق الرياضي تقول أن ٢ + ٢ = ٤ ولا يمكن أن يأتي يوم تصبح فيه المعادلة على نحو: ٢ + ٢ = ٥.

إن النظرية الماركسية حبست الإنسان في سجن المادة والتاريخ وجعلته مرهوناً بحركة الاقتصاد والسياسة. ونظرية فرويد الجنسية هبطت بالإنسان وجعلته في مصاف الحيوان. ونظرية سارتر الوجودية جعلت الإنسان غير قادر على التمرّد على ذاتيته وحبّه لنفسه. وهنا نسأل سارتر: هل حب الذات والأنانية هي التي تدفع الفدائي إلى التضحية بنفسه أم نكران الذات؟

أمام هذه النظريات المختلفة التي تقيّد الإنسان وتضعه أمام حتميات اجتماعية واقتصادية ومادية وغرائزية وذاتية نجد الإسلام يأتي بالعنصر الأساسي لنظرية تحرير الإنسان والارتقاء به وهو عنصر الإيمان وقوته الهائلة في تحديد مصير الإنسان، ذلك أن الحرية الإنسانية هي في أساس النظرية الإيمانية الإسلامية.

فالاقتصاد والمجتمع يؤثران في الإنسان وفي مجريات حياته، ولكن إيمان الإنسان وعقله وإرادته قادرة على صياغة المجتمع وتحريك الاقتصاد في الاتجاه الذي يريده الإنسان. كذلك فإن إيمان الإنسان يجعل منه قادراً على تجاوز ذاته وأنانيته فيضحي بنفسه وماله وذاته في سبيل أهداف عليا ومبادىء سامية: **﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾** [سورة الأحزاب: الآية ٢٣].

والإيمان يجعل الإنسان قادراً على وضع كل ما في حياته في كفّة واحدة وبيعه في مقابل الفوز بالجنّة ورضا الله ــ سبحانه ــ: **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** [سورة الصف: الآيتان ١٠ ــ ١١].

والإيمـان بالله قـوة تجعل الإنسـان يتحكم بغرائـزه وشهواته وميوله الأنانية، لا أن يكـون عبداً لهـا وأسيراً في سجنهـا: ﴿وراودته التي هـو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبـواب وقالت هَيْتَ لـك قـال معاذ الله إنـه ربّـي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾ [سورة يوسف: الآية ٢٣].

﴿قـال ربِّ السجن أحبُّ إليَّ مما يـدعونني إليـه﴾ [سورة يـوسف: الآية ٣٣].

إذن يضـع الإسلام النـظرية المتكـاملة في بناء الشخصية الإنسـانيـة بإدخال عنصري الإيمان والحرية.

ثلاث قوى محرّكة

يحدّد الإسلام ثلاث قوى أسـاسية تحـرك الإنسـان في حيـاته وتمثـل ثلاثة أعمدة كبرى، هي: السيـاسة والاقتصـاد والإيمان. والإيمـان حاضـرٌ دائماً في جميع أوجه الحياة.

فالمسلم مؤمن بالله، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويأمر بالمعـروف وينهى عن المنكر.

فإقامة الصلاة ترمز إلى الارتباط بالله، وإيتاء الزكـاة ترمـز إلى العنصر الاقتصادي في حياة الإنسان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر يرمـزان إلى الناحية السياسية في المجتمع.

أما عندمـا نفصل الـدين والإيمان عن السيـاسة والاقتصـاد والمجتمع والأخلاق فإننا نقع في حتميات النظريات المشوّهة التي تأخـذ بعداً واحـداً في الإنسـان وتسلّط الضوء عليـه فتأتي الصـورة مجتزأة مشـوّهة. فـإذا كان الإنسان أسير الغرائز يصبح حيواناً عاديـاً، وإذا كان أسيـر الاقتصاد وحـركته فإنه يصبح آلة عمياء تسيّرها أزرار وأسلاك مثل الإنسان الآلي الذي يدعونه

«الروبوت». أما إذا أضفت إلى هذا الكيان الإنساني عنصري الإيمان والحرية فإنك تكون أمام مخلوق عظيم جدير بالكرامة التي منحه إياها ربّ العالمين بأن جعله خليفة الله في الأرض.

السياسة بين الإسلام والنظريات الأخرى

إن سياسة المجتمع في الإسلام نابعة من التشريعات الإلّهية التي جاء بها القرآن الكريم، وهذه السياسة ترمي إلى توفير السعادة للإنسان وحماية حقوقه في الحياة الحرّة الكريمة والتعبير عن الرأي والسفر والإقامة وسائر الحريات الأخرى.

والسياسة الإسلامية تحرص قبل كل شيء على وحدة المجتمع الإسلامي وحفظ ثرواته وإمكانياته. وعندما فصل الدين عن الدولة وغاب الإسلام عن حياة المجتمع رأينا العالم الإسلامي يسقط أمام القوى الاستعمارية المعادية الطامعة فيه، وينقسم إلى دول ودويلات وإمارات ومحميات تقوم بينها السدود والحدود، وتذهب ثرواتها إلى المستغلين المستعمرين فينعمون على بعض الأفراد والحكام بفتات الموائد، في حين يعيش عامة المسلمين في الفقر والجوع والمرض والجهل.

إن أكثر الحكام المسلمين يحتارون أين يضعون أموالهم وثرواتهم في هذه الدولة الأجنبية أو تلك، وعند أول هزَّة سياسية تتبخّر تلك الأموال وتبتلعها البنوك الأجنبية والبورصات العالمية. وفي الجانب الآخر من الصورة نجد الآلاف يموتون من الجوع والمرض في آسيا وأفريقيا وسائر أنحاء العالم الإسلامي.

وعندما كان العالم الإسلامي موحداً وممسكاً بثرواته وخبراته كان الإنسان المسلم ينتقل من بلد إلى آخر دون سدود أو قيود أو حواجز حدود،

وأينما وجد العمل والرزق يستطيع الإقامة بحرية كاملة. أما اليوم فإننا نرى المسلم لا يستطيع الدخول إلى أي بلد إسلامي إلاَّ بعد الحصول على تأشيرة دخول وإجازة عمل وإقامة. وهذه لا يحصل عليها إلاَّ بشقّ النفس وبذل الأثمان الغالية. ومع ذلك تبقى حياته الاجتماعية والاقتصادية قلقة مهدّدة ومرتبطة بمزاج السلطات المعنية. هذا في حين يعيش الخبراء الأجانب وأصحاب الشركات في إطار من الامتيازات لا يحلم بها المواطن المسلم.

ذات يوم كان الحاكم الإسلامي يقول للغيمة المارة فوق رأسه: «اذهبي حيث تشائين فإن خراجك لي». أما اليوم فإن كل غيمة إسلامية تصبّ في خراج الآخرين!...

والنظام الإسلامي يعتبر كرامة الإنسان وحفظ حياته وحقوقه في أساس السياسة. فإذا انحرفت السياسة عن مصالح الناس فإنها تخرج من الإسلام وشرعيته. فالشيوعية التي تسمح بقتل وتشريد الملايين من أجل إقامة المزارع الجماعية هي بعيدة كل البعد عن مصلحة الإنسان وكرامته. والرأسمالية التي تقيم من المال سلطة عليا وصنماً وإلّهاً للعبادة، وتخوض الحروب الطاحنة للسيطرة على ثروات العالم، هذه الرأسمالية هي عدوّة الإنسان. لقد خاضت مطامع الرأسمالية الحرب العالمية الثانية وخلَّفت أكثر من سبعين مليوناً من القتلى والجرحى والمشوّهين.

أما الإسلام فإنه يقول: **﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾** [سورة المائدة: الآية ٣٢].

إن الازدهار الاقتصادي والصناعة والزراعة والسياسة كلها من أجل مصلحة الإنسان وكرامته. فإذا كان ثمن ذلك قتل الإنسان وسجنه واضطهاده فإنه لا يساوي شيئاً في نظر الإسلام.

إن المنطلق الأول لبناء المجتمع الإسلامي هو في وجود الشخصية الإسلامية القوية المستقلة المتميزة عن غيرها. فإذا كانت هذه الشخصية ضعيفة ذائبة في غيرها فإنها لا تستطيع بناء المجتمع الإسلامي، وإنما تبني مجتمعاً ضعيفاً متهالكاً على صورتها.

وإذا نظرنا اليوم إلى مجتمعاتنا الإسلامية نجدها مستلبة الشخصية، ونجد شبابنا غارقين في بحر متلاطم من الأجواء الغريبة عن عاداتهم وتقاليدهم ومبادىء مجتمعهم. فالشباب يتخذون من بعض المناسبات مثل أعياد الميلاد ورأس السنة فرصة لتقليد الآخرين وسلوك مسالكهم، في حين يبتعدون عن التقاليد والمناسبات الإسلامية الأصيلة. فنجد في عيد الميلاد ورأس السنة حفلات الرقص والغناء والتباري في مظاهر المجون وتناول المسكرات والابتعاد عن الحشمة والأخلاق الإسلامية. وفي نفس الوقت نجد بعض المناسبات الإسلامية مثل ليلة القدر وذكرى وفاة الإمام الحسن (ع) وغير ذلك، نجدها مناسبات تمرّ سريعاً دون أن يلتفت إليها إلاَّ نفرٌ قليل من المؤمنين المرتبطين بإسلامهم الحريصين على التعبير عن شخصيتهم المستقلة.

وإذا نظرنا أيضاً إلى العادات في الملبس والمأكل وقضاء وقت الفراغ نجد الروح الإسلامية ضعيفة أو غائبة، وكيفما اتجهنا يقع بصرنا على المظاهر الغريبة المستعارة.

ومن جهة أخرى نلاحظ إعجاب شبابنا ومثقفينا بشخصيات أجنبية من أمثال ماركس ولينين وفرويد ودارون وأبراهام لنكولن وغيرهم، في حين يغيب عن بالهم أسماء عظيمة مثل الرسول الأعظم وعلي بن أبي طالب،

وجابر بن حيان وابن سينا والغزالي وغيرهم من أعلام الإسلام في الفكر والسياسة والعلم والأخلاق. هذا الابتعاد عن أعلام القيم الإسلامية يشير إلى ضعف الشخصية الإسلامية في كثير من أوساط مجتمعنا، وبالتالي يشير إلى أحد الأسباب التي تمنع أمتنا وشعوبنا من النهوض والتقدّم.

لقد أكّد الإسلام منذ البداية على ضرورة تعلّق المسلمين بما يحفظ شخصيتهم ويميزها عن الآخرين. وحتى إذا كان في حياة الآخرين إيجابيات كثيرة، فإن الإسلام يدعونا إلى الاستفادة منها، ولكن بشرط عدم التخلّي عن ذاتنا.

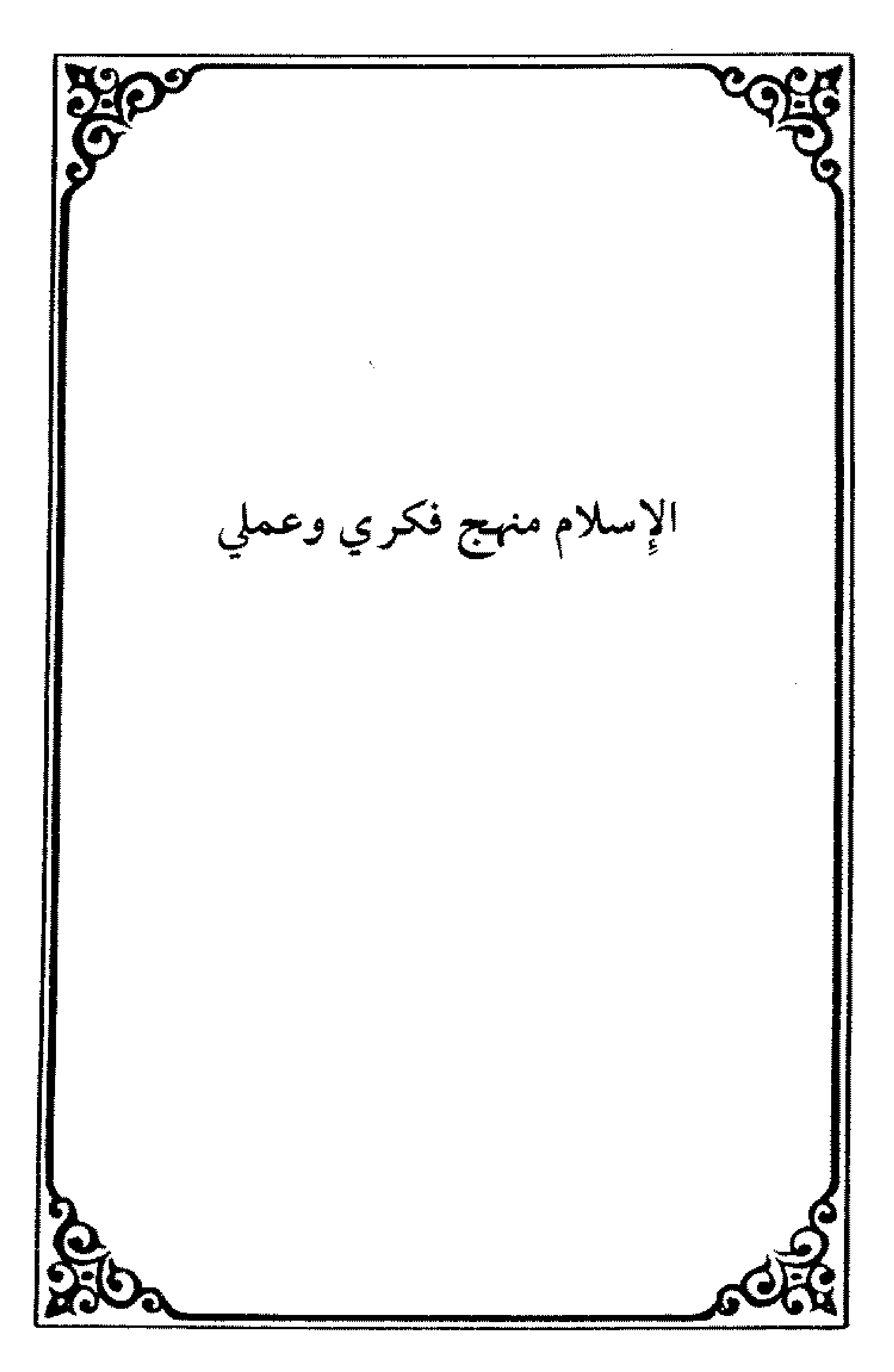
يقول القرآن الكريم: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾** [سورة البقرة: الآية ١٠٤].

هذه الآية نزلت لتدعو المسلمين إلى مخاطبة الرسول (ص) بصيغة هي غير الصيغة التي يستعملها اليهود، وذلك لهدفين أساسيين: الأول تمايز المسلمين عن اليهود وعدم استعمال عادتهم في التخاطب، والثاني عدم السماح لليهود بالتقليل من شأن الرسول (ص) والنيل منه.

يقول ابن عباس: كان المسلمون يقولون للنبي (ص) عندما يخاطبونه: راعنا، أي التفت إلينا. وكانت هذه الكلمة بلسان اليهود سبّاً. ومعناها عندهم: اسمع لا سمعت! فاغتنمها اليهود، وصاروا يخاطبون بها النبيَّ (ص) ويضحكون فيما بينهم ويقولون: كنّا نسبُّه سراً، والآن نسبُّه جهراً. فسمعها سعد بن معاذ، وكان يعرف لغة اليهود، فقال لهم: عليكم لعنة الله! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبيّ (ص) لأضربنَّ عنقه. فقالوا: أولستم تقولونها؟! قال ابن عباس: فنزلت الآية، ونُهي المسلمون عن استعمال تلك الكلمة لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه.

إذن لا بد للشخصية الإسلامية أن تكون قوية مستقلّة لها خصائصها المميزة النابعة من مبادىء الإسلام ونظامه الفكري والثقافي والأخلاقي، حتى تكون شخصية مؤثرة فاعلة في محيطها، وقادرة على القيام بالدور الرسالي الذي حدّده القرآن الكريم للأمة الإسلامية بقوله: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٣].

• • •



الإسلام منهج فكري وعملي

الإسلام منهج فكري وعملي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠].

مدخل

في هذه الآية المباركة إخراج رائع للأمَّة الإسلاميَّة. هذا الإخراج يكمن في شيئين:

الأول هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثاني هو الإيمان بالله.

والشيء الملفت للنظر، هو أن الإيمان بالله تأخَّر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلماذا كان هذا التأخير؟... ولماذا جاءت هذه الآية المباركة على هذا الشكل؟... وكان المفروض مثلاً أن تكون: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تؤمنون بالله وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر».

في اعتقادي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما سياج الإيمان، والسياج مقدم دائماً على الشيء المسيَّج به. فكما أن سياج الحديقة يحيط بها ليحفظها ويقيها ويصونها من العبث والاعتداء؛ فقد جاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هنا بمثابة سياج للإيمان ليحفظه ويصونه ويبعد عنه التَّطفُّل والاعتداء.

المسلمون والمجتمع الإسلامي

نحن أمة إسلاميَّة عظيمة؛ سواء كنا في الكويت أو في إيران أو في أندونيسيا أو في الغرب، أو في الشرق. أمَّة إسلاميَّة واسعة الحدود مترامية الأطراف؛ تمتد على مساحة كبيرة جداً من الكرة الأرضيَّة؛ والمسلمون فيها، أو المجتمع الإسلامي بتعبير أدق موزع على عدة دول في هذا العالم.

وإذا كان المجتمع كما يقول علم النفس الاجتماعي يُشبه إلى حدٍّ بعيد تركيبة الإنسان البدنيَّة والنفسيَّة؛ فإن المجتمع الضعيف طبقاً لهذا؛ أشبه بالبدن الضعيف؛ فهو يلتقط الأمراض بسهولة فائقة. وأكثر من هذا فإن الإنسان وهو في حالة الغيبوبة واللاّوعي لا يستطيع أن يثبت وجوده ويعرف قيمته ومكانه إلَّا بعد أن يستردَّ وعيه. وما دام لم يسترد وعيه فهو في حالة غيبوبة شاملة كاملة. كذلك الحال في المجتمع الغارق في غيبوبة الشهوات والبعد عن الله، فإنه لا يسترد وعيه ويعرف قيمته ومكانه ويدرك حقيقته إلَّا بعد أن يعود إليه إحساسه ووعيُه في الإسلام، وفي سيرة الأنبياء، وفي مناهج الله حتى يكون مجتمعاً إسلامياً حقيقياً.

هناك قوى متضاربة تتنازع المجتمع الإسلامي الآن في داخله وخارجه. ففي داخل الإنسان المسلم نجد الفطرة والإيمان بالله وباليوم الآخر وبالقرآن الكريم، كما نجد عنده مناهج الإسلام وعقائده، وهو يصلي ويصوم، حتى إذا خرج إلى الحياة العامة وراح يتعامل مع غيره في الأسواق، أصبح كل شيء مختلفاً؛ فلا الأخلاق فيها أخلاق إسلامية، ولا المعاملات التي نجدها معاملات إسلاميَّة، وكأنَّ المحاضرات التي نسمعها في المساجد والحسينيَّات والنوادي الفكريَّة، تذهب دون أن تترك فينا أثراً يُذكر.

نسمع المحاضر مثلاً يقول: الربا حرام. فنذهب إلى البنوك فنجدها قائمة على الربا، والبنوك كما هو معروف شبكة مترابطة في العالم، يصعب التخلص منها إلاَّ بالبديل.

الربا حرام؛ ليست كلمة تقال على المنابر وحسب، الربا حرام؛ فأين البديل؟...

يجب أن تُفتح بنوك إسلاميَّة شرعية حتى تكون المعاملات معاملات إسلاميَّة. هذا التاجر الغني ذو الملايين؛ أين يضع أمواله؟...

لو قلت له ألف مرَّة الربا حرام فلن يستمع إليك، إنه بحاجة إلى حفظ أمواله وتشغيلها واستثمارها. يجب أن تفتح بنوك إسلاميَّة وأقولها وللمرة الألف وبالفم الملآن، بنوك إسلاميَّة في دولة إسلامية بالعملة الإسلامية وليس هذا صعباً. والدول الإسلاميَّة اليوم مرتبطة بالعالم أجمع والعملة المتداولة فيها مرتبطة بالدولار أو غيره، وأي ارتفاع في الدولار أو انخفاض فيه يؤثر تأثيراً مباشراً على العملة في أي بلدٍ إسلامي كان. فنحن إذن في العالم الإسلامي لا نَمْلِك عِمْلَتَنا بأيدينا، ولا نملك القُدْرَة على التَحَكُّم فيها؛ ولكنّا نَمْلِك النَّفط. فإذا ما اسْتَطَعْنا أنْ نَكونَ أحراراً في بلادٍ حُرَّة، استطعنا عندها أنْ نُوَجِّه النَّفْط في خدمة الدول الإسلاميَّة وإعلاء شأنها. إن شركات النفط العالمية تَجْتَمِع وتُنَاقش وتُقيم الدُّنيا وتُقْعِدُها حول النفط، وأسْعَارِه وكَمِيّاتِ استخراجه. وإذا ما ارتفع أو انْخَفَضَ تَحْدُث ضَجَّة كبرى في مختلف أنحاء العالم حتى إذا ما أرَدْنا أنْ نَدْرُس هذه الضَّجَّة رَأَيْنا أنَّه لا وجود لها أبداً.

العالم الإسلامي لا يَمْلِكُ الآن عملته بيده، واليهود هم المسيطرون على الاقتصاد العالمي. إنَّ البنك الدُّولي مَثَلاً فيه ستَّ عَشْرَةَ هيئة، منها

أربع عشرة هيئة يهودية واثنتان للمسيحيِّين، واليهود عندهم كميات هائلة من الذهب، فإنْ أرادوا بيعها ارتفع الذَّهَبُ بِشَكْلٍ جنوني، وإنْ أرادوا شراءَها، انخفض الذهب بشكلٍ جنوني أيضاً. إنَّهم يتحكمون بالعالَم، والعالم يعاني الآن من حالة تَضَخُّم، والتَّضخُّم معناه أَنَّ الدَّخل المحدود لا يوافق القيمةَ الشِّرائيَّة للعملة، وهذا التَّضَخُّمُ أفرزه الاقتصاد العالمي الكافر المبني على نظريات وآراء آدم سميث وكارل ماركس وأضرابهما.

مناهجنا الاقتصاديَّة

نحن مسلمون، عندنا القرآن العظيم، وعندنا مناهج اقتصاديَّة عظيمة، جاءَ بها بطل الإنسانيَّة كُلِّها، النبيّ محمد (ص). ولكننا نتعامل مع القرآن والأحاديث النبويَّة الشريفة، كما نتعامل مع أي تُراث. ففي شهر رمضان المبارك تُفْتَح المساجد ويُقْرأ القرآن ولكن القرآن ليس قراءة وحسب إنّه تَطْبيق. فهل نحن نطبق الآيات القرآنيَّة الكريمة الي نَسْمَعُها صباح مساء؟... هل نطبق المناهج الإسلاميَّة التي وَرَدَتْ في القرآن الكريم؟... وإذا كنا نَسْتَمِعُ إلى القرآن الكريم يُتْلَى في مُختلف الإذاعات الإسلاميَّة وغير الإسلاميَّة فما ذلك إلاَّ لأن للقرآن الكريم قُوَّةً ذاتيَّةً كامِنَةً فيه. ولا يَتَوَهَّمَنَّ أَحَدُ أنَّه أَخذها من المسلمين أَو استمدَّها منهم، ولكنه هو بذاته يفرض وجوده، وإنَّما التَّطبيق يَقَع على المسلمين. ونعود للسؤال: هل القرآن يُطَبَّق؟... هل آيَةَ الحجاب مثلاً مطبقة؟... هل الآيات الموجودة في الاقتصاد الإسلامي، في الزكاة والخمس، والخراج والجِزْيَة والرِّبا وعددها حوالي خمسماية آية مُطَبَّقة في المجتمع الإسلامي؟... هل نجدها في الأسواق والبنوك والمؤسسات التِّجاريَّة؟

كلاَّ! إنَّك لا تلقى لها وجوداً، فنحن بحاجةٍ إلى وَعْيٍ إسلامي

صحيح، فلا عِـزَّةَ ولا كرامـةَ لنا؛ إلاّ بـالعودة إلى الله، وبغيـر هذا فَسَنَبْقى نَتَلقّى اللّطمات والصَّفَعَات الواحدة تلو الأُخرَى.

نحـن والتلفزيـون

ما هو موقعنا نحن المسلمين في هذا الطوفـان من الضياع والفسـاد، ونحن نعيش في داخله؟...

تدخل البيتَ فترى جهاز التلفـزيون عنـدك، وترى نفسـك غير قـادرٍ على الاستغنـاء عنه. والإسـلام لا يقول لـك: أخرج التلفـزيـون من بيتك ولكنه يقول: عالج الفكر المسموم الذي يأتيك منه، والذي يدخل إلى فكر أَبْنَائِك وبناتِك، وفِكْرِكَ أيضاً. إذاعاتنا في الدُّوَل الإسلاميَّة لا تجد فيها غير برامج الـرقص والغناء. فَمَنْ قـال لك غَنِّ؟... هـل عنـدك حـديث عن رسول الله يقول فيه: إنَّ الغناء جائز؟... الرسول يقول: إنَّ بيتاً فيـه غناء، لا ينظرُ الله إليه ولا تَدْخُله الملائكة. ويقول: الغناء داعية الزنا.

والإمامان الباقر والصادق يقولان ذلك.

إنَّ هـذا شيء واضح نـراه في مختلف الأوسـاط حيث يَكْثُرُ الـرَّقص والغناء. إذ نرى أنَّه إذا كان المغنّي شابّاً فـإنَّه يؤثّـرُ على قلب الفتاة والمـرأة والعكس صحيـح. فلماذا التَّـرْكيز على الغنـاء والموسيقى بـالـذَّات وبهـذا الشكـل؟... وأعـظم من ذلـك المغنُّـون الأجـانب!... فهـذا المغنِّي الأَجنبـي، ليس له علاقـة بك أنت كمسلم؛ يـدخل بَيْتَـك فَيَتَحَدَّاك. حتى لغته يفرضهـا عليك. والإسـلام ليس ضد اللغـات فهو يَحِثُّـكَ على تَعَلُّمِها كلهـا. من تَعَلَّمَ لُغَةَ قَـوْمٍ أَمِنَ شَـرَّهم. وكـلُّ لسـان في الحقيقـة إنسـان، والقـرآن الكريم يقـول: ﴿**وَمِنْ آيـاتـه خلقُ السمـواتِ والأَرض واختـلافُ أَلْسِنَتِكم وأَلْـوانِكُم، إنَّ في ذلك لآيـات للعـالمين**﴾ [سـورة الـروم: الآيـة ٢٢].

لغتنـا العربيَّـة

ليس تَعَلُّمُ اللغات حراماً، ولكنَّ الحرام أَنْ نَـدَعَ هذه اللغـات تَطْغى على لغتنـا العربيَّـة وتحلّ مكـانهـا وتغـزوهـا في عقـرِ دارهـا وتَـزْدهـر على حسابها. لغتنا العربية هذه كانت في يوم مضى لغةً عالميةً واسعة الانتشار. فقـد كانت لغـة العلم والحضارة، يـوم كان العـربُ سادةً أَعِـزَّة هـذه اللغـة العـربية الجميلة الـرائعة، إنهـا بحر متـلاطم من المعاني والبيـان، إنه لمن المؤسف جداً أن لا نرى لها وجوداً في عصرنا الحاضر. لقد تَكَاسَلَ العربُ حتى لم يَتَمَكَّنـوا من إيصـال لغتهم إلى العـالم، وهي لغـة القـرآن، بينمـا تمكن الإنجليـز والفرنسيـون وغيـرهم من إيصـال لغـاتِهم إلى كـل منـاطق العالم. نحن لا نريد الانتقاد وحسب وإنَّما نبحث عن العلاج، ولا نـراه إلاَّ كمـا قلنـا في العـودة إلى الله والقـرآن الكـريم وأهـل البيت ـ عليهم السـلام ـ ، فعلينا أَنْ نـدخل المنـاهج التَّـرْبويَّـة والعقائـد الإسـلاميَّـة في مدارسنا وجامعاتنا وفي وسائل إعلامنا. وعلى الشعوب الإسـلاميَّة أن تَتَكلَّمَ وتقول كلمتها في هذه الأمور. فأنا مِنْ أَيْنَ آخـذُ تراثي؟. . . من أَيْنَ آخُـذُ غذائي الفكري؟. . .

من أجهزة التلفزيـون وهي لا تُعْطيني إلاَّ الغـذاء الغربـي البعيـد عن الإسلام؟. . . أم من الإذاعات وهي غارقة دائماً في غنائها وموسيقاها؟. . .

هـل أنتظر المـواسم والمناسبـات حتى أعرف مـا هو تُـراثي الفكـري والإسلامي؟ هل أنتظرُ السَّنَة كلَّهـا حتى يَتَحَدَّثـوا ساعـة أو ساعتين عن ليلة القـدر أو ذكـرى الإسـراء والمعـراج، أو الهجـرة، أو غيـر ذلـك مـن المناسبات؟. . .

بين المسجد والتلفزيون

من المفروض أن يكون عندنا مناهج علميَّة وتربويَّة وأَخلاقيَّة وبـرامج

لتفسير القرآن تـذاع على مدار السَّنـة وأن تُدَارَ النَّـدَواتُ في التلفزيـون عن الاقتصاد الإسلامي والإدارة الإسلاميَّة، والسياسة الإسلاميَّة. فعندنا علمـاء مسلمون كُثُر. وحَمَلَة فِكرٍ إسلامي موجودون في كـل أنحاء العـالم، يجب أن نَخْلُقَ حـالةً من الصـراع الدائم بين المسجـد والتلفزيـون وليكن عندنـا أشرطة فيديو فيها برامج علميَّة وأخلاقية نَرى فيها عظمة الخـالق ــ سبحانـه وتعـالى ــ ، ومناظـر طبيعية خَـلاَّقـة تُهـدِّىء الأطفـال وتبعث الخشيَـة في قلوبهم.

ليكن عندنا منـاهج تـربويَّـة للأطفـال وأفلام إسـلاميَّة فـالفيـديـو فم مفتـوح؛ والمسجّلة فم مفتوح أيضـاً؛ إنه فم الحضـارة المـاديَّـة، حضـارة القـرن العشرين، فـإذا لم تُحْسِنْ مع هـذا الفم، ولم تعرف كيف تختـار له الغذاء المناسب، فإنَّه سَيَتَغَذَّى حتماً بالغناء والموسيقى الراقصـة والأشرطـة الرديئة. لا تقـل الفيديـو حرام، والمسجلة حـرام. إجعل البـديلَ مـوجوداً بالمحاضـرات والمسرحيَّـات الإسلاميـة والبطولات المـوجودة في الإسـلام والتي تَشُدُّ إليه الأَسْماع والقلوب والأنفاسَ معاً.

كل هذا موجود ولكنه بحاجـةٍ إلى تحريـك من العلماء والتجّـار على السواء.

أذكر أنَّني عندما تعرَّضت لفيلم واقعة الطف، جاءتني رسائل عديدة؛ من بينهـا واحـدة تقـول: هـل حـرام أن يُمَثِّلَ أحـد شخصيَّـة الإمـام الحسين؟... يا أخي: مَنْ قالَ لك أن هذا حرام؟... هل تـريد أن يـأتي الإمام الحسين ويُمَثِّل هو شَخْصيَّته؟ ولماذا نُحارِبُ الشَّبيه؟... هذا مسرح سيَّـار؛ وبدل أن تحـاربه نَـظِّمْه وَوَجِّهـهُ، وأتِ بطاقـات من الشباب ودعهم يمثلون على غرار ما يحدث في بلدة النبطيَّة من لبنان الجنـوبـي. فالصـورة لها أثرٌ كبير على نفسيَّة الإنسـان، والله ــ تعالى ــ أَلْقى شَبَهَ السيد المسيح

على أحد اليهود، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿**وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم**﴾ [سورة النساء: الآية ١٥٧].

فأنت تريد أنْ تأخذ الصورة وما تترك فيك من أثر وتؤدي بها خدمة، غير أنَّه يجب أن تتوفَّر في هذا الممثِّل بعض الشروط منها: الاستقامة والسلوك الحسن، ولا أقول لك أنَّه يجب أن يكون كأبي ذرّ الغفاري مثلاً. كلاَّ فأنا لا أقصد هذا، فالمسلمون كلهم عدول وكلهم ثُقَاة وكلهم إيمان؛ ولكن لا نريد إنساناً غربيّاً بعيداً عن الإسلام أن يقوم بهذا الدور. يجب أن تُوَزَّعَ الأدوار كلها على مجموعة من الشباب والممثلين البارعين؛ وفي أقل من سنة يُنْتَجُ فيلم رائع، والمواضيع كثيرة؛ فهناك واقعة الطفّ، وسيرة الرسول الأعظم (ص) وحياة الأَنْبياء وسِيَرهم، وحياة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ وغير ذلك، لتعرض كلها في أفلامٍ دقيقة وَمُرَكَّزة.

إننا في حالة صراع، فعلينا أن نُوَفِّقَ بين الحالة الخارجيَّة لمجتمعنا الإسلامي والحالة الإيمانيَّة في نفوسنا، وعلينا أن نُوَفِّقَ فيها والتوفيق يعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنها أعظم خطوة في التوفيق: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠].

فالجزيرة العربية كانت محاطةً بإمبراطوريَّة الفساد؛ وبلاد الهند، وبلاد الروم وإذا بنور الإسلام يَنْبَثِق من هناك فانظر كيف تم هذا الإخراج الرائع. ﴿**تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾.

المسلم وعلاقته بالإسلام

يجب أن تكون علاقة المسلم بالإسلام علاقة حميمةً وثيقة، بحيث أنّه يتعامل مع الأشياء بقدر ما تُحرِّك فكره وعقله، تماماً كما تعامل نيوتن مع تفاحته، فلو أنَّها سقطت فوق رأس أحدٍ غيره لكان تعامل معها بمقدار

ما حَرَّكت شهيَّته ورغبته في الطعام. ثم تناولها وأكلها وانتهى كل شيء. أما هو فقد تعامل معها بمقدار ما حرَّكت فكره، وعقله، ووعيه فتوصل بذلك إلى قانون الجاذبيَّة، وهذا بدوره كان الأرضيَّة الصَّالِحَة لأَنْشْتَايْن فأوجد قانون النِّسْبَة، وبفضل هذا وذاك تَمَكَّنَ الإنسان من سبر أغوار الفضاء وراحَتْ سفنه الفضائية تَتَنَقَّلُ بين الكواكب وهو من هنا عن الأرض يَتَحَكَّمُ بها ويُوَجِّهُهَا كيف يشاء.

فهل أتى نيوتن بقوانينه من عنده؟... وهل أتى أَنْشْتايْنُ بقوانينه من عنده؟... كلَّا! فالقوانين موجودة؛ إنها قوانين الله ــ تعالى ــ في الكون، وهما لم يزرعا قوانينهما في العالم. إنهما مخلوقان من مخلوقات الله ــ تعالى ــ. القوانين موجودة ومهمَّة العلم لم تَخْرُج عن قوانين الله أبداً، وإنَّما سَهَّلَتْ لنا الحياة عندما جعلت الحركة أكثر دِقَّة وأكثر سهولة.

لقد أشار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى بعض هذه القوانين عندما ضرب نهر الفرات بسوطه والتفت إلى كُمَيْل وقال: «يا كُمَيْل لو شئت من هذا الماء نوراً يستضيء العالم به». ولم يسأله كميل يومها كيف؟... الطاقة موجودة وانفصال الأوكسجين عن الهيدروجين بالشَّحْنَة يتحول إلى طاقة. المادة تتحوَّل إلى طاقة؛ والطاقة تتحوَّل إلى مادَّة لقد توصل أنشتاين إلى المسافات بين الكواكب بالإشارات ثم أعطاها سرعة الضوء لأن القياسات المعمول بها على الأرض لا تناسبها. وقد صَفَّقت المحافل العلميَّة يومها لأنشتاين ولكن الحقيقة هي أن الإمام علياً هو أَوَّلُ مَنْ أشار إلى السنين الضوئيَّة للمسافات الكونيَّة؛ ولكنَّنا لا نَمْلِكُ الإعلام القوي حتى نوصل صوت أمير المؤمنين إلى العالم؛ ولا نملك حتى الجُرْأَةَ الأدبيَّة التي تمكننا من الوقوف على أقدامنا لنعلن أمام العالم ونقول: هذا الإمام علي يشير من على منبر الكوفة إلى هذه الحقيقة ويقول:

إنَّ في هذه النجوم مدناً مثل المدن التي في الأرض؛ بين كل مدينة ومدينة عمود من نور طوله خمسماية عام أي خمسماية سنة ضوئية. فما بالك بالمجَرّات الأخرى التي تسير في عباب هذا الكون العظيم والتي لا يعلم عددها، إلاَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ مجرَّات هائلة، بعضها مأهول وبعضها غير مأهول ولا تتوهَّمَنَّ أنَّك الوحيد في هذا الكون. والقرآن الكريم يشير إلى ذلك فيقول: **﴿وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَواتِ والأَرض وما بث فيهما من دابَّة﴾** [سورة الشورى: الآية ٢٩].

وكذلك الأحاديث الواردة عن رسول الله (ص) بهذا الخصوص: «إنَّ خَلْفَ أَرضكم هذه أرضاً فيها قوم ما عصوا الله طَرْفَةَ عين» وفي كتاب بحار الأنوار للعلاّمة المجلسي ذكر لهذا الشيء. وفي كتاب السماء والعالم فصل كامل يتحدث بالتراث الإسلامي عن الفضاء، وعن النظريات العلميَّة في الفلك الواردة عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ. فاعلم أنَّ الله عظيم تُسَبِّح له السموات السَّبْع وَمَنْ فيهن، كل شيء يُسبح باسم الله. وانظر عظمة الحق ـ تعالى ـ التَّسْبيح في القرآن الكريم. وقد وَرَدَ فعل سبَّح في جميع صِيَغِهِ. ففي المصدر نحو: **﴿سبحان الذي أسرى﴾** [سورة آل عمران: الآية ١١٠].

وفي الماضي: **﴿سبح لله ما في السموات والأرض﴾** [سورة الحديد: الآية ١].

وفي المضارع: **﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض﴾** [سورة الجمعة: الآية ١].

وفي الأَمْر: **﴿سبح اسمَ ربِّك الأعلى﴾** [سورة الأعلى: الآية ١].

من ذلك نرى أنَّ الكون يُسَبِّح والمخلوقات جميعها من كائناتٍ حيَّة

وجماد كلها تُسَبِّحُ: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ يُسَبِّحُ له من في السموات والأرض والطَّيْر صَافَّاتٍ كُلٌّ قد علم صلاته وتَسْبيحه﴾** [سورة النور: الآية ٤١].

فعليك أَنْتَ أَنْ تُسَبِّح حتى تَنْسَجِمَ حَرَكَتُكَ مع حركة هذا الكون، ولهذا فنحن الآن أحوج ما نكون إلى الالتزام بالصلاة والتوجّه إلى الله وقد قال الرَّسول (ص) لأبي ذرّ: «يا أبا ذر ما دمت في الصلاة فإنَّك تقرع باب الملك الجبار، ومن أَلَحَّ في القرع فُتِحَ له الباب». والإمام الباقر يقول: إذا رفعت يديك بالدعاء وقلت: يا الله ودمعت عيناك وخشع قلبك فاعلم أنَّ الملك الودود قد فتح لك الباب وأمر لك بالدخول.

الإِسْراء والمعراج

إني أرى أَنَّ رحلة الإسراء والمعراج لهذا الشيء وقد قال أحد المفكرين المسلمين: إن الرسول (ص) عرج إلى السماء لهذا الغرض وليُبَيِّن عالميَّة الإسلام ويظهر أن الإسلام دين عالمي ليس للأرض وسكانها وإنما لسكان السموات والأرض معاً. ويهمني أَنْ أُلفت النظر إلى أن بعض الأشخاص يُصَوِّرُ الإسراء والمعراج على أنها رحلة حصلت بالروح فقط، أيْ أن روح الرسول (ص) هو الذي أُسْرِيَ به فقط وليس جسمه. وهذا هو الخطأ بعينه إذ يعتقد أن الرسول (ص) كان نائماً ورأى حلماً.

والقرآن الكريم يقول: **﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾**.

وكلمة العبد لا تطلق إلَّا على الروح والجسم معاً؛ يضاف إلى ذلك أَنَّ الرسول (ص) لو رأى حلماً لما احتاج ذلك إلى هذا التعظيم الذي يدل على عظمة الرحلة. كذلك فالقرآن الكريم لم يقل إن الرسول (ص) عرج إلى السماء، وإنما قال: **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً مِنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾**.

والقضيَّة واضحة فإذا ما طَبَّقْنا الأُسُسَ العلميَّة والقوانين التي ذكرناها قبلًا لظهرت لنا الرحلة ثابتة مئة بالمئة. وقد استغرقت عدة ساعات عاد الرسول منها قبل صلاة الفجر. وقد حدثت بعد وفاة أبي طالب وبعد هجرة الرسول إلى الطائف، وبعد الحالة المؤلمة التي تعرَّض لها من الضرب والدماء التي سالت منه، فكانت إيناساً للنبي وتلطيفاً لروحه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصىٰ ففي ذلك ملاحظة لعقول الناس فهو لم يقل: من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى. بل قال: إلى المسجد الأقصى ومِنْ هناك انطلقت الرحلة؛ من المسجد الأقصى في بيت المقدس الذي هو محط الأنبياء؛ إلى أعماق الكون، إلى مسافات لا يعلمها إلَّا الله ــ تعالى ــ. ونحن نعلم أن كل الكواكب التي نراها هي في السماء الأولى أو الدنيا فالقرآن يقول: ﴿**إنّا زيَّنا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب**﴾ [سورة الصافات: الآية ٦].

فأين الثانية والثالثة والرابعة إلى السابعة كما وَرَدَ في القرآن الكريم. إن في روايات عن أهل البيت (ع) «نسبة السماء الأُولى إلى السماء الثانية كَنِسْبَةِ حلقة في صحراء قاحلة. وَنِسْبَةِ السماء الثانية إلى السماء الثالثة كنِسْبَةِ حبَّةِ حصى صغيرة في صحراء قاحلة» إنها طبعاً مسائل نِسْبيَّة. لقد أسرى الله تعالى بعبده ليلاً؛ ولكن بأيَّة سرعة؟... إنها سرعة الله تعالى، ذلك أَنَّ سرعة الضوء المعروفة لا تُساوي هنا شيئاً، ولو سار فيها لاحتاج إلى مليارات السنين لكي يصل؛ ولكنه استغرق فيها أربع ساعات عاد بعدها قبل طلوع الفجر، وقوانين الفيزياء معروفة: القُوَّة والسرعة تتناسبان تناسباً عكسياً أو بتعبير أدق، كلما زادت السرعة قلَّ الزمن، فإذا سافرت من بيروت إلى جُدَّة مثلاً مشياً على الأقدام، احتجت إلى شهر، ولو ركبت جَمَلًا لاحتجت إلى أسبوع وإذا ركبت سيارة احتجت إلى يوم واحد

أو ركبت طائرة احتجت إلى ساعة واحدة. وهكذا نرى أنه كلما زادت السرعة تقلص الزمن. فإذا كانت السرعة هي سرعة الله ـــ تعالى ـــ أصبح الزمن صفراً ولا يَعودُ لَهُ حساب أبداً. لقد صلَّى الرسول (ص) في هذه الأربع ساعات التي أمضاها في الكون بملائكة السماء مُثْنى مُثنى، فصلاته تعود إلى بَشَرِيَّتِه، فهو لا يصلي بسرعة الضوء أو ما فوقها. والساعات الأربع تلك كانت لصلاته وعبادته ولكلام الله ـــ تعالى ـــ معه.

﴿فكانَ قَابَ قَوْسَينِ أَوْ أَدْنَى فَأُوحى إلى عبده ما أَوْحى﴾ [سورة النجم: الآية ١٠].

ثم إنَّ هذه الرحلة تدل كما قلت على عالمية الإسلام وهي تعطينا أكثر فأكثر ثقةً بأنفسنا وبديننا.

السياج المستباح

قلنا إنَّ الإخراج الرائع للأمة الإسلاميَّة إنَّما كان رائعاً لأنه كان هناك سياج من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فأين هو هذا السياج الآن؟...

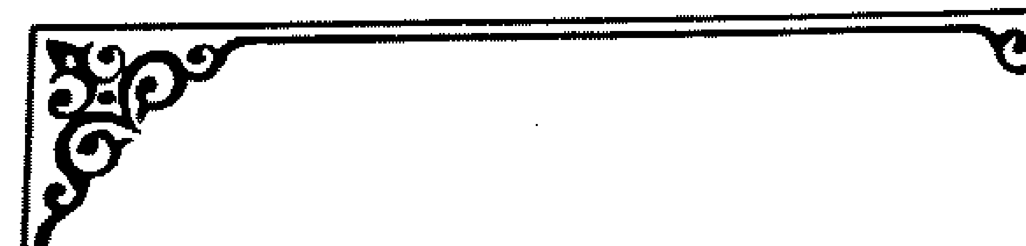
لقد أهْمَلْناه حتى سقط واحتل بيت المقدس واستبيحت المقدسات وانْتُهِكَتْ فيه. والإخراج الرائع الذي كان خير أمة أخرجت للناس يتعرَّض الآن للضرب من كل مكان مِنَ القوى الظالمة، والتيارات الفاسدة والأفكار الهدَّامة، والمناهج الكافرة. فعلينا أن نعود إلى الله، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونحاول أن نقترب أكثر فأكثر من الإسلام وأن نهيِّىء أجواء الإيمان في الأسرة وفي العائلة وفي المدرسة والجامعة وفي المكتب والسوق وفي كل مكان حتى لا يصبح صراعنا صراعاً بين ديننا وإيماننا في نفوسنا من جهة وبين معاملاتنا في الخارج.

وهذه هي النقطة بالذات التي أشار إليها لإمام الحسين يوم ثار على الحكم الأموي المنحرف.

إنها نقطة تكامل الشخصيَّة والانسجام الكامل بين الإنسان وهدفه، بين داخله والخارج في المجتمع، بين كلامه ولباسه وبين سلوكه وتعامله مع الناس. وهو قبل نزوله إلى المعركة طلب من أخته زينب ثوباً لا يرغب فيه أحد، لأنه كان يعرف أَنَّ خصومه أَجْلاف متوحِّشون؛ وأنَّ حربه معهم حرب حيوانيَّة قاسية فجاءته زينب (بتُبَّان) فأرجعه إليها وقال: هذا ثوب من ضربت عليه الذِّلَّة؛ أنا ابن أمير المؤمنين. قالت: أخي أبا عبد الله أي ثوبٍ آتيك به؟... قال: ثوب خَلِقٌ لا يَرْغَبُ فيه أحد. دخلت زينب الخيمة وجاءته بثوبٍ آخر. أخذه الإمام الحسين وخَرَّقَهُ حتى لا يطمع فيه أحد ثم وقف وقال: من يقدم لي جوادي وأنا ابن أمير المؤمنين!... فجاءته زينب تقود الجواد وتقول: أخي أبا عبد الله! أرأيت أختاً قدمت لأخيها فَرَسَ المنيَّة؟... ما أقسى قلبي! أُقدم لك فَرَسَ الموت تركبه يا ابن أمير المؤمنين ولن ترجع لنا؟...

أخذ الإمام الحسين الجواد فركبه واجتمع عليه الأطفال من كل ناحية؛ هذا يُقَبِّله وهذا يَتَعَلَّقُ بأطراف أذياله وهذا يمسك بقدمه، وآخر بقوائم الفرس. وإذا بطفلةٍ لآل عقيل تتعلق به؛ أخذها الإمام الحسين وجعلها على قربوس فرسه وراح يقبلها ويسألها: بنيَّتي فاطمة ما دهاكِ؟...

قالت: عم! قد أضرَّ بي العطش كثيراً وأخبرت أبي وعمومتي ووعدوني بالماء ولكنهم خرجوا منذ الصباح ولم يرجعوا، (لم تعلم أنهم قتلوا في الحملة الأولى)، أجابها الإمام الحسين: فاطمة أنا ذاهب إليهم وسأخبرهم بعطشك. قالت: عم! تذهب وترجع؟... ذاك يطول عليّ.



الفصـل الثّالث

الإسلام والدرجات الاجتماعية

* الإسلام والدرجات الاجتماعية.
* الطاقات المهدورة.
* الإسلام دين التغيير.
* وا إسلاماه.
* قواعد المجتمع الإسلامي.
* الإسلام وتحديات الحضارة المعاصرة.

الإسلام والدرجات الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعضاً درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخريّاً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ [سورة الزخرف: الآيتان ٣١ ـ ٣٢].

المدخل

إن الآيتين الكريمتين تطرحان مسألة هامة من المسائل الاجتماعية، هي كيف ينظر الناس الماديون إلى الزعامة وما هي المزايا التي يتحلى بها الإنسان حتى يستحق أن يكون زعيماً ووجيهاً، كما تطرحان أيضاً مسألة التكامل الاجتماعي على قاعدة الدرجات الاجتماعية حيث يحتاج كل إنسان أن يكتمل عن طريق الآخرين.

وقبل أن نتناول هاتين المسألتين بالدراسة والبحث لا بد من ملاحظةٍ تشكل مدخلاً للدراسة، بل هي ملاحظات لا ملاحظة واحدة؛ وأولى هذه الملاحظات هي أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يخلق الإنسان لكي ينتقم منه ولا ليعذبه، بل خلقه لكي يحيطه برحمته الواسعة من خلال جنة عرضها السماوات والأرض، أعدها للمتقين من عباده، حيث تشكل التقوى أهم قنوات الرحمة ومسبباتها على أساس ما وهبه من حرية وعقل وفطرة وما

أودعه من غريزة وشهوات. وبعد أن خلقه أمر الملائكة أن تسجد له.

ومما يلاحظ أيضاً أنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق الإنسان اجتماعي الطبع، يعيش مع الآخرين ويتفاعل معهم ويتكامل بهم. لذلك إذا وجدت إنساناً يميل إلى العزلة فاعلم أن ثمَّة خللاً في نفسه. ذلك أن الإنسان السليم والطبيعي لا يهوى العزلة ولا يميل إليها باستثناء ذلك الإنسان الذي قد يعتزل الناس من أجل العبادة أو طلباً للراحة والتفكر. يقول ـ سبحانه وتعالى ـ: **﴿قل إنما أعظم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾** [سورة سبأ: الآية ٤٦].

باعتبار أن التفكر في خلق الله يحتاج إلى مثل هذه العزلة التأملية؛ أما العزلة التامة فإنها تدل على خلل في نفس الإنسان.

على أن المجتمع الذي يعيش فيه الناس، متفاوت الطاقات والقدرات، وهذا التفاوت سوف يؤدِّي حتماً إلى لون من ألوان الصراع لا سيما أن هناك الأذكياء والأغبياء والأقوياء والضعفاء. لذلك كان لا بد للإسلام من أن يتدخل لكي يوجه هذا الصراع وينظمه مما يؤدي إلى التوازن الاجتماعي بين الدرجات الاجتماعية والتخفيف من حدة التفاوت الاجتماعي.

لذلك أرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأنبياء الذين يعالجون النفوس ويقدمون التطبيب الناجح لها. ذلك أن الأنبياء الذين يعالجون النفوس كالأطباء الذين يعالجون الأبدان. وإذا كان الجسم المريض يحتاج إلى طبيب حاذق يعرف كيف يشخص المرض ويصف العلاج، كذلك النفوس تحتاج إلى أنبياء يشرعون القوانين التي تقضي على المرض النفسي من غير أن تؤذي زاوية أخرى من زوايا النفس البشرية. أي بمعنى أن الطبيب الذي يعالج صداع الرأس عليه أن يصف علاجاً يقضي على الصداع من

غير أن يؤذي عضواً آخر من أعضاء الجسم بـدوائه. والطبيب الذي يعـالج القلب عليه أن يصف دواءً لا يؤثر على بقية الأجهزة. فنحن لا نـريد طبيبـاً يصلح عضواً على حساب بعض الأعضاء الأخرى. وقد أشار أمير المؤمنين إلى هذه الناحية بقوله: «ما من دواء إلّا ويثير داءً».

إذاً المشـرع الذي يضـع المناهـج لـلإنسـان يجب أن يكـون كـامـلاً ومعصوماً عن ارتكاب الأخطاء العلاجية حتى تأتي الأدوية كـاملة خاليـة من أي خطأ في التركيب. ومن أين لنا بهذا المشـرع المبـدع غيـر خالق العباد ورب الأكوان ومدبـر شؤونها ــ تبـارك وتعالى ــ ؛ إذاً المشـرع في الإسلام هـو الله ــ سبحانـه وتعالى ــ إذ ليس من حق أي مخلوق كـائناً من كـان أن يشرع، وما على الأنبياء والرسل إلّا حمل هذه القوانين والمناهج من أجـل تبليغها للناس.

القوانين الوضعية ومأزق العالم الإسلامي

إذا كـان الله ــ سبحانـه وتعـالى ــ هـو المشـرع الأول والـوحيـد في العقيدة الإسلاميـة، وإذا كان الله ــ عـز وجل ــ قـد أوجد للبشـرية منـاهج علاجية تشفيهم من أمراضهم الاجتماعية، وتقدم لهم الدواء الشافي الـذي نجـده في القرآن الكـريم والسنـة النبـوية الشـريفـة، أقـول: إذا كـان الله ــ سبحـانه وتعـالى ــ قـد أوجـد شـريعـة سمحـاء، فإن المسلمين ــ مـع الأسف ــ قد أداروا ظهرهم لما ينفعهم فلم يطبقـوا هذه المنـاهج الإلهيـة، بل استبدلوها بقوانين كافرة وقوانين وضعية عاجزة عن حل مشاكلهم، لذلك تجد العالم الإسلامي يتخبط في مشاكل اجتماعية لا حصر لهـا وعلى مرمى من إسـلامه الـذي ينـاديـه قـائـلاً: لا تبحث ولا تنقب عن أي حـل خـارج مناهجي، فعبثاً تفعل لأن القوانين الوضعية لن تحل لك مشاكلك وأزماتك.

إن الإسلام وضع الحلول لكل حاجات المجتمع المادية من مسكن ومأكل ومشرب وملبس، والمعنوية من علم ومعرفة وحرية وكرامة. لقد جعل الإسلام الناس من طينة واحدة، ولكن الحضارة المعاصرة جزأت الأرض إلى أوطان وحددت للناس جنسيات وراحت تعامل الناس على أساس الجنسية مما أدى إلى خلل اجتماعي كبير وإلى ظلم لا يحتمل. إن فلاناً من الناس يحيق به الظلم لأنه من الجنسية الفلانية ويحرم عليه العمل ويحرم من المواطنية وبالتالي يحرم من العلم بسبب قانون الجنسية.

هذا ما نجده في عالمنا الإسلامي الذي يجب أن يعمل بمناهج الإسلام، ولكنك لن تجد مثل ذلك في البلدان الغربية كأميركا وكندا وبريطانيا وغيرها. لذلك يجب أن يعلم المسلمون أنهم لن تقوم لهم قائمة طالما أن هناك مظلومين وظالمين وطالما أن الإنسان في هذه البلدان الإسلامية لا يعامل على أساس من الاحترام، لا سيما أن الإسلام لا يعترف بالجنسيات ولا يعامل الإنسان على أساس جواز سفره، إنما يحاسبه على أساس الإيمان وعلى أساس: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣].

وعلى أساس أن الجنسية هي الإسلام.

أليس غريباً أن تجد العالم الإسلامي يعاني المواطنون فيه من الفقر في حين أن ثلاثة أرباع الاحتياطي النفطي العالمي تختزنه أرضنا الإسلامية؟ لذلك على حكام المسلمين أن يعودوا إلى إسلامهم وأن يتقوا الله في حكمهم للناس وفي الثروة التي يتحكمون بمقدراتها، لأنها ليست ملكاً خاصاً بهم، بل هي ملك لعامة المسلمين، يجب أن يرحموا الناس ويراعوا مصالحهم ويرفعوا عنهم سياط الظلم والطغيان، وإلا فإن غداً لناظره قريب، لا سيما أن القاعدة الإسلامية الأولى التي جاء بها نبي

الرحمة هي: لا ضرر ولا ضرار في الإسلام.

الإسلام يحترم الإنسان

لقد أرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الرسول الأعظم رحمة للعالمين، يحترم الإنسان ويعيش آلامه ومعاناته ويشعر بمشاعره. لذلك تجد أن الإسلام يضع كرامة الإنسان في المرتبة الأولى. فهذا أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ يوصي مالكاً الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر ويحدد له كيف ينبغي له أن يعامل الرعية. ومما جاء في هذا العهد الرائع قوله: «واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلاّ ببعض... فلا تظلمن أحداً منهم ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»... ثم يوصيه بالضعفاء من الناس وذوي الحاجات فيقول له: «واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عاماً، فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع، فإني سمعت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يقول: «لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متعتع ثم أحتمل الخرق منهم والعي...».

إن الحاكم إذا عمل بموجب هذا العهد استطاع أن يعيش في قلوب الجماهير وبالتالي يكسب رضا رب العالمين وإذا تنكر للناس بالظلم والجور فإنه سوف يكون منبوذاً منهم وبالتالي يكتسب غضب الباري ـ عز وجل ـ، وذلك هو الخسران المبين.

وبالفعل هكذا كان يتصرف مالك الأشتر عندما كان قائداً لجيش الإمام عليّ ـ عليه السلام ـ في الكوفة، يظهر بمظهر عادي وهو يتجول

في أزقة الكوفة كسائر الناس. ويروى أن شاباً من شباب الكوفة كان يعتدي على الناس، وصادف أن مر مالك الأشتر أمامه فرشقه برأس من البطيخ المائع وهو لا يعرفه، فلم يلتفت إليه مالك بل أكمل طريقه. وعندما علم الشاب من الناس بحقيقة مالك هرول خلفه يريد أن يعتذر منه فأسرع مالك الخطى وسارع إلى المسجد، فانتظره الشاب عند الباب. ولما خرج مالك وقع الشاب عند قدميه يطلب العفو والغفران فانهضه مالك قائلاً: يا هذا، من أنا حتى أسامحك، لقد صليت ركعتين وطلبت إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يسامحك ويعفو عنك.

هكذا يجب أن يكون الحاكم الإسلامي، رؤوفاً على رعيته ضنيناً بكرامتهم حريصاً على عزتهم. ولا غرو أن يفعل مالك ما فعل، فهو تلميذ بطل الإنسانية علي بن أبي طالب الذي تجسَّد فيه الإسلام مسلكاً وفكراً وعبادة.

ولعل ما حدث لسلمان الفارسي عندما كان والياً على المدائن ما يشبه ذلك الذي جرى لمالك الأشتر مع الشاب الكوفي. ذلك أنه كان يتجول في السوق فمر برجل من الأجلاف، فقال له هذا الجلف: احمل هذه الحاجيات إلى بيتي، فحملها سلمان وراح يسير في السوق فرأى صاحبنا أن الناس يلقون التحية على سلمان قائلين: السلام عليك أيها الأمير. وعندما علم بحقيقة سلمان اندفع إليه يعتذر محاولاً أخذ الحاجيات منه، فأبى سلمان وقال له: والله لا يحمل هذه الأغراض إلى بيتك غيري ولكن عليك أن تبدل من أخلاقك ومعاملتك للناس.

قرآن معلق ومناهج محنطة

إن بلاءنا في العالم الإسلامي لا يصدق ومأساتنا فوق حد التصور.

فنحن من جهة ندعي أننا مسلمون، ومن جهة أخرى نحول قرآننا إلى أداة من أدوات الزينة نعلقه على الجدران ونتفنن في إخراجه وطباعته، ونجعل من مناهجه مجالاً للترف الفكري والمناظرات الكلامية من غير أن نكلف أنفسنا العمل على تطبيق ما ورد فيه من أحكام لا خلاص لنا إلاَّ من خلال العمل بها والسلوك على أساسها.

نقرأ في تشريعاتنا المنبثقة عن القرآن الكريم أن اللعنة تنصب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ على شارب الخمرة وصانعها وبائعها والجالس على مائدتها وناقلها، ومع ذلك نجد محلاتنا التجارية تزين بها رفوفها وتبيعها للناس بسهولة ويسر، ونجد حوانيت الخمرة منتشرة في كل مكان والخمارات تملأ شوارعنا دون أن تجد صوتاً يرتفع لمنع هذه المهزلة بل الكارثة التي تهدد شبابنا وأجيالنا وتستفز إسلامنا ومشاعرنا الإسلامية.

إن الإسلام ليس مجرد صلاة نؤديها بشكل آلي، بل هو حركة حياتية كاملة تشمل كل نواحي الحياة. إنه مجموعة من المناهج التي وضعت لحل مشاكلنا كلها، لا سيما القضاء على الظلم والفقر والجهل، وإنقاذ شبابنا من الفراغ القاتل والضياع المدمر. وتلك هي مسؤولية حكوماتنا التي تدعي الإسلام، إنها مسؤولية جسيمة أمام الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأمام الشعوب المسلمة التائقة إلى الحرية والخلاص. إذ كيف يمكن لهذه الشعوب المظلومة أن تنتصر على اليهودية والصهيونية وعلى الظلمة والطواغيت.

على أن الوضع في بيوتنا وأسرنا ليس أفضل حالاً فالأب يمارس الظلم مع زوجته وأولاده، ويتنكر لواجباته تجاه أسرته مما يجعل مشاكل الأسرة تزداد يوماً بعد يوم. وموظفونا تربعوا فوق كراسيهم وأمام مكاتبهم وكأن أرواح المواطنين رهن إرادتهم ومشيئتهم، متناسين أن هذه الكراسي

هي سبيلهم إما إلى جنة وإما إلى نار.

إن الإسلام جعل منا درجات اجتماعية حتى نتكامل فنكوّن مجتمعاً فاضلاً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، فإلى أين نحن سائرون وماذا نحن فاعلون بقرآننا الذي يصرخ فينا أن أفيقوا من سباتكم وعودوا إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ خالقكم والذي أعد لكم جنة عرضها السماوات والأرض في حال انصياعكم لأوامره وانتهائكم عن نواهيه، وأوقد ناراً حامية وقودها الناس والحجارة في حال استهتاركم وانحرافكم عن الصراط المستقيم وفي حال تنكركم لتعاليمه السمحاء وشريعته الشريفة.

الطبقية مفهوم جاهلي

أعتقد أنه علينا العودة إلى الآيتين الكريمتين اللتين بدأنا بهما هذه الرحلة التي عرضنا فيها أشجاننا الإسلامية وهمومنا الإيمانية وأحلامنا الحضارية؛ إن الآية الأولى تصور لنا التفكير المادي الذي كان يعتنقه المشركون في مكة المكرمة حيث جعلوا للمال المكانة الأولى، لذلك لم تستطع عقولهم الصغيرة أن تستوعب فكرة نزول الوحي على رجل فقير كمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب فقالوا: **﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾**.

والقريتان هما مكة والطائف والرجل العظيم برأيهم هو إما الوليد بن المغيرة في مكة وإما عروة بن مسعود الثقفي في الطائف، والرجلان كانا يملكان الأموال والثروة.

لقد اعتبر المشركون أن النبوة هي مجرد زعامة دنيوية فقالوا: كان يجب أن ينزل القرآن على واحد من أغنياء مكة والطائف لا على رجل فقير من فقراء مكة، باعتبار أن القيمة الأساسية برأيهم هي للمال والمال وحده.

على أن هـذا الموقف المـادي الساذج ليس جـديداً، بـل ورد نظيـر لـه في القرآن الكريم على لسان فرعون الذي لم يستطع أن يتفهم كيف يمكن أن يبعث الله ــ سبحانه وتعالى ــ نبياً فقيـراً كموسى ــ عليـه السلام ــ فقـال: **﴿فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب﴾** [سورة الزخرف: الآية ٥٣].

أي أن النبـي برأيه يجب أن يكـون متمولاً يـرفل بـالذهب والـلآلىء لا راعي غنم؛ إنه المفهوم المادي الذي يسيـطر على العقول في كـل زمان ومكان. وهل يختلف الأمر في أيامنـا هذه؟ ألا نجـد الناس يسجـدون على أعتاب المتمولين والأغنيـاء لكسب ودهم ونيل رضاهـم آملين في الحصول على شيء من فتات موائدهم وبقايا مآدبهم؟

ويجيب القـرآن الكـريم أهـل مكـة من المشـركين مستنكـراً: **﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾**. إن هذه النبوة ما هي إلاَّ رحمـة من خلال مـا تحمله من إيمـان بالله واليـوم الآخر، فهي ليسـت زعـامـة أو ملكـاً: **﴿نحن قسمنـا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾**.

إنهـا مشيئة الله ــ سبحـانـه وتعـالى ــ يؤتي الملك من يشـاء وينـزع الملك ممن يشاء وينزل الـوحي على من يشاء من عبـاده بناء على مقـاييس هو وحده يحددها ــ جل جلاله وسمت منزلته وعلا مكانه ــ ، لا أهـل مكة ولا فرعون ولا أي مخلوق آخر من المخلوقين مهما جمـع مالاً ومهمـا توهم أنه يملك من أسباب القوة والعزة لأن العزة لله جميعاً ولرسوله وللمؤمنين.

أجل إن الله ــ سبحانه وتعالى ــ هـو الذي قسم المعيشـة بين الناس في الحياة الدنيـا بناء على حـركة الإنسـان وعمله لكي يكون هنـاك مجتمع قـائم على تكافؤ الفـرص وبذل الجهـد لا سيمـا أن فـرص العمـل متـاحـة وحقوق العامـل في الإسلام محفـوظة. لـذلك كـان رسول الله ــ صلَّى الله

عليه وآله وسلَّم ـ يقول للعامل الذي ظهرت على يديه آثار العمل: «إنها يد يحبها الله ورسوله».

كما أنه قد جاء في الحديث القدسي: «ثلاثة أنا بريء منهم يوم القيامة» واحد منهم «رجل استأجر أجيراً فبخسه حقه».

فهل نجد هذه المناهج مطبقة في العالم الإسلامي؟ لا. بل نجد الظلم وهضم الحقوق وأكل أموال الناس بالباطل في حين أن إسلامنا يحفظ هذه الحقوق بكاملها ويدافع عن المستضعفين ويكفل سائر حقوقهم. وعلى العكس من ذلك نجد حكاماً يدعون إلى ترك الصيام في شهر رمضان من قبل العمال والموظفين بدعوى أن الصيام يؤثر على الإنتاج. فما هذه العبقرية تجود بها القرائح والعقول التي سيطرت عليها مفاهيم الغرب الاقتصادية، مع العلم أن الحاكم الذي توصل إلى هذه النتيجة الفذّة هو حاكم في بلد إسلامي ويدعي الإسلام والإسلام منه بريء.

على أن الصراع الاجتماعي قد وضع له الإسلام مناهج وبرامج تمتص نقمة الناس وتقضي حوائجهم وتلبي متطلباتهم لا سيما الأساسية منها كالسكن واللباس والطعام والشراب والأمن. يقول القرآن الكريم: **﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾** [سورة طه: الآية ١١٨ ـ ١١٩].

ناقة الجنة

إن من يقرأ التاريخ قراءة صحيحة يجد أن العدالة الاجتماعية لم تطبق في يوم من الأيام ولم تتحقق كما تحققت في أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ سلام الله عليه ـ. إذ لم يكن في حكومته

وفي دولته إنسان لا يملك بيتاً أو إنسان يفتقر إلى اللباس أو الطعام أو الأمن. ولم يكن في حكومته مظلوم واحد، ذلك لأنه كان يطبق الإسلام وقوانينه ومناهجه وكان يسهر على شؤون رعيته ويوليهم الرعاية والعطف، وكان يواسيهم ويشاركهم حلو الحياة ومرها، وكان لا يسمح لنفسه أن ينام ممتلىء البطن وحوله جائع واحد: «أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبَك داءً أن تبيت ببطنةٍ ... وحولك أكباد تحنُّ إلى القدِّ

إن هذه الإنسانية التي تملأ جوانح علي بن أبي طالب ـ سلام الله عليه ـ وتجيش بها نفسه، ليست أمراً غريباً على معدنه الأصيل وهو الذي صام مع أهل بيته الميامين ثلاثة أيام متتالية على شربة الماء، فنزلت فيهم سورة الإنسان: **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾** [سورة الإنسان: الآية ٨].

وهو الذي تصدق بخاتمه في أثناء الصلاة فنزل فيه: **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾** [سورة المائدة: الآية ٥٥].

فلا يستغربن أحد أن يكون الإمام علي وليَّ الله، لا سيما أن من معاني الولي المؤمن بدليل قوله ـ تعالى ـ: **﴿ألا وإن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾** [سورة يونس: الآيتان ٦٢ ـ ٦٣].

وهو الذي قال فيه الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلَّم ـ يوم غدير خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه...» إلى آخر الحديث.

وإذا كنا نحن الشيعة نذكر ذلك في الأذان، فلأن الأمويين شتموه ثمانين سنة على المنابر، وكأننا نقول لهم: إن هذا الذي تشتمون هو ولي الله. وهل يشتم هذا الإنسان العظيم الذي لا تعد مآثره ولا تحصى فضائله، والذي قال عن نفسه في خطبته الشقشقية: «ينحدر عني السيل ولا يرقى إليَّ الطير»؟ ألا ساء ما يفعلون.

ومما يروى من مواقفه التي لا تنسى، أنه أتى الزهراء يوماً فوجدها والحسنين يتضورون جوعاً وليس في البيت ما يؤكل وقد ظهر الهزال على أجسادهم الشريفة من شدة الجوع لأنه مضت أيام وهم على هذه الحال، فأعطته الزهراء ـ سلام الله عليها ـ ثوباً ليبيعه ويأتي لهم بطعام يأكلونه. خرج الإمام ـ عليه السلام ـ وباع الثوب بستة دراهم، وبينما هو يهم بشراء الطعام بالدراهم الستة وإذا برجل مسكين يستعطيه فأعطاه الدراهم ووقف لا يدري ماذا يفعل. فمر به رجل يقود ناقته. قال له: أتشتري هذه الناقة؟ قال: لا أملك ثمنها. قال: هي نسيئة، خذها بمائة درهم. أخذ الناقة، وما سار خطوات حتى فاجأه رجل آخر. قال: يا أبا الحسن أتبيعني هذه الناقة بمائة وستين درهماً؟ قال: بعتك. قبض الثمن ثم أعطى مائة درهم لصاحبها الأول وعاد بربح ستين درهماً. ثم اشترى طعاماً وأرسله للزهراء روحي فداها. وعندما رجع إلى المسجد رأى النبي جالساً، فلما وقع بصره على الإمام عليّ تبسم النبي ضاحكاً وقال له: يا علي أتدري من باعك الناقة ومن اشتراها؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: والله يا علي إن الذي باعك هو جبرائيل والذي اشترى هو ميكائيل. والناقة هي واحدة من نوق ابنتي فاطمة في الجنة.

أهل البيت نماذج وقدوة

إن صاحبة الناقة، الزهراء ــ سلام الله عليها ــ ، كانت تجمع اليتامى والأرامل في بيتها وتطعمهم بيدها وكانت تطبخ بنفسها وتدير حجر الرحى وتعجن وتخبز، وعندما يراها الرسول الأعظم كان يقول لها: «بنية فاطمة تجرعي مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة».

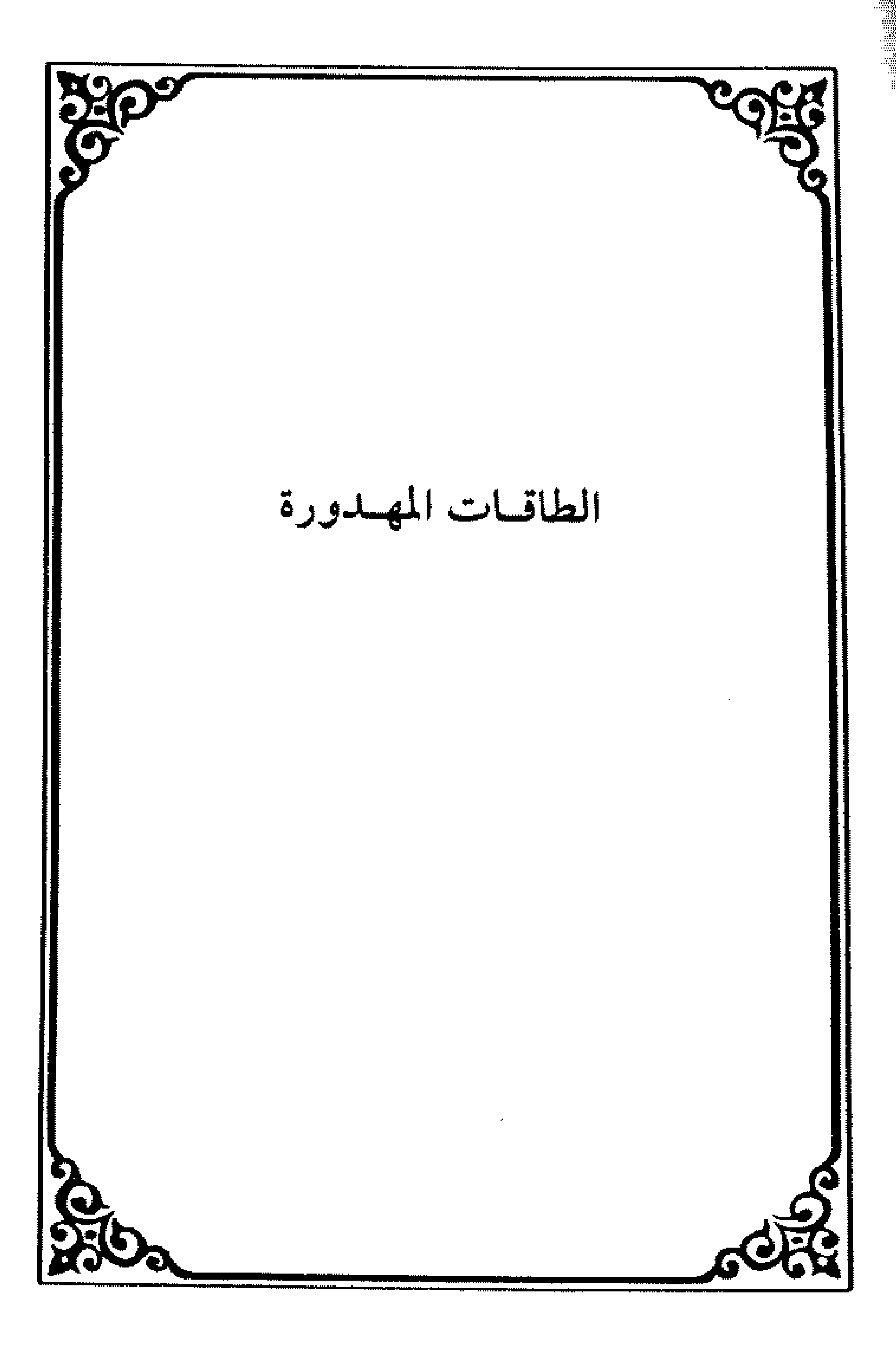
وبهذه النفس الكريمة والأبية كان الحسن الذي كانت مائدته ملتقى الجائعين والمساكين، وعلي الأكبر ــ عليه السلام ــ كان يطعم الجائعين ويحرر الرقيق كلما أعلمه مملوك بنزول ضيف كان يعطيه حريته.

والإمام الحسين ــ عليه السلام ــ كان يعطي طالب الحاجة من وراء الباب لكي يحفظ له ماء وجهه ويصون كرامته فيبكي الفقير لهذه اليد كيف يمكن أن يحتويها تراب.

لقد وقفوا جميعاً إلى جانب المظلومين، وتصدوا للظالمين، وأعطونا دروساً لا تنسى، فما بالنا لا نسير على هديهم ولا نتأسى بهم ــ سلام الله عليهم أجمعين ــ ، لا سيما الحسين ــ عليه السلام ــ الذي كانت له مكانة خاصة بين سائر الأئمة ــ عليهم السلام ــ بسبب مظلوميته التي لم يسجل التاريخ نظيراً لها ولا قريباً منها، فهو الذي قدم نفسه وأولاده وأصحابه يوم الطف قرباناً من أجل عزة الإسلام.. فسلام الله عليك يا مولاي يوم ولدت ويوم أستشهدت ويوم تبعث حياً...

• • •





الطاقات المهدورة

الطاقـات المهـدورة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: **﴿والذين يقولـون ربنا هب لنـا من أزواجنا وذريـاتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾** [سورة الفرقان: الآية ٧٤].

تـمـهـيـد

إن كل الموجـودات والكائنـات على سطح الكـرة الأرضية، بـل كل مـا في الكون يخضـع لقـانـون التـراكم؛ بمعنى أن كـل شيء تتـراكم فيـه الذرات، فالجبال والبحار والأشجار تتكون من ذرات؛ وقـد ورد في القرآن الكريم قوله ـ تعالى ـ: **﴿فمن يعمـل مثقال ذرة خيـراً يره * ومن يعمـل مثقال ذرة شراً يره﴾** [سورة الزلزلة: الآيتان ٧ ـ ٨].

وذلك يعني أن مسألة الذرة داخلة في حياتنا وفي حركتنا.

على أن الذرة هي أصغر جزء ممكن من المادة بحيث لا نستـطيع أن نراها بالعين المجردة، فلو رأيت أشعة الشمس تتسلل إلى غرفتك عبر كـوة صغيرة لرأيت عموداً من النور يعج بذرات من الغبـار، وفي الواقـع كل ذرة من هذه الذرات الغبارية هي عدد كبير من الذرات.

فـإذا كان الله ـ سبحـانه وتعـالى ـ سوف يحـاسبنا بنـاء على مقـدار أو مثقال الذرة خيراً أو شراً فهذا يعني أن مثقال الذرة داخل في حياتنا.

هذا من جهة ومن جهة ثانيـة نستطيـع القول إن عمـر الإنسان مؤلف

من ذرات زمنية تتراكم لكي تشكل السنين والشهور والأيام والساعات والدقائق والثواني واللحظات. وإذا أراد الإنسان أن يعرف كيف يمضي عمره ما عليه إلاَّ أن يستمع إلى دقات قلبه الذي هو عبارة عن ساعة يد تتحرك باستمرار من خلال النبض المتواصل. هذا القلب يبدأ بالعمل منذ نهاية الشهر الرابع للجنين في بطن الأم ولا ينتهي عن العمل أو يكف عن الحركة إلاَّ عندما يموت صاحبه. وعلى ذلك فإن أول جهاز يعمل عند الإنسان هو القلب وآخر جهاز يتوقف أيضاً هو القلب.

وفي هذا المجال يقول الإمام الحسين ـ سلام الله عليه ـ : «يا ابن آدم لم تزل في هدم عمرك منذ أن نزلت من بطن أمك». أي أن كل لحظة تمر وتنقضي هي إيذان بمضي جزء من عمرنا، فالساعات تأكلنا واللحظات تأخذنا والأيام تمضي بنا. وما أروع الشاعر الذي عبر عن هذه الحقيقة بقوله:

أرى العمرَ كنزاً ناقصاً كلَّ ليلةٍ   وما تنقص الأيامُ والدهرُ ينفدِ

وإذا كان البعض يقول ويردد: «الوقت من ذهب» فهو بجانب الصواب والصحة لأن الذهب لا قيمة له إزاء وقت ثمين جداً ثمنه جنة عرضها السموات والأرض إذا عرف الإنسان كيف يعقد مع خالقه صفقة فيها بيع وشراء: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾** [سورة التوبة: الآية ١١١].

والأموال هنا هي ثمرة الوقت والعمر أي أن الإنسان يبيع عمره لله سبحانه الذي هو المشتري والعمر هو البضاعة والثمن جنة عرضها السموات والأرض: **﴿بأن لهم الجنة﴾**.

لذلك من يبع عمره بالذهب والبترول فهو خاسر أكبر، لا سيما إذا

كان الذهب مقابل جريمة يرتكبها أو ظلم يمارسه. فذلك الذي قتل الحسين ـ عليه السلام ـ ثم دخل على ابن زياد وقال له:

إملأ ركابي فضة أو ذهبا إني قتلت السيد المحجّبا
قتلت خير الناس أمّاً وأبا

فقال له: إذا علمت أنه خير الناس أماً وأباً فلم قتلته؟ أقول: هذا المجرم من أغبى الأغبياء لا سيما أنه عالم ومدرك حجم فعله الشنيع وجريمته النكراء. ولكن المال جره إلى مستنقعه النتن.

إن هذا المجرم لا يعرف من الرشد شيئاً. ولطالما وصف القرآن الكريم المؤمنين بالرشد، والرشد تقابله السفاهة لا الجنون، لأن الإنسان إما عاقل أو مجنون، والعاقل إما رشيد أو غير رشيد. إذ يمكن أن يكون الإنسان عاقلاً ولكنه ليس رشيداً. فالرشد هو الذي يمكن الإنسان من أن يحسن التحرك في حياته الخاصة والعامة ويحسن الاستفادة من الطاقات التي يملكها والتي وهبه إياها رب العالمين.

كيف ننتفع بطاقة الذاكرة

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهب الإنسان طاقات لا تحصى ولا تعد، وفي مقدمتها العقل والذاكرة. والإنسان الرشيد هو الذي يحسن استخدام هذه الطاقات. فعلى صعيد الذاكرة قد تجد إنساناً يملك حافظة عجيبة ولكنه يحشوها بخليط غريب عجيب من المعرفة التي لا تسمن ولا تغني من جوع. همه أن يملأها ولكن بماذا، لا يهم. لذلك تجد لديه خليطاً مكدساً لا ينفعه ولا ينفع غيره، خليطاً يفتقر إلى التنظيم والترتيب وحسن الاختيار. وهو في هذه الحال أشبه ما يكون بمكتبة تكدست فيها الكتب، فإذا طلبت منها كتاباً فإنك لن تجده مهما نقّبت ومهما حاولت،

خلافاً لمكتبة نظمت كتبها وبوبت وفهرست، فبمجرد أن تطلب كتاباً معيناً فإنك واجده بسرعة وسهولة ويسر.

إن الإنسان المؤمن إذا كان رشيداً، يملأ حافظته بعلم ينفعه وينفع الآخرين لا سيما إذا ملأها بالقرآن الكريم ونهج البلاغة والصحيفة السجادية وديوان الشريف الرضي، وأردف ذلك بديوان المتنبي وغير ذلك من الآداب اللطيفة والعلوم المفيدة، وذلك بدلاً من أن يملأها بالتفاهات والسخافات والترهات؛ وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ [سورة الزمر: الآية ١٨].

ذلك هو الرشد بعينه.

يقول الرسول الأعظم: «من حفظ من أمتي أربعين حديثاً حشر يوم القيامة فقيهاً نوره يسعى بين يديه». ذلك أن هذه الأحاديث الشريفة ما هي إلاّ نور يتسلل إلى أعماق نفسه فينير زواياها ويبدد ظلام الجهل الكامن فيها مما يجعله يحسن الاهتداء إلى جادة الهدى وطريق الصواب، خلافاً لمن ملأ ذاكرته بالترهات والأباطيل فإن نفسه تصبح مجالاً للسواد والفراغ القاتل، لا سيما أولئك الذين يحفظون الأغاني السخيفة. فقد جاء شاب إلى الإمام الباقر ـ سلام الله عليه ـ وسأله: أيُسمح لي أن أسمع الغناء؟ قال: مع الباطل. قال: إذاً لقد حكمت. باعتبار أن الغناء يثير الشهوة والغريزة ويُخمد العقل.

الإنسان الرشيد يعشق العبادة

إن الإنسان المؤمن هو من يمارس العبادة وهو عاشق لها؛ ولطالما رددت أن كلمة العشق مكونة من ثلاثة حروف: العين من العقل والشين من الشعور والقاف من القلب، فأية قوة هذه التي اجتمع فيها عقل وشعور

وقلب؟ يقول رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ : «طوبى لمن عشق العبادة وعانقها». لذلك تجد المؤمن إذا قام إلى الصلاة قام بشوق ولهفة لأنه سوف يقف بين يدي الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، خلافاً لأولئك الذين: ﴿إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٢].

إن الصلاة حديث يتوجه به المؤمن إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، لذلك يجب أن يكون فيه خشوع وفرح روحي: ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ١ ـ ٢].

إن الصلاة ليست بكثرتها بل بالخشوع الكامن فيها حيث يتوجه المصلي إلى ربه بكل جوارحه لكي يعيش كل كلمة ينطق بها، وساعتئذٍ سوف يحس بنشوة روحية تصل به إلى حالة نورانية يتلاشى معها وجوده المادي فيتحول إلى كتلة من الروح والنور؛ إن كثرة العبادة من دون فهم أو إدراك لما يأتي، تماماً كمن يكثر من الطعام يدخله إلى معدته. لذلك يقول الإمام الحسن العسكري ـ عليه السلام ـ : «ليست العبادة كثرة الصلاة والصيام ولكن العبادة التفكر في أمر الله». ولا حاجة إلى القول هنا إن الإمام ـ عليه السلام ـ يشير بكثرة العبادة إلى النوافل لا إلى الواجبات لأن العبادة الواجبة لا كثرة فيها. ويؤكد هذه الحقيقة أيضاً أن الإمام زين العابدين ـ سلام الله عليه ـ رأى ولده الباقر وهو شاب، قد أنهكته العبادة فقال له: «بنيّ هون عليك! إن الله إذا أحب عبده رضي منه باليسير». الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ يقول لولده ما قال، وهو الإمام السجّاد ذو الثفنات الذي يصلي في بعض الأحيان ألف ركعة في اليوم والليلة. ولكنه أراد أن يعطي منهجاً تربوياً للشباب من خلال قوله هذا لولده الشاب ـ سلام الله عليه ـ .

على أن الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كان إذا رأى شاباً قد

أنهكته العبادة يقول له: «هون عليك، إن هذا الدين عميق». وكان قد قال لجابر الأنصاري ــ رضوان الله عليه ــ : «إن هذا الدين عميق فأوغل فيه برفق فإن المنبتّ (الذي يرهق مطيته بالمسير) لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

إن الإنسان العاقل الرشيد هو من عرف كيف يدبر أموره وكيف يستخدم طاقاته ويوجهها إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ . هو من عرف كيف يعامل زوجته ويربي أولاده ويحول بينهم وبين الضياع والتمزق، هو من عرف كيف يعاملهم برقة ورفق وبالكلمة الحلوة الطيبة. والمرأة الرشيدة هي من عرفت كيف تبادل زوجها حسن المعاملة بنظافتها وكلامها الحلو.

وهكذا نجد أن العبادة الرشيدة تترك في صاحبها أثراً طيباً، لا سيما أن الزمن يؤلف جزءاً منا، فمن قصّر في عمله ابتلي بالهموم على حد تعبير الإمام عليّ ــ عليه السلام ــ .

محاولة لتفسير الآية الكريمة

جاء في الآية الكريمة التي وردت في مطلع البحث قوله ــ تعالى ــ : **﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾** [سورة الفرقان: الآية ٧٤].

إن الآية الكريمة تتحدث عن عباد الرحمن الذين توالى وصفهم في سورة الفرقان وفي الآيات السابقة على هذه الآية، فهم يمشون على الأرض هوناً وينفقون من غير إسراف ولا تقتير ولا يدعون مع الله إلّهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلّا بالحق ولا يزنون لا يشهدون الزور ويمرون باللغو كراماً ولا يصمّون آذانهم أو يغلقون أعينهم عن آيات الله. هؤلاء هم عباد الرحمن: **﴿الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا**

قرة أعين﴾.

يـلاحظ في الآيـة الكـريـمـة أن هؤلاء المؤمنين قـد طلبـوا من الله ـ سبحانه وتعـالى ـ ما تقـرُّ به أعينهم من أولاد وأحفـاد يعملون بطاعـة الله ويكونون من المؤمنين بـه. فهم لـم يطلبـوا أموالاً أو أولاداً أقـوياء إنمـا كان همهم ذرية مؤمنة، ذلك أن المؤمن بعد مـوته لا يخلو من واحـدة من ثلاث يتركها بعده: علم ينتفع به أو صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له، وهذا هو ما طلبوه من رب العالمين أي أولاداً صالحين وذرية مؤمنة، لذلك استحقـوا أن يطلبوا في آخر الآية: **﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾**.

أي أئمة يُقتدى بنا في التقوى والإيمان، وبذلك يستحقون أن يكونوا آباءً صالحين لذرية تسير على منوالهم في الصلاح. فهل هذا ما نشهده في مجتمعنا من آباء وأمهات يربون أولادهم هذه التربية الفاضلة؟

إن الواقع يصدمنا حين نرى خلاف ذلـك حيث نلتقي بآبـاء يدفعـون بقـرة أعينهم إلى السير على منـوالهم من ارتكـاب المعـاصي فينشـأ الأولاد عليهـا وكأنهم بـرأيهم يسلكـون مسلكـاً صحيحـاً طـالمـا أنهم رأوا آبـاءهم يقترفون هذه المعاصي. وهل أكثر إجراماً من أب يقدم الخمرة لـولده أو أم تـزرع في نفس ابنتها هـوايات وميـولاً لا تمت إلى الصـلاح والتقـوى بـأيـة صلة؟

يجب أن يعلم الآباء والأمهات أن الأبناء أمانة في أعناقهم فليتقوا الله في حمل الأمانة، فإذا كان الآباء والأمهات قد سقطوا في التجربة وانحدروا إلى بؤرة الفساد، فلماذا لا يتـركون الأولاد مـع فطرتهم التي فـطروا عليها؟ ولماذا يجرّونهم معهم إلى مهاوي الفساد ومستنقعات الانحراف؟

إننـا نلاحظ من خـلال الآية الكـريمة أن المؤمنين يـريـدون أولادهم

على شاكلتهم من الإيمان والتقوى، وهذا أمر طبيعي ومفهوم لأن النتائج توافق المقدمات، فالمقدمة الطيبة تنفرج عن نتيجة طيبة والعكس صحيح، باعتبار أن الناس في سلوكهم وحركتهم الحياتية ليسوا سواء: ﴿**أفمن يمشي مكبًّا على وجهه أهدى أمّن يمشي سويّاً على صراط مستقيم**﴾ [سورة الملك: الآية ٢٢].

لذلك على الآباء والأمهات أن يلتزموا طريق التقوى والإيمان لكي يكونوا قدوة حسنة لأولادهم، لا سيما الشباب الذين يمتلكون طاقات تريد أن تتفجر وهم يبحثون عن المثال الذي يحتذونه والقدوة التي يقلدونها، فما أجمل أن يكون الأب هو النموذج الطيب الذي يقلده ولده وأن تكون الأم هي المثل الأعلى لابنتها!!

أضواء على مسألة التقليد

إن الكلام عن القدوة والأسوة والمثل الأعلى والتقليد يدفعنا إلى الحديث على مسألة التقليد التي نأخذ بها نحن الشيعة، حيث نلتزم بأهل البيت ــ سلام الله عليهم ــ ونؤمن بغيبة الإمام الحجة ــ عجل الله تعالى فرجه الشريف ــ كما نؤمن بنوابه، وولاية الفقيه في أثناء غيبته. على أن الفقيه الذي نلتزم بتقليده يجب أن تتوفر فيه الشروط المطلوبة. يقول الإمام الصادق ــ عليه السلام ــ : «من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه».

إذاً من يقلد عالماً من العلماء فقد جعله أسوة له وقدوة باعتبار أن الإنسان المؤمن يحتاج إلى من هو أعلم منه حتى يقلده، وعمل المؤمن من دون تقليد باطل لا يقبل، وإن كان بعض العلماء لا يقولون ببطلان العمل لا سيما إذا كان صاحبه لا يعلم ومع ذلك فهو آثم برأيهم، باعتبار أن

التقليد لا يكون في أصول الدين لأنها ليست محل خلاف، كما أن التقليد لا يكـون في أصل الفـروع بل في كيفيتهـا وطريقتهـا، أي أن الصلاة مثلاً ليست محـل خلاف من حيث وجـوبها؛ فـالعالم الفقيـه لا يقـول لي صـل أو لا تصل، إنما يوضح لي مسـائل فرعية فيها كالقصر والتمام فيهـا أي متى أصليها مقصورة ومتى أصليهـا تامـة وما هي المسـافة التي علي أن أقـطعها حتى أصليها قصراً، وهكذا الحال في سائر المسـائل التي ليست أصـلاً من الأصول أو فرعاً بحد ذاته.

على أن التقليد قد يتجاوز هذه المسائل الفرعية إلى مسألة قيادة الأمة لأن أمير المؤمنين ـ عليه السـلام ـ يقول: «لـولا حضور الحـاضـر وقيـام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقـارّوا على كِظَّة مـظلوم لألقيت حبلهـا على غـاربهـا. . .» أي أن العـالم ملزم بعـدم السـكوت عن الظلم. ذلك أن دور العـالم ليس فقط صلاة الجمـاعة ووعظ النـاس فقط، إنمـا دوره هـو دور علي بن أبي طـالب ـ عليـه السـلام ـ ودور النبي ـ صلّى الله عليـه وآله وسلّم ـ. وفي هـذا المجـال يقـول الإمـام الحسن العسكـري ـ عليه السـلام ـ: «الفقيه كـل الفقيه من أفـاض على النـاس خيره وأنقذهم من أعدائهم».

وهذا يؤدي بنا بـل يحتم علينا أن نلتف حـول المرجعيـة وأن نجتمع حول العلماء الأبرار الذين آلـوا على أنفسهـم أن يحملوا هذا الهم الكبيـر، وهو إنقاذ المسلمين من أعدائهم وقيادتهم إلى بر الأمان، لا سيما في أيامنـا هذه التي نشهد فيها هجوماً شرساً على مراجعنا من قبل الدوائر الاستعمارية والصهيـونية، بـأدوات تدّعي الإسـلام، نظراً لمـا تلعبه المـرجعيـة من دور خطير في قيادة المسلمين ولما تملكه من قدرة على التوجيه والتحريك.

مراجعنا منارات إسلامية

إذا كان الطبيب يطبب الأبدان من العلل والأمراض فإن المرجع الديني هو طبيب الأرواح والنفوس والعقول نظراً لما يتمتع به من إيمان وورع وعدالة. والعدالة هي أن لا يمارس المحرمات ولا يترك الواجبات. حتى ولو ترك المستحبات ومارس المكروهات فشرط العدالة يبقى متوفراً.

ولكن الواقع يشهد أن مراجعنا، فضلاً عن ترك المحرمات والقيام بالواجبات، لا يتركون مستحباً ولا يمارسون مكروهاً. بل وأكثر من ذلك، فهناك منهم من لا يقوم بعمل مباح، أي بمعنى آخر يحول المباح إلى مستحب حتى إذا مارسه يكون قد مارس أمراً مستحباً، فشرب الماء مثلاً هو أمر مباح بحد ذاته، فلا هو مستحب ولا هو مكروه، ولكن علماءنا يحولون شرب الماء المباح إلى عمل مستحب وذلك بنية أن يكون شرب الماء وسيلة لتقوية البدن لكي يقوى على طاعة الله وهكذا الطعام، وبذلك يصبح المباح مستحباً لأن النية خالصة لله ـ سبحانه وتعالى ـ .

ومما يجب أن نتنبه له هو أننا قد أثرنا مسألة التقليد لكي نخلص إلى قول نحن بدأناه، وهو مسألة الرشد في مسلك المؤمن، وبذلك يكون التقليد مسألة من مسائل الرشاد. لذلك أعود وأكرر القول بأننا يجب نلتف حول مراجعنا الدينية في مواجهة هذه الهجمة الشرسة من قبل القوى الاستكبارية العالمية، لا سيما أن مراجعنا منارات إسلامية تبث النور والعلم والثورة في كل مكان من العالم الإسلامي الكبير. ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى هذه المنائر والمقامات الروحية الفذة.

وضعنا لا نُحسد عليه

إن الأوضاع التي يعيشها المسلمون اليوم، لا سيما شيعة أهل

البيت، بلغت حداً لا يطاق ولا يسكت عليه. إن أعداء الله والإسلام يكيلون لهم المؤامرات ويكيدون بكيدهم اللئيم وحقدهم القديم والجديد، لا سيما أنهم ـ أي أعداء الله ـ يخافون أن يخرج المارد الإسلامي من قمقمه، لذلك تراهم يحاولون إحكام السد على فوهة القمقم، فيضربون في كل مكان من العالم الإسلامي أية حركة أو بوادر حركة إسلامية.

لذلك على المسلمين أن يعودوا إلى قرآنهم وإيمانهم وإسلامهم الأصيل يستمدون منه المدد والقوة والصلابة والمناهج، فنبدأ بنفوسنا لكي نغيرها قبل أن نحاول تغيير الآخرين، ذلك لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ: **﴿لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** [سورة الرعد: الآية ١١].

فنقلع عن أمراضنا النفسية أولاً وفي مقدمتها الغيبة والنميمة: **﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾** [سورة الحجرات: الآية ١٢].

ذلك أن الغيبة والنميمة والبهتان تحرق أعمالنا وتفقدها أجرها وثوابها، فقد روي عن الرسول الأعظم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ أنه قال لأصحابه: «كل عمل شجرة (أي في الجنة) وكل عمل قصر» قالوا: كثرت أشجارنا في الجنة يا رسول الله. قال: «شريطة أن لا ترسلوا عليها ناراً فتحرقوها». قالوا: ما هي النار يا رسول الله؟ قال: «الغيبة والنميمة والبهتان ومن دون علم». لذلك جاء في القرآن الكريم قوله: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾** [سورة الإسراء: الآية ٣٦].

وقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾** [سورة الحجرات: الآية ٦].

لذلك يجب أن نعود إلى قرآننا وإسلامنا، لا سيما أن في تاريخنا الإسلامي أناساً كأهل البيت الذين يشكلون نماذج إنسانية ومنارات عالمية.

وفي تاريخنا أيضاً رجال أشداء صلاب ساروا على هدي أهل بيت النبوة من أمثال أبـي ذر الغفاري ـ رضوان الله عليه ـ الذي لا يخاف وما كان يخاف في الله لومة لائم، وهو الذي قال فيه نبـي الرحمة ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبـي ذر».

إن هذا الصحابـي الجليل الذي قال فيه الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ما قال، والذي بلغ من الورع والتقوى حداً كبيراً، إن هذا الصحابـي الجليل لم يحل ورعه وصلابته وتقواه وشهادة الرسول فيه بينه وبين أن ينفوه إلى الربذة لكي يموت فيها وحيداً فريداً. وكان قبل مسيره إلى المنفى، قد ودعه الإمام عليّ ـ عليه السلام ـ وبصحبته الحسنان ـ عليهما السلام ـ ، وخاطبه قائلاً: «لقد خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك. فاترك لهم ما خافوك عليه وانج بما خفتهم عليه» أي اترك هذه الدنيا الفانية لهؤلاء الذين نفوك خوفاً عليها وانج بدينك الذي قضيت حياتك حريصاً عليه ضنيناً به.

لقد قضى أبو ذر في المنفى وحيداً فريداً بعد أن مات أهله ولم يبق له إلَّا ابنته التي وقفت في الصحراء تنظر إلى الأفق البعيد وإذا بركب قد أقبل، إنهم فرسان الهيجا وأبطال الصفا وإخوان أبـي ذر في الإيمان والتقوى. فقد وصلوا وفي مقدمتهم مالك الأشتر وابنه إبراهيم ومحمد بن أبـي بكر وعمار بن ياسر تلامذة علي بن أبـي طالب ـ عليه السلام ـ وخريجو مدرسته، فجهزوه ودفنوه ثم عادوا بطفلته الصغيرة يتسابقون إلى حملها والمسح على رأسها فقد أمست يتيمة الأب والأم، ولكن كل واحد من هؤلاء الأخيار كان لها أباً رحيماً ووليّاً حميماً.

وإذا كانت طفلة أبـي ذر الغفاري ـ رضوان الله عليه ـ قد وجدت

من يحنو عليها ويرحمها، فهل حصلت على مثل ذلك طفلة أبي عبد الله الحسين عندما ألقت بنفسها على راس أبيها الحسين ـ عليه السلام ـ؟ لا بل انهالت عليها السياط من كل جانب تلسع بدنها الطري العود ثم رفعوها من على جسد أبيها لا حراك بها!!!

فللَّه ما أقسى قلوبهم وما أشد سوادها.. وما أجرأهم على الله ورسوله وأهل بيته... فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

● ● ●

الإسلام دين التغيير

الإسلام دين التغيير

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ [سورة الرعد: الآية ١١].

القدرة على التغيير هبة إلهية

إن عظمة الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا تحدها حدود ولا تدركها العقول، ولا يحيط بها وصف أو قول. وقد تجلت هذه العظمة اللامتناهية العظمة أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد أودع الإنسان قدرة مدهشة على التغيير في كل شيء، فهو قادر بإذن الله ـ سبحانه ـ أن يغيّر نفسه وأسرته ومجتمعه، وأن يغيّر التاريخ على امتداده والعالم على سعته، بل الكرة الأرضية على رحبها.

إن هذه القدرة المدهشة على التغيير انفرد بها الإنسان دون سائر المخلوقات فلم يشركه فيها كائن آخر. وقد كانت هبة من الإلّه لهذا الإنسان لكي يحسن استخدامها في حياته، فإذا عرف قدرها وخطورتها استطاع أن يبدل كل ما حوله وأن يغير محيطه بما يخدم حياته وحركته فيها. فلو سُلخ الإنسان عن هذه الهبة وفقدها لخسر إنسانيته التي كرمه الله ـ سبحانه ـ من خلالها.

على أن رسالات الأنبياء كلها، والكتب السماوية جميعها، وكل

الأنبياء والصالحين إنما هدفهم الأساسي وغايتهم الأولى هي تغيير الإنسان من جهة وجعله قادراً على تغيير ما حوله من جهة أخرى. ومن يقرأ القرآن الكريم يجد أنه يركز بدرجة أولى على هذه الخاصة التي غدت رمزاً للإيمان ودليلاً على عمقه وقوته، فإذا عجز الإنسان عن تغيير نفسه وأخلاقه نحو الأفضل والأحسن والأسمى وإذا عجز عن التطور والتقدم وتحقيق الطفرات الكبيرة في حياته، لوجب عليه أن يعيد النظر في إيمانه ودرجة عمقه ومدى قوته.

وخدمةً لهذه القدرة المدهشة، ومن أجل أن تبقى متوهّجة ومتوثّبة فقد جعل الإسلام كل مناهجه وشعائره مشحونة بما يؤدي إلى منفعة الإنسان وسعادته وإرشاده إلى سبل الهداية والرشاد لكي يجنبه متاهات الخطأ والضلال، لذلك كانت قاعدة الحلال والحرام التي تقوم على أساس المنفعة المشار إليها، فكل شيء ينفع الإنسان محلل له وكل ما يضرّه محرّم عليه أن يقارفه أو أن يقترب منه.

على أن هذه القاعدة الفكرية هي من تجليات الإسلام الحضارية التي لن تجد لها شبيهاً في سائر القوانين الوضعية. إنك لن تجد قانوناً أرضياً يحرم الخمرة أو المخدرات بحد ذاتها بالرغم مما تفعله في المجتمعات تمزيقاً وتخريباً. ودع عنك ما تسمعه من تطبيل وتزمير في الإعلام الغربي في مواجهة هذه الآفات، وفي مقدمتها المخدرات لأنهم يحلمون بل يعملون لكي تنتشر في العالم الإسلامي لا سيما بين الشباب المؤمن لكي يضربوا فيه ما يمتلكه من قدرة هائلة على التغيير نحو الأفضل. وما كانت تفعله بريطانيا في مصر من ترويج حشيشة الكيف ليس عنا ببعيد. ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى خلق شباب متهالك ومتحلّل.

لذلك كانت مسألة الحلال والحرام في الإسلام تقوم على أساس

منفعة الإنسان وتجنيبه كل ما يضرّه. ومن هنا كانت نظرة الإسلام وتقويمه للأشياء على أساس هذه المنفعة. لذلك جاء في القرآن الكريم قوله ـ تعالى ـ : ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ [سورة الرعد: الآية ١٧].

أهل البيت رمز التغيير وقادته

إن الإنسان كلما كان أكثر عظمة، كان أكثر تأثيراً في مجتمعه، وكلما كان يمتلك نفساً كبيرة، كان أقدر على التغيير في نفسه وأسرته ومجتمعه. لذلك تجد أن أعظم الناس نفوساً هم أقدرهم على ذلك. وليس غريباً أن يكون محمد بن عبد الله ــ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ــ أعظم إنسان في الوجود، وبالتالي أعظم مغيّر في الحياة والتاريخ، لأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين عظمته وقدرته التي أدهشت العالم بأسره. لذلك تجد علماء الكون في الاجتماع والنفس والتاريخ يقفون في دهشة بالغة وذهول بعيد أمام رسول الله ــ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ــ .

إنهم مذهولون كيف استطاع أن يصنع من أولئك البدو الرحل الذين يعيشون الجاهلية ويمارسونها، أن يصنع منهم قادة يحملون النور إلى العالم، وينقلون العلم إلى سائر أنحاء المعمورة، مما جعل من بلاد الإسلام قبلة ومنهلاً ومورداً.

ومن المؤسف أننا عندما ابتعدنا عن هذا النبي الأعظم رحنا نتسكع على أبواب الغرب نستجدي العلوم من جامعاته.

إن أقدر إنسان غير العالم هو رسول الله ــ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ــ . ومن الطبيعي أن يكون أهل بيته، أصحاب الكساء، هم الأقدر بعده على التغيير حيث كانوا وما يزالوا رمزاً للتغيير وقادته ونبراساً للتقدم

والتطور حيث لا مكان عندهم لليأس والقلق والتردد والتراجع.

إن أهل البيت مدرسة في هذا المجال، لا سيما الإمام الحسين الذي يقول فيه جده المصطفى: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً». وحب الحسين هو أن تحب مبادئه وتتعلق بها لكي تكون أبيّ الضيم كما كان وشجاعاً كريماً مؤمناً، فهي صفات يحبها الله ـ سبحانه ـ ويحب كل من تجسدت فيه وتجلت من خلاله.

وإذا كان الأنبياء والمرسلون يهدفون إلى أن يكون الإنسان مغيّراً في محيطه وفاعلاً لكي يتطور نحو الأفضل فإن ثمّت جانباً سلبياً يغير ولكن نحو الأسوأ. عنيت بذلك الذنوب التي أشار إلى تأثيرها السلبي الإمام علي ـ عليه السلام ـ في دعاء كميل حين قال: «اللّهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم... وتغير النعم... وتحبس الدعاء... وتنزل البلاء... وتقطع الرجاء». إن هذا الجانب السلبي لسنا بصدد بحثه، بل إن ما يهمنا هو الجانب الإيجابي الذي يؤدي نحو الأسمى وهو الذي يريده منا رب العالمين.

ولكي يبقى الإنسان في هذا الجانب عليه أن يلازم الحق وأهله ويتبرأ من الباطل وأهله، لأن أهل الباطل يرمون إلى ضرب هذه القدرة عند الإنسان حتى يغدو خاملاً، فيصبح صدره مسرحاً للشيطان وملعباً لحيله وحبائله، ويصبح لسانه ناطقاً بمكائده وأباطيله.

عندما يرتدي الباطل لباس الحق

إن من شأن الباطل أن يجعل من نفس الإنسان ظلاماً دامساً، ويزرع الحقد والحسد والنفاق والغيبة والنميمة فيها، بخلاف الحق الذي ينير دربها ويبدّد ظلامها. والخطير في الأمر أن الباطل لا يأتيك على صورته

الحقيقية، ولا يدخل عليك بشكله البشع، لأنه في أغلب الأحيان يتزيّا بزي الحق ويرتدي عباءته ويضع عمامته لكي تلتبس علينا الأمور وتشتبه. وهذا ما يسمّى بالشبهة في الإسلام. وقد أشار إليها الإمام عليّ ــ سلام الله عليه ــ في نهجه فوضّح أنها سميت شبهة لأنها تشبه الحق من حيث الشكل.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف نعرفها وكيف نفرق بين الحقّ والباطل؟ والجواب عند أمير المؤمنين ــ سلام الله عليه ــ «أما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى». وخير مثال يمكن أن نضربه على الشبهة وعلى أولياء الله وأعدائه، هو موقف كل من عمر بن سعد والحر الرياحي.

إن عمر بن سعد وأصحابه من أمثال الشمر ويزيد بن الركاب والحصين بن نُمير وشبث بن ربعي وكعب بن طلحة وحجّار بن أبجر، كان بينهم من هو جبهته سوداء من أثار السجود والصلاة مثل حجار بن أبجر، وشبث بن ربعي الذي كان عالماً يحضر دروس الفقه ومجالس امام عليّ ــ عليه السلام ــ، وعلى الرغم من ذلك قادهم الشيطان في درب الضلال. وهذا معنى قولنا: «الباطل عندما يرتدي عباءة الحقّ» ويتزيّا بزيه.

وفي اليوم العاشر من محرم التفت عمر بن سعد إلى المؤذن وأمره أن يرفع صوته بالأذان من أجل الصلاة، يريد أن يصلي بالناس بعد التسبيح والاستغفار!!! وفي الجهة المقابلة كان الحسين ــ عليه السلام ــ يصلي في أصحابه. إن من يراقب هذا المشهد من حيث الظاهر يشتبه عليه الأمر ولكن أولياء الله ضياؤهم اليقين، فهم يعرفون بيقينهم أن صلاة الحسين هي الصلاة المؤمنة في حين أن تلك الصلاة هناك في الجانب الآخر هي صلاة

كافرة.

إن أولياء الله يدركون بيقينهم أن ابن سعد كافر وأن الحسين هو الطهر الطاهر وابن رسول الله وسيد شباب أهل الجنة وأن الحق إلى جانبه. أما ضعيف اليقين فيرى ما يراه عمر بن سعد عندما عرض عليه ابن زياد ملك الرّيّ مقابل أن يخرج لحرب الحسين. فقد قال عمر لابن زياد: أمهلني سواد هذه الليلة. وعندما خلاَ إلى نصحائه نهوه عن المسير لحرب الحسين وفيهم ابن أخته حمزة بن المغيرة بن شعبة الذي قال له: أنشدك الله أن لا تسير لحرب الحسين فتقطع رحمك وتأثم بربك. فوالله لئن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كله لو كان لك، لكان خيراً لك من أن تلقى الله بدم الحسين. فقال ابن سعد: أفعل إن شاء الله. وبات ليلته مفكراً في أمره. وسُمع يقول:

أأترك ملك الريّ والريّ رغبتي — أم ارجع مذموماً بقتل حسينِ
وفي قتله النار التي ليس دونها — حجاب وملك الري قرة عيني

* * *

انظر معي واعجب لهذا اللون من التفكير الذي لا يستقيم مع الإيمان فضلاً عن العقل السويّ، ثم عرِّج معي إلى لون آخر من التفكير عند الحر بن يزيد الرياحي الذي لم يفكر سوى لحظات حتى اهتدى إلى طريقه السوي ثم راح يدنو من الحسين قليلاً، فقال له المهاجر بن أوس: أتريد أن تحمل؟ فسكت وأخذته الرعدة. فارتاب المهاجر وقال له: لو قيل لي من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك، فما هذا الذي أراه منك؟ فقال الحر: إني أخير نفسي بين الجنة والنار، والله لا أختار على الجنة شيئاً ولو أحرقت. ثم ضرب جواده نحو الحسين منكساً رمحه قالباً ترسه وقد طأطأ برأسه حياءً من آل الرسول بما أتى إليهم وجعجع بهم في هذا المكان على

غير ماء ولا كلأ، رافعاً صوته: اللّهم إليك أنيب فتب عليّ فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد نبيك... يا أبا عبد الله إني تائب فهل لي من توبة؟ فقال الحسين ـ عليه السلام ـ: نعم... يتوب الله عليك.

كل ذلك يوضح قول أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ الذي أشرت إليه: «أما أولياء الله فضياؤهم فيها (أي الشبهة) اليقين ودليلهم سمت الهدى (أي الطريقة) وأما أعداء الله فدعاؤهم الضلال ودليلهم العمى».

كيف يُزوَّر التاريخ

إن أعداء الله هم أعداء الحسين وأعداء أهل البيت، لذلك تجدهم يحاولون بكل وسيلة أن يبتدعوا ويبعدوا الناس عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ. وهذا التاريخ مطروح أمامنا يخبرنا الخبر اليقين. وبالرغم من وضوح التاريخ فإن الأيدي الخبيثة والأقلام المأجورة تمتد إليه لكي تمعن فيه تحريفاً وتزويراً خدمة لمآربهم القذرة وأهدافهم الرخيصة. ولكن أنى لهم ذلك والقرآن يقف في طريق محاولاتهم ويصرخ في وجوههم آناء الليل وأطراف النهار، ويفضح كل لؤم يمارسونه وكل خسة تكمن في سرائرهم.

وبالرغم من كل ذلك فإن النور لا يمكن أن يطمس لأنه أقوى من ذلك. ينفذ بصيصه من خلال الحجب والأسدال ورغماً عن التجني والتزوير، لأن مرتكب الجريمة دائماً يترك خلفه ما يفضحه. لقد أُهدي إليّ منذ مدة بعض الكتب في طباعة أنيقة وحروف مرصوفة وتجليد جميل، وبينها كتاب يحدثك عن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وآخر يتحدث عن كاتب الوحي وعظيم الإسلام معاوية بن أبي سفيان!!! وأنا لا أشك أن المؤلف مشغول الآن ومنكب على كتاب يتناول فيه أبا سفيان الدجال

والمنافق فيخبرنا فيه كيف كان جبرائيل يهبط عليه؟؟؟ قبل أن يهبط على رسول الله؟؟؟!!!

هذا هو البلاء بعينه... أمة طويلة عريضة... ابتليت برجال كأبي سفيان وابنه معاوية وحفيده يزيد وتركت أهل بيت النبوة ومهبط الوحي ومسرح الملائكة. فأي تاريخ هذا الذي يكتبون... إنه تاريخ يزين لك الكذب ويذوّق لك الفجور ويحدثك عن الشجاعة في عيون الجبناء ويصور لك السخاء عند اللئام والنجدة عند الجلادين ويحدثك عن صلاة الليل عند المتوكل العباسي الذي حرث قبر الحسين وجمع في قصره أربعة آلاف جارية، ومع ذلك يجعلونه محيي السنّة ومميت البدعة.

فبئس الكَتَبة وما يكتبون وتعساً للأقلام التي باعت نفسها للشيطان من غير خجل من رب العالمين، وكأن أصحابها لم يقرأوا القرآن الكريم ولم يعرفوا قُدسيّة القلم وشرف الكتابة في قوله ـ تعالى ـ : **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم﴾** [سورة العلق: الآيات ١ ـ ٤].

وفي قوله ـ تعالى ـ : **﴿نَ والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾** [سورة القلم: الآيتان ١ ـ ٢].

إن رسالة القلم مقدسة. ومع ذلك تجد من لا يحترم قدسيتها فيزيّفون الحقائق ويسطرون الكذب والدجل والنفاق دون حياء أو خجل. وهم لا يعلمون أنهم مسؤولون أمام الله عن كتابتهم التي تستمر بعدهم يقرأها الناس عبر كل الأجيال، فتساهم في ضلالهم وإبعادهم عن جادة الحق والصواب، ينتشر إثمها ووزرها، أولئك الكَتبة يوم القيامة لكي يحاسبوا على كل حرف كان فيه تزوير وكل كلمة كان فيها قلب للحقائق. إن الكف التي تكتب ما يسيء إليها يوم القيامة سوف تشهد على صاحبها،

لا سيما أولئك الذين تتجمد أقلامهم وتخرس إذا وصلوا إلى علي والزهراء والحسن والحسين ـ عليهم السلام ـ، ثم ترتعش في أيديهم وتصاب بالعقم القاتل.

لقد امتدت بعض هذه الأقلام وتجرأت حتى على تفسير القرآن الكريم. إن آية المباهلة، يعرف القاصي والداني، أنها نزلت في أهل الكساء. ومع ذلك تجد من يقول: وأخرج الرسول معه جماعة!!! من هم هؤلاء الجماعة؟ يخرس لسانه وتجف قريحته عنهم وعن ذكر أسمائهم الشريفة. ويأتيك آخر لكي يفسر ما جاء في سورة الدهر التي لا يشك أحد أنها نزلت في علي وفاطمة والحسنين، لا سيما قوله ـ تعالى ـ: **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾** [سورة الدهر: الآية ٨].

فيزعم أن هذه السورة مكية لكي يصرفها عن بيت علي وفاطمة لأنه لم يكن قد تزوج الإمام من الزهراء وبالتالي ليس هناك حسن أو حسين، ولكي يقول أنها قد نزلت في عمر وولده وأحفاده.

ونحن نقول لهذا المفسر الجهبذ الذي لم يسبقه أحد إلى هذا الاكتشاف العظيم والتفسير الخطير، نقول له: ثكلتك أمك ولأبيك الهبل ما أعلمك!! وما أوفر ثقافتك!! وهل كان في مكة أسرى؟ إن الآية أيها الجهبذ تفضحك في قولها: ﴿وأسيراً﴾. لأن المسلمين لم يكن لهم أسرى إلّا بعد أن هاجروا من مكة إلى المدينة وكانت موقعة بدر وما تلاها من مواقع أصبح فيها للمسلمين أسرى. فأي أسير هذا الذي أطعم في مكة؟؟

أما بعض الذين يكتبون عن هجرة الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ، تجدهم يحدثونك عن الغار الذي لجأ إليه النبي الأعظم،

وبرفقته: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠].

ويتناسون علي بن أبي طالب الذي كان ينام في ذلك الوقت على فراش النبي بأمر من رب العالمين، لكي يفديه بنفسه. وكان قد سأله: أوَتنجو يا رسول الله؟ قال: بلى. قال: إذاً نفسي لنفسك الفدى. ثم ينام على فراشه فينزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٧].

حتى فيلم «الرسالة» عندما يأتي إلى هذه اللقطة تجده يمر عليها مروراً سريعاً دون أن يعطيها حقها. علماً أن التاريخ هو مصدر قوة وإلهام للأمة. لذلك تجد أن الأمم التي تتنكر لتاريخها المشرق، تسقط لأنها تتنكر بذلك للفكر الكامن فيه وللتجارب التي تمدّنا بالطاقة، في حين أن الأمم الحية تجدها معنية بتاريخها، تحيي أمجاده، وتستعيد محطاته المشرقة لكي يكون منهلاً لها في الأزمات والأوقات الصعبة، ونبراساً تستضيء به عندما يشتد عليها الظلام وتحيق بها النكبات والنكسات. ومن كان في تاريخه رجال كالحسين وعليّ وسائر أهل البيت ليس بحاجة إلى أن يحيي العظام وهي رميم، وليس بحاجة إلى أن يلتفت إلى غيرهم من الرجال الذين لا يدانونهم مرتبة أو منزلة، لا في الفكر ولا في العلم ولا في الكرم والشجاعة والإقدام والجود والسخاء والهداية وغيرها من الخلال الكريمة.

رجال الدين أدلاء إلى الحق

سبق القول: إن في تاريخ الأمم أحداثاً عظاماً أو رجالاً كباراً تستعيد الأمم من خلالهم أمجادها أو تستلهم تلك المحطات المضيئة لكي تبني حاضرها وتهيِّىء لمستقبلها. فهذه فرنسا تحتفل سنوياً بما يسمى في

تاريخها الثورة الفرنسية التي كان أهم ما فيها تدمير سجن الباستيل رمز الظلم والاستغلال من قبل طبقة النبلاء ورجال الدين الذين كانوا السبب في فقر الناس الذي لا يطاق.

وقد وصلت هذه الموجة إلى بلادنا تحت عنوان الحرب ضد رجال الدين المسلمين وراحت الأقلام الخبيثة تروّج لهذه النغمة المدسوسة لكي تحول بين الشباب ورجال الدين وصولاً إلى ضرب الدين ذاته. ومن الوسائل التي اتبعت للوصول إلى هذا الهدف العمل على فتح المزيد من دور السينما والمرابع الليلية والملاهي والمقاهي والمراقص والمسابح المختلطة ونوادي القمار وغيرها من الأماكن المشبوهة. وماذا كانت النتيجة؟ المزيد من الانحراف والانحلال والوقوع في حمّى الرذيلة والفسوق. فهل العلة فعلاً في الدين ورجال الدين والدعاة إليه؟

لا شك أن العلة ليست في مجالس العلماء، لأن العلماء المخلصين الذين تعمّموا بعمامة رسول الله قد حملوا أمانة عظيمة يريدون أن يبلغوها من خلال المجالس التي يحبها الله ورسوله. والخذلان كل الخذلان هو الابتعاد عن هذه المجالس. يقول الإمام السجاد في أحد أدعيته الجليلة: «أو لعلك فقدتني في مجالس العلماء فخذلتني». ولو لم تكن مجالس الحسين ومجالس العلماء بهذه الأهمية والخطورة لما ركز عليها الإمام السجاد ــ سلام الله عليه ــ وجعل خذلان رب العالمين عقاباً لمن ابتعد عنها، لأن هذه المجالس هي الغذاء الذي لا بد منه على صعيد الفكر أو صعيد الروح لا سيما إذا كان الحسين هو موضوع هذه المجالس وعطرها.

وإنني لأؤكد لو أن الغربيين كان في تاريخهم رجل كالحسين لملأوا الدنيا ضجيجاً ولأقاموا له التماثيل في كل قلب وفي كل وجدان. ونحن في

الواقع ما زلنا لا نقدِّر الإمام الحسين حق قدره وما زلنا عاجزين عن فهم وإدراك حركته الرائدة. ولكي ندرك أبعاد ثورته ونعرف تماماً من هو الحسين علينا أن نستنير بقول أمير المؤمنين ـ سلام الله عليه ـ : «لا تطلبوا الحق في الرجال ولكن اطلبوا الرجال في الحق» أي لا يكون الرجل هو المقياس الذي نعرف به الحق وإنما ليكن الحق هو المقياس الذي نعرف به الرجل، لأن الذين طلبوا الحق في الرجال سقطوا.

ونحن إذا طلبنا الرجال في الحق فليس أمامنا إلاَّ أهل البيت، لا سيما الحسين الذي اتحد بالحق واتحد الحق به، فهو أبو الأحرار بلا منازع، وهو الذي تحرك من أجل الحق نفسه، فلنستمع إليه وهو يقول في خطبته: «إنه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون وإن الدنيا قد أدبرت ولم يبقَ منها إلاَّ صُبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل... ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقّاً، فإني لا أرى الموت، إلاَّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاَّ شقاءً وبرماً». لذلك نسأل الله أن ينفعنا بحب الرسول وأهل بيته، لا سيما مركز الدائرة في هذه الدوحة العطرة، عنيت به الإمام الحسين ـ سلام الله عليه ـ .

النفاق الذي يلعب على الحبال

إن الناس دائماً ثلاثة أنواع: مؤمن وكافر ومنافق يلعب على الحبلين، يأتي إلى المؤمن فيقول له أنا مؤمن ثم يذهب إلى الكافر لكي يقول له: أنا معك. إن هذه الصورة تطالعنا دائماً في القرآن الكريم؛ ففي فاتحة الكتاب نجد صورة المؤمنين ﴿**الذين أنعمت عليهم**﴾.

وصورة الكفار ﴿**المغضوب عليهم**﴾.

وصورة المنافقين ﴿الضالين﴾.

الذين ﴿**اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين**﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦].

وفي سورة البقرة أيضاً نجد في مطلعها هذا اللون من التقسيم. ففي الآيات الخمس الأولى نجد صورة رائعة للمؤمنين: ﴿**الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**﴾ [سورة البقرة: الآيتان ١ ـ ٢].

إلى آخر الآيات. بعد ذلك مباشرة آيتان ترسمان صورة واضحة للكفار: ﴿**إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة**﴾ [سورة البقرة: الآيتان ٦ ـ ٧].

وبعد ذلك تأتيك صورة المنافقين الذين يحتاجون حوالى ثلاث عشرة آية لكي تتضح صورتهم المريضة: ﴿**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين**﴾ [سورة البقرة: الآية ٨].

إلى آخر الآيات التي بلغت حد الروعة في تصوير نفسياتهم المريضة. فالمؤمن واضح لذلك احتاج الأمر إلى خمس آيات فقط، والكافر واضح لم يلزمه أكثر من آيتين. لكن المنافق مريض ومخادع، لذلك احتاج الأمر إلى هذا العدد الكبير من الآيات حتى تتضح معالم نفسيته: ﴿**يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلّا أنفسهم**﴾ [سورة البقرة: الآية ٩].

إن هذه الأنواع الثلاثة، كل منها يتصف في نفسيته بوصف خاص به. فالمؤمنون يمتلكون نفوساً مطمئنة: ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية**﴾ [سورة الفجر: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨].

والمنافق أحياناً تلومه نفسه وتصليه ناراً لعله يرتدع وإذا لم يرجع عن غيه تتحول نفسه من لوامة إلى أمّارة بالسوء: ﴿**لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة**﴾ [سورة القيامة: الآيتان ١ ـ ٢].

ونخلص إلى القول: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل الحياة الدنيا داراً للبلاء والاختبار، وأعطانا العقل وأرسل الأنبياء لكي نكون من الصنف الأول وهم المؤمنون. وسوف يسألنا غداً عن كل صغيرة وكبيرة: ﴿**وقفوهم إنهم مسؤولون**﴾ [سورة الصافات: الآية ٢٤].

لذلك يجب أن نبحث عن الحق ونعرفه لكي نعلم من هم رجاله، فنكون ممن يتمسكون بحبلهم المتين. ولا شك أنهم أهل بيت النبوة ومهبط الوحي ومتنزل الملائكة ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ.

دعوة إلى التغيير

وأجدني الآن مدفوعاً إلى حيث بدأت، إلى تلك القوة التي زوَّدنا بها رب العالمين وهي القدرة على التغيير. فلماذا لا نبادر فوراً إلى استخدامها لا سيما أن الحبيب المصطفى وأهل بيته هم رموز التغيير وقادته. يجب أن نغير ما في نفوسنا إلى الأفضل والأسمى، في سلوكنا وأخلاقنا وألفاظنا، وفي أسرنا ومجتمعنا بضمير حيّ ومطمئن ونية صادقة صافية لا سيما أن النية هي الأساس في كل عمل وكل حركة تبدر منا وتصدر عنا.

ويجب أن نلتفت إلى تاريخنا الصحيح ونعرف أن الذين كتبوا التاريخ هم بمعظمهم من أصحاب الأقلام المأجورة الذين رفعوا يزيد بن معاوية وتجاهلوا الحسين ـ عليه السلام ـ. إن مثل هذا القلم لا يقال عن صاحبه إنه مسلم حتى ولا هو إنسان، لأنه يتجاهل عظيماً كالحسين.

يجب أن نلتف حول الرسول وأهل بيته ونرفض الخونة والدجالين

والسفاكين. نلتف حول أولئك الذين أعطوا كل ما يملكون من أجل الإسلام ومن أجل سعادة الإنسان. إنهم أعزة كرام، ملجأ للرحمة ومأوى للصفح والعفو، في حين أن غيرهم هم معدن النفاق والحقد والضلال.

رؤيا وشاعر

إن نوادرهم لا تحصى ولا تعد وفضائلهم كالبحر الطامي، بل كالنبع السيّال الذي يترقرق صافياً عليلاً يروي العطاشى والظامئين إلى نور الحقيقة ودرب الخلاص والنجاة.

ومما يُروى في كرامتهم وفضلهم أنه قد كان هناك رجل من التقاة من أهل السنّة اسمه يحيى أبو نصر عاش في بغداد حوالى القرن السادس الهجري، وفي أيامه كان هناك شاعر يعرف بابن الصيفي. يروي أبو نصر تجربته التي مر بها ذات ليلة حيث راح يفكر ويستعيد بعض الأحداث الإسلامية ويقارن بين بعض مواقف الرسول وأهل بيته ومواقف الآخرين كمعاوية ويزيد. فرأى أن الرسول قد عفا عن أهل مكة وقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» والإمام علياً يوم صفين لم يمنع الماء عن معاوية وجيشه بعد أن استعاد المشرعة منهم وكانوا قد منعوه. وكذلك فعل الإمام الحسين الذي كان يسقي أعداءه الماء ولكنهم عندما استولوا على المشرعة قضوا عليه وهو عطشان ومنعوا الماء عن أطفاله. فراح يتساءل موجهاً كلامه لأميرالمؤمنين: لماذا أنتم هكذا ولماذا تبادلون الإساءة بالإحسان؟

ثم أخذه النوم وهو على هذه الحالة فرأى الإمام علياً في منامه فوجه إليه الأسئلة التي فكر فيها وهو في حالة اليقظة. فقال له الإمام: يا يحيى أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا؟ قلت: لا يا سيدي. قال: إذاً اسمعها منه. فانتبه من نومه فزعاً. ثم بادر إلى ملابسه فارتداها ثم عبر

دجلة وجاء ابن الصيفي الشاعر وطرق بابه في تلك الساعة المتأخرة من الليل. فتح ابن الصيفي الباب فوجد هذا العالم الجليل واقفاً على بابه. فقال: ما وراءك يا يحيى؟ فروى كل ما حدث له ثم قال له: جئت أسمع الأبيات منك. فشهق ابن الصيفي وأصابه الذهول وقال: الله أكبر... إن الله أعلم حيث يجعل رسالته. فسأله يحيى: ما بالك يا ابن الصيفي؟ فقال له: يا يحيى، والله الذي لا إلّه غيره ما قلت هذه الأبيات إلاّ في ليلتي هذه وما أخبرت بها أحداً قط، فاعجب معي كيف يقرأها علي بن أبي طالب ويرسلك إليّ لكي تسمعها مني. فقال يحيى: فما هي هذه الأبيات؟ فأنشد ابن الصيفي قائلاً:

ملكنا فكان العفو منا سَجِيَّةً ولما ملكتم سالَ بالدم أبطحُ
وحَلَّلْتُمُ قتل الأسارى وطالما غدونا على الأسرى فنعفو ونصفحُ
فَحَسْبُكُمُ هذا التفاوت بيننا وكل إناءٍ بالذي فيه يَنْضَحُ

* * *

أيتام الحسين

هؤلاء هم أهل البيت وذاك فضلهم وتلك كرامتهم ومنزلتهم، فليس عجباً أن يقول فيهم القرآن الكريم: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٣].

إن الواحد منا لو روى مأساة الحسين لإنسان لا يعرف عن الحسين شيئاً، وذكر له ما أصابه لا بد أن يتأثر ويبكي. فكيف إذا كان مسلماً ويعرف من هو الحسين؟ لا شك أن دموعه سوف تجري مدراراً وسوف يأخذ منه الحزن والأسى كل مأخذ، لا سيما أن الحسين هو أبو الفقراء والمظلومين والمحرومين، كما كان أبوه من قبل.

عندما دخل أيتام الحسين الكوفة وقد أثر فيهم الجوع والعطش راح بعض الناس يتصدقون عليهم ببعض التمر والجوز، فصاحت زينب: يا أهل الكوفة إن الصدقة علينا حرام، فراح الأطفال يرمون ما في أيديهم.

لذلك بقي هؤلاء في القلوب، يزورهم الناس ويتبرّكون بمشاهدهم وأضرحتهم حتى أضرحة الأطفال منهم، في حين أنك تجد الظالمين لا أثر لهم لا في القلوب ولا على الأرض. تعال معي إلى دمشق التي كانت سريراً لعرش معاوية، لكي نبحث عن قبره. إننا سوف نجده بصعوبة، ولكن على أية حال؟ إن قبره عبارة عن غرفة حقيرة تغطي أرضها القذارة وتفوح منها رائحة نتنة. فلماذا لم يبن له قبر ولماذا لم يكن له ضريح ومزار ودمشق مهده وملعبه ومسرح ظلمه وطاغوته؟ ذلك أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد شاء وأراد أن تمسي ديار الظالمين خراباً، وأن تبقى ديار الإيمان عامرة على مر الأجيال. فالكريم الكريم من كرمه الله والذليل الذليل من أذله الله ــ سبحانه وتعالى وجلت قدرته وحكمته وغلب أمره ونفذت كلمته ــ .

فلا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم...

• • •





وا إسلاماه . . .



وا إسلاماه . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلّفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصبٌ ولا مخمصةٌ في سبيل الله، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلاَّ كُتِبَ لهم به عملٌ صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلاَّ كُتِبَ لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون * وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فَلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون﴾ [سورة التوبة: الآيات ١٢٠ ـ ١٢٢].

القرآن معجزة الإسلام

إن الموضوع الذي سوف نتناوله بالبحث في هذه المحاضرة، يكتسب درجة عالية من الدقة في العقيدة الإسلامية، لا سيما أنه يتعلق بطبيعة العلاقة التي يجب أن تقوم بيننا وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ويتناول أمراً هاماً في حياتنا الإسلامية هو رسالتنا كمسلمين في الأرض، بالإضافة إلى لون الحياة وطبيعتها التي يريدها لنا رب العالمين. فما من آية من آيات القرآن الكريم إلاَّ وتهدف بالنهاية إلى هذه المسائل الثلاث: العلاقة بالله وعملنا الرسالي ونوع الحياة التي تراد لنا.

وبما أن القرآن الكريم هو المنطلق الذي ننطلق منه دائماً في تفكيرنا الإسلامي وفي حياتنا الإسلامية وفي علاقتنا بالله وبالناس، كان لا بد من ملاحظة ننطلق منها في هذا البحث، تتعلق بإعجاز القرآن الكريم، بل تتعلق به من خلال كونه معجزة الإسلام.

إن جميع الأنبياء الذين أرسلهم رب العالمين للبشرية كانت لهم معجزات، فكل نبي تميز بمعجزة تلائم طبيعة المرحلة التي أرسل فيها والموقع الذي كان يتحرك فيه. على أن هذه المعجزة كانت ترافقه طالما أنه على قيد الحياة، وتنتهي معه عندما ينتقل إلى الرفيق الأعلى.

إن هذه القاعدة تشمل الأنبياء جميعاً باستثناء الحبيب المصطفى محمد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . فمعجزة نوح كانت السفينة، فلما مات انتهت بموته، ومعجزة موسى كانت العصا وكذلك انتهت بموته، ومعجزة عيسى تمثلت بقدرته في الطب إذ كان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص، ويصنع من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وينبىء الناس بما يأكلون ويدخرون. وعندما رفع إلى السماء رفعت معجزته معه، فكانت لقومه فقط.

إن هؤلاء الأنبياء أُرسل كل منهم لجيل معين وأمّة محددة، أما الرسول الأعظم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فقد بعثه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لجميع الأمم والأجيال ولكل شعوب الأرض. فكان من الطبيعي أن تكون معجزته خالدة باقية ما دامت الحياة. وقد تمثلت هذه المعجزة الخالدة بالقرآن الكريم الذي تستقي الشعوب على مر الأجيال من منابعه وفيضه الذي لا ينضب. وقد جاء في هذه المعجزة قوله ـ تعالى ـ : ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣].

ويلاحظ في قوله: ﴿**سنريهم**﴾ هذه السين التي تفيد الديمومة والاستمرارية في العطاء.

إن من يقرأ القرآن يلاحظ أنه كلما داوم القراءة كلما تكشفت له أسرار جديدة وكنوز من المعرفة مختلفة وكأنه منجم متدفق من الماس والذهب لا يتوقف أبداً عن العطاء المتجدد والمتلوّن. فكلما تعمّقت فيه أكثر أنار منك القلب والفؤاد والبصيرة أكثر، وكلما ابتعد الإنسان عنه ازداد توغّلاً في الضلال والتّيه.

ولعل السر في خلود القرآن هو أنه: ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢].

وقد تكفل الله بحفظه من التحريف والزيادة والنقصان، وذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [سورة الحجر: الآية ٩].

وبذلك يمثّل للمسلمين مصدراً معصوماً للفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية. في حين أنك تجد أنه ما من كتاب سماوي آخر إلاّ ونال نصيبه من التحريف والتزوير والتزييف. وخير مثال على ذلك التوراة التي ملأها اليهود حقداً وعنصرية، والإنجيل الذي تحول إلى مجموعة من الأناجيل تنسب إلى يوحنا ولوقا ومتى وغيرهم. ولو بحثت عن إنجيل عيسى الحقيقي لما وجدته.

لذلك يقف القرآن شامخ الرأس عالي الهامة يتحدّى شعوب الأرض بسلامته من التحريف والتزوير من جهة وبصموده الرائع في مواجهة التطور العلمي من جهة أخرى.

القرآن أبو العلم والعلماء

وإذا كنت قد أشرت إلى صمود القرآن الرائع في مواجهة التطور العلمي فأنا لا أريد من خلال ذلك أن أجعل منه نداً للعلماء الذين يتوصلون إلى بعض الاكتشافات العلمية لسببين: الأول هو أن القرآن الكريم ليس كتاباً في الفيزياء أو الكيمياء وغيرهما، والسبب الثاني هو أن من يفعل ذلك فيجعل القرآن مسيراً في ركاب العلم إنما هو لون من ألوان الانهزامية لأن القرآن الكريم أسمى من أن يحشر في هذه الزاوية الضيقة.

لذلك لا يصحّ ولا يحق لنا أن نجعل من اكتشافات هؤلاء العلماء من أمثال فرويد وأدلر وغيرهما، شاهداً على صحة ما جاء في القرآن الكريم، لأنه لا قيمة لهؤلاء العلماء ولأقوالهم واكتشافاتهم إزاء هذا الكتاب العظيم، باعتبار أنه كلام الله رب العالمين. وقد سئل أحد العلماء المؤمنين وهو عالم في الذرة: هل هناك تعارض بين الدين والعلم؟ فأجاب: أن لا تعارض بينهما، وإذا بدا للناس في بعض الأحيان أن ثمتّ تعارضاً بينهما فعلى العلم أن يصحّح خطأه.

إن جميع العلماء، مهما توصلوا ومهما بلغوا من العلم درجات فهم لا يعلمون شيئاً أمام العلم الإلهي لأنهم: ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا**﴾ [سورة الروم: الآية ٧].

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنني أيضاً ما أردت أن أقلل من قيمة العلم والعلماء لأن العلم ضالتنا نحن المسلمين، وقد أمرنا الله ــ عز وجل ــ أن ننقب وأن نتعلم وأن نطلب العلم من المهد إلى اللحد. ولكن يجب أن يعرف الإنسان حدوده، لا سيما أن الإمام علياً ــ سلام الله عليه ــ يجعل «العلم ثلاث درجات، فمن يصعد الدرجة الأولى يغترّ ومن

يصعد الدرجة الثانية يتواضع ومن يصل إلى الدرجة الثالثة يدرك أنه لا يعلم شيئاً».

إن القرآن الكريم هو منبع العلم وأبوه، إنه بحر بل محيط لا ساحل له ولا حدود. وإذا كان الإنسان المعاصر يتشدق باكتشافاته العلمية فماذا فعل وماذا اكتشف من مجاهل هذا الكون العظيم؟ استطاع أن يتوصل إلى القمر؟ صحيح ولكن ماذا يشكل القمر بالنسبة إلى هذا الكون الشاسع الواسع الذي بتنا نعلم أنه يتكون من بلايين البلايين من المجاميع الكوكبية، وما نعلمه عن الكون لا يعادل شيئاً أمام ما نجهله، ولا سيما أننا قابعون على سطح هذه الكرة الأرضية التي هي أقل من نقطة بسيطة في خضم هذا البحر من الكواكب والنجوم والمجرات.

إن الإنسان خلال مسيرته الحياتية التي لا تتجاوز عشرين ألفاً من السنين، ما استطاع أن يتجاوز كرة الأرض إلاَّ إلى كوكب آخر هو القمر بعد أن أطلق العديد من السفن الفضائية التي أطلق عليها أسماء مختلفة، آخرها تشالنجر وهي تعني بالعربية «المتحدي». وأنا أريد أن أسأل: التحدي لمن؟ إذا كان التحدي موجهاً نحو القدرة الإلهية وعظمة رب العالمين فقد خسيء الإنسان بذلك لأنه مخلوق ضعيف من مخلوقات رب المقدرة الذي ليس كمثله شيء ولا يحيط به علم ــ جلت قدرته ــ وتقدس في جبروته وخلقه.

لذلك على الإنسان ألا يأخذه زبرج الحضارة وزخرف التطور العلمي والتكنولوجي، وألا يبعده ذلك عن الله ــ سبحانه ــ وعن واقعه وتراثه وعن قرآنه. وإذا كان الإنسان قد وصل إلى القمر فيجب أن يتذكر الإنسان المسلم أن رسول الله ــ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ــ قد وصل إلى مكان

لم يصل إليه بشر قبله ولا بعده؛ لقد وصل إلى سدرة المنتهى حيث عرش الله ــ سبحانه وتعالى ــ : **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾** [سورة الإسراء: الآية ١].

وتستمر الرحلة النبوية في سورة النجم: **﴿ثم دنا فتدلّى * فكان قاب قوسين أو أدنى﴾** [سورة النجم: الآيتان ٨ ــ ٩].

فأين منها رحلة قام بها الإنسان إلى قمر يقع على مرمى الحجر منه ويكاد أن يتناوله بيده؟

هذا نبينا ــ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ــ ، أما إمامنا عليّ ــ سلام الله عليه ــ فقد قال وهو يعتلي المنبر: «سلوني قبل أن تفقدوني فأنا بطرق السماوات أعلم من طرق الأرض». ومع ذلك لم يسألوه، ولو فعلوا لرأوا منه العجب العجاب.

إن ما أريد قوله هو ألا نجعل من القرآن تابعاً بل هو المتبوع، لأنه مصدر العلم وأبوه، وعلى العلماء أن يسيروا في ركاب القرآن وأن يأخذوا منه وينهلوا ما لذّ لهم وما طاب.

الإسلام ينادي

بعد هذه الجولة السريعة مع أجواء القدرة، ومع روعة القرآن، أجدني أمام صرخة الإسلام وندائه الذي يأبى أن نتركه في زاوية النسيان ومتحف التحنيط، لأنه لا يتنفس إلاَّ في الهواء الطلق والفضاء الرحيب. إنه يضع على عاتقنا مهمة نشره في كل مكان، فلماذا لا نكون جميعنا دعاة ومبلغين، نعمل على إيصال صوته وصرخته إلى كل مكان من العالم، فكل مؤمن مكلف بنشر الإسلام.

لقد كان التجار المسلمون ينطلقون في كل مكان في أفريقيا وأوروبا، وأقاصي آسيا يحملون في صدورهم الإسلام ويلقون به إلى سكان هذه المناطق فينير بصائرهم ويبدد ظلمة قلوبهم وعقولهم. لقد وصلوا إلى الصين وتاجروا بتجارة رابحة مع رب العالمين تعلموها من القرآن الكريم حيث يقول: **﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾** [سورة الصف: الآية ١٠].

لقد شاهد بعض التجار في الصين كيف يباع الأطفال هناك بسبب الجوع، فاشتروا ما يقارب خمسين ألفاً من هؤلاء الأطفال وأمنوا لهم السكن والمأوى والمأكل والملبس وجاؤوا لهم بالمعلمين والمدرسين والعلماء المخلصين يعلمونهم القرآن والسنة النبوية الشريفة ويربونهم على الإسلام وأخلاقه، فانتشر الإسلام في الصين من خلالهم، وراح يمتد إلى الهند وغيرها. لذلك فإن الإسلام ينادينا بأعلى صوته ويلقي علينا الحجة والمسؤولية، فلماذا لا نبادر إلى تحملها كما أمرنا بذلك رب العالمين؟

المسلمون حجة على الناس

إن الإسلام يلقي على عواتقنا هذا العمل الرسالي الذي يجب أن ننهض به. لا سيما أن القرآن الكريم يحدد لنا لونين من العلاقات: علاقتنا برب العالمين وعلاقتنا بالمجتمع.

لقد حدد القرآن العلاقة بالمجتمع عندما جعل المسلمين أمة وسطاً حيث لا إفراط ولا تفريط: **﴿جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾** [سورة البقرة: الآية ١٤٣].

أي لنكون حجة على الناس بسلوكنا وأعمالنا التي يرانا الكفار من خلالها ويرون الإسلام من خلالنا فيعرفون اعوجاجهم ويدركون أنهم على

ضلال، وبذلك نتحول إلى قدوة وأسوة.

لذلك يجب أن نعكس صورة الإسلام الصحيحة المشرقة، لا سيما أن أئمتنا يؤكدون ذلك بقولهم لنا: «كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا»، فلنفكر ولنعمل كي نتمكن من إعطاء الصورة الصادقة عن الإسلام لا سيما أن الناس في كل مكان عطاشى إلى الإسلام وكأنهم ينادوننا قائلين: أفيضوا علينا من أخلاقكم وعلومكم وفكركم. تماماً كما ينادي أهل النار أهل الجنة: **﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾** [سورة الأعراف: الآية ٥٠].

كيف نعكس صورة الإسلام

إن الإسلام أخلاق وفكر وإبداع، فكيف نعكسه؟ يجب أن نكون فوق مستوى الناس لكي نستطيع أن نقدم لهم الإسلام بأبهى صوره، فالنهر الجاري إذا لم يرتفع ماؤه فهو لا يستطيع أن يسقي الأرض، لذلك يجب أن نرتفع ونسمو بفكرنا ونفوسنا عن الجهل والحقد والحسد والنفاق والغيبة والنميمة، يجب أن نفكر بعالمية الإسلام لأن الإسلام لم يكن لأمة معينة ولا لفترة زمنية محدودة لأن رب الإسلام هو رب العالمين جميعاً بدون استثناء، ولأن النبي ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ كان في رسالته رحمة للعالمين.

لذلك إذا كنا لا نمتلك الإسلام الصحيح فكيف نقدم للناس إسلاماً، لا سيما أن فاقد الشيء لا يعطيه. لذلك يجب أن نغيّر ما بأنفسنا حتى نستطيع أن نغيّر الناس.

يجب أن نتحرك في مواجهة كل الدعوات الهدامة التي تصور إسلامنا على غير حقيقته وتلاحق شبابنا بالكتب التي تشوّه الإسلام وتصور

لهم النبـي بصورة لا يقبلها عقل. إن إرساليات التبشير تتحرك في كل مكان من العالـم، فماذا هيأنا لشبابنا وكيف نحفـظهم وكيف نطلق العنـان للفكر الإسلامي لينتشر في كل مكان؟

إننا نحتاج إلى علماء مخلصين وتجار مؤمنين لا يكون الربـح المادي هدفهم الأساسي كما كان يفعـل التجار الأوائل من المسلمين. أما التـاجر البخيل فلا حاجة بنا إليه لا سيمـا أن أمير المؤمنين يقـول: «عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هـرب ويفوتـه الغنى الذي إياه طلـب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ويُحاسب في الآخرة حـساب الأغنياء».

الهلاك في عدم الإنفاق

إن هـذه الأموال التي يمتلكهـا المتمولـون، لمن يتركـونهـا؟ ولمـاذا لا ينفقونها في سبيـل الله وفي سبيل نشـر الإسلام؟ إنهم يتـركونهـا للورثة، لذلك تجد الأبناء يستعجلون موت الأب ويتربصون به الدوائر، لا سيمـا إذا كان بخيلاً.

ويُروى في هذا المجال أن رجلاً من الأنصـار مات وخلّف عنبراً أي مخزناً من التمر، فجاء أولاده إلى رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فقالوا: يا رسول الله نريدك أن توزع هذا التمر عن روح والدنا فوزعه النبـي الأعظم ولم يبق منه شيئاً. وبقيت مزعة صغيرة أي قطعة فـانتزعهـا الرسـول بيـده ثم قال لهؤلاء الأولاد: لـو أن اباكم أعـطى هذه المـزعة الصغيـرة في حياته لكان أعظم ثواباً عند الله مما أعطينا بعد موته.

لـذلك يعتبـر الإسلام أن في الـزكاة تـطهيراً لمن ينفقهـا: **﴿خـذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾** [سورة التوبة: الآية ١٠٣].

لذلك فإن البخل من الأمراض التي يأبـاها رب العـالمين. فإذا دفـع

الإنسان الحقوق المترتبة عليه وأعطى الفقراء والمساكين يكون قد انتصر على نفسه، وفي ذلك ذكر لله ـ سبحانه وتعالى ـ .

إذاً علينا أن ننفق أموالنا في سبيل الله لأن في عدم الإنفاق هلاكاً لنا إذ تتوقف المؤسسات الإسلامية والفقراء يكثرون في المجتمع الإسلامي حيث يتحول المجتمع إلى غابة للوحوش. وقد أمرنا الله ـ سبحانه ـ بالإنفاق حيث يقول: ﴿**وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٥].

أي إسلام نعمل على نشره

ما هو الإسلام الذي نعرضه على الناس؟ لا سيما أن هناك أشكالاً وألواناً من الإسلام، فيها الذي لم يتخذ من الإسلام إلاَّ شكله ورسمه، تراه أمامك فيخدعك ولكنه مزيف لا علاقة له بالقرآن ولا برسول الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ .

إن الإسلام الذي يجب أن نقدمه للناس هو الذي يقودهم إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، إنه الإسلام الذي قتل من أجله وفي سبيله ريحانة رسول الله أبو عبد الله الحسين. إنه الإسلام الذي لا يدعو إلى العنف ولا إلى الإرهاب وهتك الأعراض وسفك الدماء. إنه إسلام الحب والمودة والنصح والعطاء والصدق، الإسلام الذي يجمع الكلمة والناس في طريق واحد.

ذاك هو الإسلام الذي يجب أن ندعو إليه الناس لأنه إسلام محمد وأهل بيته حيث يقبل الناس عليه كما تنجذب الفراشات إلى النور والنحلة إلى الرحيق. ذلك أن الإسلام الذي لا تجد فيه محمداً ولا علياً ولا الحسن ولا الحسين هو إسلام مزيف، فكل المذاهب الإسلامية تجد في صحاحهم

وكتبهم وأسانيدهم أن الإسلام الصحيح هو إسلام القرآن والعترة الطاهرة، إذ لا اعوجاج فيه ولا دنس ولا شائبة.

إنه إسلام علي بن أبي طالب الذي ضربه ابن ملجم بالسيف المسموم على رأسه فقطع اللبن عن فمه ودفعه لعدوه وعدو الله قائلاً لولده الحسن: «ادفع بهذا اللبن إلى أسيركم... هكذا أدّبنا الله يا بنيّ... فلا تقيّد له رجلاً ولا تغلّ له يداً».

إنه إسلام رسول الله الذي دخل مكة معقل المجرمين وعلى رأسهم أبو سفيان، فسمع سعد بن عبادة الأنصاري يصيح: «اليوم يوم الملحمة... اليوم تسبى الحرمة» فقال لعليّ: «خذ الراية من سعد وغير النداء... اليوم يوم المرحمة... اليوم تصان الحرمة... اليوم أعزّ الله قريشاً بالإسلام» ثم أعلن ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» بالرغم من كل ما فعله أبو سفيان. كما أن الرسول دخل مكة وهو واضع رأسه على حدج الناقة حياءً من قريش، حتى إذا وصل إلى الكعبة رفع رأسه قائلاً: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: أخ كريم وابن أخ رحيم ملكت فاصفح وعفوت فاسجح. قال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم... اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وذلك ما ذكّرت به زينب العقيلة يزيد اللعين عندما قالت له في مجلسه بعد ملحمة كربلاء: «أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ سبايا قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن...» أي: جدي أطلق أباك وجدك وأنت فعلت بعترته ما فعلت.

إن الإسلام هو إسلام الحسين الذي أتاه الحر بن يزيد الرياحي

بأربعة آلاف لكي يمنعوه عن الطريق ويقاتلوه فسقاهم الماء وسقى خيولهم قائلاً: «أسقوا القوم ورشّفوا الخيل ترشيفاً» لأنهم كانوا في صحراء محرقة وهجير لا يرحم. كما أنه ـ سلام الله عليه ـ ينظر إلى أعدائه يوم عاشوراء فيبكي. وعندما سألته زينب عن بكائه قال لها: «أبكي من أجل جيش يدخل النار بسببي». ذلك هو الإسلام الذي نقدمه للناس الذين يبحثون عن الرحمة والأمن والأمان والطمأنينة. ساعتئذٍ تجد أنه:

﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبّح بحمد ربك﴾ [سورة النصر: الآيات ١ ـ ٣].

إنهم يدخلون أفواجاً لأن الإسلام صحيح والمائدة غنية والطعام شهي لا فساد فيه.

صرخة القرآن

إن الآيات الكريمات التي بدأنا بها البحث تجد القرآن من خلالها يحاول أن يحركنا قائلاً: **﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾**.

أي عليكم أن تتعبوا وتجاهدوا مع الرسول لأنه لا يصح أن يتعب الرسول نفسه وأنتم نيام وادعون فاكهون، **﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾**.

أي لا تكن نفوسكم أعز من نفس رسول الله: **﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلاّ كتب به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**.

ويتابع القرآن حديثه: ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلاَّ كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾.

وبعد هذا التقديم القرآني الرائع يبدأ العمل الرسالي الذي ينقل الرسالة إلى العالم لأنه دين البشرية فيتابع القرآن حديثه الشيق: ﴿وما كان للمؤمنين أن ينفروا كافة﴾.

والنفير هو في سبيل الحق والتبليغ، فقسم يبلغ وقسم يبقى مع الرسول وقسم يحمي الثغور وقسم يرتحل لطلب العلم وحمل الفكر ونشره في العالم: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾.

إن العالم في انتظارنا جميعاً لكي نحمل إليه نسمة الإيمان ونور الهداية وصوت الرسول الأعظم وصوت الإسلام والقرآن. على أن عملية نشر الإسلام اليوم في العالم أسهل بكثير من الماضي، لأن التطور التكنولوجي الذي يسمح لك بأن توصل صوتك أينما تريد، لا سيما أن المبشرين يطوفون في الأرض يحملون أفكاراً هشّة فارغة من أي محتوى إلاَّ من الأساطير والخرافات ومع ذلك ينجحون في التأثير على الناس، في حين أن الرساليين الإسلاميين هم حملة نور. فلماذا لا ننقل صوت الإسلام إلى كل الأماكن عبر هذا التقدم التكنولوجي الذي يسمح لك بأن توصل صوتك أينما تريد، وساعة تشاء، لا سيما إذا علمنا أن هناك علماء ومفكرين وحملة إسلام ومبلغين ومرشدين يطوفون في كل مكان من العالم لكي يوصلوا صوت الإسلام وينقلوه إلى كل الأرجاء.

أناس متعطشون للإسلام

ولكي يكون القارىء الكريم على بنية مما أقول أنقل فيما يلي بعض

صور التبليغ في العالم. ففي الولايات المتحدة الأميركية توجد وسائل إعلام تجارية تستطيع أن تستأجرها لكي تبث عبرها الفكر الذي تحمله بكل حرية.

أذكر أنه في العام الماضي كنت في الولايات المتحدة من أجل التبليغ. وبحثنا عن محطة للتلفزيون فعثرنا عليها في ميتشيغن، فهي تبث الصورة إلى عدة ولايات ويصل بثّها إلى كندا. والعرب الذين يمكن أن يصل إليهم صوت هذه المحطة أكثر من عشرة ملايين. وكان علينا أن نتفاوض مع زنجي مسيحي أسود.

سلّمنا عليه، وقلت له: نحن مقبلون على شهر محرم. وهذا الشهر فيه مناسبة عظيمة هي مقتل الإمام الحسين وهو ابن رسول الله. ورحت أحدثه عن الرسول وعن أهل البيت وعن الإسلام وعن الحسين. فسألني: ما هي أهداف الحسين؟ قلت: أهدافه تقول: كونوا أحراراً في دنياكم. ورحت أردد على مسمعه سائر أقوال الحسين ومواقفه لا سيما قوله: هيهات منا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وجحور طابت وطهرت. كما أنه يقول: إني لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برماً. ويقول: لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ لكم إقرار العبيد. كما رويت لهذا الزنجي قصة الطفل الرضيع وكيف ذبحوه على صدره.

عند هذا الحد لمحت الدمع يلمع في عيني هذا الزنجي. فحدثته عن اثنين من الزنوج كانا مع الحسين هما جون الذي كان غلاماً لأبي ذر وعندما وقف إلى جانب الحسين كان قد بلغ الخمسين من عمره، والآخر هو يسار خادم واضح التركي الذي كان أسود بدوره. وأخبرته أنه لما سقط جون قال الحسين وهو يبكي: اللهم بيض وجهه وطيّب ريحه واحشره مع نبيك وآل بيته الطيبين، بعد أن وضع خده على خده. وكذلك فعل

الحسين مع واضح التركي وغلامه يسار وقبلهما.

عند ذلك رأيت الرجل يبكي وهو يقول: هذا شيء عظيم. فقلت له: لقد صنع الحسين الصنيع نفسه مع ولده عليّ الأكبر لأنه لا يفرّق بين زنجي أسود وبين ولده علي الأكبر. ثم قلت له: الآن قد جئت إليك. قال: ماذا تريد؟ قلت أريد منك عشرة أيام عاشوراء نسجل خلالها محاضرات ومجالس وأنت تبثها عبر التلفزيون ونحن جاهزون لإعطائك المبلغ الذي تريده من المال.

طبعاً قبل الرجل وبمبلغ بسيط. وعندما وصلنا إلى مقتل الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ وأردت أن أسجّل المقتل رآني متغيّراً. فقال: ما بالك؟ قلت: إن ساعة واحدة لا تكفي لأن الليلة خاصة بمصرع الحسين. فقال لي: أنا أقدم لك ثلاث ساعات هدية مني للحسين. فسجلنا المقتل وأخذنا الوقت الذي نريد.

وهكذا سجلنا المجالس جميعاً وعدت من أميركا إلى سوريا بعد أن حجز الزنجي على الكومبيوتر متى يبدأ محرم حتى يبث الحلقات التي قمنا بتسجيلها. وعندما كنت أحيي مجالس محرم في سوريا كان التلفزيون الأميركي يبث المجالس المسجلة إلى ملايين الناس. وقد اتصل بنا ذلك الرجل ليقول لنا: إن المسيحيين الموجودين في ميتشيغن وفي الولايات الأخرى طلبوا منا إعادة الحلقات. ذلك أني ذكرت في المجالس التي سجلتها أنه كان هناك مسيحيون مع الحسين كوهب بن حباب الكلبي الذي أسلم على يد الحسين، وذكرت قصة الراهب الذي رأى الحسين ونوره يتعالى إلى السماء.

إن المسلم يستطيع أن يبلغ الإسلام وأن ينشره في كل مكان لا سيما أن العالم اليوم متعطش إلى رحمة الإسلام وعدله. لقد كان الناس في أكثر

من أربعين ولاية يستقبلوننا في المطارات. فلماذا لا نقوم بنشر الإسلام من خلال إنشاء المؤسسات والمكتبات والمساجد والنوادي والحسينيات لكي نحفظ شبابنا الذين يذهبون إلى الغرب الأميركي والأوروبي.

إن الأخبار تردنا اليوم من كل مكان، من إيطاليا وألمانيا والبرازيل وأفريقيا وأميركا، وكلها تؤكد أن مجالس الحسين تنقطع لها الشوارع في كل مكان، لا سيما في لندن حيث تقوم الشرطة بقطع الطريق وتوقف السير كرامة لهذه المجالس.

إن هذه المؤسسات تمثل صوت الحق حيث يلتف حولها الناس لأن الإسلام هو دين الحب والسلام حيث ينتفي التعصب والإرهاب.

لقد زرت أكثر من تسع دول في أفريقيا حيث وجدت الناس يبحثون عن الإسلام، ووجدت الأطفال برغم الفقر والحرمان يتلون من القرآن جزء «عمّ» وقصار السور ويجهد الواحد منهم نفسه حتى يلفظ مخارج الحروف بشكل سليم. إن الطفل هناك بدلاً من أن يطلب منك رغيف خبز تجده يطلب كتاباً.

وإني لا أزال أذكر عندما كنا في جمهورية غانا وبعد زيارتنا لمساجد المسلمين هناك وإقامة صلوات الجماعة وإلقاء المحاضرات وإجراء الاتصالات بالمسلمين، كنا في طريقنا إلى المطار فتوقفت بنا السيارة بسبب عطل طارىء، فتقدمت مجموعة من الشباب لإصلاحها. فاختليت بواحد منهم وسألته ماذا يدرس؟ فعلمت أن هناك مدرسة لحفظ القرآن وأن هذا الشاب قد قرأ القرآن فيها وحفظه كله.

لقد كان يتحدّث إليّ وهو فرح مسرور بحفظه للقرآن، ورقة الحال والحاجة تبدوان عليه، فأحسست بالفرح والحزن في آن معاً، فرحت

لحفظه القرآن وحزنت لفقره ورقة حاله فشعرت بالألم يعتصر قلبي وأدركت كم نحن منصرون.

ولقد سبق أن أشرت في محاضرة سابقة إلى شهر رمضان الذي أمضيناه في نيجيريا حيث كان التلفزيون هناك يبث المجالس التي كنا نحييها وكيف تمت اتصالاتنا بالناس هناك لكي نبني المؤسسات في مواجهة المبشرين، كالحسينية والنادي الإسلامي ومكتبة للنساء وأخرى للرجال ومستوصف وبيت للعالم الديني الذي يقيم هناك وقد أعطت الحكومة ترخيصاً لمؤسستين في شهر رمضان الماضي. وقامت المؤسسات في لاغوس وكانو وزاير التي سمعت المسؤولين فيها يقولون: إن هذا الصوت، صوت محمد، هو الذي يجمع الناس ويؤلف بين القلوب.

فعلى علمائنا وتجارنا أن يعلموا أننا لسنا فقراء لأننا نملك ثروات ضخمة ومالاً وفيراً، وأن العالم كله اليوم أمامنا يفتح ذراعيه لكي يستقبلنا وأذنيه لكي يسمعنا.

كما أنني لا أزال أذكر تلك المسيرة الضخمة في لندن التي كان يسير فيها أطباء ومحامون ومهندسون وطلاب جامعيون ورجال من كل المستويات. استمرت المسيرة قرابة خمس ساعات تسير في مقدمها سيارة جيب مجللة بالسواد ينبعث منها صوت المرحوم الشيخ عبد الزهراء الكعبي يتلو سيرة مقتل الحسين. وكانت الشرطة تحافظ على المسيرة. كما كانت السيارات تمر بجانبنا لكي يقدم لنا ركابها الماء البارد.

كما ارتفعت في المسيرة يافطات ولافتات كتب عليها باللغة الإنكليزية بعض أقوال الحسين مثل: «كونوا أحراراً في دنياكم» وكان الجميع يتوقفون لكي يقرأوا تلك الأقوال التي كتبت على اللافتات، فتعرف عندئذٍ أن هذا الحماس هو تأكيد على انتصار هذه الأهداف.

وعندما كنا في كنشاسا عاصمة زائير، أردنا أن نقوم ببناء مؤسسة إسلامية فاتصلنا ببعض التجار الذين بدأوا على الفور من أجل ذلك. وقد علمت فيما بعد من خلال اتصال جرى بيني وبينهم أنهم خلال شهرين أو ثلاثة قد يتم افتتاحها وهي عبارة عن مؤسسة تضم مسجداً ونادياً وحسينية.

الطاعة والرمز

بعد هذه الجولة مع التبليغ، وبعد هذه الرحلة إلى عالم المتعطشين إلى النور، أريد أن أتعرض إلى مسألة أخرى تتعلق بذلك الميل الفطري عند الإنسان إلى عالم المحسوسات، حيث نجد أن الإنسان لا يكتفي بالأمور الغيبية بل لا بد من أمر مادي يلمس لمس اليد إذا أردت له أن يؤمن بفكر ما أو نظرية معينة. وهذا أمر طبيعي عند الإنسان باعتبار أنه يتكون من جسد وروح.

ففي مسألة الحج مثلاً يجد الحاج أمامه بيتاً يطوف حوله وحجراً أسود يميل إليه لكي يلمسه بيده. وإذا زار ضريح رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فهو يحاول أن يلتصق به ويقبله لكي يملأ الجوع الكامن في نفسه إلى صاحبه. تماماً كما هو الأمر مع الحبيب إذ لا يكفي أن تقول له إنك تحبه، بل لا بد من عناق وفيّ مخلص، فضلاً عن أشياء هذا الحبيب التي تثيرك وتذكرك به فتتعلق بها تعبيراً عن ميلك إليه ووجدك به. يقول الشاعر:

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبّلُ ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وهكذا تجد أن الإيمان في القلب لا يكفي، إذ لا بد أن يتجسد في

صلاة وركوع وسجود، تماماً كما هو حبك للحسين، يجب أن يتجسد في مواساة وحزن وبكاء وإطعام للطعام وزيارة لضريحه الشريف وغير ذلك.

وشبيه ذلك أن الله ـــ سبحانه ـ عندما أرسل الأنبياء وفرض الامتثال لدعواتهم ورسالاتهم جعل لكل نبي رمزاً يطاع الله من خلال هذا الرمز. فناقة النبي صالح كانت الرمز الذي كان من خلاله يثبت الناس إذا كانوا يحبون ذلك النبي ويطيعون الله ـ سبحانه ـ : **﴿هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾** [سورة الأعراف: الآية ٧٣].

وعندما خالفوا النبي في هذه الناقة سقطوا في التجربة: **﴿فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾** [سورة الشمس: الآية ١٤].

أي فدمرهم لأنهم لم يحترموا النبي صالح ولم يطيعوا الله في هذا الرمز.

ومن هذا القبيل أيضاً النبي طالوت وابتلاء قومه بالنهر عندما جعل الرمز لطاعته الامتناع عن الشرب منه وذلك قوله ـ تعالى ـ : **﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلاّ من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٤٩].

فسقط معظمهم في الامتحان.

كل ذلك لكي يمتحن الله ـــ سبحانه وتعالى ـ عباده ويختبرهم، فهو لون من ألوان الابتلاء والامتحان والاختبار الذي يكشف عن دخيلة الإنسان ومدى قوته أو ضعفه لكي يكون الحساب على أساس النتائج.

أهل البيت رمز طاعة النبـي

إذا كـانت الناقـة هي رمز النبـي صـالح وإذا كـان النهر هـو مـوضـع الابتلاء لقوم طالوت، وإذا كـان البيت الحرام والحجـر الأسود رمـز التعلق برب العالمين، فما هو الرمز بالنسبة للنبـي الأكـرم، وكيف نثبت أننا نحبـه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وكيف نؤكد الطاعة لرب العـالمين من خلال محبتنا له؟

مما لا شك فيه ولا ريب أن محبتنا لرسول الله ـ صلَّى الله عليـه وآله وسلَّم ـ تكون عبر أهـل البيت ـ سلام الله عليهم ـ ، وفي ذلـك يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ : **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلَّا المودة في القـربـى﴾** [سورة الشورى: الآية ٢٣].

فحبنا لرسول الله يكون بمدى احترامنـا لأهل بيتـه وحبنا لهم. فـأجر الرسالة وأجر النبـي هو المودة.

وهـــذه المسـألـــة أكـدهـــا زهيـر بن القين أحـــد أصحـاب الحسين ـ سلام الله عليه ـ، أكدها يوم عاشوراء عندما خاطب أهل الكوفـة قائـلاً: «ويلكم إن الله ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد لننظر ماذا نصنع. إنا ندعوكم إلى نصره وخذلان الطاغية يزيد وعبيد الله بن زياد. . . إن ولد فاطمـة أحق بـالحب والود من ولـد سميّة، فـإن لم تنصروه فـأعيـذكم بـالله أن تقتلوه». ولكن الشيـطان كـان قـد استحـوذ على عقـولهم وقلوبهم فكـان جـوابهم: «أُسْكُتْ، أَسْكَتَ الله نَأْمَتَكَ، أبرمتنا بكثرة كلامك».

كـذلك وقف الإمـام الحسين وعمامـة رسـول الله على رأسـه، فقـال لهم: «أيهـا الناس، أنسبـوني من أنا، ثم ارجعـوا إلى أنفسكم وحاسبـوهـا وانـــظروا هـل يحـــل لكم قتلي وانتهـــاك حـــرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم

وابن وصيّه؟! ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته أو مال لكم استهلكته؟ أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم... فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النَّصْفَ من أنفسكم كنتم بذلك أسعد، وإن لم تقبلوا مني العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم فأجمعوا أمركم وشركاءكم لا يكن أمركم عليكم غُمَّة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون، إني توكلت على الله ربي وربكم».

وبعد أن سمع الحرُّ بن يزيد الرياحي ما سمع، تحرَّك الإسلام في قلبه فضرب جواده وأقبل إلى الحسين منكساً برأسه حياءً وخجلاً قائلاً للحسين ـ سلام الله عليه ـ: «والله إني لمستحٍ منك يا ابن بنت رسول الله.. سيدي أنا الذي جعجعت عليك في الطريق وحبستك عن الرجوع.. أنا الذي أرعبت قلوب بنات رسول الله.. سيدي أنا تائب.. فهل ترى لي من توبة؟

فقال له الحسين: إن تُبتَ فقد تاب الله عليك.. إنزل. فقال: أنا لك فارساً خير مني راجلاً، وإلى النزول يكون آخر أمري. فراح يقاتل حتى قتل دون الحسين الذي قال له: أنت حر في الدنيا وسعيد في الآخرة...

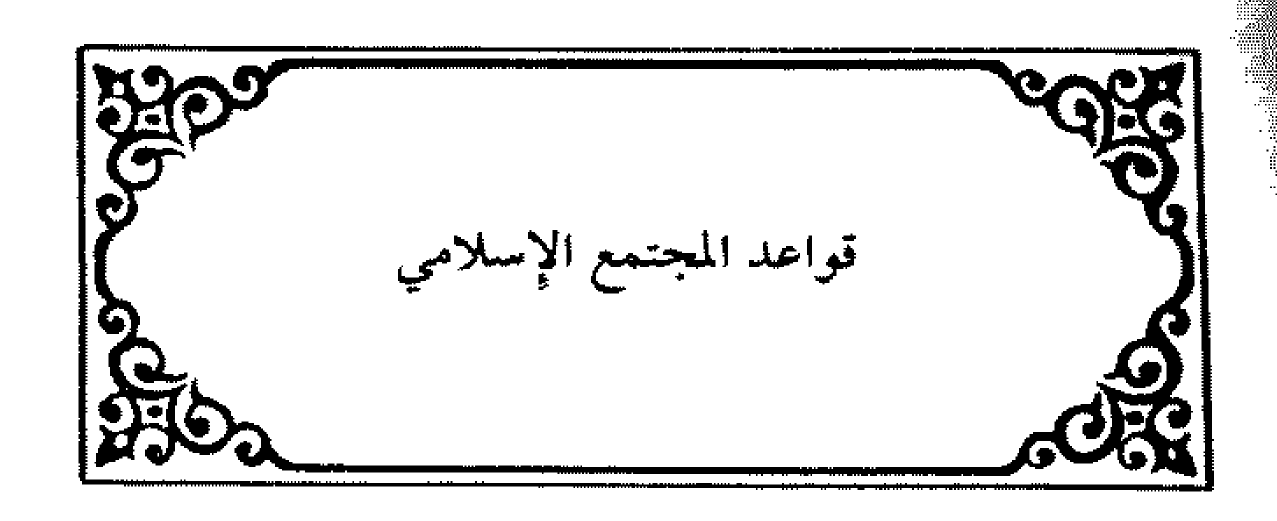
فهل حافظ الناس على الرمز وهل حفظ النبي في عترته وأهل بيته وهل أحبّوه من خلال المودة في القربى.. هل أحبوه في الحسين الذي قال فيه وفي أخيه: «الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا» و«الحسن والحسين إمامان إنْ قاما أو قعدا»؟ لقد قتلوا الحسن بالسم وقتلوا الحسين وتركوا جسده الطاهر على رمضاء كربلاء تلوحه الشمس المحرقة ثلاثة أيام، وقتلوا أولاده وأولاد أخيه الحسن وأخاه العباس وسائر إخوته وأطفاله، حتى الرضيع لم ينج في ذلك اليوم فذبح بالسهم في نحره فراح يرفرف

كالطير المذبوح بين يدي أبيه الحسين.

فأي قوم هؤلاء الذين يدّعون الإسلام، والانتماء إلى أمة محمد الذي قتلوا عترته وخانوا الأمانة وضيعوا الوصيـة؟ وإني لأعجب كيف يجد هؤلاء الظالمون من يبرر جريمتهم النكـراء ويدافـع عن فعلهم الشنيع. إن مجـرد السكوت عما ارتكبوه يعتبر خيانة لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ الذي ما زالت صـرخته تمتـد عبر القـرآن والأزمان: **﴿قـل لا أسألكم عليـه أجراً إلاَّ المودة في القربـى﴾** [سورة الشورى: الآية ٢٣].

فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله، وسيعلم الـذين ظلموا آل بيت محمـد أي منقلب ينقلبون.

• • •



قواعد المجتمع الإسلامي

يقوم المجتمع الإسلامي على ثلاث قواعد أساسية، وهي: قاعدة الإيمان، وقاعدة الاستقامة، وقاعدة الحريّة.

إذا سقطت قاعدة واحدة من هذه القواعد الثلاث لا يعود المجتمع إسلامياً، وإنما يتحوّل إلى سجن مظلم تنتشر فيه الجريمة والفساد والرشوة والخمر وهتك الأعراض.

إن المجتمع الإسلامي الذي قتل من أجله الحسين (ع) هو المجتمع الذي يقوم على هذه القواعد.

القاعدة الأولى: الإيمان بالله

إذا ابتعد المجتمع عن الإيمان فإنه يتحول إلى غابة مليئة بالذئاب، حتى لو بلغ من التطور العلمي والتكنولوجي حداً يسمح له بغزو الفضاء وإحضار أحجار من القمر. هذا المجتمع لا يعرف السعادة.

ونأخذ مثالين من المجتمع الأميركي الذي يعتبر أكثر المجتمعات تطوراً علمياً ولكنه من أكثرها بعداً عن الإيمان.

كلنا سمعنا وقرأنا منذ سنوات عن انقطاع التيار الكهربائي في نيويورك لمدة ١٢ ساعة. ماذا حدث أثناء الظلام؟ لقد تحوّل المجتمع خلال الساعات الأولى إلى بحر متلاطم من حوادث السطو والسرقات

والقتل واغتصاب النساء. وقد دلّت الإحصائيات على أن الخسائر في تلك الليلة بلغت ألف مليون دولار!.

إن التطور التكنولوجي أوصل هؤلاء إلى المريخ، ولكنه لم يستطع إعطاء النفوس إيماناً وأخلاقاً تمنع وحش الفساد من الانطلاق من قفصه.

والمثال الثاني من أميركا أيضاً، وهو ذلك الانتحار الجماعي الذي حدث في كنيسة معبد الشعب في ولاية كاليفورنيا. في تلك الكنيسة حدثت أكبر عملية انتحارية عرفها التاريخ، حيث تجمع أكثر من ألف إنسان وانتحروا دفعة واحدة!!...

ما سبب هذا الانتحار الجماعي؟ إنه اليأس من الحياة بعد فقدان الإيمان بالله.

إن المؤمن محصّن ضد فكرة الانتحار والعبثية لأن قلبه عامر بالإيمان ونفسه مطمئنة إلى رحمة الله. ففي أشد الظروف وأصعب المحن وأحلك الساعات لا يفقد المؤمن ثقته بنفسه وبربّه، لأنه يعتقد جازماً بأن الله تعالى قريب منه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد.

والإيمان بالله يخلق الاستقامة عند الفرد وعند الجماعة، وتكون الثقة والمحبَّة والإلفة هي التي تربط المجتمع وتشد أواصره.

أنا أثق بهذا الطبيب وبإيمانه فأرسل إليه ابنتي أو زوجتي ليعالجها دون أن أخشى عليها شيئاً. وأرسل ابني إلى مدرّس مؤمن دون أن أخشى عليه من الانحراف والتعاليم الفاسدة.

لقد استمرت الحرب في لبنان سبعة عشر عاماً انتفت خلالها الدولة والسلطة والقانون وعمّت المعارك الطاحنة، وانقطع الماء والكهرباء وغير ذلك، ومع ذلك لم يحدث عشر معشار ما حدث في نيويورك. لماذا؟ لأن مجتمعنا هنا هو أقرب إلى الإيمان من المجتمع الأميركي.

القاعدة الثانية: الاستقامة

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٠].

الاستقامة مترافقة دائماً مع الإيمان، لأنه بدون الإيمان لا يوجد مقياس أو معيار صحيح للحكم على هذا السلوك بأنه مستقيم أو غير مستقيم. ولذلك نلاحظ أن غياب المعايير الإيمانية في المجتمع تجعل السلوك سلوكاً ذرائعياً يضع المصلحة الشخصية والنجاح بأية وسيلة ممكنة، شرعية أو غير شرعية، يضع ذلك مقياساً للحكم على صحة السلوك. أنت تجمع ثروة كبيرة فأنت ناجح وعلى حق، حتى لو جمعتها من السرقة والحرام والربا والحروب!..

إن مجموعة الخصال الحميدة ومكارم الأخلاق تمثل المادة الأساسية للاستقامة، وهي ترتبط بمفاهيم إيمانية صحيحة.

والاستقامة والأخلاق هي التي تبني المجتمعات القوية الصلبة القادرة على النمو والتكامل.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والإسلام يجعل من الاستقامة ومكارم الأخلاق الغاية الأساسية لرسالة الدين. يقول رسول الله (ص): «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وعندما يمتدح الله سبحانه رسوله الكريم يقول الله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [سورة القلم: الآية ٤].

القاعدة الثالثة: الحرية

إن المجتمع الإسلامي يحرص على تنمية الكفاءات وإطلاق

المبادرات وإفساح المجال أمام العقول الخلّاقة والطاقات المبدعة. وهذا لا يمكن أن يحصل إلاَّ في إطار الحرية وفي نورها الكامل. أما ظلام القمع والقهر ومصادرة الحريات والسجون والمعتقلات فإنها تخلق أمة ذليلة جاهلة متخلفة.

والحرية تبدأ من أكبر شيء إلى أصغر شيء. تبدأ من حرية العقيدة والفكر إلى حرية السكن والعمل والتنقّل. إنها الحرية التي تربط الإنسان بخالقه وتجعل منه عضواً فاعلاً في المجتمع كالنحلة التي تجمع العسل في حركتها. أما الحريات الزائفة فإن الإسلام يرفضها.

يوم كانت البلاد الإسلامية حرّة كانت تصدّر العلماء والعباقرة إلى العالم، وكان لدينا رجال عظام أمثال جابر بن حيان وابن سينا والعلامة الحلّي والإمام الغزالي والشهيد الأول والشهيد الثاني والشيخ البهائي. وحتى الآن ما زالت معاهد العلم في بريطانيا وفرنسا تذكر علماءنا الكبار الذين انتشر نور علمهم في جميع أنحاء المعمورة.

فجابر بن حيان كان رائد الكيمياء وزعيمها، وهو أحد تلامذة الإمام جعفر الصادق (ع). ويوم كانت بلادنا تنعم بالحرية انطلق من عندنا شعراء عظام أمثال المتنبّي والخيّام والسعدي وأبو تمام وغيرهم. في تلك الأيام كانت أوروبا تعيش في جهل مطبق وفي ظلام دامس، وكانت الكنيسة ونظام الإقطاع يضطهدان العلماء والمفكرين ويصادران الحرية في المجتمع.

ومع الحرية وانطلاق الطاقات وتفتّح العقول سادت الأمة الإسلامية على العالم أجمع. ولما انعكست الآية، وساد الاستبداد والقمع في المجتمع الإسلامي، تراجع المسلمون وانطفأ نور العلم والإبداع، فخرج

أينشتاين ونيوتن وغيرهما.

ثم مع استمرار مصادرة الحرية في بلادنا انشدّ شبابنا إلى الغرب وجعلوه قبلتهم ومحط أنظارهم، فزاد تأخر مجتمعاتنا وازداد شبابنا غربة عن بيئتهم.

المجتمع الإسلامي وحكومة علي بن أبـي طالب (ع)

إن صورة المجتمع الإسلامي الصحيح تؤخذ من خلال حكومة أمير المؤمنين ونهجه في السياسة والحكم.

قد يحاول البعض الابتعاد عن هذا الموضوع بحجة أنه من باب السياسة. والحقيقة أن الكلام عن المجتمع الإسلامي هو السياسة بعينها. وكل شيء يتعلق بأمور الناس والمجتمع هو سياسة. فأنت حين تتوجه لزيارة الحسين (ع) تقول: السلام عليكم يا ساسة العبادة وقادة البلاد. أي أنك تخاطب الحسين وتقول له: السلام عليك أيها السياسي العظيم. وعندما نتكلم عن حكومة الرسول الأعظم وحكومة أمير المؤؤمنين فإننا نتحدّث في السياسة.

على أن السياسة في الإسلام تختلف عن السياسة في المجتمعات غير المؤمنة أو لدى الحكومات المنحرفة. فإذا كانت السياسة السائدة في عالم الفساد والانحراف هي فن الوصول إلى الحكم وفن استعباد الناس واستغلالهم، فإن السياسة بالمفهوم الإسلامي هي فن خدمة الأمة والالتزام بمبادىء الشريعة.

إن الحاكم المسلم هو الذي يقود السياسة ويرسمها على ضوء الأسس الثلاثة السابقة: الإيمان بالله، والاستقامة، والحرية.

عندما أرسل علي بن أبي طالب مالك الأشتر إلى ولاية مصر زوّده بعهد هو قانون خالد في السياسة الإسلامية. ومما قال له: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية والعطف لهم واللطف بهم. ولا تكن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق».

وعندما وجه أمير المؤمنين الأشتر إلى مصر كان أكثر سكان مصر من المسيحيين الأقباط، ولذلك هو يوجهه إلى الرأفة بهم ومعاملتهم بالحسنى وحفظ أموالهم وبنيهم وكرامتهم كما تقتضي السياسة الإسلامية.

في ظل الإسلام تكون جميع الطوائف والملل آمنة على نفسها سعيدة مطمئنة. ونحن إذ نحارب اليهود اليوم فليس ذلك لأنهم يهود، وإنما لأنهم سلبوا أرضنا ومقدساتنا، وإلاَّ فإننا نرحّب بهم أن يعيشوا في ظل الدولة الإسلامية: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾** [سورة الممتحنة: الآية ٨].

وفي عهد أمير المؤمنين (ع) إلى الأشتر يقول له: «إني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور». هذه البلاد هي مصر، وقد حكمها قبل الفتح الإسلامي البيزنطيون فكانوا جلادين للشعب المصري يرهقونه بالضرائب ويضيّقون حتى على أبناء دينهم من الأقباط. لذلك نرى الأقباط استقبلوا الفتح الإسلامي بالترحاب، وقد وجه بابا الأقباط بنيامين رسالة إلى أهل مصر يدعوهم فيها إلى التعاون مع المسلمين ويبشرهم بقرب زوال الحكم البيزنطي. ويقول المؤرخ القبطي المصري طارق البشري في كتابه: «الأقباط والمسلمون»: إن جميع شهداء الكنيسة القبطية ينتمون إلى الفترة البيزنطية ولم يستشهد مسيحي واحد في مصر في العهد الإسلامي.

إذن هؤلاء النـاس يجب معـاملتهم بـالحسنى كما تقتضي الـروح الإسلامية السمحة. وقد جاءت وصية أمير المؤمنين (ع) لعامله على مصـر مالك الأشتر لتؤكد على هذه الناحية المبدئية.

وفي مقـابل سياسـة الحكم العـادل هـذه كيف كـان يكتب الحكـام الأمويون إلى عمالهم على مصر؟ يقول الطبـري: «إن ملوك بني أمية كـانوا يكتبون إلى أمراء مصر: إن أهل مصر هم عبيدنا، نزيد عليهم الجزية كيف شئنا ونضع مـا شئنا». أين هـذا الظلم من قـول أميـر المؤمنين: «ولا تكن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم»!!...

علي بن أبي طـالب كان يعيش مـع الشعب ويتفقـد أحـوال الفقـراء والمحتـاجين ويقـول: «أأقنـع من نفسي أن يقـال هـذا أميـر المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون لهم أسوة في شجوبة العيش؟!».

كان ـ عليه السلام ـ يتجول في السوق وينادي: «أيها الناس، أوفوا المكـاييل والمـوازين، ولا تبخسوا النـاس أشياءهم»، ثم يجلس في دكـان ميثم التمّار يبيع التمر.

ذات يوم كان أمير المؤمنين (ع) يمشي في الشارع فرأى امرأة تحمل على كتفها قربة وقد أخذها الإعياء والتعب. سلّم عليها وسألها عن أمـرها. قالت: قُتل زوجي وخلّف لي أربعة أطفال ليس لهم من يعيلهم غيري. فأنا أسقي الماء في البيوت حتى أوفر لهم رغيف الخبز.

سألها عن بيتها فدلّت عليه. تركها الإمام تتابع طريقها، ثم عـاد إلى بيتها يحمل الطعام والمـلابس للأطفـال. طرق البـاب، ففتحت له. سلَّم ودخل، فوجـد أطفالاً يبكـون من الجوع. رأت المـرأة ما يحمـل بين يديـه فقالت له، وهي لا تعـرفه: حكم الله بيني وبين علي بن أبـي طـالب! أنت

تتفقدني وهو الخليفة لا يتفقدني!.. قال لها: أمة الله، أوقدي النار ودعيني أخبز الخبز وأنت تسكتين الأولاد. قالت: إنما الخبز من عملي، وأنت تداري الأولاد.

جلس أمير المؤمنين (ع) ووضع الأولاد حوله وفي حجره، وأخذ يلاعبهم ويلاطفهم ويطعمهم بيده حتى شبعوا وعادت البسمة إلى وجوههم. وكان يضع اللقمة في فم الطفل ويقول له: اجعل علي بن أبي طالب في حلّ منك يا ولدي.

ولم يخرج أمير المؤمنين قبل أن يعيد البسمة إلى الأطفال. وفيما هو يهمّ بالخروج دخلت امرأة، وكانت تعرفه، فقالت لأم الأولاد: ويحك، هذا سيّدنا أمير المؤمنين! قالت المرأة: سيّدي، معذرة إلى الله وإليك على سوء أدبي! قال: لا عليكِ، والله ما خرجت إلاّ بعد أن أعدت الضحكة إلى وجوههم وبعد أن جعلوني في حلٍّ منهم.

حكومة عمر بن عبد العزيز

عمر بن عبد العزيز ثمرة طيبة خرجت من شجرة خبيثة هي شجرة الأمويين. ومن أيام عمر بن عبد العزيز نروي حادثة تبيّن كيف أن العدل في الحكم يطلق ألسنة الناس بالثناء على الحاكم العادل ويوجد الإلفة والمودّة بين الحاكم والمحكوم، كما أنه يثير العزّة والكرامة في نفوس الناس فلا ينظرون إلى الحاكم من موقع الخوف الذي يؤدي إلى الخضوع والرياء والكذب، وإنما من موقع الثقة بالنفس التي تؤدي إلى الجرأة والصراحة.

دخل وفدٌ من الحجاز على عمر بن عبد العزيز، وكان من بينهم صبيٌّ في الثامنة من عمره. وكانت العادة أن يقوم رجل باسم الوفد يلقي خطاباً بين يدي الخليفة لاحظ عمر بن عبد العزيز أن الصبيَّ يتقدم لإلقاء

الخطبة، فقال له: أيها الصبيّ، اجلس، وليتقدم من هو أكبر منك سناً.

هذا الصبي كان ممتلئاً ثقة بالنفس لأنه يعيش في ظل نظام إسلامي يقوم على الإيمان والاستقامة والحرية. توقف الصبي وقال: أصلح الله الخليفة. لو كان مقياس الكفاءة كبر السنّ لما كنت في هذا المنصب، فإن في مجلسك من هو أكبر منك سناً وبالتالي أحقّ بالخلافة منك.

سكت عمر قليلاً، ثم قال: تفضل يا ولدي، تكلم.

قال الصبيّ: يا أمير المؤمنين، نحن ما جئناك خوفاً منك ولا طمعاً فيك، لأننا وجدنا أنفسنا منعّمين في ظل عدلك وإيمانك وفي ظل الإسلام.

أراد الصبيّ أن يقول بأن العدل والإيمان في الحكم يزيلان الخوف من نفوس الرعية، وأن تطبيق الاقتصاد الإسلامي على الوجه الصحيح يزيل الفقر والحاجة من المجتمع فتعمّ خيرات الأرض وبركات السماء، وبالتالي لا حاجة للطمع.

أعجب عمر بن عبد العزيز بهذا الصبيّ الفطن الشجاع البليغ، وقرّر بعد مدة أن يزوره في بيت أهله كرامة له وللبيت الذي أنجبه. فالعائلة الإسلامية تنجب هكذا أبناء. زارهم عمر في بيتهم واستأنس بهم واستأنسوا به. ولما همَّ بالخروج، التفت إلى الصبيّ وسأله: بيتكم أحسن أم بيت أمير المؤمنين؟ قال الصبيّ: ما دام أمير المؤمنين في بيتنا فبيتنا أحسن، وإذا خرج منه فبيته أحسن!.

المجتمع الإسلامي وتطبيق الشريعة

إن المجتمع الإسلامي الصحيح لا يقوم إلاَّ على أساس تطبيق

الشـريعة الإسـلاميـة في جميـع مجـالات الحيـاة السيـاسيـة والاجتمـاعيـة والاقتصادية، وبالتالي على قواعد الإيمان والاستقامة والحرية.

إن كثيراً من شبابنا يؤخذون بالإعلام المعادي للإسلام ويتصوّرون أن تطبيق الشريعة الإسلامية يعني فقط تطبيق قانون العقوبات وإقامة الحـدود. أما العدل والحرية والـديمقراطيـة والتنمية فهي ليست من مقـاصد الشـريعة الإسلامية، كما يروّج الإعلام المعادي.

إن قانون العقوبات الإسلامي هو جزء من تطبيق الشريعة الإسلامية، وهو جزء أساسي لأن أي مجتمع لا يمكن أن يخلو من القـانون والعقـوبات وإلاَّ تحـوّل إلى مجتمع الغـابات. وقـانون العقـوبات الإسـلامي يـرمي في مقـاصده وغـاياتـه إلى تثبيت وتدعيم القـواعد الأسـاسية الثـلاث للمجتمـع الإسلامي، وهي الإيمان والاستقامة والحرية.

إن قـانون العقـوبات الإسـلامي يرمي إلى تحصين المجتمـع الطيب الصالح وإلى حفظ حقوق الناس وأموالهم ودمائهم وأعراضهم.

ولنأخذ مثالين من قانون العقوبات الإسلامي أو الحـدود، وهما قـطع يد السارق ورجم أو جلد الزاني.

أولاً ـــ قطع يد السارق

في القرآن الكريم: ﴿**والسارق والسارقة فاقـطعوا أيـديهما**﴾ [سـورة المائدة: الآية ٣٨].

السؤال الأول الـذي يطرحـه البعض: لماذا قـطع اليد وليس السجن مثلاً؟

لا بد أن نوضح في البداية مسألة هامـة وهي أن المجتمع الإسـلامي

الصحيح ليس فيه سجون، وإنما هناك فقط توقيف مؤقت بانتظار حكم القاضي. والحكم يأتي سريعاً وليس كما يحدث في مجتمعاتنا اليوم بأن تجد شخصاً موقوفاً منذ عشر سنوات. لذلك هناك أماكن قليلة تعدّ للتوقيف عند الأمير أو الوالي، ولا يكون لدينا عشرات السجون والمعتقلات وإدارة سجون ووزارة سجون.

إن ظاهرة اتساع السجون مرافقة دائماً لظاهرة اتساع الظلم والقمع. فأول من أقام السجون على نطاق واسع في العراق هو الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد بلغ عدد السجناء لديه حوالى خمسمائة ألف.

أما لماذا تقطع يد السارق ولا يسجن فلأسباب عديدة أهمها:

١ ـ إن قانون العقوبات الإسلامي يرمي إلى قطع دابر الفساد وليس إلى تلطيفه. وهذه العملية لا تكون بشكل اعتباطي أو عشوائي على قاعدة «أنا أعمى ما بشوف أنا ضرّاب السيوف» وإنما على قاعدة إلقاء الحجّة. بمعنى أن المجتمع الإسلامي يجب أن يوفّر العدالة والعمل وضرورات الحياة للناس في إطار من التعاون والتكافل الاجتماعي تضمنها تشريعات الزكاة وتوزيع الثروة. فإذا كانت القوانين والتشريعات الإسلامية مطبقة فليس هناك سبب وجيه يدعو السارق إلى السرقة. أما إذا كان الحكم الإسلامي فاسداً ومنحرفاً، فلا توزيع صحيحاً للثروة ولا تنظر الدولة إلى الفقراء والمحرومين والعاطلين عن العمل، ويكون بيت مال المسلمين في أيدي حاكم يوزعه على أعوانه وحواشيه وبطانته، في هذه الحال فإن السارق الذي يسرق ليعيش لا يكون مداناً إدانة كاملة. أما إذا كان التشريع الإسلامي مطبقاً تطبيقاً صحيحاً فإن دافع السرقة لا يكون الحاجة وإنما الانحراف، وبالتالي لا بد من العقوبة الصارمة.

يحدّثنا التاريخ أن عمر بن عبد العزيز أمر بأن توضع الأموال والجواهر العائدة لبيت المال في صحائف (صواني) كبيرة ويطاف بها في الشوارع وينادي المنادي: من كان له حاجة في مال فليأتِ ويأخذ حاجته. ويقول المؤرخون: إن الأموال والجواهر رجعت في آخر النهار إلى بيت المال كما خرجت منه، لأنه لم يكن هناك من محتاج.

ويحدّثنا التاريخ أيضاً أن أمير المؤمنين (ع) في أيام حكمه كان لا ينام قبل أن يكنس بيت المال بيده، أي أنه كان يحرص على عدم كنز المال ويحرص على توزيعه على الفقراء والمحتاجين بحيث لا يكون هناك سائل أو محروم.

إن من يسرق في ظل حكم علي بن أبي طالب أو عمر بن عبد العزيز يستحق ولا شك قطع يده لأن انحرافه لا يرجع إلى حاجة وإنما فساد في العقيدة والسلوك والنفس.

٢ ـ إن وضع السارق في السجن يعني تعطيله عن العمل والكسب. فإذا كان لديه عائلة لا تجد من يعيلها فإنها ستقع فريسة الجوع وتكون عرضة للفساد والانحراف، وسوف تضخ إلى المجتمع سارقين جدداً، وقد أثبتت الإحصائيات أن ٨٥ ٪ من المجرمين يعودون إلى عائلات محطمة.

٣ ـ وتعطيل إنسان عن العمل يلحق ضرراً بالاقتصاد الإسلامي. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الدولة ستكون مضطرة للصرف على هذا السجين بإطعامه على أقل تقدير فإن الخسارة هنا تتضاعف. فإذا كان ينتج خمس ليرات في اليوم، وتصرف الدولة عليه خمس ليرات في السجن، فإن الخسارة العامة تكون عشر ليرات في اليوم.

٤ ـ وهذا الذي يدخل السجن لأول مرّة سوف يجد هناك مجموعة كبيرة من المجرمين والسرّاق يتعلّم منهم أساليب وفنون السرقة والإجرام ويتخرج أستاذاً في هذا المجال. يقول مدير سجون لبنان: «إن السجون عندنا تحوّلت إلى مدارس مجانية للإجرام». ونحن نقول إن السجون في بعض الأحيان تتحول إلى معاهد للدراسات العليا في مجال الجريمة والانحراف.

إذن لهذه الأسباب ولغيرها تقطع يد السارق ولا يسجن. أما كيفية قطع يد السارق فهي على نحو محدّد. فلا يجوز أن تأتي إلى السارق وتقطع يده من المعصم، وإنما يكون القطع من الأشاجع، وهي أطراف الأصابع، مع المحافظة على الكف. وقد استدل أمير المؤمنين على ذلك من الآية الكريمة: ﴿**وأن المساجد لله**﴾ [سورة الجن: الآية ١٨].

فالمساجد هنا تعني أماكن العبادة، كما تعني أعضاء الجسم التي يُسجد بها لله. والمساجد في الجسم سبعة: الكفان، والركبتان، والإبهامان، والجبهة. لذلك هذه المساجد لله، ولا يقع عليها الحد في السرقة.

واستدل أمير المؤمنين من آية أخرى، وهي: ﴿**وللذين يكتبون الكتاب بأيديهم**﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٩].

فنحن نكتب بأن نأخذ القلم بأطراف الأصابع وليس بجماع الكف. لذلك يكون قطع اليد بقطع أطراف الأصابع.

عندما يطبق النظام الإسلامي الصحيح فإن السرقة تنتفي من المجتمع أو تكاد. ويحدّثنا التاريخ أنه في مدة سبعمائة سنة لم يحصل في المجتمع الإسلامي إلاّ حادثتان للسرقة.

ثانياً ـ جلد الزاني

﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ [سورة النور: الآية ٢].

بإجماع المسلمين، يجلد الزاني إذا كان عازباً، ويرجم إذا كان متزوجاً.

ولكن أين تجري عملية جلد الزاني والزانية؟ إنها في المجتمع الإسلامي القائم على الإيمان والاستقامة والحرية والعدل.

إن الإيمان يجعل المجتمع في مأمن من الرذيلة. فالمرأة محجبة، والرجل يغض بصره عن أعراض الناس: **﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلاَّ ما ظهر منها﴾** [سورة النور: الآيتان ٣٠ ـ ٣١].

ويأتي الإسلام فيركز على مسألة الزواج: «شرار أمتي عزّابها». فهو لا يسمح للشاب بالتهاون في مسألة الزواج، كما لا يسمح لأحد بأن يكون حجر عثرة في سبيل زواج شاب وشابة يتوفر فيهما العقل والدين.

إذن بالزواج المبكر والعفّة يصان المجتمع الإسلامي من شر الانحراف الجنسي والزنى. والتشريعات الإسلامية وتوجيهات الإسلام بهذا الشأن تيسّر على الإنسان مسألة الإشباع الجنسي بالطرق المشروعة التي تحافظ على كرامته وتحفظ المجتمع. فإذا انحرف الإنسان في مجتمع إسلامي صحيح فإن عقوبته صارمة، لأن انحرافه لا يكون عن حاجة وإنما عن فساد. ولذلك يقول أمير المؤمنين (ع): «ما زنى إلاَّ شقيّ».

وفي هذا المجال تثار مسألة تحت عنوان الحب. هل مسموح للفتاة أن تحب شاباً وبالعكس؟

إن الإسلام هو دين محبّة وإلفة، وهو دين ينظر إلى الطبيعة الإنسانية نظرة عميقة. إن ميل شاب إلى فتاة معينة، وميل فتاة إلى شاب معين هو أمر طبيعي ومشروع. وبالتالي فإن الحب عاطفة إنسانية طبيعية ونبيلة. والإسلام يعمل على تهذيبها ووضعها في الإطار السليم.

لذلك نقول بأن الحب نوعان: نوع مزيّف ونوع صحيح. فالنوع المزيف هو حب الغزل الإباحي والتهتّك والمعاكسة بواسطة التلفون ورسائل الغرام الكاذبة التي تريد اصطياد فتيات بريئات ساذجات. ومن الأساليب الزائفة المتبعة في مجتمعنا هي الخطوبة بدون عقد. يأتي الشاب ويضع الخاتم بيد الفتاة ويطلب أن تخرج معه وأن يختلي بها. ويدوم هذا الأمر لعدة سنوات بحجة أنه يدرس نفسيتها وأخلاقها وطباعها، وكأنه عالم نفساني من وزن فرويد أو أدلر وبعد هذه المدة الطويلة، وبعد أن يقضي وطره منها يرميها جانباً. هذا حب مزيّف لا يوافق عليه الإسلام.

أما الحب الصادق العفيف بهدف الزواج وتكوين الأسرة فهو محبذ ومطلوب. إذا أعجبتك فتاة فمن حقك الحديث معها والنظر إلى وجهها وشعرها وجسمها أمام أهلها. كذلك لا يمنع الإسلام الحديث الودّي والعاطفي بين الشاب والفتاة اللذين يحبّان بعضهما، شرط أن يكون كل ذلك بهدف نبيل وبعفّة صادقة وفي إطار وجوّ شرعيّ يرضى عنه الدين والأهل والمجتمع.

إذن الإسلام وضع عقوبة الجلد للزاني والزانية، ولكنه في نفس الوقت وضع الأسس والمبادىء والتشريعات التي تحفظ المجتمع والفرد من هذه الانحرافات. إن الإنسان في المجتمع الإسلامي صحيح هو إنسان قوي محصن على هذا الصعيد. أما في مجتمع يسوده التهتك والانحلال والسفور والغناء والخلاعة والجنس العاري والإعلام الصهيوني الذي يروّج

للفواحش، في مثل هذا المجتمع فإن الإنسان يكون هشّاً ضعيفاً كورقة في مهبّ الرياح أو خشبة في بحر متلاطم الأمواج.

خلاصة البحث

إن الإسلام لا يطير بجناح واحد، كما أنه لا يطير بأجنحة متكسرة. وبناء المجتمع الإسلامي يحتاج إلى بناء اعمدته كلها: الإيمان والاستقامة والحرية والعدل وإقامة الحدود المعبر عنها بقانون العقوبات الإسلامي.

فالصلاة والصوم والحج وحدها لا تصنع مجتمعاً إسلامياً صحيحاً. هذه مسائل أساسية وفروض واجبة لا يمكن التخلّي عنها، ولكن لا بد للبناء الكامل من العدّة والمستلزمات الكاملة.

وفي رأس مستلزمات قيام المجتمع الإسلامي الصحيح وجود الحكومة العادلة. علي بن أبي طالب أتى الكوفة وتسلم الخلافة وكان بيته من جريد النخل وأثاثه لا يتجاوز حصيراً مع جرّة ماء وسرير من جريد النخل وآنية وكؤوس من طين، مع رحى لطحن القمح والشعير. ولما توجّه عليّ لاستلام الخلافة قال لسويد بن غفلة: «إني خرجت من المدينة بهذه القطيفة، وإن خرجت منكم بغيرها فأنا خائن».

إننا مطالبون ببناء المجتمع الإسلامي على أساس الشريعة الإسلامية لأن الحسين (ع) استشهد من أجل هذا المجتمع الإسلامي، من أجل تثبيت أعمدته الثلاثة: الإيمان والاستقامة والحرية.

• • •



الإسلام وتحديات الحضارة المعاصرة



الإسلام وتحديات الحضارة المعاصرة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿ليس البِرَّ أن تولّوا قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٧].

المــدخــل

إن الإسلام يواجه اليوم من التحديات من حضارة العصر على كافة الصعد العسكرية والسياسية والاقتصادية والتربوية والأخلاقية والثقافية والعقيدية، فهو محاصر من جميع الجهات من قبل هذه الحضارة، وقد قبل الإسلام التحدي بصدر واسع لأنها ليست المرة الأولى التي يواجه فيها مثل هذا التحدي، فقد كانت له صولات وجولات في كل عصر وفي كل مكان، وكان يخرج منتصراً في كل صولاته وجولاته.

ومما لا شك فيه أن الإنسان في الأرض يحمل حضارته في قلبه وفي عقله؛ فهو الكائن الوحيد في هذا الكون العظيم اللامتناهي، الذي ساد الكون، ذلك لأن دائرة تحركه واسعة جداً قد تبدأ بالسير على أقدامه وتنتهي بغزوه الفضاء: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ [سورة الانشقاق: الآية ١٩].

﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يعرجون﴾ [سورة الحجر: الآية ١٤].

وقد جعل الله ــ سبحانه وتعالى ــ هذه الدائرة بهذا الاتساع نظراً لما أودع مخلوقه الإنسان من طاقات لا تحد: ﴿**إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً**﴾ [سورة المزمل: الآية ٥].

وباعتبار الدور الرسالي الذي يحمل عبأه، والإنسان المنتصر هو الذي يؤدِّي الدور ويبلّغ الرسالة ويصل إلى الهدف، ولا شك أن المسلمين يعيشون اليوم هذه التحديات، فكيف يواجهون التحدي؟ وهل هم يملكون السلاح الفكري والحضاري لمواجهة الطوفان من التحدي السافر في كل مكان وفي كل اتجاه؟

أزمة الحضارة المعاصرة

قبل أن نجيب على السؤال، لا بدَّ أن نلقي نظرة على ما تختزنه الحضارة المعاصرة من أزمة سوف تؤدي إلى موتها كما تنبأ لها بذلك الكثيرون من مفكري الغرب أنفسهم، وفي طليعتهم المفكر الفرنسي روجيه غارودي الذي يعتقد أن الغرب في طور الاحتضار.

إن الحضارة الغربية هي حضارة مادية كفرت بالله وبمناهجه ونحن لا ننكر أنها قد استطاعت أن تبلغ درجة متقدمة وعالية من التطور التكنولوجي وتمكنت أن تسير بسرعة خيالية في عالم المادة والاكتشافات، فقد أنارت العالم بالكهرباء وحطمت الذرة وصنعت طائرة الكونكورد وغزت الفضاء وحطت الرحال على سطح القمر، ولكنك لا تجد أثراً للإنسان فيها أو حضوراً.

إن الذين صفقوا طويلاً لرواد الفضاء إنما كان تصفيقهم للآلة وليس

لهم، ذلك لأن الإنسان مسحوق فيها، وفاقد إنسانيته، لأنه وإن غزا الفضاء فهو يعاني الجوع والظلم على الأرض، لذلك تجد هذا الإنسان عرضة للخوف والقلق اللذين هما سمة هذا العصر.

إن الإنسان لن يكون له وجود وحضور إلاَّ إذا كانت له مناهج تحترم إنسانيته، وليس ما يحترم إنسانيته كالمناهج الإلّهية، ومن هذه الناحية تجد أن الحضارة الراهنة قد عجزت عن وضع الحلول لكثير من المشاكل التي تعاني منها البشرية منذ زمن طويل، في حين أن الإسلام جاهز لحلِّها لو عُمل بمناهجه وأُخذ بحلوله، فهو ـ أي الإسلام ـ ليس في قاموسه مفردات مثل التضخم والفقر والجوع والبطالة والحرمان، إذ لكل منها حل جذري يجتثّ المرض من أساسه.

ولو كان ابتعادنا عن الإسلام ومناهجه يؤمن لنا السعادة والرخاء لكان ذلك دليلاً على عدم صلاحيته، ولكن الواقع غير ذلك تماماً، لأنه في الإسلام لا يتساوى العلم والجهل، والطالب المجتهد والطالب الكسول، ومثل هذه المساواة لن تجدها إلاّ في المجتمعات الحديثة التي أخذت بالمناهج المادية حيث قضت على مسألة تكافؤ الفرص.

إن المسلمين قد انتصروا في غزوة بدر ولكنهم تعرضوا لمحنة قاسية يوم أُحد، ذلك لأنهم يوم بدر كانوا قلباً واحداً ويداً واحدة على مقابض سيوفهم، وآذانهم قد أعاروها لنصائح نبيِّهم، أما في يوم أحد فقد هزموا لأنهم خالفوا أوامر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عندما جعل الرماة على الجبل وأمرهم بألا يبرحوا أماكنهم مهما حدث، ولكنهم خالفوا الأوامر فهزموا، فلو أنهم انتصروا في أُحد مع مخالفتهم لأوامر رسول الله لكان معنى ذلك أنه بالإمكان مخالفة مناهج الله والانتصار في الحياة، ولكن ذلك يجافي الحقيقة والواقع.

إن في ذلك درساً لنا في حركتنا الحياتية، إذ لا انتصار لأي إنسان ولا نجاح له إذا خالف مناهج الله بل إن الفشل هو النتيجة الطبيعية في مثل هذه الحالة، بدليل أنه لا يتساوى البيت الجميل والبيت القبيح ولا تتعادل النظافة والقذارة وبالتالي ليس الباطل كالحق ولا الشر كالخير، لذلك تجد أن مشاكل العصر تتراكم دون أن تجد لها حلولاً جذرية على كافة الأصعدة لا سيما الاقتصادية والأسَرِيَّة والاجتماعية، فهناك مشكلة المرأة على الصعيد الاجتماعي والبطالة والتضخم والحرمان على الصعيد الاقتصادي، في حين أن الإسلام يختزن الحلول الملائمة لهذه المشاكل كافة.

قيمة العمل في الإسلام

وعلى سبيل المثال على سبيل الحصر تجد أن الإنتاج هو صاحب القيمة الأساسية والمرتبة الأولى في الاقتصاد العالمي شرقاً وغرباً، في حين أن الاقتصاد الإسلامي يجعل الجهد والمال من حيث القيمة مقابل الجهد الجسدي والجهد الفكري والمادة وشرط الزمان والمكان والعلاقات الاجتماعية، أي أن السلعة الناتجة عن العمل تأخذ قيمتها على أساس هذه العوامل.

فعلى صعيد الجهد الفكري ليس عمل المفكر والطبيب والمهندس كعمل الفلاح وعلى صعيد الجهد الجسدي يتفاوت الناس قدرة وقوة وعلى صعيد المادة قد تجد حطابين يبذلان الجهد نفسه والزمن نفسه، ولكنَّ واحداً منهما يحتطب خشباً عادياً والثاني يحتطب ساجاً غالي الثمن وليس الحطب كالساج، وكذلك ليس الذهب كالفضة وليست الفضة كالحديد، أما شرط الزمان فيتضح لو أن تاجراً عرض بضاعته أو ملابس صيفية في فصل الشتاء فإن هذه البضاعة سوف تفقد من قيمتها، وشرط المكان يتجلى

في كون أحدهم يمتلك بناء في وسط السوق التجاري وآخر يمتلك بناء في آخره، فليس البناء الأول كالثاني من حيث القيمة، أما العلاقات الاجتماعية فنضرب عليها مثالاً بالإرث الذي يحصل عليه المرء من غير أن يبذل جهداً، أو بالطعام الذي يتناوله الضيف عند مضيفه.

مناهج الإسلام هي العلاج

لقد سبقت الإشارة إلى أن الحضارة المعاصرة قد نسيت الإنسان بالكامل، فلم تجعل له قيمة لإنسانيته، في حين أن الإسلام يحترم إنسانية الإنسان، وذلك عندما أعطته قيمة عظمى من خلال علاقته بخالقه سبحانه وتعالى، إن الإنسان الذي ابتعد عن ربه لا قيمة له، في حين أن المؤمن الذي عمل بالأوامر وانتهى عن النواهي وآمن بالله سبحانه فإن قيمته لا تقدر عند رب العالمين.

إذاً الإسلام يقدم علاجاً كافياً لمشاكل الإنسان، وهذا العلاج ينطلق من علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته بربه، وبتعبير آخر ينطلق من حجة ظاهرة وحجة باطنة، فالحجة الباطنة تتمثل بالنفس والعقل والحجة الظاهرة هم الأنبياء والكتب والرسالات السماوية.

إن من المشاكل المطروحة على بساط البحث مشكلة المرأة، ففي كل زاوية من زوايا الحضارة المعاصرة وعلى كل منبر من منابرها وفي كل نادٍ من نواديها تجد ما يسمى حقوق المرأة ومسألة المساواة بالرجل، فقد جعلوا منها مشكلة وكأنها ليس لها حل لا سيما عندما أخرجوا المرأة من هاوية لكي يسقطوها في أخرى وعندما وضعوا العراقيل أمامها بحلولهم «الحضارية» فرسموا لها غير موقعها وأعطوها غير وظيفتها وجعلوها تقوم بغير دورها.

إن المشكلة أبعد من ذلك بكثير، فالمسألة ليست مشكلة المرأة وحقوقها، بل هي مشكلة الإنسان في ظل هذه الحضارة الفاشلة، فهل حصل الإنسان في هذه الحضارة على حقوقه سواء كان رجلاً أم امرأة؟ ولا يعتقدنَّ أحد أن في هذا الطرح تغاضياً عن حقوق المرأة، أبداً، لأن الإسلام بوأ المرأة مكانة تليق بها، ولكن المشكلة أنهم شغلونا بقضايا ثانوية، لأنهم يركزون على حقوق المرأة في حين أن البشر جميعاً رجالاً ونساءً مهضومو الحقوق، فلو تأمنت الحقوق كما يؤمنها الإسلام لعاش الجميع نساء ورجالاً سعداء.

إن الخروج من هذه الدوامة لا يكون بالابتعاد عن الله ــ سبحانه وتعالى ــ والأخذ بمناهج الحضارة الغربية، بل يكون بملازمة الشريعة الإسلامية السمحاء التي فيها دون غيرها العلاج الشافي لما نعانيه من مشكلات، فهذه المسألة الفلسطينية، قد مضى عليها قرابة نصف قرن من الزمان دون أن نجد لها حلاً، وذلك لأننا توجهنا إلى فلسطين لكي نستردها بمعزل عن الله ــ سبحانه وتعالى ــ وبمعزل عن مناهج الإسلام.

المؤمن هو الأقدر على التغيير

إذاً الحل ينبع من النفس ومن مناهج الله ــ سبحانه ــ، فعلى صعيد النفس يقول أمير المؤمنين ــ عليه السلام ــ:

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

إن الإنسان يمتلك القدرة على تغيير نفسه وعلى تغيير محيطه؛ ذلك أن النفس محاطة بالبدن والبدن محاط بالأسرة والأسرة محاطة بالمجتمع والمجتمع محاط بالطبيعة لذلك تجد أن التغيير يبدأ من النفس **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** [سورة الرعد: الآية ١١].

ولـو لم يكن الإنسـان يملك القـدرة على التغيير لمـا ركّـز الله ـ سبحانه ـ على هذه المسألـة بالـذات، فالنفس إذا كـانت عظيمـة تصبح قـادرة على تغيير ذاتهـا وتغيير الآخـرين، لا سيما إذا كـانت تستمد عنـاصر عظمتها من الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فإذا عظم الله في نفس الإنسان صغر ما دونه في عينه على حد تعبير أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ، فعمل مثل هذا الإنسان عظيم لأن المصدر عظيم، فضربـة واحدة من الإمـام عليّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين لأنها صادرة من رجل يمتلك نفساً عظيمة.

إذاً عظمة النفس تكون من خلال العـلاقة بـالله سبحانـه وتعالى عبـر الإيمان والعمل بمناهج الإسلام، وهذه العظمة تخوِّل صاحبهـا القدرة على التغيـر، وذلـك أن الإنسـان المؤمن هـو مشعـل وضّـاء في كـل مكـان: ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾ [سورة مريم: الآية ٣١].

وعلى ضـوء ذلك نستطيـع أن نفهم كيف غيَّـر النبـي ـ صلَّى الله عليـه وآله وسلَّم ـ مجرى التاريـخ وكيف صنع من عـرب الجاهليـة شعبـاً يجتـرح المعجزات، وأوصـل نور الإسـلام إلى كل مكـان في غضون فتـرة قصيرة، وذلك من خلال سيرته وسيرة أصحابه الميامين، ومن خلال وصيتـه بالتركيز على القرآن الكريم والعترة الطاهرة.

لقد استطاع أن يقيم المجتمع الإسلامي في المدينة التي كـانت قلعة للشرك وأن يدخل نور الإسلام إلى كل بيت حيث كـان الواحـد من الأنصار يقدم بيته وكل ما يملك لأخيه من المهاجرين مناصفة لأن نبـي الرحمة آخى بينهم بالإسلام، وبذلك أقام مجتمعاً نظيفاً كأنما صنع فيه الإنسان صناعة: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٧].

القرآن ليس زينة في البيوت

إذا كان الرسول الأعظم قـد قال: «إني تـارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي». فلماذا ترك القـرآن فينا؟ هـل تركـه لكي نحتفظ به في مكتباتنا أو لنجعله زينة نعلقه على جدران بيوتنا أو نقرأه عن أرواح الموتى؟ لا شك أننا سوف نُسأل يوم القيامة عن ذلك، وأول السائلين هو رسـول الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ الذي سوف يسألنا: ماذا فعلتم بالقرآن الذي قلت لكم: إني تـاركه فيكم؟ هـل قرأتمـوه وهل عملتم بمـوجب أحكـامـه وأوامره ونواهيه؟

إن المسلمين اليـوم يتعاملون مـع القرآن الكـريم كمـا يتعـاملون مـع الأشياء المتحفية التي نحتفظ بها في المتاحف. في حين أن القرآن ما وجد إلَّا لكي يطبق بمناهجه وأحكامـه. وأغرب مـا في الأمر أن تجـد من يقول: القرآن غير صالح للتطبيق، علماً أنه لا شفاء لمرضنا ولا حـل لمشاكلنـا إلَّا بتطبيق القرآن. ومن أجل ذلك أزيح عن الساحـة لكي تخلو لشذاذ الآفـاق من أرباب الحضارة المعاصرة.

إننا نأخذ من القرآن بعض القشور ونتعامل معها تاركين المناهج التي لو عملنا بها لأصبح لدينا مجتمع حضاري متقدم. حتى على صعيد الـدول تجـد أن بعضها يـأخذ من القـرآن ما يناسبها ويتـرك مـا دون ذلـك. ومنهـا ما يطبق القرآن في قانون العقوبات بل في بعض أحكـامه وليس كلهـا، فما أقـدر حكـام هـذه الـدول على قـطع يـد السـارق ورجم الـزاني ولكنهم لا يطبقون ذلك على الأقوياء بل على الفقراء والمستضعفين.

إن القرآن الكريم مـا وجد إلَّا ليـطبق وهو ممكن التـطبيق خلافـاً لما يـدعيه المغـرضون الـذين في نفوسهم زيف ومـرض فـزادهم الله مـرضـاً. والبداية في تطبيقه هي أن نحمله في قلوبنا وعقولنـا التي يجب أن يعمرهـا

الإيمان والتقوى، لا سيما أننا في حالة من التخلف والتمزق. فلو اجتمعنا حول القرآن الكريم لكان في ذلك وحدة المسلمين في شتى أرجاء العالم مهما كانت مذاهبهم وطوائفهم، فالكل يتجه إلى قبلة واحدة وإلّه واحد ويقرأ قرآناً واحداً. إن المسلمين اليوم أحوج ما يكونون إلى الوحدة التي لن تتحقق إلاَّ تحت ظلال القرآن الكريم ومناهجه القويمة: **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾** [سورة الحجرات: الآية ١٠].

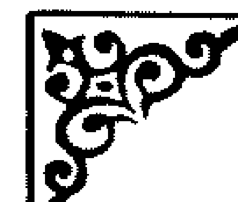
وأغرب ما في الأمر أن تجد أصواتاً تدعي الإسلام، تعمل في الظلام على ضرب وحدة المسلمين من غير رادع أو ضمير.

ولطالما ضحى أهل البيت من أجل هذا القرآن لا سيما الحسين ــ عليه السلام ــ الذي قال فيه نبي الرحمة: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً» ذلك أن الحسين ضحى بنفسه من أجل أن يبقى القرآن الكريم. وهذا درس يجب أن نتعلمه، هو أن مناهج الرحمن تحتاج إلى تضحية بكل شيء، بالمال والوقت والنفس في سبيل الله، ومن يفعل ذلك يصل إلى مرتبة الشهداء والصديقين الذين قال فيهم الله ــ سبحانه ــ في محكم كتابه العزيز: **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٦٩].

وفي آية أخرى: **﴿بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾**[سورة البقرة: الآية ١٥٤].

فما أحرانا نحن المسلمين أن نترسم طريق المجاهدين فنحافظ على إسلامنا عبر محافظتنا على قرآننا والعمل بموجبه لكي نستحق أن نكون من المنتمين إلى هذا الدين العظيم ولكي نحظى برضا رب العالمين الذي وعد عباده المتقين بجنات وعيون ونعيم مقيم، وذلك هو الفوز العظيم الذي لا يناله إلاَّ ذو حظ عظيم.

• • •



الفصْـل الـرّابع

في رحاب المنهج الإسلامي

* في رحاب المنهج الإسلامي.
* المسلمون وأهل الكتاب.
* المترفون سبب فساد المجتمع.
* لوابس الحق والباطل.
* الجهاد مدرسة تربوية.
* شذرات من مناهج التربية والحكم في الإسلام.

في رحاب المنهج الإسلامي
الاستقامة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿فاستقم كما أُمرت ومن تابَ معكَ ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير. ولا تركَنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النارُ وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصرون. وأقم الصلاة طرفي النهار وزُلَفاً من الليل إن الحسنات يُذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين. واصبر فإن اللَّهَ لا يُضيع أجر المحسنين﴾ [سورة هود: الآيات ١١٢ ـ ١١٥].

مقدمة للبحث
طريق الإسلام: القرآن وأهل البيت (ع)

في القرآن الكريم عطاء ونور ومناهج تربوية قادرة على صياغة الأمم وإخراجها إخراجاً سماوياً ربانياً.

والأمة الإسلامية انطلقت وسادت في الأرض بفضل هذه المناهج وهذه التربية التي رسمها القرآن الكريم ونفذها وترجمها الرسول الأعظم وأهل بيته الطاهرين، فكانت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر والبغيِ وتدعو إلى توحيد الله وسعادة الإنسان.

والقرآن الكريم وحده لا يكفي، إذ لا بد له من مترجم يعكس

صورته الحقيقية وأنواره البهية. وهذا المترجم هو الرسول (ص) وأهل بيته (ع). فالقرآن الكريم يأمرنا بالصلاة، ولكنه لا يحدد لنا كيفية الصلاة، فنصلّي إذاً كما صلّى رسول الله. كذلك نحج كما حجّ. والقرآن أمرنا بالزكاة ولكنه لم يحدد أنصبة الزكاة، فنأخذها عن رسول الله.

ورسول الله (ص) واحد كسائر البشر من حيث خضوعه لقانون الموت: ﴿**إنك ميِّتٌ وإنهم ميّتون**﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٠].

وإذا كان الأمر كذلك فهل تتوقف ترجمة الإسلام بعده؟ هل يعود الناس إلى جاهليتهم وينقلبون على أعقابهم ويتوقف نور الإسلام: ﴿**وما محمد إلَّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٤].

إذن لا بد من استمرارية النور القرآني، وهذه الاستمرارية تتمثل بأهل البيت. والرسول (ص) أكّد على هذه المسألة بقوله: «إني تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي».

وقد حدد الرسول من هم أهل البيت الواجبة طاعتهم بقوله: «أهل البيت الذين أمرنا الله بمودتهم وطاعتهم هم أصحاب الكساء: علي وفاطمة والحسن والحسين» وهؤلاء هم الذين أخرجهم الرسول معه في يوم المباهلة: ﴿**فمن حاجَّك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين**﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦١].

فخرج الحبيب المصطفى وخرج معه من النساء فاطمة ولم يخرج أحد غيرها بالرغم من وجود أمهات المؤمنين، وخرج معه من الأبناء الحسن

والحسين، وخرج معه ابن عمه الذي هـو نفس الرسـول وهو أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب (ع).

وقد قدّم الـرسول لـلأجيال قـاعدة واضحـة وثابتـة للخلاص وصحـة التـوجه، وهي اتباع أهل البيت (ع) فقـال: «مثـل أهـل بيتي فيكم كمثـل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق».

وقبل هذا الإخراج الرباني أين كان العرب؟ تجيب الصدّيقة الطاهـرة فاطمة الزهراء (ع) بقولها في خطبتها بعد منعها ميراث أبيها من فدك:

«كنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب ونهزة الطامـع، وقبسة العجـلان، ومـوطىء الأقـدام، تشـربـون الـطَّرق، وتقتـاتـون القـدّ، أذلّـةً خاسئين، تخافون أن يتخطَّفكم النـاس من حولكم، فـأنقذكم الله ــ تبـارك وتعـالى ــ بأبـي محمـد (ص) بعد اللتيّـا والتي وبعد أن مني ببهم الـرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأهـا الله﴾ أو نجم قرن للشياطين أو فغرت فاغرة من المشركين قـذف أخاه ــ أي أميـر المؤمنين ــ في لهواتها، فـلا ينكفىء حتى يطأ صمـاخها بـأخمصه ويخمـد لهبهـا بسيفه مكـدوداً في ذات الله مجتهداً في أمـر الله قريبـاً من رسـول الله سيداً في أولياء الله...».

إذن القرآن الكريم والرسول الأعـظم وأهل البيت (ع) هم نـورٌ واحد وعطاء واحد. وأي حـديث من الرسـول أو أمير المؤمنين أو فـاطمة أو أئمـة أهـل البيت يعادل آيـة من القرآن لأنهم جميعـاً يصـدرون عن نـور واحـد. وأهـل البيت يقولـون: «اعرضـوا حـديثنـا على القـرآن، فمـا وافق القـرآن فخذوه، وما لم يوافق القرآن فاضربوا به عرض الحائط».

جميع الفلاسفة يؤكدون أن الإنسان الناجح السعيد في هذه الحياة هو الذي تلتقي حركته وطريقه مع هدفه. أما إذا سارت الحركة والطريق بجانب وكان الهدف في جانب آخر فالنتيجة الحتمية تكون الضياع. فالذي يريد أن يكون طبيباً لا يذهب إلى معمل النجارة وإنما إلى كلية الطب. والذي يريد أن يصبح ضابطاً يدخل الكلية الحربية ولا يذهب إلى كلية الزراعة. والذي يسافر للدراسة وتحصيل العلم في الخارج يتبع طريق الجد والاجتهاد والعمل والاستقامة ولا يميل إلى اللهو وإضاعة الوقت، وإلاَّ فإنه سيرجع بعد سنين دون أي تحصيل ودون شهادة.

ومن أراد أن يكوّن أسرة صالحة تكون له سكناً وعطاءً وراحة عليه أن يختار الزوجة الصالحة كما عليه أن يكون ربّ أسرة صالحاً، مسؤولاً عن أهله وأبنائه رؤوفاً رحيماً بهم ساهراً على أحوالهم وتربيتهم مقدماً لهم القدوة الصالحة في سلوكه ومعاملته. والرسول الأعظم يقول بأن الابتسامة في العائلة تبعد عنها الشر. أما إذا سار ربّ الأسرة في الطريق المنحرف عن الهدف، فكان قاسياً ظالماً مهملاً غير مهتم بزوجته وأولاده، عندها تكون النتيجة دماراً على الأسرة، ويجد هذا الرجل نفسه يعيش في جحيم بدلاً من هدفه الذي أراد الوصول إليه وهو الراحة والسكينة وتكوين الأسرة الصالحة.

إذن لا بد للحركة والسلوك والطريق أن تكون موافقة للهدف.

ونحن كمسلمين لدينا هدف ومثل أعلى في الحياة، وهذا المثل الأعلى هو أهل البيت (ع). لماذا؟ لأن الله ـ سبحانه ـ مثّل طريق الحق وطريق الباطل بأشخاص ورموز. فالباطل يتمثل بفرعون والنمرود

وأبي لهب وأبي سفيان ومعاوية ويزيد وأمثال هؤلاء على مرّ العصور، والحق يتمثل بالأنبياء والمرسلين والرسول الأعظم وأهل بيته وكل الصالحين على مرّ الأيام والسنين. فإذا أردنا رضا الله يجب أن تبدأ حركتنا من رضوانه، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها الصحيح في الطريق المستقيم ربح الدنيا والآخرة، أما من أراد الدنيا فلن يربح الآخرة مها فعل **﴿والآخرة خير وأبقى﴾**.

وكل شيء في هذا الكون يجري إلى هدف محدّد. فالنجوم والكواكب والمجرّات تسير في حركة دقيقة نحو غاية حدّدها رب العالمين: **﴿والشمس تجري لمستقرٍ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾** [سورة يس: الآية ٣٨].

وجميع الكائنات الحيّة تراها تتحرك بنظام ثابت بفضل غريزتها التي أودعها الله فيها: **﴿وما من دابّة إلاّ هو آخذٌ بناصيتها إن ربي على صراطٍ مستقيم﴾** [سورة هود: الآية ٥٦].

حتى الخلايا في جسم الإنسان تراها تعمل بتوجيه محدّد ولغاية محدّدة: فمجموعة تعمل بهدف الرؤية وأخرى لحركة القلب وثالثة للسمع وهكذا. كذلك تجد خلايا مختصة بالإحساس وأخرى مختصّة بالحركة، أي الأولى توصل الإحساس وتحمله إلى الدماغ (خلايا حاسّة) وأخرى توصل أمر الدماغ إلى العضلات (خلايا محرّكة).

وبعد أن يتكامل بناء ونمو الطفل في رحم الأم يخرج إلى النور ويتوجه تلقائياً نحو ثدي الأم. وعندها يبدأ ثدي الأم مباشرة بإعطاء الحليب، فيأخذ الطفل بامتصاص الحليب وكأنه قد مارس هذه العملية منذ عشر سنوات. وهذا الحليب الذي يأخذه الطفل لا يمثل له فقط غذاء

للجسم، وإنما هو فضلاً عن ذلك غذاء للنفس والروح والعاطفة والمشاعر والتوازن النفسي والبناء الوجداني.

ومن هنا نعلم أهمية الرضاعة وحرمة الرضاعة في الإسلام. فالطفل الذي يرضع من ثدي أمه يصبح جزءاً منها، وإذا رضع طفلان من ثدي امرأة واحدة يصبحان أخوين في الرضاعة. فإذا كانا من جنسين مختلفين كان بينهما حرمة كحرمة النسب التي تمنع الزواج.

على أن الإسلام دقيق في هذا المجال. فحرمة الرضاعة لا تسري إلّا إذا حصلت الرضاعة مباشرة من الثدي، وليس عن طريق زجاجة الحليب، لأن الحليب وحده لا يشكل سبباً كافياً للحرمة. فالالتصاق بجسد الأم وأخذ الثدي بالفم هو الذي يسبّب الحرمة لأن هذا النوع من العلاقة المباشرة هو الذي يؤثر على البناء النفسي والوجداني والعاطفي للطفل. يضاف إلى ذلك أن الرضاعة يجب أن تكون ما بين خمس أو عشر رضعات متتالية دون انقطاع.

إذن نلاحظ هذا النظام وهذا القانون وهذه الاستقامة في مظاهر الحياة، وذلك لأن الله ــ سبحانه ــ قد خلق الحياة ووضع قوانينها وحدّد هدفها ومسيرتها. وإذا كان كل شيء يسير نحو هدفه وغايته في طريق مستقيم فإن المؤمنين هم أولى باتباع هذا الطريق وعدم الطغيان.

الاستقامة والطغيان

تقول الآية الكريمة: **﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا﴾**.

الاستقامة تعني الاستمرار على الطريق الصحيح دون انحراف أو عوج أو إفراط أو تفريط.

والاستقامة تعني أنك تسير في طريق الحق، فلا تستوحش من هذا الطريق إذا قلَّ سالكوه، فإن الناس قد اجتمعوا على مائدة جوعها طويل وشبعها قصير.

والاستقامة في طريق الحياة نحو الهدف المحدد هي شرط متمّم للإيمان: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٠].

فإن قولك: ﴿ربنا الله﴾ وحده لا يكفي، لأنك بذلك تكون قد حددت الهدف فقط، فعليك أيضاً أن تتبع الطريق الصحيح نحو الهدف والحركة المنسجمة مع الهدف.

وفي الروايات أن أحد الصحابة قال لرسول الله (ص): يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك.

قال: قل: آمنت بالله، ثم استقم.

ودخل أحدهم على ابن عباس وقال له: أوصني. قال: عليك بتقوى الله والاستقامة.

إذن الإيمان بالله والاستقامة هما بمثابة تحديد الهدف الصحيح وسلوك الطريق الصحيح إليه. لذلك فإن الملائكة تتنزل على هؤلاء المؤمنين المستقيمين: **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنّة﴾**.

لماذا؟ لأن هذه الاستقامة هي الثبات على الحق والصبر على مشاق الطريق ومواجهة أعداء الحق. فالمستقيم هنا صابر يقظ مصمم لا يداخل إيمانه الشك ولا يدخل قلبه الحزن والخوف، وبشارته الجنة.

أما الذين ينحرفون عن الخط المستقيم فأولئك تتنزّل عليهم

الشياطين: ﴿هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كل أفّاق أثيم﴾ [سورة الشعراء: الآيتان ٢٢١ ـ ٢٢٢].

ذلك أن الشيطان عمله الأساسي هو حرف الإنسان عن الطريق المستقيم، فهو يقعد للإنسان في منتصف هذا الطريق ليحول بينه وبين هدفه: ﴿لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٦].

ولكن الله ـ سبحانه ـ لم يجعل للشيطان على المؤمن سبيلًا، لأن الإيمان يطرد الشيطان: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاَّ من اتّبعك﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٢].

وتقول الآية: ﴿ولا تطغوا﴾ والطغيان هو المغالاة والمبالغة وتجاوز الحد والإفراط والتفريط. والله ـ سبحانه ـ نهى عن الطغيان في كل شيء؛ فيا أيها الإنسان لا تتجاوز حدودك: إذا مسَّك الخير فلا تستكبر، وإذا مسَّك الضرُّ فلا تيأس، وإذا سرّتك الدنيا فافرح بقدر وكن منها على حذر، وإذا غرّتك قوتك فلا تظلم ولا تتجاوز حدود الله، وإذا أكلت أو شربت فلا تسرف، إن الله لا يحبّ المسرفين.

إن هذه المعاني العميقة التي تتضمنها الاستقامة في الحياة على طريق الحق ونحو الهدف هي مسؤولية عظمى لا يقوى على حملها إلاَّ المؤمنون الأقوياء الذين يعرفون معنى الأمانة ويثقون بوعد الله فيقدمون بعزم أكيد.

ولذلك يقول رسول الله: «شيَّبتني سورة هود».

وفي الأخبار أن ابن عباس سأل رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله، قد أسرع إليك الشيب!

قال: «شيَّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمَّ يتساءلون وإذا الشمس كوّرت».

وفي رواية أخرى: «شيَّبتني هود وأخواتها».

وقيل: وأما أخواتها فما أشبهها من السور، ففي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه ـ تعالى ـ وبطشه، فتذهل منه النفوس وتشيب منه الرؤوس.

وفي رواية أخرى: سئل رسول الله (ص) ما الذي شيَّبك من سورة هود، قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: «لا، ولكن قوله ـ تعالى ـ: فاستقم كما أمرت».

الاستقامة ومقارعة الظلم

وبعد أن يدعونا القرآن إلى الاستقامة وعدم الطغيان يحذّرنا من الاستكانة والخضوع للظالمين: **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾**.

إن من شروط الاستقامة على طريق الحق وباتجاه الهدف الصحيح عدم الولاء للظالمين. فالظالمون هم من فئة الشياطين. فكما أن الشيطان يعترض طريق الإنسان ويقعد له صراطه المستقيم، كذلك الحاكم الظالم فإنه يمثل العقبة الأساسية في طريق تطور المجتمع وسعادته ونشر العدل فيه. ومن هنا كان من واجب الذين آمنوا ثم استقاموا أن يتبرأوا من الظالمين. إعلان البراءة من الظالم هو الوجه الآخر المتمّم لإعلان الولاء لله وحده: **﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾**.

وعندما نقرأ كلام الله في هذا المعنى يتبادر إلى ذهننا مباشرة موقف الإمام الحسين (ع) الذي جسَّد بوقفته الولاء المطلق لله والبراءة الكاملة من أئمة الجور والظلم والطغيان وعدم الركون إليهم: «إني لا أرى الموت إلَّا سعادة والحياة مع الظالمين إلَّا برماً. والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل

ولا أقرّ إقرار العبيـد»، ويقول: «مثلي لا يبـايع مثـل يزيـد»، فمثل الحسين الذي يمثل الاستقامة على الحق لا يمكن أن يبـايع يـزيد بن معـاوية الـذي يمثل الظلم والانحراف.

إن المسلمين عنـدمـا ركنـوا إلى الـظالمين واستكـانـوا وفـوَّضـوهم أمورهم، وعندما تعلقوا بالكفّار من غربيين وشرقيين ووالوهم، عندمـا فعلوا ذلـك انحطوا ووصلوا إلى الـدرجـات السفلى. ألا تنـظرون كيف أن أكثـر القيادات الإسلامية تأخذ أوامرها وتعليماتها من الغرب الكافر الظالم!

إن الاعتصام بالله وحده هو الذي يرفعنا، وإن التعلق بالإسلام وبنهج أهـل البيت (ع) هو الـذي يحدد طـريق استقـامتنـا على الإيمـان. والـذين يتخـذون من الـظالمين أوليـاء كتب عليهم الله الـذلّـة والصغـار بمـا كـانـوا يعملون. فمن ركن إلى ظالم سلَّط الله عليه ذلك الظالم.

الإيمان والاستقامة: دين اليسر لا دين العسر

الإسـلام دين الحيـاة، وحيـاة المسلم المؤمن يجب أن تكـون حيـاة سعيـدة ميسّرة. أمـا الذين يعقّـدون الإسـلام ويحمّلون المسلم كـل أنـواع الأثقال التي لا طائل منها، فهؤلاء أبعد الناس عن فهم الإسـلام الصحيح. والاستقامة لا تعني التشدّد والخروج عن الحدّ: **﴿ولا تطغوا﴾** بعض الناس يأخذون الـدين بشدّة وصعـوبة، فـإذا أرادوا أن يحدّثـوا أحداً عن الإسـلام فـإنهم لا يجـدون سـوى أحـاديث التهـديـد والـوعيـد والتخـويف من النـار والعـذاب، وكأن الإسـلام لا يتحدث إلاَّ عن العـذاب. إنهم يصـوّرون الله ـ سبحانه ـ إلَهـاً شديـد العقاب. هـذه الصورة نـاقصة وفيهـا طغيان، لأن الإسـلام يقـدّم الجنـة إلى جـانب النـار، ولأن الله ـ سبحـانـه ـ في نـظر الإسـلام هو إلَـه المحبَّة والعفـو والمغفرة، وهـو إلَه العـدل لا الظلم. والله

شديد على الظالمين، وهو بالمؤمنين والمستضعفين رؤوف حليم.

والبعض الآخر يرون التديُّن أن يحمل المسلم سبحة في يده ويعتزل الدنيا والناس ويعكف على صلاته وتسبيحه آخذاً نفسه بالشدّة والحرمان وشظف العيش. وهذا النهج أيضاً فيه طغيان وتجاوز، لأن الإسلام يريد لك الحياة ولا يريد لك الموت، يريد لك هذه الدنيا كما يريد لك الآخرة.

والبعض ينظر إلى الآخرين نظرة بعيدة كل البعد عن التسامح، فلا يرى فيهم إلاَّ شياطين وفسقة مصيرهم النار. أما الجنة فهي له وحده.

هذه النماذج وغيرها هي نماذج غير إسلامية بالمعنى الصحيح. فالإسلام هو دين اليسر على نفسك وعلى الآخرين لا دين العسر والمشقّة التي ترهق بها نفسك وترهق الآخرين. ولو لم يكن الإسلام كذلك لما رأينا الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. لقد دخل الناس في الإسلام هرباً من ظلم الجاهلية ومن ظلم إمبراطوريتي فارس وبيزنطية. ولو كان الرسول الأعظم فظاً غليظ القلب لانفضَّ الناس من حوله.

إذن الإسلام يدعونا إلى العمل في سبيل الآخرة عن طريق الاستقامة في الحياة سلوكاً ومنهجاً وعملاً، كما يدعونا أن لا ننسى نصيبنا من الدنيا بما لا يتجاوز حدود الله التي بيَّنها الشرع وحدَّدها الإسلام.

وفي التشريع الإسلامي قاعدة عامة معروفة تقول بأن الضرورات تبيح المحظورات. وهذا من باب الرحمة في التشريع. كذلك هناك قاعدة إسلامية أخرى تقول بأن الله لا يحمّل نفساً إلاَّ وسعها. فالإنسان غير مطلوب منه أن يتحمل فوق طاقته. والتكليف وإن كان عاماً فإنه يراعي الأحوال والظروف. فإذا كنت لا تستطيع الصلاة واقفاً يمكنك أداؤها جالساً. وإذا كنت لا تستطيع الحراك يمكنك أداؤها مستلقياً فيؤدي ضميرك

وعقلك ووجدانك فريضة الصلاة كاملة غير منقوصة وأجرها كامل لا يشوبه نقصان.

والإسلام طلب من أئمة الجماعة أن يصلّوا بالناس صلاة أضعفهم: «صلّوا بالناس صلاة أضعفهم ولا تكونوا فتّانين، فإن في الناس من به العلة وله الحاجة». فإذا كان إمام الصلاة يريد أن يصلّي بالناس صلاة يطيل سجودها وركوعها ويستكثر من المستحبّ والمندوب ويقرأ الأدعية وطوال السور فإنه بذلك يكلف كثيراً من المصلين ما لا طاقة لهم به، فمن بين هؤلاء مرضى ومسنّون، ومن بينهم من وراءه عمل وسعي في سبيل معيشته ومعيشة عياله.

ولا بد هنا من تذكير المسلم بأن العبادة ليست مقتصرة على الفروض المعروفة، وإنما كل سعي وعمل في هذه الحياة بما يرضي الله هو عبادة.

يقول الإمام الصادق (ع): «كنت شاباً أطوف بالبيت الحرام. وقد اجتهدت وتصبّب العرق من بدني فرآني أبي الإمام الباقر (ع) فقال لي: ولدي، إن الله إذا أحب عبداً أدخله الجنّة ورضي منه باليسير من العبادة، فلا تجهد نفسك».

وإذا كان أئمة الحق والهدى قد أخذوا أنفسهم بالشدّة في حياتهم فما ذلك إلاّ لموقعهم الشرعي من الأمة، لأن الأبصار تتجه إليهم، ففي الأمة القوي والضعيف، والغنيّ والفقير، وعلى الإمام أن يأخذ نفسه بالشدّة ويساوي نفسه بالضِّعَاف من الناس حتى لا ييأس هؤلاء ويقنطوا. يقول أمير المؤمنين (ع): «إن الله فرض على أئمة الحق أن يساووا أنفسهم بضعفة الناس كي لا يتبيَّغ بالفقير فقره».

التوبة والمغفرة

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات﴾.

ومن شروط الاستقامة إقامة الصلاة. وكما أن الاستقامة تعني عدم الطغيان والتجاوز فإن صلاتك المفروضة أيضاً ميسّرة. فالصلوات الخمس يمكنك تأديتها في ثلاثة أوقات، كما أشارت الآية الكريمة أعلاه. أي أنك تستطيع جمع فريضتي الظهر والعصر وجمع فريضتي المغرب والعشاء. وقد جمع الرسول في الصلاة في أوقات السلم وفي أوقات الحرب.

والصلاة عمود الدين، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر. ولكنها بالإضافة إلى ذلك بابٌ من أبواب التطهير. فهي على رأس الحسنات التي تذهب السيئات. يقول القرآن الكريم: ﴿**إن الحسنات يذهبن السيئات**﴾، وهذه بشرى للناس. فالسيئات التي يعملها الإنسان قابلة لأن تُمحى وتزول، وذلك بفضل الحسنات. فالحسنات أقوى لأنها من الله والسيئات هي الأضعف لأنها من الشيطان.

يقول سلمان الفارسي: كنت مع رسول الله (ص) تحت شجرة، فأخذ غصناً منها وهزّه فتناثرت أوراقه وذهبت في كل اتجاه. قال الرسول: هل تدري يا سلمان لم فعلت ذلك؟ قلت: لماذا يا رسول الله؟ قال: «إن الرجل المؤمن إذا انفتل وقام من صلاته قام كيوم ولدته أمه». وهذا يعني أن الصلاة تساقط عنك ذنوبك كما تتساقط الأوراق عن غصن الشجرة، فيعود الإنسان طاهراً نقياً كيوم ولدته أمه.

ولكن أي صلاة هذه التي تطهر من الذنوب؟ إنها الصلاة التي فيها توجّه كامل إلى الله، والتي يخلص فيها الإنسان النيّة ويخلص الدعاء، وليس مجرد الحركات المعروفة. فالصلاة قبل كل شيء توجّه وهي في نفس الوقت صلة.

لقد فتح الله باب الاستغفار الذي يدخلك في الرحمة، فلا تتردد في الدخول: ﴿**لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ [سورة

الزمر: الآية ٥٣].

يقول أمير المؤمنين (ع): كنا مع رسول الله (ص) في المسجد فجاء رجل إلى رسول الله وقال له: إني قد أصبت ذنباً. فأعرض الرسول عنه. ثم أدينا الصلاة جميعاً، وبعدها جاء نفس الرجل وقال للرسول: يا رسول الله قد أصبت ذنباً. فقال له الرسول: يا أخا العرب، أوليس قد صلّيت معنا؟ قال: بلى. قال: فتلك كفّارة ذنبك.

هذا الإخراج التربوي والثقافي للأمة الإسلامية، وهذا الطريق المستقيم هو الذي يصنع الإنسان العظيم والأمة العظيمة. والمؤمنون المستقيمون هم الذاكرون ﴿**ذلك ذكرى للذاكرين**﴾.

أي الذين يؤمنون بالله ويقيمون الصلاة ويستقيمون في منهج حياتهم، فهم بذلك من أولي الألباب: ﴿**وما يذَّكر إلَّا أولوا الألباب**﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩].

أي أهل العقول الراجحة المفكرة المعتبرة، فالذكرى تنفع المؤمنين.

والإنسان المؤمن الذي حدّد هدفه وسار باتجاهه على خط الاستقامة لا يثنيه شيء، ولا تغريه المغريات، ولا تحبطه الصعوبات ووعورة الطريق، هذا الإنسان من أهم صفاته الصبر. وهو في صبره هذا ليس وحيداً، فعليه أن لا يستوحش لأن الله مع الصابرين. والصبر بحدّ ذاته هو في قمة الإحسان، والله ـ تعالى ـ لا يضيع أجر المحسنين الصابرين: ﴿**واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾.

فهنيئاً للمحسنين الصابرين الذين آمنوا واستقاموا.

• • •

المسلمون وأهل الكتاب
الفرق بين التسامح والموالاة

المسلمون وأهل الكتاب
الفرق بين التسامح والموالاة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعضٍ ومن يتولَّهم منكم فإنه منهم إنَّ الله لا يهدي القومَ الظالمين﴾ [سورة المائدة: الآية ٥١].

لو أن المسلمين في عالم اليوم فتحوا قلوبهم على النبع الطاهر والفكر العظيم الذي يحمله القرآن الكريم لعاشوا سادة في الأرض وعرفوا الطريق الصحيح الذي يؤدي بهم إلى الحياة الكريمة العزيزة المنيعة.

سبب نزول الآية

سبب نزول هذه الآية أن قسماً من المسلمين بعد أُحد لجأ إلى اليهود والنصارى لحماية نفسه وماله وعياله بعد أن رأى هزيمة المسلمين.

وكان الرسول (ص) قد أرسل أبا لبابة بن المنذر الأنصاري إلى يهود بني قريظة ليرى إن كان هؤلاء اليهود يوافقون على الحكم الذي سيحكم به سعد بن عبادة الأنصاري. ورأى أبو لبابة أن عائلته قريبة من مساكن ونفوذ يهود بني قريظة فأراد أن يتقرّب منهم طمعاً في حفظ عائلته، فقال لهم: انزلوا على حكم محمد، وأشار بيده إلى عنقه بإشارة الذبح، أي إذا نزلتم على حكم محمد كما يريد سعد بن عبادة فإن مصيركم الذبح.

يقول أبو لبابة: ما زلّت قدماي حتى علمت أنني خنت الله ورسوله.

ولما انتبه أبو لبابة لما فعله، جاء إلى المدينة وربط نفسه بسارية المسجد وقال: لا أحلّ نفسي حتى يتوب الله عليّ ويأتي رسول الله ويفك قيدي.

وكانت النتيجة أن تاب الله عليه بعد مدة قصيرة وعفا عنه الرسول. فقال الرسول: «لقد تيب على أبي لبابة» ثم أرسل ابنته الصدّيقة فاطمة الزهراء لتحلّ قيد الرجل. ولما أرادت الزهراء حلَّ قيده قال لها: سيدتي، لو جاء أبوك. فتألم الرسول وقال لأبي لبابة: ألمثل فاطمة تقول هذا الكلام؟! أما علمت أنها بضعة منّي؟...

إذن كان هناك نفرٌ من المسلمين مالوا إلى ممالأة أهل الكتاب من يهود ونصارى طمعاً في حماية أنفسهم، فمحضوهم شيئاً من الولاء بما يتنافى مع الولاء للرسول وللمؤمنين فنزلت تلك الآية، لتؤكد على أن ولاء المسلم هو لله وللرسول وللمؤمنين.

الفرق بين التسامح والموالاة

علينا أن نفرّق بين تسامح الإسلام في معاملة أهل الكتاب، خاصة النصارى واليهود، وبين أن يتقرّب المسلم إليهم ويندمج فيهم ويعتقد معتقداتهم.

من الناحية المبدئية يدعونا الإسلام إلى العيش بسلام مع أهل الكتاب ومجادلتهم بالتي هي أحسن. وإذا كانوا يعيشون بين المسلمين فمن واجب المسلمين الحفاظ عليهم وحمايتهم. بل إن الإسلام يسمح حتى للمشركين والكفار أن يعيشوا في ظل الدولة الإسلامية، انطلاقاً من مبادىء إسلامية أساسية منها: لهم دينهم ولنا ديننا، ولا إكراه في الدين،

وجادلهم بالتي هي أحسن، وتعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم... إلخ كل ذلك في إطار احترامهم للمجتمع الإسلامي وفي إطار الحفاظ على بيضة الإسلام. وهنا على المسلم أن يعيَ جيداً الحدود التي عليه أن لا يتجاوزها في علاقته مع أهل الكتاب وسائر العقائد الموجودة في المجتمع الإسلامي. فالعلاقات الطيبة مطلوبة على جميع المستويات شرط ألّا تسيء إلى العقيدة الإسلامية، بمعنى أن معاملتك الطيبة لهم يجب ألّا تتحوّل إلى ولاء لهم على المستوى الفكري والعقيدي والسياسي، وإلّا تحولت هذه العلاقة إلى طعن في ظهر الإسلام والمسلمين.

والمحافظة على الحدود الصحيحة للعلاقة تكون في جميع الحالات، سواء في حالات ضعف المسلمين أو قوتهم. فإذا كان المسلم قوياً عليه ألّا يجور في العلاقة، وإذا كان يستشعر بعض الضعف عليه ألّا ينحرف باتجاه موالاة النصارى واليهود والابتعاد عن الولاية التي أشارت إليها الآية الكريمة: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء... ومن يتولَّهم منكم فإنه منهم﴾**.

فالذي يتولّى اليهود والنصارى سياسياً أو عقائدياً يخرج من دائرة المسلمين ويدخل في دائرة هؤلاء اليهود والنصارى، أي يصبح واحداً منهم.

وفي سيرة الرسول (ص) والأئمة الأطهار أمثلة واضحة على حسن معاملة اليهود والنصارى، ولكن الآية الكريمة التي أشرنا إليها جاءت لتضع حداً واضحاً لتلك العلاقة لتبيّن مخاطر الشطط والانحراف.

الرسول الأكرم كان له جار يهودي، وهذا اليهودي كان يؤذي الرسول. وحدث أن مرّ وقت دون أن يرى الرسول ذلك اليهودي، فسأل

عنه فقيل له بأنه مريض. قال الرسول: نذهب لزيارته وعيادته.

وأمير المؤمنين صحب ذات يوم يهودياً في الطريق، وكان الإمام ذاهباً إلى الكوفة، واليهودي إلى مكان آخر، ولم يكن اليهودي يعرف الإمام. وعند مفترق الطريق تابع الإمام سيره بمصاحبة اليهودي ثم استأذن منه بعد ذلك ليعود إلى طريقه. سأله اليهوديّ: ولماذا صحبتني هذه المسافة وكان عليك أن تفارقني عند المفترق؟ قال الإمام: هذه آداب الإسلام في السفر، وهي أن تشيّع صاحبك إلى مأمنه من الأرض.

سياسة اليهود في المدينة

لما جاء رسول الله (ص) إلى المدينة (يثرب) وجد مجتمعاً فيه الأنصار وفيه اليهود. وكان اليهود يسيطرون سيطرة كاملة على المجتمع من النواحي الاقتصادية والسياسية والثقافية.

أما من الناحية الاقتصادية فقد كانت تجارة المدينة كلها بيد اليهود، ومن الناحية السياسية كان السلاح بأيديهم يصنعونه أو يأتون به من اليمن، فيسيطرون بذلك على مصادر التسليح. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يثيرون النزاعات والمعارك بين الأوس والخزرج بجميع الوسائل الممكنة حتى تبقى كلمتهم هي العليا نتيجة ضعف القبائل الأخرى. ومن الناحية الثقافية كان مجتمع المدينة أكثره أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، وكانت القراءة والكتابة محصورة تقريباً باليهود. فكان على الرجل من الأوس أو الخزرج إذا أراد أن يكتب كتاباً أو يقرأ شيئاً، كان عليه أن يأتي إلى اليهودي من بني قريظة أو بني قينقاع أو بني النضير.

واليهود في تلك الأيام شأنهم في أيامنا هذه يعملون بكل ما أوتوا من دهاء ومكر وخداع وأموال للسيطرة على المجتمع الذي يعيشون فيه،

فيضعون أيديهم على مصادر الثروة فيه وعلى مصادر القوة وعلى أجهزة الإعلام والثقافة والتوجيه. هذا هو دأبهم منذ آلاف السنين إلى اليوم. وهم في جميع الحالات يشكلون بذور الفرقة والشقاق في المجتمعات ويحرّضون الأطراف المختلفة على التنازع حتى يبقوا هم القوة الوحيدة المتماسكة انطلاقاً من مبدئهم الثابت: فرِّق تَسُدْ. ونظرة واحدة إلى وضع إسرائيل بين العرب والمسلمين اليوم، ونظرة إلى حركتهم في المجتمعات الأميركية والأوروبية تبيّن بوضوح دورهم الذي أشرنا إليه.

وإلى جانب كل ذلك كان اليهود طوال تاريخهم يشكلون المصدر الأساسي لنشر الفساد والخلاعة والانحراف في المجتمعات. ولم يعد يخفى اليوم دور اليهود في الترويج للمخدرات والأفلام الإباحية بين الشباب في جميع أنحاء العالم، لأن حلمهم في السيطرة لا يمكن أن يتمّ إلّا بتحويل الشباب إلى كتلة هامدة لا مبالية، فيخلو لهم عندئذٍ الجو ويتحكّمون بكل شيء.

سياسة الرسول تجاه اليهود

إذن عندما دخل الرسول الأكرم المدينة وجد أن اليهود يشكلون أخطر مرض سرطاني فيها. وكان لا بد من وضع حد لذلك ولا بد من إبعاد شرّهم عن المجتمع.

اقتصادياً حرّك المسلمين للعمل: «الكادُّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله». يمرّ على رجل يكد ويعمل فيأخذ يده ويقبّلها قائلاً: إنها يدٌ يحبّها الله ورسوله. يأتيه رجل ويقول: أنا لا أملك شيئاً. فيسأله الرسول: أعندك شيء تبيعه؟ يقول: عندنا قدر في البيت لا نحتاج إليه. فيقول الرسول: بِعه. فيبيعه الرجل بدرهمين ويأتي إلى الرسول، فيقول له: اشترِ

بأحدها فأساً وبالآخر حبلاً واذهب واحتطب. . . وهكذا أصبح هذا الرجل بعد مدّة يسيرة ميسور الحال. وهكذا استطاع الرسول أن يبثّ في المسلمين روح المثابرة والعمل ليستطيعوا الاستقلال اقتصادياً عن اليهود لأن التبعية الاقتصادية تساهم في التبعية السياسية والثقافية.

ثم جاء النبي إلى الناحية الثقافية فأقام المسجد ليكون المدرسة التي تعلم الثقافة الإسلامية. وركّز النبي تركيزاً واضحاً على أهمية طلب العلم وتعلم القراءة والكتابة: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد». «اطلبوا العلم ولو في الصين». «من سلك طريقاً يطلب به علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنّة». والأحاديث بهذا المعنى كثيرة. ثم أمر النبيّ بني هاشم أن ينتشروا بين المسلمين ليعلموهم القراءة والكتابة، لأن بني هاشم جميعهم يقرأون ويكتبون. والنبيّ نفسه كان يقرأ ويكتب. والرواية التي تقول بأن النبيّ كان أمياً لا يجيد القراءة والكتابة هي رواية فهمت على غير معناها الحقيقي. فالنبيّ كان أمياً، أي أن نسبته إلى أم القرى وهي مكة. وإلاّ فالرسول إنسان كامل لا يجوز أن يكون جاهلاً للقراءة والكتابة. وأغلب البحوث تؤكد هذا المعنى.

وأهل البيت والأئمة يؤكدون أيضاً أن النبي كان يقرأ ويكتب. وفي يوم بدر عندما جاء النبيّ بالأسرى من المشركين طلب من كل أسير أن يعلِّم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة لقاء حريته.

إذن استطاع النبيّ في المدينة أن يؤمن الاستقلال الثقافي عن اليهود، سواء بتثبيت دعائم الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية أو بنشر العلم بين المسلمين.

ومن الناحية السياسية استطاع الرسول أن يقضي على النزاعات بين

صفوف القبائل العربية من الأوس والخزرج وغيرهم، كما استطاع أن يجعل من المهاجرين والأنصار جماعة واحدة متماسكة متعاونة متحابّة، فآخى بين المهاجرين والأنصار، وآخى بين نفسه وعلي بن أبي طالب (ع).

ثم أمر النبيّ أصحابه أن يتعلموا الصناعات، وخاصة صناعة الأسلحة، فتوجه عدد منهم إلى اليمن في هذا السبيل.

من كل ذلك نستنتج أن النبي استطاع أن يحرّر المسلمين وذلك بالاعتماد على أنفسهم في جميع المجالات. وهذه هي الحرية الحقيقية. فالحرية هي ألاّ تكون مرتهناً لغيرك من النواحي الاقتصادية والسياسية والثقافية، وبدون ذلك يكون شعار الحرية والتحرر شعاراً خاوياً فارغاً لا معنى له. وهكذا يعلمنا الرسول (ص) كيف يكون التحرر الحقيقي، وهذا ما يجب أن يتنبه إليه المسلمون اليوم في علاقتهم مع الغرب وسائر قوى المشرق والمغرب.

ولما رأى اليهود أن النبيّ ينجح يوماً بعد يوم في بناء المجتمع الإسلامي المتماسك وفي قطع دابر الفتنة التي يغذيها اليهود، صعّدوا من تآمرهم وكيدهم بالإسلام والمسلمين، فكانت وقعة خيبر، ونصر الله الإسلام بسيف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). وفي تلك المعركة برز الشرك كله إلى الإيمان كله، وكان النصر للإيمان، وهتفت الملائكة: لا فتى إلاّ عليّ ولا سيف إلاّ ذو الفقار.

يا قالع الباب الذي عن هزّه   عجزت أكفٌّ أربعون وأربعُ
أأقول فيك سُميدعٌ؟ كلاّ ولا   حاشى لمثلك أن يقال سُميدعُ

اليهود والنصارى اليوم

أشار القرآن الكريم إلى أن النصارى واليهود يوالون بعضهم بعضاً ويتحالفون في وجه المسلمين. وحذَّر المؤمنين من موالاتهم لأنهم بذلك يخرجون من الإسلام وينضمّون إلى صفوف اليهود والنصارى: ﴿**بعضهم أولياء بعض ومن يتولَّهم منكم فإنه منهم**﴾.

وكأن هذه الآية قد نزلت اليوم. فهذه أميركا النصرانية وتلك إسرائيل اليهودية، أليسوا ﴿بعضهم أولياء بعض﴾؟ ألا ترون كيف أن أميركا تحتضن إسرائيل واليهود ومن أجلهم هي على استعداد كامل أن تسحق المسلمين في الشرق الأوسط وفي آسيا وأفريقيا؟

إن القرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة التاريخية الثابتة ويبيّن لنا أن طبائع اليهود ثابتة لا تتغير.

طبائع اليهود

إن لليهود طبائع خاصة ثابتة لا تتغيّر على مدى الأزمان. وهم في كل زمان ومكان يمثلون بذور الانحراف والفساد في المجتمعات انطلاقاً من وهم موجود في رؤوسهم وهو أنهم شعب الله المختار، وبالتالي فإن جميع الناس من سائر الأديان والأجناس والألوان هم كائنات دونيّة يجب أن تسخّر لمصلحتهم ومآربهم.

والقرآن الكريم يبيّن لنا أن اليهود يتمتعون بقلوب ونفوس غليظة، تسيطر عليهم الأنانية والتنكّر للمواثيق والعهود.

وقصة اليهود مع موسى تلخّص عقليتهم ونفسيتهم المريضة. فبالرغم من أن النبيّ موسى ــ عليه السلام ــ قد تصدّى لإنقاذ ورفع شأنهم فإنهم

تنكّروا له ولرسالته واتبعوا أهـواءهم فكانـوا من الجاحـدين الذين استحقـوا لقب قتلة الأنبياء والرسل، ولم يكن لنبـيّ كرامة بينهم.

كـان فرعـون يسومهم العـذاب، يذبـح أبنـاءهم ويستحيي نسـاءهم ويلقيهم في غياهب السجون، فجـاء موسى لخـلاصهم، وكانـوا يرون بـأم أعينهم الآيـات، من العصا التي تحـولت إلى ثعبـان إلى شقّ البحـر وغيـر ذلك، ومع هذا تنكّروا له وانحرفوا عنه، فحقَّ عليهم التِّيه.

واجتمع السحرة ليختبروا موسى ومعجزته، فـألقى موسى عصـاه فإذا هي تلقف ما يأفكون. **﴿فأُلقي السحرة ساجـدين قالـوا آمنَّا بـربِّ العالمين ربِّ موسى وهارون﴾** [سورة الشعراء: الآيات ٤٦ ــ ٤٨].

أي أنهم أكـدوا إيمانهم بـالله ربِّ العالمين الـذي يدعـو إليه مـوسى وهارون، وليس فرعون الذي كان يقول: أنا ربُّ العالمين. وهؤلاء السحرة آمنـوا وتحمّلوا العـذاب، وهم من غيـر قـوم مـوسى، أي أنهم ليسـوا من اليهود.

ولكن ماذا كان موقف اليهود وكيف تعاملوا مع رسول ربّ العالمين؟

لقد أمر الله نبيَّـه موسى أن يخـرج بقومـه من مصر هـرباً من فـرعون وبـطشه. ولمـا وصلوا إلى البحر صـرخوا بـوجه مـوسى قائلين: البحـر من أمامنا وفرعون من ورائنا، وإنك ستهلكنا! قال موسى: لا تخافـوا **﴿إن معي ربِّي سيهدين﴾**.

وأوحى الله إلى مـوسى أن يضرب البحـر بعصـاه، فـإذا البحـر ينفلق وينكشف أمامهم طريق النجاة. تردّد اليهود في دخول الـطريق الذي انفتـح أمامهم وقالوا: نخاف أن ينطبق علينا البحـر، فطمـأنهم موسى وقـال لهم: ادخلوا لا خوف عليكم.

ولما وصل فرعون بجنوده خاف أن يدخل وراءهم، فقال له وزراؤه وقواده: أنت ربنا، فكيف تخاف من دخول البحر؟! وكان فرعون يركب حصانه، فأمر الله جبرائيل أن يركب فرساً جميلة تقدّمت ودخلت في البحر. فلما رآها حصان فرعون تبعها ودخل جنود فرعون وراءه.

ولما وصل جميع أتباع موسى إلى الطرف الآخر من البحر، وصار فرعون وجنوده جميعاً وسط البحر، انطبق عليهم الماء وأهلكهم جميعاً.

والآن خرج قوم موسى من البحر سالمين. **﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم قالوا: يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهةٌ﴾** [سورة الأعراف: الآية ١٣٨].

وهنا أيضاً يظهر فساد طبع اليهود الذين هم بنو إسرائيل. إذ بالرغم من فضل الله عليهم بأن نجّاهم من فرعون وأخرجهم من البحر سالمين، ها هم يطلبون من موسى إلَهاً صنماً يعبدونه كما يفعل غيرهم من عبدة الأوثان.

وأمر موسى قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة فأبوا أن يدخلوها، فحكم عليهم الله بالتّيه في الأرض أربعين سنة.

ولكن بشفاعة موسى وهارون فإن الله أرسل إليهم الغمام والسحاب ليظلّلهم من الشمس، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى. والمنّ حلوى مثل العسل تكون على رؤوس الأشجار، والسلوى طائر مثل العصافير. وكان مع موسى حجر إذا ضربه بعصاه يتفجّر منه الماء اثنتي عشرة عيناً، لكل عشيرة من بني إسرائيل عين يشربون منها.

ولما جاء الموعد الذي أراد الله فيه أن ينزل التوراة على موسى، ذهب موسى إلى طور سيناء لمناجاة ربّه، وسآتي إليكم بالتوراة التي فيها

مناهج لكم. ثم أوصى أخاه هارون أن يخلفه في قومه وأن لا يتّبع سبيل المفسدين منهم.

ولما ترك موسى قومه وأسرع إلى مناجاة ربّه، كان بينهم رجلٌ خيِّر من أصحاب موسى يدعى السامريّ. فجاء بنو إسرائيل إلى السامريّ وقالوا له: أنت رجلٌ خيِّرٌ ومؤمن، فاصنع لنا صنماً نعبده. وهنا وقع السامري في امتحان عسير. فماذا كان امتحانه؟

يوم دخل فرعون وجنوده البحر خلف بني إسرائيل، كانت فرس جبريل تسير أمامهم تغريهم باللحاق بها. فرأى السامري يومها أن حوافر فرس جبرائيل تمنح التراب الذي تطأه حياةً وحركة، فأخذ قبضة من أثر الرسول، أي قبضة من التراب الذي تطأه فرس الرسول وهو جبرائيل، واحتفظ بها... ثم إن الشيطان جاء إلى السامري وقال له: يا سامريّ، إن موسى قد ابتعد عن قومه، وها هم يطلبون منك إلّهاً صنماً يعبدونه، فإذا صنعت لهم صنماً ووضعت هذا التراب في جوفه فإن هذا الصنم يكتسب حياة ويكون له صوت، فيفرح الناس بما قدّمت لهم ويعلو شأنك بينهم.

وصدّق السامري كلام الشيطان ووسوساته، ونسي ذكر الله. فذهب إلى القوم وقال لهم: هاتوا ما عندكم من الحليّ والذهب لأصنع لكم منها إلّهاً تعبدونه.

وكان لدى بني إسرائيل ذهب كثير. فإنهم كانوا قد أخذوا أساور وحليّ النساء المصريات على سبيل الإعارة بحجة أن لديهم أعراساً واحتفالات، وذلك يوم خروجهم من مصر. وقد احتفظوا بذلك الذهب ولم يرجعوه إلى أصحابه.

أخذ السامري الذهب منهم ووضعه في النار وصنع منه صنماً على هيئة عجل.

وهنا إشارة واضحة إلى أمرين: الأول ميل بين إسرائيل إلى عبادة الأصنام والأوثان، والثاني حرصهم الشديد على جمع الذهب والفضّة حتى ولو كان عن طريق الاغتصاب أو السرقة. إنهم عبيد الصنم والدينار والدرهم.

وصنع لهم السامريّ عجلًا جسداً له خوار وإذا ببني إسرائيل يسجدون جميعاً لهذا العجل ويصلّون له، وأمامهم السامريّ الذي أضلّهم.

يقول القرآن الكريم: ﴿**فأخرج لهم عجلًا جسداً**﴾.

أي أخرج لهم جسداً بلا روح أو حياة، لأن البدن إذا كان فيه روح سمّي جسماً، وإذا كان بدون روح فهو جسد. أما الخوار الصادر عن العجل فلم يكن دليلًا على وجود الروح، وإنما هو بواسطة التراب الذي أخذه السامري من أثر الرسول وألقاه في جوف العجل، فتوهّم بنو إسرائيل أنهم أمام عجل حيّ.

ماذا كان موقف هارون؟

قال لهم هارون: ﴿**إنّما فُتنتم به وإنّ ربّكم الرحمنُ فاتّبعوني وأطيعوا أمري**﴾ [سورة طه: الآية ٩٠].

يقول لهم: يا قوم، إنّ هذا الذي سجدتم له إن هو إلّا صنم ضعيف، وإلّهكم هو الرحمنُ الذي دعاكم إليه موسى وأدعوكم إليه، فاتّبعوني وارجعوا عن ضلالكم وخطئكم.

قال بنو إسرائيل: لن نتحوّل عن هذا العجل الإله، وسوف نبقى عنده نصلّي له حتى يرجع موسى وننظر في الأمر: ﴿**قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى**﴾ [سورة طه: الآية ٩١].

هؤلاء القوم لديهم قابلية قوية للانحراف فابتلاهم الله واختبرهم (أي

فتنهم). وقد أخبر الله ـ سبحانه ـ موسى بذلك وقال: ﴿**فإنّا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلَّهم السامريّ**﴾ [سورة طه: الآية ٨٥].

أي أن الفتنة الاختبار من الله، أما الضلال فمن السامريّ ومن قابلية الانحراف الموجودة في نفوس بني إسرائيل.

ورجع موسى إلى قومه حزيناً غضباً: ﴿**ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي**﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٠]...

وبالرغم من تلك الآيات والمعجزات التي أظهرتها لكم فقد تركتم الله وعبدتم العجل!... ثم التفت إلى أخيه هارون وقال له: وأنت يا أخي، لماذا لم تفارقهم وتبتعد عنهم؟ قال هارون: لقد خشيت أن تقول عني إني فرّقت بينك وبين قومك... وموسى يعلم أن هارون نبيّ معصوم لا يخطىء، ولكنه أراد إسماع الناس.

بعد ذلك التفت إلى السامري: ﴿**قال فما خطبك يا سامريّ؟**﴾ [سورة طه: الآية ٩٥].

ماذا دهاك؟ عهدتك رجلاً صالحاً مؤمناً، فأين ذهبت تقواك؟ قال السامريّ: ﴿**بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها كذلك سوّلت لي نفسي**﴾ [سورة طه: الآية ٩٦].

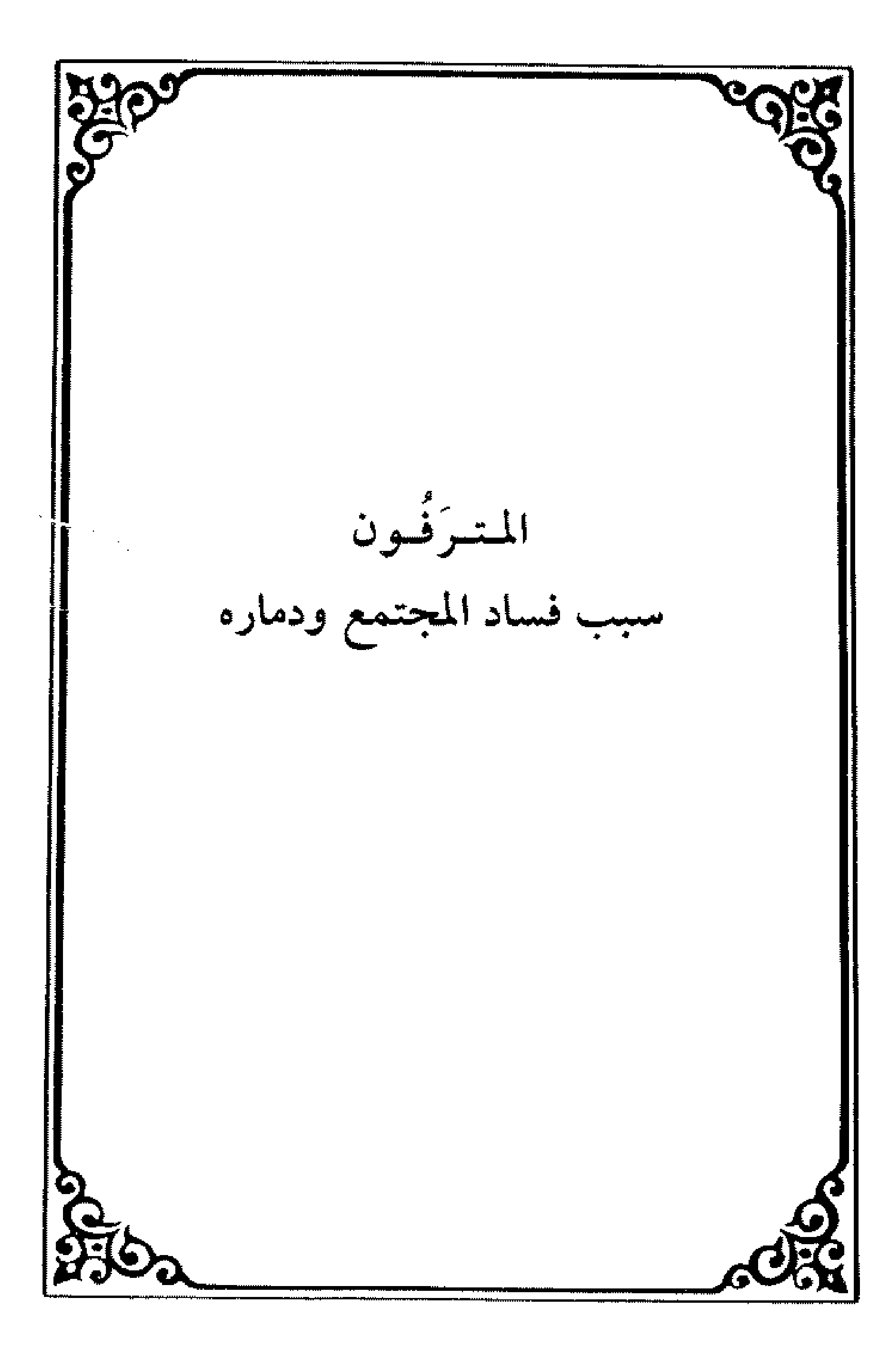
قال له موسى: اذهب، فإن لك جزاءين: جزاء في الآخرة، وهو في علم الله ورهن مشيئته، وجزاء في الدنيا، وهو أنك تعيش منبوذاً لا تستطيع الاقتراب من الناس، ولا يستطيع الناس الاقتراب منك، ستهيم على وجهك خائفاً مذعوراً يبتعد عنك الناس خوفاً من الاحتراق بنارك، ﴿**فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مِساس وإن لك موعداً لن تخلفه**﴾ [سورة

طه: الآية ٩٧].

هذه هي أخلاق بني إسرائيل وهذه هي طبائعهم الثابتة التي لا تتغيّر. وبعد أن أصبحوا يهوداً فإن صفاتهم الأساسية استمرت معهم. ولذلك جاء القرآن الكريم في أكثر من مناسبة يحذر المسلمين من كيد اليهود وغدرهم وحبّهم للمال والذهب والسيطرة وابتعادهم عن كلمة الله وعن الأنبياء، وبذرهم الفتنة والشقاق في المجتمع. وبالرغم من كل ذلك فإن الإسلام دعا إلى معاملتهم مع سائر أهل الكتاب بالمودّة والحسنى والرحمة مع تحذير المسلمين من مكائدهم وطبائعهم. وهذا يعني بالتأكيد الحذر من الانجرار وراءهم وموالاتهم لأن في ذلك مفسدة للدين والدنيا وضرراً كبيراً في مصالح المسلمين. **﴿ومن يتولّهم منكم فإنه منهم﴾**.

والخلاصة الأساسية هي أن الإسلام يميّز جيداً في معاملة اليهود والنصارى بين أمرين مختلفين: التسامح والموالاة. فالتسامح هو من واجب المسلم، أما الموالاة فإنها انحراف عن خط الإسلام وخروج عن الجماعة. ذلك أن ولاء المسلم المؤمن هو للإسلام، أي لله ولرسوله وللأئمة الطاهرين من بعده.

• • •



المتـرَفُـون
سبب فساد المجتمع ودماره



المتـرَفُـون
سبب فساد المجتمع ودماره

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: **﴿وإذا إردنا أن نهلك قرية أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميراً﴾** [سورة الإسراء: الآية ١٦].

قد يتساءل البعض: كيف يمكن لله ـ سبحانه ـ أن يأمر بدمار قرية أو مدينة أو مجتمع؟

إن الله رحيم لا يظلم مثقال ذرَّة لا في السموات ولا في الإرض. إذن كيف يأمر بتدمير قرية؟...

فَهْم هذه الآية يحتاج إلى معرفة باللغة العربية وخصائص بيانها. ففي الآية حذف يكون تقديره على الوجه التالي: وإذا إردنا أن نهلك قريةً أمرنا مُترفيها (بالطاعة وإصلاح شأنهم فعصوا وفسقوا فيها) فحقَّ عليها القول فدمّرناها تدميراً... وهذا من باب قولك: أمرني الطبيب فعصيته. أي أن الطبيب لم يأمرك بمخالفته، وإنما أمرك باتباع إرشاداته فعصيته.

القانـون الإلـهي

هذه الآية تشير إلى قانون إلٓهي ثابت يتعلق بحياة المجتمع. وهذا القانون يقول بأن دمار المجتمع وهلاكه يرتبط بفساد وفسق وفجور المترفين.

﴿**فحقَّ عليها القول**﴾، أي استحقت تنفيذ القانون وإجراء العقاب، وهو التدمير. وهذا القانون عبَّر القرآن الكريم عنه بالقول انسجاماً مع البيان القرآني الذي يعبر عن حكم الله وإرادته بفعل القول: ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ [سورة يس: الآية ٨٢].

ولكن ما هو المراد بالمترفين؟ هل المترفون هم الأغنياء على وجه الإجمال؟

هناك نوعان من الأغنياء: الأغنياء المؤمنون بالله المتَّبعون لأحكامه، وهؤلاء ليسوا مترفين. أما المترفون فهم الأغنياء البعيدون عن الله وأحكامه، أي الذين يملكون مالاً ولا يملكون إيماناً.

والرسول (ص) يشبِّه هؤلاء المترفين بالموتى، قال: «لا تجالسوا الموتى». قيل: يا رسول الله، وكيف نجالس الموتى؟ قال: أن تجالسوا كل غنيٍّ مُترف.

إن القرآن الكريم يلقي تبعة تحطيم المجتمع على المترفين الأغنياء الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، فلا يشعرون بالمسؤولية تجاه المجتمع وتجاه آلام الآخرين، فينتج عن ذلك طبقية بغيضة في المجتمع وصراع بين الأغنياء المترفين والفقراء الذين لا يملكون قوت يومهم، فيهتزّ المجتمع ويتفكك وتأكله الصراعات الحادة المدمِّرة.

إن الأغنياء المترفين يبتعدون عادةً عن الرسالات السماوية ويعادونها لأنهم معادون بطبعهم ومصلحتهم للعدل. والرسالات السماوية إنما أتت لإقامة العدل والميزان.

وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿**وما أرسلنا في قرية**

من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ [سورة سبأ: الآية ٣٤].

إن هذه الطبقة الغنية المترفة كانت دائماً في حالة عداء شديد مع كل نبيّ ومرسل ومصلح. ولذلك نرى مثلاً أن هذه الطبقة حاربت النبيّ في مكة وكان على رأسها شيوخ الأغنياء المترفين أمثال أبي لهب وأبي جهل وأبي سفيان وغيرهم.

وهؤلاء الأغنياء المترفون يتمسكون بأديان آبائهم وأجدادهم لأن تلك الأديان الوثنية تؤمن لهم مصالحهم المادية وتزيد من ثرواتهم على حساب الشعب: **﴿ما أرسلنا من قبلك في قريةٍ من نذيرٍ إلاّ قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مقتدون﴾** [سورة الزخرف: الآية ٢٣].

وفي سورة الواقعة: **﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال، في سموم وحميم. وظلٍ من يحموم. لا باردٍ ولا كريم. إنهم كانوا قبل ذلك مترفين. وكانوا يصرُّون على الحنث العظيم، وكانوا يقولون أإذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون. أوَآباؤنا الأولون﴾** [سورة الواقعة: الآيات ٤١ ــ ٤٨].

إذن سبب خراب المجتمع وتمزّقه هو الترف واللصوصية ونهب ثروات الناس. إنه التوزيع غير العادل للثروة.

ثروة المجتمع في يد الحفيظ العليم

والقرآن يشير إلى أن مصادر الثروة في المجتمع لا تكون بيد المترفين اللصوص الجهلة، وإنما هي بيد الحفيظ العليم، اي الصادق الأمين العادل الذي يتّبع أحكام الله ويقيم القسط والميزان فيوزع الثروة بالعدل على مستحقيها وينظر إلى الفقراء والمساكين بعين الرحمة ويمد لهم

يـد المساعـدة؛ ومن هنا جـاءت أحكام الـزكـاة والخمس والصـدقـات في الإسـلام، لتقيم توازنـاً في المجتمع وتكـافلاً اجتمـاعياً يحفظ الأمـة، ومن جهة ثانية يجب أن تكون الثروة بيد العليم، أي العـالم العارف بـأحكام الله وبإدارة شؤون الاقتصاد والثروة. ومن هنا قول يوسف (ع): ﴿**قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٥].

مصادر الفسق والفساد

«**أمرنا مترفيها ففسقوا فيها**» أي أفسدوا وظلموا ومنعوا الناس عن نيل نصيبهم من الثروة. وفي الحديث: «الناس شركاء في ثلاث: المـاء والكلأ والنار»، وهذه هي مصادر الثروة والطاعة في المجتمع.

والفساد يأتي إما من الداخل أو من الخارج.

فالنبتة مثلاً يمكن أن تصاب بمرض داخلي مثل التسوس ينخرهـا من الداخل فيقضي عليها، أو أنها تفسد وتموت لسبب خـارجي إذا منعت عنها الماء والهواء والشمس.

مقاومـة الفســاد

ومقاومة الفساد الداخلي أو الخارجي تكون على درجات ومستويات، حسب نوعية وقابلية واستعداد الجسم للمقاومة.

فالكائنات الحيَّة ثلاثة أنواع: النبات والحيوان والإنسان، ولكـل منها قدرة معينة على مواجهة الفساد:

النبـات لا يستطيـع مقاومـة الفساد الـداخلي ولا الفسـاد الخـارجي، فـالنبتة لا تستـطيع طـرد السوسـة، كذلـك لا تستطيـع أن تنتقل من مكـانها لتبحث عن المـاء والنور والهـواء. فإذا ضـربت السوسـة في داخلهـا قضت

عليها، وإذا حرمها الإنسان مثلاً من الماء والهواء والشمس لا تستطيع الإفلات من ذلك.

أما الحيوان فإنه يستطيع أن يغيّر في الظروف الخارجية ولكنه لا يقوى على تغيير نفسه أو الأسباب الداخلية. فالطيور مثلاً تنتقل من مكان إلى آخر بحثاً عن الرزق وعن المناخ الملائم، لذلك هي تقوم برحلات وهجرات. ولكن إذا كان الحيوان شجاعاً بالفطرة والغريزة فإنه لا يستطيع أن يكون جباناً، والعكس صحيح. كذلك إذا جاع الحيوان ووجد أمامه طعاماً فإنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عنه، لأنه لا يستطيع أن يغيِّر غريزته ويسير بعكسها.

وأما الإنسان فإنه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يغيِّر في نفسه وفي الظروف المحيطة به، ولذلك كان الإنسان أشرف المخلوقات.

الإنسان يملك إرادة، وبإرادته يستطيع أن يغيِّر ما بداخله، وبإرادته يستطيع أن يلجم ويردع غرائزه وشهواته، فهو يصوم مثلاً ويمتنع عن الطعام بالرغم من الجوع. وهو أيضاً يردع نفسه عن المحارم والشهوات إذا كان مؤمناً، وإذا كان جباناً يستطيع بإرادته وعزيمته وعقله أن ينتقل من حالة الخوف والجبن إلى حالة الإقدام والشجاعة.. وهكذا.

كذلك يستطيع الإنسان أن يغير المحيط والظروف التي يعيش فيها. هو قادر أن ينتقل من مكان إلى مكان آخر أكثر ملاءمةً له، بل نجد الإنسان اليوم قادراً على التحكُّم في كثير من العوامل الطبيعية مثل إحداث المطر الاصطناعي وغير ذلك. والإنسان قادر على تغيير الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية كما هو قادر على تغيير الأنظمة والحكام.

والقرآن الكريم يدعو إلى تغيير الظروف غير الملائمة ليستطيع

الإنسان أن يعيش بحرية وكرامة: ﴿قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾ [سورة النساء: الآية ٩٧].

فهؤلاء مستضعفون خانعون لا يعملون على إنقاذ أنفسهم. ولذلك قالت لهم الملائكة: ﴿ألم تكن أرض اللّهِ واسعةً فتهاجروا فيها﴾ [سورة النساء: الآية ٩٧].

إن الرسول الأعظم (ص) لما كان في مكة رأى أن الواجب يقتضي تغيير الجو المحيط بالدعوة، لأن تلك الطبقة المترفة البغيضة وقفت بوجه النبيّ والمسلمين الأوائل، لذلك هاجر النبي من مكة إلى المدينة.

والإسلام أيضاً يربط بين التغيير الداخلي والتغيير الخارجي. وأساس التغيير هو تغيير ما في النفس: ﴿إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم﴾ [سورة الرعد: الآية ١١].

غاندي محرِّر نفسه ومحرِّر الهند

كان غاندي في بداية حياته يخاف من الظلام خوفاً كبيراً. وكان أيضاً في بداية حياته العملية محامياً فاشلاً، يكتب المرافعة وإذا أراد قراءتها في المحكمة فإنه يتردد ويتلعثم وتسقط الورقة من يده عدة مرَّات. ولكن غاندي استطاع بإرادته القوية وبقوة الإيحاء أن يتحوَّل إلى رجل شجاع يجتاز الغابات الكثيفة المظلمة وحيداً، واستطاع أن يواجه أعتى أمبراطورية في عصره وهي الامبراطورية البريطانية، كما حرر شعباً مؤلفاً من ٦٠٠ مليون نسمة. ولو لم يستطع غاندي تغيير ما بنفسه لما استطاع أن يغيِّر في الظروف المحيطة بشعبه وأمته.

وهذا الأمر من الناحية النفسية والعلمية معروف. فعلماء النفس يؤكدون أن باستطاعة الإنسان عن طريق الإيحاء أن يغيِّر ما بنفسه. فأنت إذا

كنت تخاف من الظلام مثلاً تستطيع أن تقنع نفسك بأن هذا الأمر مجرد وهم، وتكرر فيما بينك وبين نفسك: أنا شجاع ولا أخاف... وهكذا تتحوّل من الجبن إلى الشجاعة. وبنفس الطريقة يتحول الإنسان من البخل إلى الكرم ومن الأنانية إلى حب الآخرين ومساعدتهم، ومن الكفر إلى الإيمان.

أهل البيت وإصلاح النفس

والإيحاء يسميه أهل البيت حساب النفس. والإسلام يدعو الإنسان المؤمن إلى محاسبة نفسه ومراقبتها وردعها عن أهوائها ونزواتها، وهذا ما يسمى بالنفس اللوامة.

أمير المؤمنين (ع) يقول: حاسب نفسك صباح كل يوم.

وفي نهج البلاغة: من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر.

ويقول أمير المؤمنين (ع): حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم.

ثم يقول: من تساوى يوماه فهو مغبون. أي إن غدك يجب أن يكون أفضل من يومك، وهذا يكون بفعل المحاسبة الدائمة والتمسك بالصواب والابتعاد عن الأخطاء التي تكشفها التجربة والحياة اليومية، والاستزادة الدائمة من العلم والمعرفة.

هذه هي النظرة التقدميّة، النظرة التي تتطلّع دائماً إلى الأفضل والأحسن على جميع المستويات.

الأغنياء المؤمنون

الغنيّ المؤمن لا يقال له مترف، لأن الحياة الاجتماعية المتقدمة تقوم

على الأغنياء المؤمنين، ونحن إذا نظرنا في نهج البلاغة وفي كتاب أمير المؤمنين إلى مالك الأشتر نلاحظ المكانة العالية للأغنياء المؤمنين والتجار الذين يساعدون الفقراء ويدفعون من أموالهم الحقوق الشرعية فلا يبقى في المجتمع سائل أو محروم.

إن الرأسمالية تطحن الفقراء وتمجد الأغنياء، والاشتراكية تريد أن تجعل جميع الناس فقراء، أما الإسلام فإنه يريد أن يرتفع بالفقراء إلى صفوف الأغنياء.

إن الغنيّ المؤمن يكون سبباً في رفع مستوى المجتمع. أما الأغنياء المترفون فهم سبب هلاك المجتمع. وإذا رأيت فقيراً محتاجاً جائعاً فاعلم أن أغنياء هذا المجتمع هم من فئة المترفين الظالمين. ولذلك يقول أمير المؤمنين (ع): ما جاع فقير إلاّ بما متّع به غنيّ.

إن الاقتصاد الماركسي والاقتصاد الرأسمالي يتعاملان مع الإنسان كآلة مادية، وهما يريدان للإنسان أن يكون في خدمة المادة والآلة والاقتصاد، أما الإسلام فإنه ينظر إلى الإنسان من زاوية أخرى مختلفة، هي زاوية احترام الإنسان وتعظيمه ووضعه في المكانة اللائقة التي أرادها الله له، لذلك فإن الاقتصاد والمادة والآلة في نظر الإسلام هي لخدمة الإنسان. والأمر أيضاً يتعدّى كل هذا، فجميع المخلوقات هي في خدمة الإنسان.

من هنا فإن الثروة التي يمتلكها الإنسان هي وديعة عنده، انطلاقاً من أن هذا الإنسان مستخلف في الأرض. فالثروة والسلطة هما أمانة في يد الغنيّ والحاكم، وهما وسيلة لتكريم الإنسان ونشر العدل.

وفي الأحاديث أن خديجة الكبرى ــ سلام الله عليها ــ قد وضعت

جميع ثروتها وأموالها بين يدي الرسول في سبيل الدعوة الإسلامية. ولذلك فإن الله ـ سبحانه ـ قد وعد الذين ينفقون أموالهم وأنفسهم في سبيل الله بالجنّة.

إنها التجارة الرابحة: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنّة﴾** [سورة التوبة: الآية ١١١].

فالبضاعة هي المال والنفس، والمشتري هو الله ـ سبحانه ـ، والثمن هو الجنّة. **﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به﴾**.

ومن هنا فإن الإسلام يعظم الأغنياء المؤمنين المنفقين في سبيل الله، وهو في نفس الوقت يحذّر المسلم من الخضوع للأغنياء المترفين. ولذلك يقول الرسول: «من عظّم غنياً لأجل غناه أكبّه الله على منخريه في نار جهنّم».

نماذج من الفساد والترف

والمترف يكون تارة تاجراً غنياً مبتعداً عن طريق الله. وأحياناً يكون ملكاً مترفاً وحاكماً ظالماً فيتسبّب في خراب المجتمع: **﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة﴾** [سورة النمل: الآية ٣٤].

وبعض الملوك المترفين الفاسدين يتظاهرون بالإيمان والإيمان براء منهم. فهؤلاء منافقون تفضحهم أعمالهم وتكشفهم سيرتهم وأحوال مجتمعهم. شاه إيران كانت ثروته الخاصة اثنين وعشرين مليار دولار، ومجتمعه كان يعيش في حالة من الفقر والتمزّق رهيبة. ومع ذلك كان الشاه يدّعي أنه من شيعة أهل البيت ومن شيعة علي بن أبي طالب!...

إن مشايعة عليّ بن أبي طالب تعني السير على طريقه ونهجه في

الحكم، وخاصة في أمور الثروة والمجتمع. فهل كان علي يكنز الذهب والفضة؟ وهل كان يملك أكثر من ثوب واحد للصيف وآخر للشتاء؟ وهل كان يأكل إلاَّ خشن المأكل؟ وهل كان يرضى بأن ينام على شبع وفي أنحاء دولته رجلٌ واحد يشعر بالجوع أو الحرمان؟: «أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرَّى؟! ولعلَّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع».

ومن الأغنياء والمترفين أولئك الذين ينفقون ملايين الدولارات على طاولات القمار وفي بيوت الدعارة واللهو والمفاسد. أحد هؤلاء المترفين خسر في ليلة واحدة إثني عشر مليون دولار على طاولة للقمار في لوس أنجلوس بأميركا. وهذا المترف هو من الأغنياء المحسوبين على الإسلام.

لن تجد لسنَّة الله تبديلاً

إذن يكون هلاك المجتمع ودماره على يد أمثال هؤلاء الأغنياء المترفين الذين يشقُّون المجتمع إلى فئة قليلة تمتلك الملايين والثروات وإلى ملايين من الناس لا يملكون شيئاً. وسنَّة الله في خلقه هي أن يكون الدمار بسبب هؤلاء: **﴿فلن تجد لسنَّة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾** [سورة فاطر: الآية ٤٣].

فهذه قوانين إلّهية في الحياة والمجتمع. ومن يخالف قوانين الله فقد ظلم نفسه وظلم مجتمعه.

إن تطبيق الأحكام الإلّهية ومراعاة القوانين والسنن هي القاعدة الأساسية لصلاح المجتمع وسعادة البشرية. أما مراعاة خواطر الحكام الظلمة والتغاضي عن آلام الناس فهو الكفر بعينه. لقد كان آلاف الناس يموتون جوعاً في بلاد الحبشة أيام حكم هيلا سيلاسي، وجاءت منظمة

الأمم المتحدة لترسل الطعام إلى هؤلاء فقال لهم هيلا سيلاسي: لا ترسلوا الطعام إليهم. قالوا لماذا؟ قال: لأن العالم سيعرف عندئذٍ أن شعبي جائع ويموت من الفقر، وهذا يحرجني أمام الرأي العام!.. ماذا كانت النتيجة؟ منظمة الأمم المتحدة راعت مشاعر هيلا سيلاسي وامتنعت عن تقديم المساعدة للفقراء الذين يموتون جوعاً!...

الحاكم الصالح

الحاكم الصالح العادل في المجتمع هو بمثابة الماء الذي ينزل على الأرض ليرويها ويطلع منها الخير والبركة والنماء. فالعدل في المجتمع هو مثل الماء للزرع. أما المترفون فإنهم نار تأكل الأخضر واليابس وتترك المدن والمجتمعات قاعاً صفصفاً.

ومثال الحاكم العادل في الإسلام وفي تاريخ البشرية جمعاء بعد الرسول الأعظم هو أمير المؤمنين (ع).

الحاكم العادل هو الذي لا تغمض عينه لأنه يفكر ليل نهار بشعبه ورعيته، يعيش مشاكلهم ويحزن لأحزانهم، ويشعر مع فقيرهم ومحتاجهم.

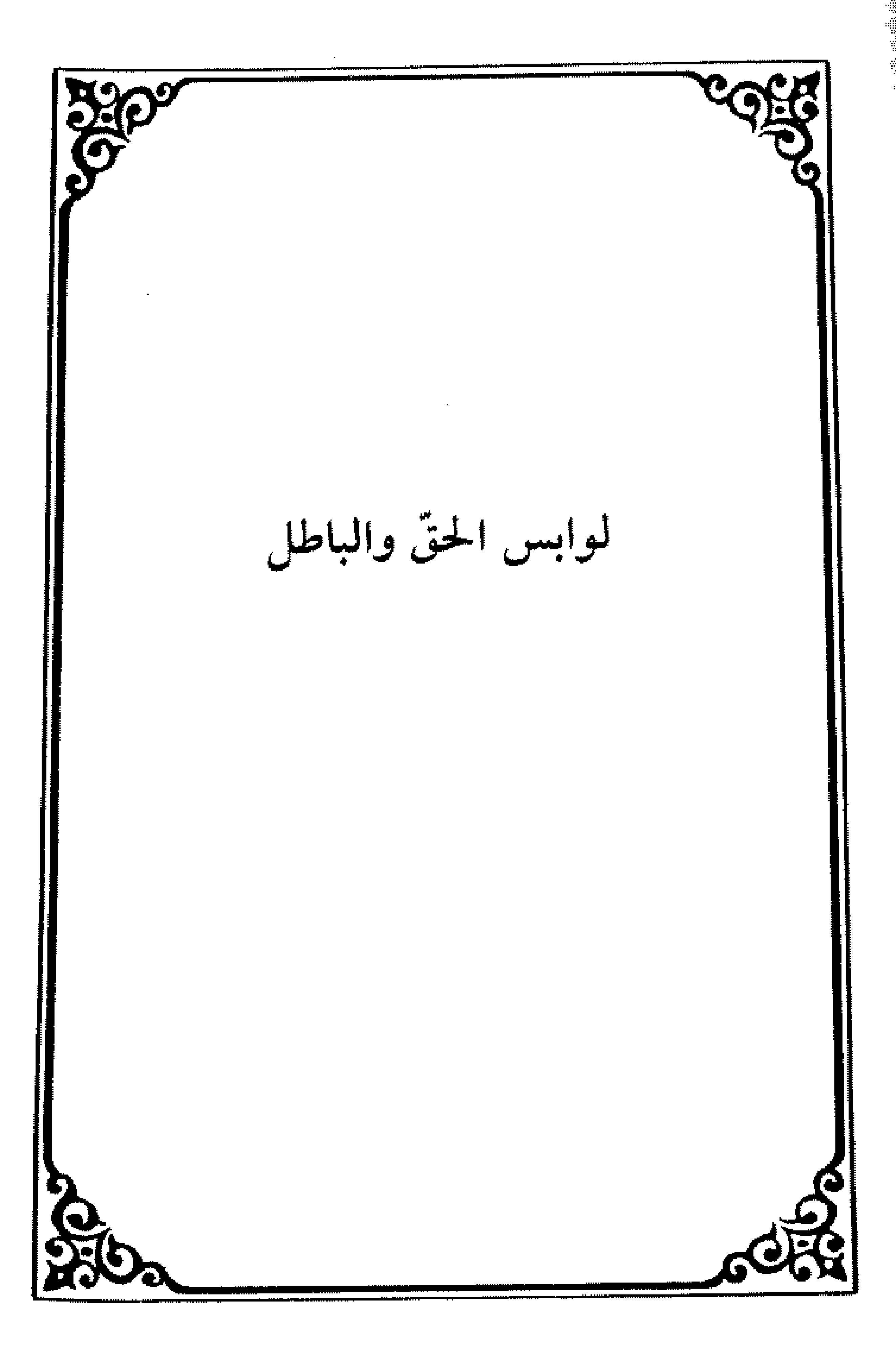
وها هو أمير المؤمنين يوصي عامله الأشتر بقوله: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية واللطف بهم والحنان لهم، ولا تكونَنَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إمَّا أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق».

أما الظلمة الذين يتشدَّقون بالدين فقد بيَّن الإمام الحسين (ع) أحوالهم وصفتهم بقوله: «إنهم عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درَّت معائشهم. فإذا محِّصوا بالبلاء قلَّ الديَّانون».

والحسين بن علي (ع) خرج يريد الإصلاح في أمة جدِّه رسول الله (ص). خرج ليضرب على يد أولئك الذين يتسبَّبون بدمار المجتمع وهلاك الناس، وخرج ليرفع من شأن المستضعفين والمظلومين فانتصر.

يقول غاندي بطل الهند ومحرِّرها: «تعلَّمت من الحسين بن علي كيف أكون مظلوماً فأنتصر».

• • •



لوابس الحقّ والباطل

لوابس الحقّ والباطل

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: **﴿أنزل من السماءِ ماءً فسالت أوديةٌ بقَدَرِها فاحتمل السيلُ زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حِليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحقَّ والباطِلَ فأما الزبدُ فيذهب جُفاءً وأما ما ينفع الناسَ فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾** [سورة الرعد: الآية ١٧].

معنى اللَّوابس

معنى اللوابس أن الباطل يلبس لباس الحقّ، فيزيّن نفسه للناس ويغريهم، فيلتبس الأمر على الناس، أي لا يستطيعون التمييز بين الحق والباطل. تقول: لبس فلان الثوب، أي ارتداه وظهر به. وتقول: اْلتَبَسَ عليه الأمر، أي خفي عليه الصواب في هذا الأمر واحتار فيه. وتقول: لَبَس عليه الأمرَ لَبْساً، أي خلطه عليه حتى لا يعرف حقيقته. ومن هنا يقول القرآن الكريم: **﴿ولا تلبسوا الحقَّ بالباطل وتكتموا الحقَّ وأنتم تعلمون﴾** [سورة البقرة: الآية ٤٢].

فإذا ألبست الباطل ثوب الحق، كتمت الحق وخدعت الناس وأغريتهم بالسير في طريق الباطل.

الباطل الظاهر والحق الباطن

في الآية الكريمة التي افتتحنا بها الحديث يضرب القرآن لنا مثلاً

على الباطل الـذي يتزيا بزيّ الحق فيشبهـه بالـزبد الـذي يعلو ماء السيـل المندفع. فهـذا الزبـد غثاء لا خيـر فيه، لأنـه لا يلبث أن ينطفىء ويتبـدّد، ويبقى الماء الذي هو الحق.

فالماء هـو الحق، والزبـد هو البـاطل، والـزبد هنـا يعلو على سطح الماء فيحجبه عن نظرنا، فنظن لأول وهلة أنه هو الحق.

الله سبحانه أنزل من السماء مـاءً، أي أن مصدر الحق والحقيقـة من الله. هذا الحق وهذا الخير المتمثل بالماء ينـزل إلى الأرض وعلى الناس، فتتلقـاه الأرض ويسيـر في أوديتهـا، كـل وادٍ يحتمـل منـه بحسب قـدرتـه واتساعه، كـذلك تتقبّـل النفوس الإنسـانية الحق بحسب صفـائها وقـدراتها واستعدادها.

ثم يسيـر هذا المـاء في الأودية منـدفقاً قـوياً، فيتكـوّن على سطحـه زبدٌ، ويطفو مع الزبد ما يحمله الماء من فتات الأشجار والأشيـاء التي على وجه الأرض، فتتكون طبقة تسمى الغثاء. فالغثاء هو الرغـوة وفتات الأشيـاء التي على وجه الأرض.

يقول لنا القرآن الكريم بأن هذا الـزبد وهـذا الغثاء لا قيمـة له، فهـو مثل الجفاء الذي يقذفه القدر الذي يغلي على النار.

ويضرب لنا القرآن في هذه الآية مثالاً آخـر لزيـادة توضيـح الصورة. فـالناس عنـدما يـريدون صنـع الحليّ والمتـاع أي صنـع الأقـراط والعقـود والأواني من الذهب والفضة والنحاس فإنهم يضعون المعدن في النـار حتى ينصهر. وعندما ينصهر الذهب مثلاً فإنه يقذف إلى السطح طبقـة من الزبـد والغثـاء. الصائـغ يعرف أن هـذه الطبقـة لا تساوي شيئـاً، فيرمي بهـا لأنها جُفاء. أما الذهب فهو في الأسفل.

إذن لا بد للإنسان المؤمن أن يكون فطناً ذكياً متنبهاً حتى يميز الحق من الباطل، فلا يغرّه الباطل الذي يتزيا بزيّ الحقّ.

فالباطل من خصائصه أنه يلبس قناع الحق لأن وجهه بشع، فإذا كان الإنسان متسرّعاً قصير النظر فإن الحيلة تنطلي عليه ويُقبل على الباطل. ولكنه لا يلبث أن يكتشف الحقيقة المرّة. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى بقوله: ﴿**كسرابٍ بِقيعةٍ يحسبه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً**﴾ [سورة النور: الآية ٣٩].

التميز بين الحق والباطل

والرسول الأكرم (ص) لم يترك أمته قبل أن يضع بين أيديها ما تميز به الحقَّ من الباطل. فقبل وفاته قال للحاضرين حوله من الصحابة وأعيان القوم والمسلمين: «آتوني بقلم ودواة وقرطاس لأكتب لكم كتاباً لن تضلّوا من بعدي»، أي أن هذا الكتاب يعصمكم من الضلال ويجعلكم تميزون بين الحق والباطل، فلا تنطلي عليكم حيل الباطل وأكاذيبه وألاعيبه. بعضُ الحاضرين بدأوا يتغامزون ويتهامسون، وأحدهم تجرّأ وقال: إنَّ نبيَّكم ليهجُر. أي أنه يخلّط في كلامه تخليط من يكون في سكرات الموت. وهؤلاء إنما يكذّبون بآيات الله وينتقصون من كرامة نبيّهم، لأن الله سبحانه يقول: ﴿**وما ينطق عن الهوى إنْ هو إلاّ وحيٌ يوحى**﴾ [سورة النجم: الآية ٤].

والحقيقة أن رسول الله كان قد ترك الدليل الذي يرشد المسلمين إلى الحق ويبعدهم عن الباطل بقوله: «إني تاركٌ فيكم الثقلين: كتابَ الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي». إذن هو أوضح المسألة، ولكنه أراد في آخر لحظة من حياته أن يقيّد هذا الكلام بالكتابة ويوقّع عليه.

إن القرآن وأهل البيت (ع) هم سلاح المؤمن والدليل الذي ينير طريقه. أما الذين استخفّوا بكلام الرسول فقالوا: يكفينا القرآن، ولسنا بحاجة إلى مزيد. فجاء بنو أميّة ومزّقوا القرآن وأصبح دليلهم هواهم ومصالحهم وشهواتهم.

الوليد بن يزيد فتح القرآن الكريم وقرأ:

﴿**واستفتحوا وخاب كل جبّار عنيد**﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٥].

فقال: عجيب، أنت تهدّدني بجبّار عنيد؟! وأمر أن يوضع القرآن على رأس رمح، ثم أخذ يرميه بالسهام حتى مزّقه، وقال شعراً:

تهدّدني بجبّار عنيد ... وإني اليوم جبّارٌ عنيدُ
إذا ما جئت ربك يوم حشرٍ ... فقل يا ربّ مزّقني الوليدُ

إن الوليد بن يزيد وأمثاله هم الباطل الذي يطفو على السطح ويسيطر لفترة قصيرة، ولكنه سرعان ما يذهب جفاء مثل الغثاء الذي يحجب الماء الزلال.

ألا ترى البحر تعلو فوقه جيفٌ ... وتستقرُّ بأقصى قعره الدررُ
وفي السماء نجوم لا عداد لها ... وليس يخسف إلاَّ الشمس والقمر

وهذه قاعدة ثابتة يبيّنها لنا القرآن الكريم:

﴿**لا يغرّنك تقلّبُ الذين كفروا في البلاد. متاعٌ قليلٌ ثم مأواهم جهنّمُ وبئس المهاد**﴾ [سورة آل عمران: الآيتان ١٩٦ ـ ١٩٧].

الباطل المسيطر له أيام معدودة لأنه لا يملك جذور البقاء، لأنه الغثاء الذي يذهب جفاءً.

معنى الحقّ

الآية الكريمة تبيّن لنا معنى الحق فتقول: **﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾**.

الحق هنا هو الذي ينفع الناس، هو الماء وهو الجوهر الباقي. أما ما لا نفع فيه للناس فإنه يذهب مع الباطل.

ولكن هل نفع الناس وحده كافٍ؟ كلا. نفع الناس يحتاج إلى شرط آخر وهو الإيمان بالله. إذن الحق له ركنان أساسيان: الإيمان ومنفعة الناس.

هذا المفهوم للحق يتمثل بمجمل القرآن الكريم. فالقرآن الكريم يبدأ بالله: «بسم الله الرحمن الرحيم» وينتهي بالناس، أي بسورة الناس: **﴿قل أعوذ بربّ الناس، ملك الناس، إلَه الناس. من شرّ الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس. من الجنّة والناس﴾**.

وهذا المعنى يؤكده الإمام الحسن العسكري (ع) بقوله: «خصلتان ليس فوقهما شيء: الإيمان بالله ونفع الإخوان».

فإذا كنت مؤمناً بالله ولا تنفع إلاّ نفسك، فإن إيمانك ناقص. وإذا كنت تنفع نفسك وتنفع الناس ولا تؤمن بالله فإن مسيرتك مضطربة ومعرّضة للانحراف.

طريق الحق هو إيمان بالله ومنفعة للناس. لأن الإيمان يجب أن ينعكس على الحياة. فالله ليس بحاجة إلى إيماننا، وإنما الإيمان هو لمصلحة الناس والمجتمع. يقول القرآن الكريم: **﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم﴾** [سورة التغابن: الآية ١٧].

والمعنى أنكم تفعلون الخير للناس، لأن الله غنيّ عن عباده، لا ينفعه إيمانهم ولا يضرّ به كفرهم.

ومن هنا نرى أن الرسول الأكرم كان يوصي دائماً بالجار حتى قال أمير المؤمنين (ع): «حتى ظننّا أنه سيورثهم».

يقول الإمام الحسن (ع): «رأيت أمي فاطمة (ع) وقفت في محرابها تصلّي وهي تدعو لجيرانها حتى طرَّ عمود الصبح. ما رأيتها دعت لنفسها. قلت لها: أماه، ما رأيتك تدعين لنفسك. قالت: بنيَّ حسن، الجار ثم الدار».

ويقول الرسول الأعظم (ص): «ما هبط عليَّ حبيبي جبرائيل إلَّا وأوصاني بمداراة الناس».

والإسلام يوصينا بمداراة جميع الناس، من مؤمنين وغير مؤمنين، مسلمين وغير مسلمين. أما الذين لا نداريهم ولا نعاملهم بالحسنى فهم الظلمة.

الإسلام يدعونا إلى العيش بسلام مع جميع الناس باستثناء الظالمين، لأنهم يكفرون بالله ويظلمون الناس. تستطيع أن تتعايش مع الكفر ولكنك لا تستطيع أن تتعايش مع الظلم. لذلك نقول: كافر عادل خيرٌ من مؤمن ظالم. لأن الإيمان الحقيقي هو التمسّك بالعدل. ومن هنا يقول لنا القرآن الكريم: **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار﴾** [سورة هود: الآية ١١٣].

لما كان الإمام زين العابدين (ع) في الشام عند يزيد بن معاوية قال له: «إئذن لي أن أصعد هذه الأعواد (المنبر) فأتكلم بكلمات فيها لله رضىً ولهؤلاء الناس أجرٌ وثواب». فالإمام زين العابدين يريد أن يعلن كلمة الحق

أمام يزيد بن معاوية، وكلمة الحق فيها جانبان: رضا الله ومنفعة الناس.

والإمام زين العابدين نفسه أعطانا الصحيفة السجّادية التي تتحدّث عن علاقتك بالناس، وأعطانا رسالة الحقوق التي تتحدّث عن نفع الناس وعلاقة المؤمنين فيما بينهم.

الرسول الأكرم (ص) كان يقول: «عليٌّ مع الحق، والحق مع عليّ». لماذا؟ لأن علياً كان يمثّل قمة الإيمان من جهة، ومن جهة ثانية كان النموذج الأرقى والأعظم للحاكم العادل الذي لا يرضى أن يشبع من طعامه وفي اليمامة أو الحجاز من لا عهد له بالشبع. إنه مع الحق والحق معه لأن الحق كلمة تجمع الإيمان والعدل، الإيمان بالله والعدل في الناس.

طريق الحق وأهل البيت (ع)

لقد أنعم الله علينا بالإيمان، وأكمل علينا نعمته بالإسلام وبخاتم المرسلين. وهكذا رسم لنا طريق الحق. وفي نفس الوقت أنعم علينا بمصابيح تنير لنا الطريق وتهدينا دائماً وأبداً إلى الصراط المستقيم. فإذا اشتدت الظلمات فإن هذه المصابيح تكشف سواد الليل، وإذا تعرّجت الطريق أو اعترضتها المصاعب فبفضل هذه المصابيح نتعرف إلى الطريق المستقيم. هذه المصابيح هي أهل البيت والأئمة الأطهار المعصومون.

وفي كل زمان ومكان ينتصب الباطل ويلبس لباس الحق. ولكن لا بد أيضاً من وجود ممثل شرعيّ للحق يفضح زيف الباطل ويبيّن الزبد والغثاء من الماء الزلال. لا بد من وجود إمام عادل فاروق يفرق بين الحق والباطل، بين الحقيقة والسراب. فإذا غاب هذا الإمام عن وجه الأرض، عمَّ الظلم وساخت الأرض بأهلها.

أميـر المؤمنين (ع) وقف في وجه معـاويـة، والحسين وقف في وجـه يـزيد، وكـل إمام من أئمـة أهل البيت كـان يقف في وجه حـاكم ظالم من الأمويين والعباسيين ومن جاء بعدهم. والإمـام الحجة المنتـظر حاضـر أبداً يكشف لشيعته ولمن تعلّق به طريق الحق.

إذن نحن دائماً أمام طريقين وأمام إمامين: طريق الحق وإمـامة أهـل البيت، وطريق الباطل وإمامة أهل الجور. وعلينا دائماً أن نختار. هل نسير في طريق الحق أم نختار طريق الباطل؟

أمير المؤمنين يقول: لا تبحثوا عن الحق في الرجال، بل ابحثـوا عن الرجال أين موقعهم من الحق.

الحق واضـح، وهـو الإيمـان بـالله ونفـع النـاس. فمن آمن وعمـل صـالحاً ونفـع الناس يكـون مع الحق، ومن ابتعـد عن ذلـك فقـد زاغ عن طريق الحق وكان من المارقين.

والله تعـالى جعل لأهـل الحق مكانـة في القلوب لا يـزعـزعهـا ظلم الظالمين ولا جبروت المتجبّـرين. هارون الـرشيد كـان يجلس على عرش امبراطورية لا تغيب عنها الشمس، وكان يجلس في قصر الخلد وينـظر إلى الغيمـة ويقول: اذهبـي حيث شئتِ فـإن خراجـك لي. والإمـام مـوسى بن جعفـر (ع) كان يعيش في أيـام هارون الـرشيد في كـوخ بسيط في أطـراف بغداد. ولكن شاء الله أن يندثر كـل مجد هـارون الرشيـد وأن يتحوّل كـوخ الإمام موسى بن جعفر إلى مكان تهوي إليه نفـوس وأفئدة النـاس والمؤمنين من كل أنحاء البلاد. لقد ذهب عزّ وخيلاء وظلم الرشيد وبقي علم وإيمـان وتقوى الإمام موسى بن جعفر (ع).

لمـا خـرج الإمـام الـرضـا (ع) إلى صـلاة العيـد في أيـام المـأمـون

العباسي، اندفع الناس للقائه بأجسادهم وأيديهم ودموعهم يمحضونه الثقة والولاء والطاعة، حتى خشي المأمون على ملكه وانتبه إلى أنه يسعى إلى حتفه بظلفه.

والخليفة الأموي هشام بن عبد الملك كان ذات يوم في موسم الحج بجانب الحرم يريد أن يستلم الحجر الأسود، ولكن الناس المحتشدين حول الحجر لم يفسحوا له مجالاً رغم الحرس والشرطة. وإذا بالإمام زين العابدين (ع) يقبل من بعيد ولا يحمل إلّا عباءته. ما إن رآه الناس حتى انفرجوا وابتعدوا يفسحون له الطريق. وأقبل واستلم الحجر وقبّله، والناس يتباركون بنوره وبملابسه، وكل واحد منهم يقول: مرحباً وأهلاً بابن رسول الله.

تعجّب هشام بن عبد الملك كيف أن الناس لم يعبأوا به، ولم يراعوا هيبة وسلطان الملك، وكيف أنهم تراجعوا بمحبّة وإجلال لهذا الرجل. فقال هشام: من يكون هذا؟! وكان بجانبه الفرزدق الشاعر، فقال له: ألا تعرفه؟! وأنشد:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقيُّ النقيُّ الطاهر العلمُ
هذا ابن فاطمةٍ إن كنتَ جاهله ... بجدّه أنبياءُ الله قد خُتموا
وليس قولك من هذا بضائره ... العربُ تعرف من أنكرتَ والعجمُ
ما قال لا قط إلّا في تشهّده ... لولا التشهّدُ كانت لاؤه نعمُ.

هذا هو طريقنا، وهؤلاء هم مصابيح الدجى الذي ينيرون لنا الطريق، طريق الحق الذي يقوم على دعامتين: الإيمان بالله ومنفعة الناس. وهاتان الدعامتان لا تستقيمان إلّا بموالاة أهل البيت (ع) لأن

الرسول الأعظم أوضح لنا أن القرآن وأهل البيت لا يفترقان.

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا﴾.

﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾.

● ● ●



الجهاد مدرسة تربوية

الجهاد مدرسة تربوية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم﴾ [سورة الحج: الآية ٧٨].

المدخل

إن الآية الكريمة تطرح مسألة هامة من مسائل العقيدة الإسلامية، بل هي ركن أساسي من الأركان التي يقوم عليها الصرح الإسلامي الشامخ، إنها مسألة الجهاد. وقبل أن نتناول المباحث التي تطرحها هذه المسألة بالدراسة، لا بد من تمهيد موجز، ننطلق بعده في رحاب الآية الكريمة وأجوائها الغنية والموحية بكثير من الدروس والعبر.

إن مهمة الأنبياء الرسالية تهدف إلى إنجازين: الأول يتناول المجتمع الواسع الذي يحيط بالإنسان والثاني يتسلل إلى أعماق النفس البشرية، فعلى صعيد المجتمع تتجلى وظيفة الأنبياء، في العمل على تطهيره من الظلم والفساد وشحنه بالحريات والفضائل، وعلى صعيد النفس الإنسانية يبدو الهدف واضحاً في تطهيرها من الدرن والذنوب والمعصية لكي تسمو في معارج الإيمان والنور، لا سيما أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد خلق الإنسان وركبه تركيباً فطرياً ينسجم مع القوانين الكونية، أي من غير أن يكون هناك أي تنافر أو تباعد بين هذه القوانين وما يجري داخل الإنسان من

أنظمة وأجهزة باعتبار أن الخالق واحد: ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾ [سورة الملك: الآية ١٥].

ومما يؤسف له أن نجد أن عالمنا الإسلامي، سواء على صعيد الفرد أم على صعيد الدول، لا يتحرك على أساس هذه القاعدة المتوازنة في الحياة الفكرية والإيمانية؛ وإذا كنا نجد أن الفرد على الصعيد المادي يقوم بعملية موازنة بين مدخوله ومصروفه، فلا ينفق درهماً واحداً إلّا على أساس حسابي، دقيق، وإذا كنا نجد أن الدول تقيم مثل هذه العملية الحسابية الموازنة بين ما تستورده وما تصدره، فإننا لا نجد هذه الدقة على صعيد الفكر والإيمان والعقيدة؛ إن عالمنا الإسلامي يستورد العقائد من الخارج من غير حساب ودون أي التفات لمخزونه الفكري والعقيدي، فهو مشدود دائماً إلى بريق الخارج يتسكع على أعتاب الغرب ويستجدي الحضارة التي غالباً ما تحمل له السموم الفكرية والانحراف المسلكي.

ومما يجب أن يتلفت إليه المسلمون هو أنهم أصحاب حضارة عظيمة أضاءت في الأرض وأنارت العقول في وقت كان الغرب يعيش في ظلام حالك من الجهل والتوحش؛ تلك هي حضارة الإسلام التي أعادت للإنسان حقه الضائع وعادت به إلى فطرته التي فطر عليها؛ وإذا كنا نلاحظ اليوم غياباً لهذه الحضارة عن الساحة فمن الواجب علينا أن نعيد إحياءها لكي ننطلق بها بدلاً من أن نستورد فكراً سامّاً ومبادىء هدامة مما يؤثر على عقيدتنا وإيماننا.

كيف يحق لنا أن نجعل من الحضارة الغربية قبلتنا وفي تاريخنا عملاق كالحسين ـ عليه السلام ـ الذي استطاع بمبادئه أن يحرك الأجيال ويغير وجه التاريخ، ونبي عظيم كمحمد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ،

خاتم الأنبياء الذي استوحى مبادئه وأفكاره ومناهجه وإسلامه وقرآنه من رب السماء وخالق الخلق ــ سبحانه وتعالى ــ . إنه نور ساطع ما زال يتوهج في كل مكان ويموج في كل أرض بالرغم من كل الأحقاد وبالرغم من هذا الطوفان من العداء الذي يستهدف هذا النور الإلٓهي: **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلَّا أن يتمّ نوره﴾** [سورة التوبة: الآية ٣٢].

ومهما يكن من أمر فإن الله ــ سبحانه وتعالى ــ خلق الكون كله والإنسان على الفطرة: **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾** [سورة الروم: الآية ٣٠].

لذلك إذا كان الكون المادي والكرة الأرضية التي نعيش عليها يوافقان أجهزة الجسد وقوانينه فمن الطبيعي أن يكون المنهج السماوي الذي أنزل من أجل الإنسان موافقاً لروحه وفكره؛ ومن هنا يكون عمل الأنبياء هادفاً إلى مجالين: مجال المجتمع ومجال النفس البشرية، وبذلك يكون لله ــ سبحانه وتعالى ــ حجتان: حجة ظاهرة تتمثل بالأنبياء والرسل وحجة باطنة تتمثل بالعقل الذي وهبه الله ــ سبحانه وتعالى ــ للإنسان. ومن هنا يكون عمل الأنبياء هو عملية إثارة لمكامن الطاقات ومخزونها وعملية تذكير لتحريك دفائن العقول. لذلك خاطب الله نبي الرحمة بقوله: **﴿إنما أنت مذكر﴾** [سورة الغاشية: الآية ٢١].

الشعائر الإسلامية مدرسة تربوية

ولعل ما يمتاز به الإسلام على سائر العقائد والأنظمة هو انطلاق الشعائر فيه على ضوء هذه الحقيقة المتمثلة بدور الأنبياء المزدوج الذي يغير المجتمع الخارجي والنفس الداخلية في آن معاً وبشكل متواز، فلو لاحظت المناهج الإسلامية والشعائر العبادية لوجدتها تهدف إلى رفع الظلم

عن المجتمع وإعطاء الحريات للناس والدعوة إلى الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة ومن جهة أخرى تعمل على تطهير النفس وتهذيبها.

فلو نظرت إلى الزكاة مثلاً لوجدت أنها تحقق الهدفين في آن واحد، فهي من جهة تنعكس إيجاباً على المجتمع لأنها تحارب الفقر وتساعد المحتاجين، ومن جهة ثانية تؤدب صاحبها وتقتل في نفسه البخل والشح لكي يصبح الإنفاق أمراً مألوفاً يمارسه بكل طيب نفس ورحابة صدر.

وقل مثل ذلك عن الصلاة لأنها: **﴿تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** [سورة العنكبوت: الآية ٤٥].

فهي تربي النفس وتقضي على نوازع الشر فيها، وهذا سوف ينعكس على المجتمع لأن المصلي هو فرد فيه، ومتى صلح الأفراد صلح المجتمع بأكمله. وكذلك الأمر بالنسبة للصيام الذي كتبه الله ـ سبحانه ـ على الناس قديماً وحديثاً: **﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾** [سورة البقرة: الآية ١٨٣].

ومما لا ريب فيه أن نبي الرحمة ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قد لعب هذا الدور الرسالي على أكمل وجه وأفضله. وقد صور القرآن الكريم هذه الناحية أروع تصوير إذ يقول: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾** [سورة التوبة: الآية ١٢٨]..

فهو يحمل معاناة المؤمنين وآلامهم لأنه يحبهم ويحمل لهم الرحمة والرأفة، كما أنه ضنين على سعادتهم وراحتهم؛ فضلاً عن أنه: **﴿يضع**

عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٧].

وما الإصر إلاَّ الآلام والأحزان والذنوب والمعاصي داخل النفس، وما الأغلال إلاَّ الظلم والجور والاستغلال يفرضه عليهم الظلمة والطواغيت وأعوانهم.

فإذا أدركنا أن الإسلام لا يقوم إلاَّ على هذه القاعدة المزدوجة، وأن الأمة الإسلامية لا تصحو من غفلتها ولا تنهض من سباتها إلاَّ على ضوء هذا الدور الرسالي التربوي الثنائي، إذا أدركنا ذلك فإننا نستطيع أن نفهم لماذا جعل الإسلام في مناهجه ركناً هاماً من أركانه هو الجهاد.

حقيقة الجهاد

إن الجهاد في الحقيقة هو موضوع بحثنا الأساسي الذي طرحته الآية الكريمة في مطلع الحديث: **﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾** [سورة الحج: الآية ٧٨].

لذلك يجب أن نعلم بداية أن الجهاد نوعان: جهاد العدو الخارجي من أجل رفع الظلم عن الناس، وجهاد النفس التي هي أعدى أعداء الإنسان.

وقد وضح هذه الحقيقة الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ بعد عودته من غزوة تبوك عندما قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». ولا شك أن أصحابه قد أصابتهم الدهشة وأخذهم الاستغراب إذ اعتبر أن القتال والاستشهاد في ساحات الحرب هو الجهاد الأصغر؛ فسألوه: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس. أي أن الإنسان عندما يجاهد نفسه ويسيطر على هواه وينتصر على غرائزه وشهواته فهو إنسان قوي. ومن كان قادراً على الانتصار على نفسه فهو على عدوه أقدر؛ ذلك:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [سورة الرعد: الآية ١١].

ولعل ذلك ما عناه أمير المؤمنين ــ عليه السلام ــ بقوله: «ميدانكم الأول في الجهاد أنفسكم فجربوا معها الجهاد. إذا انتصرتم عليها فأنتم على غيرها أقدر وإذا هزمتم وعجزتم عنها فأنتم عن غيرها أعجز».

إن الجهاد على ضوء الحقيقة مدرسة تربوية، يصبح الجسد معها بلا فائدة أو قيمة. ولعل في ذلك ما يوضح لنا موقف الصحابي العظيم عبد الله بن أبي رواحة الذي انقطعت يده في الحرب وبقيت معلقة فآلمته ألماً عظيماً، فوضعها تحت قدمه وتمطى بها فقطها وانطلق يواصل القتال والجهاد. إن هذا الصحابي لا شك أنه قد كانت له زوجة وأطفال يحنون إليه ويحن إليهم، لكن الحب الذي كان ينطوي عليه قلبه لله ــ سبحانه وتعالى ــ أكبر من حبه لأطفاله وزوجته. إنه موقف رائع لا يمكن أن نستوعبه إلّا على ضوء هذه الروح الجهادية التي صنعها الإسلام وزرعها في نفس عبد الله بن أبي رواحة ــ رضوان الله عليه ــ.

إن النفس التي انتصر عليها صاحبها تؤدي به إلى ممارسة الجهاد القتالي وبدونها فإنه سوف يتقاعس عن القتال وينزوي في بيته تحت ستار الكثير من المبررات. وجهاد النفس هو الذي يجعلك تسيطر على جوارحك وعلى نزواتك؛ إن الإنسان الذي لا يستطيع أن ينتصر على عينه وأذنه ولسانه فيترك العنان لها لكي ترسل النظرة الخائنة إلى أعراض الناس والنظرة الحاقدة والحاسدة، ويسمح لأذنه أن تستمع إلى المحرمات من الغناء وغيره، ويرسل لسانه لكي ينهش في أعراض الناس عن طريق النميمة والغيبة والكذب، أقول: إن هذا الإنسان كيف يكون بمقدوره أن ينتصر على أعداء الله وكيف يمكن أن يدافع عن أرضه وعرضه وشرفه؟

على أنه ليس أفضل من منابر الحسين ـ عليه السلام ـ ما يمكن أن يصنع مثل هذه النفس التي ترفل بالطهر والنظافة الروحية والقوة المعنوية التي تجعل من صاحبها قادراً على اجتراح المعجزات. أما أولئك الذين يمضون الليالي الحمراء في دور اللهو والعربدة يحتسون الخمرة ويطلقون العقال للوحش الجنسي الكامن فيهم وللغرائز المتوثبة والشهوات المجنونة، فإنهم أعجز من أن يدافعوا عن وطن أو أرض أو يحافظوا على شرف أو كرامة؛ فهم لا في الجهاد الأكبر فائزون ولا على الجهاد الأصغر قادرون.

لذلك عندما أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يمدح الرسول الأعظم لم يمدحه بالقوة الجسدية ولا بكثرة الأموال، وإنما مدحه بأخلاقه الكريمة، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ [سورة القلم: الآية ٤].

على أن هذا الخلق العظيم هو الذي خلد الإسلام ورفع من قيمة المسلمين وجعل رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في مرتبة عالية وبوأه مكانة سامية، إذ لم يعرف التاريخ قائداً أو رسولاً على هذا القدر من العظمة والرفعة والسمو، ولم يعرف إنساناً دخل قلوب الناس ولامس شغافها كما دخلها نبي الرحمة ورسول المحبة ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ.

ومهما يكن من أمر فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يشرع الجهاد لقتل الضعفاء ولا لإراقة الدماء أو القضاء على الأبرياء. أبداً. إنما الجهاد كان شرعة هدفها الإنسان نفسه. ومن هنا جعله الإمام عليٌّ ـ سلام الله عليه ـ باباً من أبواب الجنة حين خطب في رجاله المتقاعسين قائلاً: «أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس

التقوى ودرع الله الحصينة وجُنّته الوثيقة؛ فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل. . .».

إن من يرغب عن الجهاد خوفاً من ميادينه يصبح إنساناً ذليلاً لأنه سوف يصبح تحت رحمة الطواغيت، في حين أن الله ـ سبحانه ـ يريد للإنسان أن يكون عزيزاً كريماً: **﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾** [سورة المنافقون: الآية ٨].

فمن يخالف قوانين رب العالمين فمصيره الهوان والذل ومآله أن يكون تحت رحمة الظلمة الذين لا ينجو من ظلمهم أحد مهما كان مقرباً منهم. وليس أدل على ذلك من النكبة التي تعرض لها البرامكة على يد هارون العباسي الذي فرق شملهم وأبادهم بعد أن كانوا أقرب المقربين إليه.

لوحات جهادية

في طليعة المواقف الجهادية الإسلامية الرائعة تصدي الإمام الحسين ـ سلام الله عليه ـ لشارب الخمور ومربي القردة، فقد رأى أن أمة جده رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ تتعرض للاهتزاز والتصدع فشمر عن ساعد الجهاد وأعلن موقفه الرافض لما يحدث على الساحة الإسلامية وخرج في طلب الإصلاح، وهو يقول: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ولآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر». وليس غريباً على الحسين ـ عليه السلام ـ أن يتخذ هذا الموقف وهو ابن الزهراء ـ عليها السلام ـ وابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ سلام الله عليه ـ الذي يقول: «لو أعطيت الأقاليم السبع بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت».

وقبل الاسترسال مع المواقف الجهادية يجب أن نلاحظ أن الله ـ سبحانه ـ عندما شرّع الجهاد حصّنه بالعنصر الأخلاقي والذي من مميزاته عدم الاعتداء على الآخرين: ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٠].

وترك الحرب إذا كان هناك مجال للسلم المشرف: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦١].

واحترام العهود والمواثيق: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٤].

وكان رسول الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ إذا بعث بسرية للجهاد، كان يجتمع بهم قائداً وعناصر ويقول لهم: انطلقوا على بركة الله، وكان يحذرهم أن يعتدوا على الشيخ الكبير أو الطفل أو المرأة ويوصيهم أن يرحموا الحيوانات والبهائم وألا يتعرضوا للأشجار والنخيل باعتبار أن الهدف الأساسي من قتالهم هو نشر الإسلام وردع الظالم عن الظلم، كما يأمرهم ألا يفرضوا العقيدة فرضاً بالسوط أو السيف، باعتبار أنه: ﴿لا إكراه في الدين﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦].

ويطلب إليهم ألا يروّعوا أحداً ولا يهاجموا ليلاً وقبل القتال عليهم أن يحاوروا الأعداء وأن يعرضوا عليهم الإسلام فإذا قبلوا به فلا حاجة للحرب.

ولعل من أروع المواقف النبوية، موقف النبي ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ يوم فتح مكة إذ كان الناس خائفين من أن ينكل بهم النبي وجيشه انتقاماً لما آذوه وفعلوا به في الماضي. ولكنه فاجأهم بقوله: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ رحيم، ملكت فاصفح وعفوت

فاسجح. قال: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وهكذا نجد أنه ليس في الإسلام أي لون من ألوان الضغط والإكراه حتى يكونوا مسلمين. وفي هذا المجال جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة**﴾ [سورة النحل: الآية ٩٣].

وقوله: ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾ [سورة يونس: الآية ٩٩].

لا، لأن ذلك خلاف الفطرة، لذلك يترك الإسلام الناس أحراراً من هذه الجهة، ولكنه يقدم لهم السيرة الطيبة والرحمة والعطف والإحسان مما يجعلهم يسارعون إلى الإسلام ملاذاً لهم من ظلم الظالمين وجور الجائرين: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره**﴾ [سورة النصر: الآيات ١ ــ ٣].

إنهم لم يدخلوا في دين الله أفواجاً بالسيف ولا بضرب السياط بل على قاعدة هذه السيرة الحسنة والأخلاق العظيمة. ألم يقل نبي الرحمة: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»؟ بلى، قالها ورب الكعبة.

إن هذه الأخلاق الجهادية ليست غريبة على رسول الله ــ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ــ، حتى مع بعض أعدائه من بني قريظة الذين ما عرفوا إلَّا بالخسة والغدر والدناءة. فلما وقع ثلاثة من رؤسائهم في الأسر طلب الرسول الأعظم من أمير المؤمنين أن يقتلهم وأن يضرب أعناقهم، فقتل الأول والثاني وعندما أراد أن يضرب عنق الثالث نزل جبرائيل على النبي وطلب إليه ألا يقتله، ذلك لأنه كان كريماً وسخياً، فعفا عنه الرسول ــ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ــ. وعندما علم هذا الأسير بسبب العفو استغرب ذلك لأنه لا أحد يعلم به، فأعلن إسلامه على الفور.

ولن ننسى أن الإمام علياً ـ سلام الله عليه ـ كان يأمر جنوده بألا يبدأوا القوم بقتال. وكذلك فعل أبو عبد الله الحسين يوم الطف عندما حاور القوم لكي يلقي الحجة عليهم فذكرهم بأنه الحسين ابن الزهراء وجده رسول الله وأبوه أمير المؤمنين، كما ذكرهم بأقوال النبي ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ فيه وفي أخيه الحسن ـ سلام الله عليهما ـ بأنهما سيدا شباب أهل الجنة. وعندما أراد أحد أصحابه أن يرمي القوم بسهم قال له: إني أكره أن أبدأهم بقتال. وهكذا نجد أن العنصر الأخلاقي ماثل في الجهاد الإسلامي.

ومن المواقف الإنسانية في حركة الجهاد الإسلامي، منع الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ شابين من الأنصار من الاشتراك في القتال لأن الأول ترك وراءه أبوين كبيرين يبكيان فقال له: عد إليهما فوالذي بعثني بالحق نبياً لأنسهما بك ليلة واحدة أفضل عند الله من جهاد سنة كاملة، ولأن الثاني ترك أمه التي طعنت في السن وهي تبكي على فراقه فقال له ما قال للأول.

وهل ننسى الحسين ـ عليه السلام ـ يوم الطف عندما تقدم منه غلام وله من العمر إحدى عشرة سنة وكان أبوه قد قتل في المعركة، فقال له: بني عد إلى أمك لعلها تأنس بك. إنه لم يسمح له بالقتال حتى جاءت أمه قائلة: أبا عبد الله روحي فداك، أَتُثْكَلُ أمك الزهراء بولدها ولا أُثكل بولدي؟ أريد أن أكون في ساحة المحشر أمام أمك الزهراء لأقول لها: يا فاطمة إن لي ولداً قدمته لكي يقتل مع ولدك الحسين يوم عاشوراء. إنها مواقف لا تنسى، اختلط فيها الجهاد بالعطاء والأخلاق، ذاك هو الجهاد في الإسلام، وتلك هي قوانينه ونظمه التي لا تجد لها نظيراً ولا شبيهاً في كل النظريات والقوانين والنظم، لا غرباً ولا شرقاً، ولا قديماً، ولا حديثاً.

أمـا جهاد النفس فـأفضل مـا نبدأ الحـديث فيه هـو مقـطع من دعـاء الصبـاح لأمير المؤمنين ـ سـلام الله عليه ـ . يقـول: «وإن خذلني نصـرك عنـد محـاربـة النفس والشيـطان فقـد وكلني خـذلانــك إلى حيث النصب والحرمان. . . »؛ ذلك لأن الشيطان ينتقل بك من جـريمة إلى أخـرى ولأن النفس قد تأمرك بالسوء: **﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾** [سورة يوسف: الآيـة ٥٣].

فكم يوسوس لـك الشيطان فتستجيب لـه النفس عندمـا يحين موعـد صـلاة الصبح فتبقى نـائماً، وأنت تعلم أن الصـلاة هي الصلة الـوثيقـة بين العبد وربه، فـإذا انقطعت تنقـطع معها كـل وسائـل الاتصال، لا سيمـا أنه «ليس بين المؤمن والكافر إلّا ترك الصلاة».

إن الإنسـان الذي يلتـزم بصـلاتـه هـو إنسـان صبـور وقـوي لا تهـزه الشدائد ولا تفتّ من عزمه المصائب: **﴿إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسّه الشرُّ جزوعاً * وإذا مسّه الخيـر منوعـاً * إلاَّ المصلين﴾** [سورة المعـارج: الآيات ١٩ ـ ٢٢].

إن المصلي لا يعـرف الهلع والجزع ولا يمنـع الخيـر، فهـو شجـاع كريم، ذلك لأنه مؤمن بالله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي يأمرنا بالصلاة. علماً أن الصلاة لا تكفي وحدها، لذلك أمرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بـالجهاد: **﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾**.

فهؤلاء أهل الجنة يسألون أهل النار، قالوا: **﴿مـا سلككم في سقر * قالوا لم نـك من المصلين * ولـم نك نـطعم المسكين * وكنا نخـوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الـدين * حتى أتانـا اليقين﴾** [سورة المـدثر:

الآيات ٤٢ ـ ٤٧].

فما أجدرنا والحالة هذه بالمحافظة على صلاتنا ومسلكنا الإسلامي القويم، لأن الصلاة شرف المؤمن تمده بالقوة والصلابة وتشحن نفسه بالطمأنينة والسلام.

إن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، لا سيما على صعيد الأسرة حيث ينبغي أن تكون العلاقة قائمة على التضحية من كلا الطرفين والصبر في مجال المعاملة، حتى يعيش الأطفال في جو إسلامي هادىء يتيح لهم أن ينشأوا نشأة سليمة قوية تنعكس على نفوسهم وشخصياتهم.

وجهاد النفس أيضاً يجب أن يعلمنا كيف نعامل اليتيم الذي فقد أباه وكيف نعوض عليه هذه الخسارة الجسيمة التي لا تعوض، لا سيما أن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كان يبكي إذا رأى يتيماً. ألم يخاطبه القرآن الكريم بقوله: **﴿فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر﴾** [سورة الضحى: الآيتان ٩ ـ ١٠].

والزهراء ـ سلام الله عليها ـ، كثيراً ما كان يدخل عليها أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ، فيجد عندها بعض اليتامى وهي تطعمهم بيدها. وأمير المؤمنين كان يجمع اليتامى في الكوفة في أثناء خلافته ويقدم لهم الطعام. لذلك كان يقول: «ما تأوهت كما تأوهت للأيتام في الصغر». إن هؤلاء الأيتام، أيتام الكوفة، قد حملوا اللبن عندما ضربه اللعين ابن ملجم بسيفه المسموم، حملوا اللبن إلى أمير المؤمنين عندما علموا أن الطبيب قد أشار باللبن، ولطالما كان يطعمهم بيده الشريفة، وهاهم الآن يردون بعض الجميل.

إن حديثنا عن الجهاد لن ينسينا الجهاد في سبيل العيال، فقد قال

رسول الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله» وقال أيضاً: «إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها، إلَّا الهموم في طلب المعيشة». لا سيما أن العمل بحد ذاته لون من ألوان العبادة، واليد التي تعمل يحبها الله ورسوله.

أعظم الجهاد

بالإضافة إلى الجهاد في سبيل الله وجهاد النفس والجهاد في سبيل العيال، هناك نوع من الجهاد هو مواجهة الحاكم الظالم، فقد قال رسول الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «إن أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». إن مثل هذا الموقف يتطلب قوة وشجاعة ورباطة جأش لا تجدها إلَّا عند الإنسان المؤمن الذي لا يخاف في الله لومة لائم والذي لا يهاب الموت. وقد ترك لنا التاريخ صفحات مشرقة في هذا المجال تروي مواقف أئمتنا ـ سلام الله عليهم ـ أمام الحكام الظالمين من أمثال معاوية ويزيد وهشام بن عبد الملك، وأبي جعفر الدوانيقي، وهارون غير الرشيد وغيرهم.

يروى أن هشام بن عبد الملك عندما كان في الحج طلب أن يؤتى بصحابي وعندما علم أنه لم يعد هناك صحابي واحد فقد ماتوا جميعاً، أتوه بأحد التابعين وهو طاووس اليماني، الذي كان عالماً جليلاً. فدخل على هشام وخلع نعليه عن حاشية البساط دون أن يسلم على هشام بأمرة المؤمنين بل سأله: كيف أنت يا هشام وبدون أن يكنيه. فاغتاظ هشام وأمر بضرب عنقه. فأعلموه أنهم في الشهر الحرام وأنهم محرمون والمحرم لا يستطيع بل لا يحق له قتل ذبابة فكيف برجل عالم جليل. عند ذلك سأله هشام، قال: يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: وما

الذي صنعت؟ قال: خلعت نعليك عند حاشية بساطي ولم تقبل يدي ولم تنادني بكنيتي ولم تسلم عليّ بإمرة المؤمنين وجلست إلى جانبي من غير أن آذن لك!!

فأجابه طاووس: إذا خلعت نعلي عند حاشية بساطك فإني أخلع نعلي خمس مرات في اليوم بين يدي الله وأنا أقف للصلاة فلا يغضب عليّ ولا يعاقبني. أما تقبيل يديك فقد سمعت علياً أمير المؤمنين يروي عن رسول الله ــ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ــ أنه لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلاَّ امرأته يقبل يدها بشهوة وولده يقبل يده برحمة، وأنت لست بزوجتي ولا بولدي. أما الكنية (من حق المؤمن على المؤمن أن يكنيه بكنيته) فإني رأيت الله ــ سبحانه وتعالى ــ في القرآن الكريم ينادي أنبياءه وأوليائه بأسمائهم فيقول: ﴿**يا يحيى خذ الكتاب بقوة**﴾ [سورة مريم: الآية ١٢].

﴿**يا زكريا إنا نبشرك**﴾ [سورة مريم: الآية ٧].

﴿**يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس**﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٦].

﴿**يا موسى إني أنا الله**﴾ [سورة القصص: الآية ٣٠].

﴿**يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا**﴾ [سورة الصافات: الآيتان ١٠٤ ــ ١٠٥].

أما أعداؤه فكناهم بكنيتهم وقال: ﴿**تبت يدا أبي لهب**﴾ [سورة المسد: الآية ١].

أما جلوسي بجانبك فقد سمعت علياً أمير المؤمنين ــ عليه السلام ــ يقول: إذا أردتم أن تنظروا إلى رجل من أهل النار فانظروا إلى رجل جالس وحوله قوم وقوف. فسكت هشام. ثم قال: يا طاووس عظني. قال:

سمعت سيدي علي بن أبـي طالب يقـول: إن لله حيّات في جهنم كـالقلال وعقارب كالبغال يسلطها فتلدغ الحـاكم الظالم الـذي لا يعدل بين رعيتـه. عند ذلك لم يعد يستطيع هشام أن يتحمل وجوده فأمره أن ينصرف عنه.

ومـا أريد أن أخلص إليـه هو أن الله ـ سبحـانه وتعـالى ـ قـد شـرّع فريضة الجهاد لأنها تشكـل مدرسـة تربـوية نتعلم فيهـا كيف نجاهـد العدو وكيف نجـاهـد أنفسنـا وكيف نتصـدى للظالمين من الحكـام والمـلوك والسلاطين، وكيف نتغلب على مواطن الضعف في نفوسنا لكي نتخرج من مدرسة الجهاد مؤمنين أقوياء نعبد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ونكثر من الـدعاء وقـراءة القرآن لا سيمـا أن الحسين ـ عليه السـلام ـ كان يكثـر من قـراءة القـرآن حتى ليلة العاشـر من محرم. كمـا أنه يجب أن نعلم أولادنـا قـراءة القرآن فقد صـح عن رسول الله ـ صلّى الله عليـه وآله وسلّم ـ قـوله: «إذا قال الرجـل لصبـي أو قال المعلم لصبـي: قـل: بسم الله الرحمن الـرحيم فقـال الصبي: بسم الله الـرحمن الـرحيم كتبت بـراءة من النـار للمعلم وللصبـي ولوالد الصبـي».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

• • •

شـــذرات مـــن
مناهج التربية والحكم في الإسلام

شــذرات مــن
مناهج التربية والحكم في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيُضِلَّك عن سبيل الله، إن الذين يَضِلُّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نَسُوا يوم الحساب﴾ [سورة صَ: الآية ٢٦].

تمهيد

إن من يتصفح القرآن الكريم يجد أن الله تبارك وتعالى قد رسم لنا صورتين للإنسان فيه: صورة للإنسان الذي سجدت له الملائكة والذي حمل الأمانة والعلم والكرم، وصورة ثانية لإنسان هلوع جزوع وكفور كنود، لا يذكر نعم الله وليس له أدنى علاقة برب العالمين.

إن الإنسان صاحب الصورة الأولى قد أقام الحضارات وعمّر الأرض ونشر المعرفة والعلم والأخلاق. ومن طينته خرج الأنبياء والمرسلون والأولياء والصالحون وحملة الفكر ومشاعل النور الذين بذلوا التضحيات من أجل الحق والحرية والعدالة وانطلقوا في كل مكان ينادون بحقوق الإنسان؛ في حين أن الثاني قد هدم الحضارات وقتل الأنبياء وسفك الدماء وهتك الأعراض وسعى في الأرض ليفسد فيها فأهلك الحرث والنسل. ومن طينته خرج القتلة والسفاكون والظلمة والآثمة وأعوانهم.

وإذا أمعنّا النظر ودقّقنا في الأمر لوجدنا أن المحرك الأساسي والدافع الذي وقف خلف الإنسان الأول باني الحضارة وناشر النور هو الإيمان بالله والخوف منه، بينما الثاني كافر بالله غير خائف منه ـ سبحانه وتعالى ـ . لذلك لا بد من إطلالة على السر الكامن في الإسلام وفي مناهجه التربوية التي صنعت الإنسان صاحب الصورة الأولى التي تميزت بالإشراق والطابع الحضاري.

عظمة الإسلام في مناهجه التربوية

إننا لو حاولنا أن نعرف كيف وصل الإسلام إلى هذا الإنجاز الحضاري في بناء الإنسان وبالتالي إلى بناء المجتمع وإقامة الحضارة الإسلامية التي أنارت للبشرية دروبها ومسالكها ومعالم حياتها في شتى المجالات لوجدنا أن الفضل في ذلك يعود إلى مناهجه التربوية الصحيحة والعملاقة. لأن الإسلام يرى أن المجتمع يتكون من أفراد من ذكر وأنثى، ويتم التكاثر والتناسل تحت ظل قانون سماوي هو الزواج الشرعي.

ويرى أيضاً أن المجتمع كالأرض التي إذا زرعت فيها شوكاً وحنظلاً فسوف تعطيك شوكاً وحنظلاً وإذا زرعت فيها ورداً وزيتوناً وقمحاً فإنها لن تعطيك إلَّا مما زرعت. لذلك لا بد من النظر إلى الطفل الذي هو أساس المجتمع، على ضوء هذه الحقيقة.

وإذا كان فلاسفة التربية الحديثة يجعلون الطفل ورقة بيضاء فإن الإمام عليّاً سلام الله عليه يجعله كالأرض. ولا ريب أن الإمام كان أكثر عمقاً، ذلك لأن الورقة البيضاء تفتقر إلى عناصر البناء، في حين أن الأرض تختزن عناصر الحياة، فالطفل عندما يولد تكون فيه مثل هذه العناصر الحياتية، ويكون لديه استعداد طيب للتفاعل مع محيطه.

وبما أن محيطه الأول هو الأسرة، لذلك يبدأ الإسلام على مستوى هذه الأسرة التي يسلم زمامها بالدرجة الأولى للرجل على أساس أن القيمومة بيده شرط ألا تكون صلاحياته مطلقة. بل تكون مقيدة بما يفرضه عليه الشرع من حسن المعاشرة والعدالة والإحسان والرأفة والرحمة في عالم الأسرة.

على أن هذه القيمومة للرجل ليس فيها انتقاص من دور المرأة فيها. ولعل دور المرأة في الأسرة أخطر وأهم من دور الرجل نظراً لضخامة المسؤوليات التي ينبغي لها أن تنهض بها، لا سيما أنها ملكة غير متوجة لهذه الخلية.

وأول بند تربوي يهتم به الإسلام، بل يعطيه الأولوية من حيث الأهمية هو اختيار المرأة التي سوف تصبح أماً، فيشير عليك «إذا أردت أن تخطب لنفسك فانظر أين تضع نفسك» أي أن هذه النطفة الطيبة التي تحملها يجب أن تختار لها رحماً طيّباً **﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾** [سورة النور: الآية ٢٦].

حتى تكون الذرية صالحة لأن المرأة التي تهز المهد بيمينها تهز العالم بشمالها.

ذلك أن الطفل الموجود في المهد هو مشروع رجل للمستقبل وقد يتبوأ مناصب عالية فيها قيادة للناس، فإذا كان طيباً عَمَّ خيره كل الناس وإذا كان خبيثاً نشر الدمار والخراب في مجتمعه. لذلك يجب أن نُولي هذه المسألة كل اهتمامنا باعتبار أن هذا الطفل ليس مجرد ولد صغير أنت تقوم على تربيته كيفما دارت الحال لأنه وإن كان جرماً صغيراً فقد انطوى فيه العالم الأكبر. وعلى هذا الأساس تكون مسؤوليتك جسيمة أمام الله. لذلك أنظر أين تضع نفسك.

هـذا على مستوى التـربية، أمـا على مستوى الحكـومة فـإن الإسلام أيضـاً يتدخـل. فإذا كـان الإسلام يعتبـر الأسرة مجتمعـاً صغيـراً وحكـومـة مختصرة فهو يعتبـر المجتمع الكبيـر أسرة مـوسعة يكـون الحاكم فيهـا أشبه بالرجل القائم على أمور أسرته.

لذلك يفرض على الحاكم أن ينظر كيف يختار جنـوده لحفظ الرعيـة والنـاس وكيف يختار وزراءه لإدارة شؤون الـدولـة وكيف يختـار المـوظفين الذين يقومون على شؤون الإدارة، وكيف يختار أهـل المشورة والنصيحـة. كل ذلك على أساس الحق والعدل.

وإذا بدأنا بعملية اختيار الجنود، نلاحظ أن نظام الجيوش في العصـر الـراهن يقوم على إنشـاء بعض الفرق الخـاصة التي يـطلقـون عليهـا فـرق المغاوير. وهناك بعض الدول التي تفرض على أفراد هؤلاء المغـاوير عـدم الزواج وعدم القيام بالشعائر الـدينية لكي يجعلوا منهم أنـاساً قسـاة القلوب يميلون إلى الإرهاب والوحشية.

كما أن المسؤولين عن تدريبهم يعوّدونهم على أكل بعض الحيوانات مثل الحيات والثعابين والكلاب. ومن شأن هذا اللون من الـطعام أن يؤدي إلى قتـل الوجـدان والضميـر وإلى قسـوة القلب. من هنـا يمكن أن نـدرك عـظمة الإسـلام عندمـا يحرم علينـا الدم والميتـة ولحم الخنزيـر والكـلاب والحيوانات المفترسة.

وقد لاحظت أثناء تجوالي في أفريقيا أن بعضهم يـأكلون لحم القرود ومن خلال المراقبة تأكّد لي أن الذين يأكلون هذا اللحم لا رقـة في قلوبهم ولا رحمة ولا إنسانية. وعلى هذا الأساس يأمرنا الإسلام بأكل الطيبات لأن

الحلال من الأكل يوفقنا إلى العمل الصالح وعمل الخير في حين أن لقمة الحرام تدفع بالإنسان إلى أحضان الشيطان. يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٥١].

إن أكل الطيبات يؤدي إلى العمل الصالح تماماً كالصلاة التي تزودك بالطاقة المسلكية في المجتمع.

وعلى ضوء ما تقدم نفهم لماذا قال الإمام الحسين مخاطباً جيوش يزيد بن معاوية يوم العاشر من محرم، بقوله: «ملئت بطونكم من الحرام»، لذلك كانت قلوبهم أقسى من الحجر الصلد لا سيما عندما كانوا يسمعون بكاء الأطفال من العطش دون أن تتحرك في قلوبهم أية رحمة أو عاطفة لأنهم يفتقرون إليها. بل يقولون للحسين: أترى الماء كبطون الحيات، والله لا تشرب منه حتى تموت عطشاً.

كيف يختار الإسلام جنوده وموظفيه

إن المغاوير الذين أشرنا إليهم آنفاً هم لون من ألوان الجنود الذين أوكلت إليهم مهامّ حفظ النظام وحاكمه الظالم، لا لحفظ حقوق الناس. أما الإسلام فهو يعتبر أن مهمة الجنود الدفاع عن الناس وعدم التعرض إلى ممتلكاتهم وأعراضهم.

وقد ورد في عهد الإمام عليّ (ع) لمالك الأشتر حين ولاه مصر ما يأمره به كيف يختار جنوده ووزراءه وموظفيه، مما يعتبر وثيقة هامة في أصول الحكم وإدارة الدولة وسياسة الرعية. وهو عهد طويل في نهج البلاغة يؤكد عظمة الإسلام من خلال فكر الإمام علي سياسياً وإدارياً وحقوقياً وتنظيمياً فيما يتعلق بكل شؤون الدولة. وليت حكامنا يعملون

بموجب ما ورد في هذا العهد من كنوز في فن الحكم.

ومما جاء في هذا العهد النفيس: «... ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك... فأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم والعطف فيهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق».

أي أن الإسلام يحفظ حقوق كل الناس مسلمين كانوا أو غير مسلمين، شرط ألا يكونوا ظالمين محاربين. وليس منا من لا يعرف قصة الرسول الأعظم مع ذلك اليهودي الذي كان يؤذيه باستمرار فهو جاره. وعندما انقطع أذاه ثلاثة أيام سأل عنه فقيل له: إنه مريض. فذهب لعيادته مما أدى ذلك إلى إسلام هذا اليهودي.

ويتابع الإمام كلامه الرائع فيما يتعلق بجنود الدولة فيقول: «... فالجنود بإذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الأمن وليس تقوم الرعية إلَّا بهم» ثم ينصحه كيف يختارهم: «فولِّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك... ثم الصق بذوي المروءات والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة...».

أما الموظفون فقد أشار عليه كيف يختارهم بقوله: «... ثم انظر في أمور عمالك... وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة... ثم اسبغ عليهم الأرزاق... ثم تفقَّد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم...».

أما الوزراء فكيف يختارهم؟ «إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار

وزيراً ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأئمة وإخوان الظلمة...»

فأين من هذا العهد، كان العباسيون وبنو أمية حيث كانت مواكب البغي والظلم والضلال تسحق الضعفاء بحوافر الخيول، وكانت الجنود تهاجم البيوت الآمنة وتعتدي على الحرمات. فهذا معاوية بن أبي سفيان يأمر حاكمه بالمدينة أن ينكل بالمعارضة لا سيما من بني هاشم حيث كان يشدد عليهم بالتجويع والإرهاب حتى يتأذى الواحد منهم في لقمة عيشه.

وعندما اشتد الأمر على أهل المدينة خرج الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري قاصداً معاوية في الشام يريد الدخول عليه لكي يحدثه عن أهل المدينة ومحنتهم. ولكن معاوية يمتنع عن الإذن له بالدخول فيعود هذا الصحابي من حيث أتى وقلبه ينزف من أجل الأمة الإسلامية التي انحطت إلى هذا الدرك بعد أن حكمها بنو أمية بالظلم والجور. فأرسل له معاوية ستمائة درهم مع رسول له، فقال جابر للرسول: ردّها إليه وقل له: «والله يا ابن آكلة الأكباد لن أكون سبباً في حسنة واحدة يكتبها الله في صحيفتك».

الإسلام يختار للطفل أمه

سبق القول إن الإسلام يعطي الأولوية في نظامه التربوي للأسرة لا سيما المرأة في طيب أصلها وعراقته لأن المجتمع سوف ينهل من هذه الأسرة أسباب ديمومته أو دماره. لذلك يقول الإمام علي سلام الله عليه: «كرم الأخلاق يدل على أصالة الأعراق». كما أن الإسلام يعتبر أن مصدر السعادة والشقاء في الجو الأسروي يعود إلى أربعة: المرأة والجار والمسكن والمركب، فإذا صلحت المرأة وصلح الجار وكان المسكن واسعاً

وتأمن المركب كان ذلك مصدر سعادة للأسرة وإلاّ كان مصدر شقاء.

إنه يضع المرأة في رأس القائمة لأن الأم إذا لم تكن صالحة بالمفهوم الإسلامي أدى ذلك إلى انحراف الأسرة وشقائها. وكذلك الجار الذي إذا كان جار سوء فإنه يشوه الحياة ويسبب لها الشقاء وقل مثل ذلك في البيت إذا كان ضيقاً، لأن الإسلام يشترط فيه السعة ليساعد على الانطلاق في نفسية الطفل بشكل خاص لأن الطفل يحتاج إلى مجال واسع يسمح له بالحركة والانطلاق.

كما أن الإسلام يدعو في عملية اختيار الزوجة ألا يكون السبب الوحيد هو جمالها فقط لا سيما إذا كانت ذات أصل سيِّىء وعرق خبيث ومنبت سوء. لذلك يقول النبي الأعظم: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» ويقول: «إياكم وخضراء الدمن» قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: «المرأة الحسناء في منبت السوء». ذلك لأن الطفل يبدأ بالأخذ من أمه وهو في بطنها.

لذلك تجد في المسار العام أن الآباء الطيبين والأمهات الطيبات ينجبون أطفالاً طيبين ويتركون ذرية صالحة والعكس صحيح. على أن الاستثناء قد يحصل بسبب فساد المجتمع أو صلاحه، ولكن الاستثناء لا يلغي القاعدة بل يبررها ويؤكدها.

وهنا أريد أن ألفت النظر إلى مسألة شبابنا الذين يسافرون إلى الغرب ويتزوجون من فتيات غربيات بالرغم من توفر البنات المسلمات المؤمنات الصالحات في بلادنا وفي مجتمعنا الإسلامي. إن مثل هذا الزواج من الغربيات محكوم عليه بالفشل لا سيما بعد إنجاب الأطفال حيث يبدأ النزاع بين الزوجين على نمط التربية التي سوف يخضع لها الطفل: هل

يغلب الزوج بأفكاره وتقاليده الإسلامية والشرقية أم تغلب الأم بأفكارها وتقاليدها الغربية والغريبة؟

لذلك تجد الأطفال حائرين ضائعين ممن يأخذون من أبيهم المسلم أم أمهم المسيحية الغربية.

إن الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ عندما يقول: إياكم وخضراء الدمن فذلك لأن المرأة وإن كانت حسناء، فإن منبتها منبت سوء، ولأن حجر الأم هو الحجر الأساس في تربية الطفل. والرسول الأعظم يقول: «السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه». لذلك لا يعتقدنَّ أحد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يكتب الشقاء على أحد من الخلق. بل إن الإنسان هو الذي يسبب لنفسه الشقاء بسوء سلوكه ورداءة اختياره.

ذلك لأن الله ـ سبحانه ـ حكيم، أقام الكون كله على حكمةٍ، من الذرة حتى المجرة ومن النملة والنحلة حتى الفيل والزرافة. فكل شيء في هذا الكون قائم على نظام دقيق يدل على وحدانية الخالق وروائع حكمته وحسن تدبيره وبديع صنعه. فلماذا يكتب علينا الشقاء وهو الحكيم والمدبر؟ ولماذا أرسل الأنبياء وأنزل القرآن؟

إن القرآن الكريم ينظِّم لنا كل حياتنا وكل حركتنا بأوامره ونواهيه، وبقوله: اعمل أولا تعمل، أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، كما يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. وعلى هذا فإن قول الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ: «الشقي من شقي في بطن أمه» فيه إشارة إلى معنيين: مادي ومعنوي.

فالمعنى المادي هو أن الطفل قطعة من أمه، فأي حركة منها أو أي

نقص في الغذاء أو الشرب، أو أي تصرف خاطىء لا سيما في تناول العقاقير في أثناء الحمل، قد يؤدي ذلك إلى تشويه في خلق الطفل وتركيبه البيولوجي والفيزيولوجي كالعمى والشلل. أما المسألة في الجانب المعنوي فهي أن الطفل هو قطعة من الأم على ضوء صلاحها أو عكسه حيث ينعكس ذلك حتماً على أخلاق الطفل ونفسه وتركيبه السيكولوجي.

يضاف إلى ذلك مسألة الحليب، فحليب الأم له أثر فعّال في بناء الطفل وتركيبه المادي والمعنوي. لذلك يقول الإمام عليّ سلام الله عليه: «لا تسترضعوا الحمقاء فإن اللبن يُعدي». ومن هنا نفهم أن صناعة الإنسان تبدأ في حجر الأم.

وهذا المعنى نجده في قصة موسى ـ عليه السلام ـ، إذ يخاطبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني**﴾ [سورة طه: الآية ٣٩].

أي تصنع صناعة ربانية. ولكن أين كانت هذه الصناعة؟ كانت في حجر الأم: ﴿**إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقرّ عينها ولا تحزن**﴾ [سورة طه: الآية ٤٠].

إن هذه المناهج التربوية لن تجدها إلاَّ في الإسلام لأن الهدف منها بناء الإنسانية الطيبة الطاهرة. ونحن نجد هذه المناهج ماثلةً في كل عباداتنا، في الصلاة والصيام والحج والزكاة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي الدفاع عن الحق والعقيدة. إنها شعائر مليئة بالتربية. ومن هنا كانت الصلاة معراج المؤمن وصلة بين العبد مع ربه، فكيف يجرؤ الإنسان على بتر هذه الصلة التي فيها سعادته وخلاصه؟

أهل البيت (ع) علّة الوجود

إن الله ــ سبحانه وتعالى ــ لم يكتف أن هيأ لـلإنسانيـة مناهـج رائعة في التربية والسياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع، بـل هيّأ لهـا باقـة من الأطهار الميامين وصفوة من المعصومين لكي يرشدوا البشر إلى تطبيق هـذه المناهج والأنظمة، فخلق لهم العترة الطيبة الطاهـرة التي تَمَثَّلَتْ بأصحـاب الكساء الخمسة محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين وسائـر المعصومين من ذرية الحسين ــ سلام الله عليهم أجمعين ــ .

ونحن نعتقد أنه لولا محمد وأهل بيته لما خلق الله الكون أبـداً. لأنه من دونهم تتحـول الحياة إلى ظـلام دامس. ففي سيرة الحبيب المصـطفى نجد الرأفة والمحبة والرحمة. فقد أرسله الله ــ سبحانه ــ للناس رسولاً من أنفسهم **﴿عـزيـز عليـه مـا عَنِتُّم حـريص عليكم بـالمؤمنين رؤوف رحيم﴾** [سورة التوبة: الآية ١٢٨].

و **﴿هو الذي أرسـل رسولـه بالهـدى ودين الحق ليظهـره على الدين كله ولو كره المشركون﴾** [سورة التوبة: الآية ٣٣].

وهـذه السيرة نفسهـا سكبها الله في قلب أمير المؤمنين ــ سـلام الله عليه ــ لكي يقود الأمة بعد وفـاة نبي الرحمـة. ومن هنا فـإننا لا يمكن أن نفهم ثورة الحسين والمبادىء التي قـامت عليها حـركته إلاّ إذا اطلعنـا على سير الأحداث التي أعقبت وفاة النبـي خلال خمسين سنة وصولاً إلى واقعـة الطف. إن هذه المعرفة للأحداث تجعلنا نعرف من هو الإمام الحسين ومن هو مسلم بن عقيل سفيره إلى أهل الكوفة.

فـلا يستغربنّ أحـد إذا طرحت السؤال التـالي: ما هي أصـول الدين وكم عـددها؟ فـرب سائـل يسأل: مـا العـلاقـة بين هـذا السؤال وبين سير

الأحداث بعد وفاة رسول الله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ ؟ وجواباً على السؤال أبادر فأقول: لقد امتدت الأيدي والأهواء إلى هذه الأصول وإلى عددها. فجعلوها ثلاثة بدلاً من خمسة عندما أسقط بعضهم العدالة والإمامة ونحن نعلم أن أصول الإسلام خمسة: التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد أي القيامة.

إن الإمامة التي هي أصل من أصول الإسلام وركن من أركانه ضربت بعد موت النبي مباشرة عندما شنوا هجوماً على بيت علي وفاطمة لكي يسقطوا هذه الإمامة التي ضربوا من خلالها حتى مبدأ التوحيد عندما فرّغوه من مضمونه، لأن يزيد في هذه الحالة يصبح من حقه أن يكون إماماً للمسلمين فهو يصلي ويصوم، وعمر بن سعد كان يقول بالتوحيد ويصلي ويصوم وقد صلَّى يوم عاشوراء ويده تقطر من دماء الحسين سبط النبي وابن الزهراء فلم يمنعه إيمانه بالتوحيد من ارتكاب هذه الجريمة النكراء في حق من قال فيه النبي «حسين مني وأنا من حسين».

والذين حاصروا الزهراء بين الباب والحائط وكسروا ضلعها وأسقطوا جنينها كانوا يؤمنون بمبدأ التوحيد ويصلون ويصومون ومع ذلك فلم يردعهم التوحيد الذي يؤمنون به عن إيذاء بضعة النبي التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها. إن الواحد منا لو رأى جماعة يضربون امرأة من سائر النساء لسقطوا من عينه، فكيف بمن يتجرأ على ضرب سيدة نساء العالمين.

كذلك الذين قتلوا الحسين رفعوا رأسه على الرماح وراحوا يكبرون بصوت عالٍ: الله أكبر. الله أكبر. إنه لأمر غريب يقتلون الحسين ويكبرون!!! وهم بفعلهم هذا إنما قتلوا التكبير والتهليل على حد تعبير السيد الحلي، لأنهم قتلوا صوت الله في الأرض. فكيف يقتلونه ثم يدعون

بعد ذلك أنهم مسلمون ينتمون إلى الأمة الإسلامية وإلى جده رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ ؟

قبسات من فضائل عليّ (ع)

إن حياة الإمام علي ــ سلام الله عليه ــ سواء أيام النبي ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أو بعد وفاته أو في أثناء الخلافة، سلسلة من الأنوار والإشراق عطاءً وجهاداً وفكراً وعلماً وعبادة وورعاً. ففي أيام البعثة آمن برسول الله منذ اللحظة الأولى وصدقه ووقف إلى جانبه فنصر الإسلام بفكره ولسانه وقلبه وسيفه. وما زالت ساحات الحرب والوغى تتردّد في جنباتها أصداء فروسيته وشجاعته وضرباته البكر، وأقلها عندما صرع عمرو بن عبد ود العامري فانتصر الإيمان كله على الشرك كله.

وفي صفين أيضاً كانت له مواقف رائعة، لا سيما عندما طلب إلى معاوية أن يقاتله رجلاً لرجل وليحكم الفائز فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أنصفك الرجل. فقال له معاوية: طمعت بها يا عمرو ــ أي بالخلافة ــ ألا تدري من هو علي بن أبي طالب. ثم أمره معاوية أن يبرز هو لعلي بن أبي طالب. وما كاد عمرو بن العاص يفعل حتى شاهد بريق ذي الفقار يعكس أشعة الشمس فبهره البريق وأخذه الخوف، ولم يجد غير عورته يكشف عنها لكي تنقذه من هذا الموقف الصعب فتركه أبو الحسن الذي ما وقع بصره على عورة أحد قط. لذلك ظل معاوية مدة وهو يعيره بذلك قائلاً له: عليك أن تشكر عورتك يا عمرو.

إن الغاية لا تبرر الوسيلة عند الإمام علي، فقد كان باستطاعته أن يقتل عمراً، ولكنه لم يشأ أن يحصل على النصر بهذه الطريقة. وهي سنّة سنها لبني هاشم من بعده. لذلك لم يغدر مسلم بن عقيل بعبيد الله بن زياد

عنـدما كـان يعود شـريكاً المـريض في دار هاني بن عـروة بـالـرغم من أن الفرصة سنحت لـه. وعندمـا عوتب في ذلـك قال: نحن معشـر بني هاشم لا نفتك ولا نغدر لأن رسـول الله يقول: «إن الإيمـان قَيْدُ الفتـك فلا يفتـك مؤمن». ومن هنـا نفهم لمـاذا اختـاره الإمـام الحسين سفيـراً لـه إلى أهـل الكوفة قائلاً لهم في رسـالته: «أرسلت لكم أخي وابن عمي والمفضـل من أهل بيتي» فكان خير سفير لخير إمام.

ولنفرض أن مسلماً قتـل ابن زياد غـدراً، فإن يـزيد لـديه الآلاف من أمثال ابن زياد، ولكـان مسلم مقتولاً بتهمـة الجريمـة، ولتغيرت المقـاييس والنتـائـج كلهـا. ولكن مسلم بن عقيـل ينتمي إلى دوحـة النبـوة بـأخـلاقـه الإسـلامية التي تخلّق بهـا. فليس من قبيل الصـدفة اختـاره الإمام الحسين سفيراً له إلى الكوفة. لذلك ما زالت وسوف تبقى صورته في التاريخ مشرفة على مـر العصـور حتى يقضي الله أمـراً كـان مفعـولاً يـوم يقف الحسين وابن عمـه وأهل بيتـه وأصحابـه أمام رب العـالمين فينتصـر لهم من أولئـك الأثمة والظلمة الذين أقام عليهم الإمام الحسين كـل حجة يمكن أن يحتـج بها ابن بنت نبـيّ على ظالميه.

هذا من جهة ومن جهة أخرى، لو أن مسلماً قتـل ابن زياد فهـل كان بإمكان الحسين أن يحتج على القوم عندما قال لهم يوم عاشوراء: «ويحكم أتطلبونني بقتيل منكم قتلته...» فلو كان مسلم فعلها لقـالوا للحسين: نعم نطلبك بدم ابن زياد. ولكن ذلـك لم يحدث لأن الإسـلام الصافي لا يمثله إلاَّ الحسين ومن اختاره الحسين. لذلك طأطـأوا رؤوسهم عندمـا قال لهم: «ويحكم أتــطلبـونني بقتيـل مـنكـم قتلتــه أو مــال لكـم استـهلكتــه أو بقصاص... إلخ».

وبذلك يتضح لنا كيف سنّ الإمـام عليّ ـ عليه السـلام ـ قوانين في

الحرب والقتال شريفة لكي تكون على مستوى الإسلام الذي يحمله في عقله وقلبه. أما سيرته بعد أن استلم الخلافة وبايعه الناس بالإجماع، فقد كانت مكملة لسيرة النبي ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ. فعمد أولاً إلى تطهير جهاز الدولة من الأشرار الذين كان قد عيَّنهم عثمان بن عفان من أمثال مروان بن الحكم الذي كان يُجبى له خراج أفريقيا، وعمرو بن العاص الذي كان على مصر.

أما أموال بيت المال من ذهب وفضة فقد كان يوزعها على مستحقيها دون أن يستبقي لنفسه شيئاً. فقد كان يقول: «يا صفراء ويا بيضاء غري غيري». لقد كان يوزعها بالعدل والمساواة على الرعية. ويُروى أنه قد جاءته امرأة قرشية فأعطاها نصيبها. ولكنها عندما التقت بامرأة فارسية وعلمت أن عطاء هذه المرأة هو نفس عطائها، عادت إلى الإمام علي وقالت له: يا أمير المؤمنين، أمن العدل أن تساوي بيني وبين هذه الأمة الفارسية بالعطاء؟ فرمقها الإمام ثم انحنى إلى الأرض وأخذ قبضة من تراب وراح يقلبه وينظر إليه وهو يقول: والله ما أرى في التراب فضلاً لبعضه على بعضه الآخر ثم قال لها: يا أمة الله اقرإي القرآن: **﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** [سورة الحجرات: الآية ١٣].

فما الفرق بينك وبينها؟

وفي عهده كان الناس ينعمون بجوّ من الحرية حتى أعداؤه منهم. فقد كان في الكوفة أربعة مساجد يُهاجم فيها علي بن أبي طالب ويشتم ويلعن على ألسنة أشخاص من أمثال شبث بن ربعي وعمرو بن حريث. ومع ذلك فلم يتعرض لهم أبداً، إنما كان ينصح أصحابه ويأمرهم بألا يصلوا في هذه المساجد لأنها ملعونة. وكان يأمرهم بألا يتعرضوا لهؤلاء

الخوارج، وفي رجاله أمثال مالك الأشتر وعمار بن ياسر وإبراهيم بن مالك وغيرهم.

إنها الديمقراطية بعينها والحرية بأبهى صورها، فأين منها الحريات اليوم وأين منها الديمقراطيات التي تدعي العدالة وتأمين أجواء الحرية لكل الناس. علماً أن الإمام علياً هو أول من فتح بيتاً للمظالم وكان يشرف على هذا البيت بنفسه. فكل من عنده مظلمة كان يكتب ظلامته على ورقة ويلقيها في ذلك البيت، فيأتي الإمام بنفسه ويفتح الباب ثم يقرأ المظالم لكي ينتصر بعد ذلك لكل مظلوم مهما علت منزلة ظالمه ويعيد لكل إنسان حقه.

وهل ننسى تلك المرأة التي جاءت من البصرة إلى الإمام علي في الكوفة لكي تشكو واليها، ثم عادت بعزله؟ ولا ننسى أيضاً عندما عزل أبا الأسود الدؤلي واليه على اليمن. فقال له: لماذا عزلتني يا سيدي؟ هل خنت الأمانة؟ قال: لا.. نعم الرجل أنت ولكن بلغني أن صوتك يعلو صوت الخصمين.. فما أعظمك يا سيدي وما أكرمك في فكرك وفي عدالتك وفي قلبك وفي عبادتك وورعك وصلاتك وفي بلاغتك وحكمتك!!! فَلْيَقْتَدِ بك المقتدون وليسر على دربك السائرون ولينهج نهجك الناهجون.. فأكرم بك وصياً ووزيراً وإماماً.. وأعظم بك حاكماً وسياسياً قديراً.. فقد كنت خير وصي لخير نبي.. يسجد على أعتابك البيان وتستجدي لسانك البلاغة.. وفقنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكي نكون من أتباعك وشيعتك.. فإن ذاك هو الفوز العظيم.. والنصر المبين.. والثروة التي لا يدانيها ذهب أو فضة.. والمرتبة التي لا يباهيها شرف أو مجد أو سؤدد...

مسلم بن عقيل: السفير المغدور

بأبي وأمي مسلم بن عقيل الذي أرسله الإمام الحسين سفيراً إلى أهل الكوفة.. وقفوا إلى جانبه بعشرات الألوف.. ولكن بعد أن رماهم يزيد بعبيد الله بن زياد بناء على اقتراح سرجون المجوسي.. بدأوا يتناقصون بقدر ما كان ابن زياد يزيد بالأموال ويشتري الضمائر التي بيعت بثمن زهيد.. وأخيراً وجد نفسه وحيداً فريداً يؤدي الصلاة في المسجد وحده.. فتلفت يميناً وشمالاً.. فلم ير أحداً.. فقد هرب أبناء الغدر وتسللوا تحت جنح الغدر والذهب والخوف لاعقين وعودهم وصرخاتهم وكتبهم وخطبهم وتفننهم في البيان والكلام.. أكلوا الحروف.. وشربوا الكلمات وتنكروا حتى لأنفسهم.. تاركين سفير الحسين يلملم أحلامه ويهدهدها.. يجتر آلامه وأوجاعه لا خوفاً على نفسه ولا وجلاً على روحه.. فهو من بيت يحسن صناعة الموت والشهادة.. ولكن أسفاً وحزناً على سيد الشهداء حيث بعث إليه برسالة فور وصوله إلى الكوفة يخبره فيها أن الجناب قد آخضر والثمار قد أينعت.. ويستعجله المجيء..

وإذا كان قد رفض أن يغدر بابن زياد وهو في بيت عروة بن هانيء.. فإن ابن مرجانة كان قد عقد العزم على أن يجرّعه الموت غصصاً بطريقة لم يسبقه إليها لئيم..

ولكم بكاه الحسين عندما بلغه نبأ مصرعه وهو في طريقه إلى محط الرحال.. ومقاتل الأبطال.. إلى كربلاء.. ومن هناك كانت الهجرة إلى السماء..

● ● ●





الفصل الخامس

آجال الأمم حياة المجتمع وموته

* الأخوة في الإسلام والفطرة السليمة.
* الدين والفطرة.

آجـال الأمـم
حياة المجتمع وموته

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿ولكل أمَّة أجلٌ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٤].

الموت سُنَّة الله في خلقه

الموت حقٌّ، وقدرٌ مقـدَّرٌ، وإن كان لكـل منيَّة سبب. وهـو يقع على جميع المخلوقات من إنسان وحيوان ونبات وجماد.

والمـوت يكـون على ثـلاث مستويـات: مستوى الفـرد، ومستـوى المجتمع والأمة، ومستوى الكون.

هذه المستويات الثلاثة أشار إليها القرآن. فعلى مستـوى الفرد قـال: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾. [سورة آل عمران: الآية ١٨٥].

وعلى مستوى الأمم والجماعات جاء في التنزيل العزيز: ﴿ولكل أمة أجلٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣٤].

وقـال: ﴿وما تـرك على ظهـرهـا من دابـة ولكن يؤخـرهـم الى أجـل مسمًّى﴾ [سورة فاطر: الآية ٤٥].

وقال: ﴿كل من عليها فان﴾ [سورة الرحمن: الآية ٢٦].

وعلى مستوى الكون قال: ﴿وسخَّر الشمس والقمر كلٌ يجري إلى أجل مسمًى﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٩].

حقائق الموت الشاملة هذه تشير إلى ناحية أخرى وهي أن البقاء والحياة للخالق وحده: **﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾** [سورة الرحمن: الآية ٢٧].

وإذا كان لكل أجل كتاب ولكل موت سبب، فإن موت الفرد يكون بسبب توقف الدورة الدموية في جسمه. فمن الناحية الطبيَّة حياة الإنسان متوقفة على حركة الدورة الدموية. ولكن ما سبب موت الأمة والمجتمع؟ يموت المجتمع بموت الأخلاق فيه.

فالأخلاق بالنسبة للمجتمع هي بمثابة الدم الذي يجري في عروقه ويعطيه الصحة والحياة. فإن فسدت هذه الأخلاق أو فقدت يصبح المجتمع كرجل يحمل دماً فاسداً أو كرجل نزف جميع دمائه. وبذلك يتعرَّض المجتمع للموت. يقول الشاعر:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويقول الرسول (ص): «إنما بعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق».

ومكارم الأخلاق بالمفهوم الإسلامي والرسالي تعني جميع قيم الحق والعدالة، تعني محاربة الظلم والباطل، ونصرة المظلوم على الظالم، وتحرير الإنسان من جميع ألوان العبوديات، وإرجاع الحقوق إلى أهلها، ووضع الأمور في مواضعها ونصابها.

فإذا مات الحق في المجتمع، وذهبت الحقوق، وساد الظلم، بات المجتمع جثَّة هامدة لا حياة فيها ولا رجاء منها.

وأما موت الكون والعالم فيكون بموت الجاذبية، هذه القوة التي

تحكم سير المجرات والكواكب. إذا فقدت الجاذبية ارتطمت الأرض بالشمس، وتبعثرت الموجودات على سطح الأرض. وهذه الجاذبية هي قوة تعمل بقانون ثابت هو من صنع الخالق عزَّ وجل.

الموت المادي والموت المعنوي

والفرد والمجتمع يتعرضان لنوعين من الموت: الموت المادي، والموت المعنوي.

إذا توقف نفس الإنسان أو قلبه أو دماغه أو الدورة الدموية في جسمه لسبب من الأسباب فإنه يموت موتاً مادياً. يدفن في الأرض ويتحلل جسمه في التراب. ولكن ليس هذا هو الموت الوحيد الذي يصيب الإنسان. فربما رأيت إنساناً يتحرك ويتنفس ويأكل ويشرب، ولكنه في الحقيقة في عداد الأموات، لأنه لا يعرف الحرية، ولا يتحرك لكرامته، ولا يفقه آيات الله البيّنات، ولا يستجيب لدعوة الحق. لقد مات الإنسان فيه، وغدا يعيش حياة بيولوجية صرفة لا تميزه عن بعض الحيوانات الدنيا. يقول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادي.

ويقول: ما لجرحٍ بميّت إيلامُ.

وفي التنزيل العزيز: **﴿فإنك لا تُسمع الموتى ولا تُسمع الصُمَّ الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾** [سورة الروم: الآية ٥٢].

والأمم أيضاً تعرف نوعين من الموت: الموت المادي والموت المعنوي.

فالموت المادي هو الذي يغني الجماعة بأجسادها المادية. وقد أشار القرآن الكريم إلى أمم كثيرة وجماعات أهلكها الله لأنها ظلمت

أو أسرفت أو طغت: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٧].

﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ [سورة الأعراف: الآية ٤].

﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها﴾ [سورة الحج: الآية ٤٥].

هذا هو الموت المادي بالنسبة للأمم والجماعات. ولكن هل يمكن أن نقول بأن الجماعات التي كان يحكمها الحجاج بن يوسف الثقفي وتستكين لحكمه وظلمه هي أمة حيَّة؟ إنها ولا شك أمة ميتة، وموتها معنوي. الحجاج بن يوسف يقف في الناس وهم ينظرون إليه كأن على رؤوسهم الطير ويقول: «إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها». ومع ذلك لا يسمع صرخة استنكار ولا صوت اعتراض. هؤلاء الناس قد هانوا واستكانوا، وما عادوا في عداد الأحياء.

إن الذل والهوان والاستكانة في الأمة هي الموت الحقيقي. لذلك يقول أمير المؤمنين (ع): «الحياة في موتكم قاهرين، والموت في حياتكم مقهورين».

بعض الناس لا تؤثر فيه إلَّا القضايا المادية. فإذا أخذت منه درهماً يقيم الدنيا ولا يقعدها، وإذا خسر خسارة مادية فإنه يصبح حزيناً مهموماً لا تغمض له عين ولا يهدأ له بال. هذا الشخص نفسه لا يشعر بالحزن إذا سلبت منه حرّيته، ولا ينتفض إذا جرحت كرامته.

إن الإسلام يربط بين الجانبين المادي والمعنوي، وهو يريد للإنسان حياة كريمة على المستويين. لذلك نجد التشريع يربط أيضاً بين هذين الجانبين.

يقول القرآن الكريم:

﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾ [سورة الزلزلة: الآيتان ٧ ــ ٨].

إن مثقال ذرّة من خير أو شر له ثوابه أو عقابه، سواء كانت هذه الذرّة مادية أو معنوية.

والآية الكريمة هنا لا تريد القول بأنك إذا قدّمت ذرّة من الخير تلاقي ذرّة واحدة من الثواب، وإذا قدّمت ذرّة من الشر تلاقي عقاباً على قدرها، وإنما تريد الآية التأكيد على أن العمل من خير أو شر له قيمة مهما صغر حجمه. فمن يسرق مال يتيم يرتكب إثماً كبيراً. ولكن الذي يسلب نملة حبّة قمح يرتكب إثماً أيضاً، ولا يمكننا القول بأن هذا العمل بسيط تافه لا قيمة له. ولذلك جاء: من أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً، ومن قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً.

إن الميكروب الصغير الذي لا يرى إلاّ بالمجهر يمكنه أن يؤدي إلى وباء كبير يقتل عشرات الناس. كذلك فإن مثقال ذرة من الانحراف الأخلاقي يمكنه أن يكبر ويتفشى ليقضي على مجتمع بكامله.

العلاج المادي والعلاج المعنوي

إذا أصيب الإنسان بمرض عضوي فإنه يسعى إلى طبيب ليعالجه. وعمل الطبيب هو إعادة الجسم إلى الخط الصحي السليم ومعالجة الانحراف في الجسم. لذلك يستخدم الطبيب علمه وأدواته وموازينه الخاصة.

لكن إذا مرض المجتمع فإن أطباء الأبدان لا يستطيعون علاجه.

فالمجتمع المصاب بانهيار الأخلاق مثلاً لا يشفى من مرضه ولو اجتمع على ذلك كل أطباء العالم. لماذا؟ لأن هذا المرض معنوي وليس مادياً يمكن علاجه بالأدوية أو الجراحة أو ما شابه ذلك.

من الذي يعالج المرض الاجتماعي؟ إنهم الأنبياء. فالأنبياء هم أطباء المجتمعات والأمم والشعوب. ذلك أنهم بتعاليمهم ورسالاتهم السماوية يعيدون إلى المجتمع موازينه الصحيحة. فإذا انهارت الأخلاق في المجتمع تكون الثورة الرسالية التي تمثل عملية علاجية كبرى تشفي الجسم الاجتماعي من انحرافه.

من هنا يقول الرسول الأعظم (ص): «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وهذا يعني أن مكارم الأخلاق تمثل وتختصر جميع القيم الإيجابية في المجتمع، ولذلك اعتبرت عنواناً للرسالة الإسلامية. وهذه المهمة العلاجية والإنقاذية لم تتوقف بموت رسول الله (ص) وإنما امتدت بأهل البيت (ع). لأن عدم امتدادها يعني أن المجتمع قد شفي من أمراضه ولن يصاب بمرض بعد ذلك، وهذا أمر مستحيل. فالانحراف الاجتماعي محتمل الوقوع دائماً، وقد وقع في جميع الأزمنة، لذلك لا بد من وجود أطباء حاضرين مجهزين بجميع أدوات العلاج والشفاء الاجتماعي. وهذه الأدوات تتمثل بالشريعة وتعاليم الرسالة، وهي مستودعة عند أهل البيت (ع).

الإصلاح بالثورة والبناء

عندما يقع الانحراف في المجتمع وينتشر الظلم ويتسلّط الطاغوت معنى ذلك أن المجتمع مصابٌ بمرض خطير لا بد له من طبيب خبير مؤهَّل للإنقاذ.

يمكن أن تكون عملية الإنقاذ هذه بالثورة. أي عملية جراحية كبيرة تبتر الفساد وتجتثّه، ويمكن أن تكون بعلاج تدريجيّ. وهذا يتعلق بوضع المجتمع أو وضع الجسم المريض.

فإذا وجد الطبيب أمامه مريضاً غير قادر على تحمل عملية جراحية فإنه يلجأ إلى علاج آخر يكسب جسم المريض شيئاً من القوة ويهيئه للعملية الجراحية، أي أنه يقوم بعملية بناء في الجسم تؤهله لتقبل العملية الجراحية.

إذن يكون الإصلاح والتقويم والشفاء في المجتمع بأحد طريقين: الثورة أو البناء.

الإمام الحسين (ع) قام بالثورة. والإمام زين العابدين (ع) قام بعملية بناء. والعمليتان كانتا تصحيحاً للانحراف في المجتمع. الإمام زين العابدين قام عن طريق الدعاء والتحريض والتوعية وإظهار المظلومية بعملية إعادة بناء للإنسان المسلم الذي شوهته أكاذيب وسلطة الأمويين، وهو بذلك كان يبني القاعدة الصلبة للإصلاح. والإمام الحسن (ع) كان يرى بوضوح انحراف الأمويين وكذب معاوية ولكنه كان يرى في نفس الوقت أن جسم المجتمع غير قادر على تحمّل الثورة، فاتجه إلى البناء. وهذا لا يعني تناقضاً بين منهج الإمام الحسين (ع) ومنهج الإمام الحسن (ع)، وإنما هي عملية إصلاح وعلاج متكاملة. لذلك نجد الرسول الأعظم يقول: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا». لقد قام الإمام الحسين، وقعد الإمام الحسن، وكل منهما كان إماماً في علاجه وتصدّيه للانحراف في المجتمع.

الإمام الباقر (ع) اتجه إلى نشر العلم في المجتمع، أي نشر النور

الذي يبدد الظلام ويزيل الغشاوة عن عيون المسلمين. لذلك يقول الرسول عن الإمام الباقر: «إنه يبقر العلم بقراً».

إن عملية الثورة والتصحيح والبناء الحضاري المجتمعي التي قام بها أهل البيت (ع) هي عملية مترابطة متكاملة تتصل حلقاتها ببعضها البعض لتكوّن سلسلة واحدة.

الإمام الحسين كان يقول: «كونوا أحراراً في دنياكم»، والإمام الحسن يقول: «كونوا أوعية العلم ومصابيح الدجى». والإمام الباقر يقول: «كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا» والإمام الصادق يقول: «كونوا دعاة لنا صادقين».

هذه النواحي كلها متكاملة مترابطة تعيد المجتمع إلى موازينه الطبيعية، تشفيه من أمراضه وتصلحه. إنها عمليات مختلفة الوجوه والمستويات تجمعها عملية كبرى تحمل اسم الإصلاح. ومن هنا نفهم قول الحسين (ع): «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي». فحياة الأمة في الإصلاح، والإصلاح يعني إعادة جسم الأمة إلى موازينه الطبيعية، وهذه من مهمة الأنبياء والأئمة المعصومين (ع).

حياة الأمة واستشهاد الحسين (ع)

تمثل نهضة كربلاء وثورة الإمام الحسين (ع) أعظم حدث شهده تاريخ البشرية منذ استشهاد الحسين إلى اليوم.

وهذا الحدث العظيم يجب أن نتفاعل معه كما أراد الإمام الحسين لا كما نريد نحن. فقضية الحسين نأخذها كلها أو نتركها كلها، ولا مجال للتجزئة والانتقاء. فمن يأخذ مبادىء الحسين ولا يتفاعل مع مأساته ومظلوميته يبتعد عن الفهم الصحيح والكامل للثورة الحسينية.

زينب بنت أمير المؤمنين (ع) كانت بطلة صابرة في كربلاء، لم تذرف دمعاً ولم تلطم خداً. وقفت في كربلاء على مصرع أخيها الحسين وقالت: اللّهم تقبّل منا هذا القربان. وزينب نفسها في الكوفة ضربت رأسها بمقدمة المحمل وبكت واستثارت عواطف المسلمين وحركت فيهم كوامن لا يحركها إلاّ عرض المظلومية. هل هناك تناقض في الموقفين؟ العقيلة زينب لم تقع في التناقض، وإنما فهمت قضية الحسين فهماً كاملاً. بجانبيها الاثنين: جانب البطولة والتضحية والثورة، وجانب عرض المظلومية والمأساة. فكانت في كربلاء مثال الشجاعة والصبر والإقدام والتحمُّل، وكانت في الكوفة خير من عرض المأساة والمظلومية.

الإمام زين العابدين (ع) يقول لابن زياد: «أبالقتل تهدّدني؟! أما علمت أن القتل لنا عادة وأن كرامتنا عند الله الشهادة؟!». الإمام زين العابدين نفسه ما قدّم له طعام أو شراب إلاّ ومزجه بدموعه حزناً وألماً وفجيعة على مصرع الحسين (ع).

أنت مع الحسين؟ إذن عليك أن تحمل دائماً مبادئه وأهدافه وترفعها عالياً، وفي نفس الوقت ترفع مظلوميته وتذكّر بمأساته، لأنها ناقوس الخطر الذي يجب أن يدقّ دائماً وأبداً فوق رؤوس الطغاة والمتجبّرين في كل زمان ومكان.

إذا كان غاندي محرّر الهند يقول: «تعلّمت من الحسين بن علي كيف أكون مظلوماً فأنتصر» فالأحرى بأبناء الإسلام أن يحملوا هذا الدرس العظيم في كل لحظة من لحظات حياتهم.

إن رؤية الظلم والسكوت عنه هو انحياز إلى جانب الظلم. وهذه مسألة بديهية. فإذا سرق محلّ تجاري لأحد الناس ورأى المشهد تاجر آخر

منافس للتاجر المسروق، ففرح بالأمر ولم يعمل على منع السرقة، فإن اللصوص يؤتى بهم يوم القيامة ليحاسبوا، ويحشر معهم ذلك التاجر الذي فرح بالجريمة وسكت عنها ورضي بها. وإلى هذا المعنى يشير الإمام الصادق (ع) بقوله عن جدّه الحسين: «لعن الله أمة قتلتك، ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به».

إن خط الإمام الحسين هو خط المحرومين والمظلومين والمستضعفين، هو خط الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لذلك إذا ادعى إنسانٌ بأنه مع الحسين، وكان في نفس الوقت مؤازراً للمستكبرين أو ساكتاً عنهم فإنه يكون في عداد المنافقين. إنه إنسان بوجهين ولسانين، وهو عملة مزيفة لا يرضاها ميزان الإسلام. فكل من يكون مع الحسين يتحول إلى ثائر في وجه الطغاة والظالمين.

إن رفض الظلم هو رفض لاجتماع الحق مع الباطل، ولاجتماع النور مع الظلام. أرسلوا إلى الإمام الحسين (ع) يقولون له: أبا عبد الله، لقد مات معاوية، ونريد منك أن تبايع ابنه يزيد خليفة بعده. بعث إليهم الإمام الحسين قائلاً: إنما يزيد كافر قاتل النفس المحرّمة، ومثلي لا يبايع مثله.

والإمام الحسين (ع) كان يعرف النتائج المترتبة على وقوفه في وجه الطغاة، وكان يرى بأم عينه ما سيحدث في كربلاء. يقول: «كأني بأوصالي تقطّعها عُسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء». وهذا الأمر كان رسول الله (ص) يراه، فيعطي أم سلمة قطعة من تراب كربلاء ويقول لها: «انتظريها يوم عاشوراء. ستفور دماً على مقتل ولدي الحسين». وأمير المؤمنين (ع) يخط بسيفه في أرض الطفوف ويقول: «هنا والله تُقتل رجالنا، وها هنا تحرق خيامهم».

إنها قضايا حتمية. فعندما يقود البلاد والمجتمع يزيد بن معاوية،

وعندما تدير القرود والفهود البلاد والعباد، عندها يسقط الحق وترتعش شعلة الإسلام، ولا بد من الاصطدام واللقاء، ولا بد من التضحية والقتال، وهذا ما صنعه الإمام الحسين (ع).

لقد خرج الإمام الحسين إلى الموت ليحيي أمة بكاملها. فإذا كان شفاء المجتمع لا يكون إلاّ بالتضحية والفداء، عندها لا بدَّ للإمام من التصدّي للأمر. وهكذا كانت ثورة الحسين الضربة الكبرى التي ستسقط عروش الطغاة. لقد تجمعت دماء كربلاء ودموعها حتى صارت نهراً عظيماً جرف المتجبّرين وأسقط دولة بني أمية.

والثورة الحسينية شعلة تمتد نارها ويمتد نورها عبر الزمان. صوت الحسين في كربلاء انطلق ليتردد صداه في أسماع المستضعفين عبر الأجيال. ففي الهند حتى اليوم يخرج الملايين منذ اليوم الأول من المحرم وحتى آخره، يخرجون إلى الشوارع بمسيرات مليونية، يعفرون وجوههم ورؤوسهم بالتراب، ويسيرون في الشوارع مطرقين محزونين، يردّدون: حسين! حسين!. هذه الكلمة وحدها تفجر الثورة في القلوب، لأن المظلومين والمستضعفين وحدهم يفهمون لغة الحسين (ع).

• • •

الأخوّة في الإسلام والفطرة السليمة

الأخوّة في الإسلام
والفطرة السليمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوةٌ فأصلحوا بين أخويكم واتّقوا اللّهَ لعلّكم تُرحمون﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٠].

الفطرة السليمة والحكم على التناقضات

آراء الناس وأفكارهم مختلفة متباينة. هذا يحسِّن الشيء وذاك يقبّحه، هذا يحب هذه الخصلة وذاك ينفر منها. فهل جميع الناس على حق؟ وهل هناك ميزان نحكم بواسطته؟

إن الميزان هو الفطرة السليمة السويَّة التي وضعها الله قانوناً أساسياً من قوانين الخلق. أما الفطرة المنحرفة المشوّهة فإنها لا تصلح مقياساً في الحكم والتعميم.

ولتوضيح ذلك نعطي بعض الأمثال من الحياة. فالطفل مثلاً يولد على فطرة سليمة سويّة، في أحسن تقويم. فإذا ولد أعمى أو مشوهاً فهذا يعني أنه على فطرة غير سليمة. وإذا فتّشنا عن السبب نجده عند الأبوين أو في حلقة من حلقات الوراثة. فالثابت علمياً أن الطفل الذي تنعقد نطفته من أبوين في حالة السكر يأتي ضعيفاً متخلّف العقل مهزوز المشاعر. وهذا ما يحدث غالباً في بلاد الغرب بمناسبة أعياد الميلاد ورأس السنة.

وفي عالم النبات تقول الفطرة السليمة بأن الثمرة تأتي بريئة من أي عيب أو تشويه. فإذا جاءت مضروبة فليس معنى ذلك أن القانون الذي تسير عليه الطبيعة والذي وضعه الله بحكمة ورحمة هو الذي أنتج هذا التشويه، ولكن هذا التشويه نتج عن خلل في الزارع أو في الأرض المزروعة أو لسبب آخر يمكن معرفته بواسطة العلم والبحث.

يقول دارون إن أصل الإنسان قرد، ودليله على ذلك أنه قد ولد طفل قبل عشرة آلاف سنة له ذيل.

وترى شخصاً تصيبه مصيبة أو يتعرض لخسارة في ماله أو تجارته فيهتزّ إيمانه ويقنط ويحيل المسألة على أسباب متعلقة بإرادة الله. وقد يذهب به التطرّف إلى حدّ الكفر أو الانصراف إلى السكر والمفاسد. أما إذا أصابه خير فتراه يربط ذلك بحسن فهمه وذكائه ونجاحه في الحياة.

إن الطفل المشوَّه، أو الثمرة الفاسدة، أو الطفل المذنِّب، أو المصائب والخسائر التي يتعرَّض إليها الإنسان، هذه الحالات كلها لا تمثّل الفطرة السليمة ولا القاعدة التي نبني عليها مواقفنا وآراءنا الصحيحة. وإنما الفطرة السليمة هي ما جرت عليها الحياة دون انحراف أو تشويه... إنها الرحمة في الخلق والتكوين. وما عدا ذلك فهو تشويهات واستثناءات هي من مسؤولية الإنسان ولا يقاس عليها.

الفطرة وميزان الأعمال

لذلك علينا أن نبتعد عن المنحرفين ولا نأخذ ديننا وعقيدتنا منهم، وإنما نأخذه من ذوي الفطرة السليمة والأخلاق العالية.

نحن نأخذ الإسلام من أهل البيت والأئمة المعصومين (ع) لأنهم يقدّمون لنا الإسلام كما نزل من السماء، سليماً معافى، لا زيادة فيه ولا

نقصان. وتطبيقهم للإسلام هو التطبيق المثالي الذي لا تشوبه شائبة ولا ينحرف به هوى أو مصلحة. أما إذا ابتعدنا عن أهل البيت فإن المأساة الكبرى تبدأ، ويبدأ الانحراف وتتحكم الفطرة الفاسدة في الأمور.

لقد جمع الحكام الأمويون ومن بعدهم العباسيون فقهاء السوء الذين يزينون لهم فطرتهم المنحرفة ويخرجون على الناس بفتاوى تبرّر أهواء الحكام، وكل ذلك باسم الدين.

أعجب هارون الرشيد بجارية ليحيى بن خالد البرمكي، وكانت ملك يمينه، أي بمثابة زوجته. أرادها الرشيد له، وطلب من أبي يوسف القاضي أن يجد له مخرجاً شرعياً للاستيلاء عليها، قال له: أريد هذه الجارية، ولا صبر لي على الانتظار. وإذا أهداني إياها البرمكي يجب أن تكمل عدّتها لأنه دخل فيها! فقال أبو يوسف القاضي: يا أمير المؤمنين، هذه الجارية لا عدّة لها لأن مولاها البرمكي أيضاً هو ملك يمينك ومن عبيدك، ثم أيّد كلامه وفتواه بجملة من الأحاديث الملفقة الموضوعة.

فرح هارون الرشيد بهذه الفتوى التي تحلّل الحرام وتحرّم الحلال، وأغدق أموالاً طائلة على قاضيه.

مثل هؤلاء الناس يستعملون موازين من صنع أيديهم وأهوائهم. أما ميزان الفطرة السليمة والأحكام النابعة من روح الإسلام ومنهج الإسلام فإننا نجدها عند علي بن أبي طالب (ع). وعليٌّ هو ميزان الأعمال، تقاس به وتُعرض على أقواله ومواقفه ولا يُعرض عليها. لذلك نحن نخاطب أمير المؤمنين بالقول: السلام عليك يا ميزان الأعمال. فإذا جاء من يدّعي الحكم باسم الفطرة السليمة مثل معاوية وعمرو بن العاص فنقول لهم: اعرضوا أعمالكم على نهج أمير المؤمنين، فإن وافقته فهي سليمة، وإن لم توافقه فهي ساقطة وبعيدة عن الإسلام.

يقول الرسول الأعظم (ص): «علي مع الحق والحق مع عليّ يدور معه أينما دار». وفي كتب الحديث والصحاح حديث عن أبي بكر الصدّيق يقول: قال رسول الله (ص): «لا يجوز أحد الصراط إلاّ من كتب له عليٌّ بذلك صكاً».

الأخوّة في الإسلام

تقول الآية الكريمة: ﴿إنما المؤمنون إخوةٌ﴾.

وفي هذه الآية يضع القرآن الكريم أساساً متيناً لبناء المجتمع الإسلامي، وهذا الأساس ينسجم مع منطلقين هامين من منطلقات الإسلام وهما الفطرة السليمة والجماعة.

الإنسان مطبوع بفطرته على التواصل والعيش مع الآخرين. إنه كائن اجتماعي لا يستطيع العيش مفرداً. فالحجر إذا وضعته في مكان ما فإنه يبقى آلاف السنين وحيداً ولا يشعر بالحاجة إلى التواصل مع غيره. كذلك النبتة فإنها تستطيع العيش بأمان بمعزل عن غيرها من النبات طالما أمنت لها الغذاء والهواء والشمس. أما الإنسان فإنه يشعر بقوّة فطرية تشدّه إلى الآخرين ويشعر بالحاجة الماسة إلى التواصل معهم حتى وإن تأمنت له جميع احتياجاته.

أما المنطلق الثاني للأخوّة فهو تكوين الجماعة الإسلامية الواحدة وتأمين مصلحتها العامة. فالإسلام يبني المجتمع على أسس من المحبّة والترابط والتراحم وليس على أساس التناقض والتناحر. فالماركسية مثلاً تقول بأن المجتمع يقوم على الصراع بين الطبقات، وهذا الصراع يجب أن يؤدي إلى غلبة طبقة وتحكّمها بمقاليد الحياة الاجتماعية. أما الإسلام فإنه يبني المجتمع على أساس التكامل بين فئاته وطبقاته وعلى أساس التعاون

لمصلحة الجماعة الكلية، وقد وضع لذلك تشريعات وقوانين تؤدي بمجموعها إلى رفاه المجتمع بكامله وإلى السلم الاجتماعي.

ومن هنا نرى أن أول عمل قام به رسول الله (ص) في المدينة هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. وقد أراد من هذه العملية وضع اللبنة الأولى في بناء المجتمع. أراد أن يقول للمسلمين: إن مجتمعنا هذا يقوم على الأخوّة والوفاق والتراحم ونبذ الصراعات الداخلية والتناحر. وإذا كان لا بدَّ من التنافس ففي سبيل الخير العام ومصلحة الأمة. وقد أكد القرآن الكريم على هذه المسألة بقوله: **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾** وحذَّر من التناحر والتنازع بقوله: **﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾** [سورة الأنفال: الآية ٤٦].

والهدف من الأخوّة هو أن يكون المجتمع قوياً متماسكاً قادراً على ردّ كيد المعتدين، وفي نفس الوقت قادراً على السير قدماً بخطوات ثابتة في طريق التطور والنمو والرفاه. إنه كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً: **﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾** [سورة الصف: الآية ٤].

والمؤمنون كالجسم الواحد إذا تداعى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى.

وانطلاقاً من هذه المعاني نرى أكثر شعائر الإسلام تركّز على هذه الوحدة والأخوة والترابط. فصلاة الجماعة، والطواف في الحج، والصيام، ومجالس العزاء، كلها تؤكد أهمية الوحدة في المجتمع الإسلامي.

والأخوة في الإسلام تركّز على وحدة القلوب والتوجهات، وليس على الوحدة الشكلية التي تخفي الكثير من التناقض والتباغض. لذلك

يشير القرآن الكريم إلى أن الأخوة والوحدة بين المسلمين تلقي الرعب في قلوب الكافرين. هؤلاء الكافرون الذين ابتعدوا عن الله فلا يخافونه، يجدون أنفسهم أمام قوة موحّدة من المؤمنين فيرهبونها ويخافونها أكثر مما يخافون الله: **﴿لأنتم أشدُّ رهبة في صدورهم من الله﴾** [سورة الحشر: الآية ١٣].

وفي المقابل فإن صورة الكافرين غير الموّحدين في قلوبهم ومشاعرهم وأهدافهم هي صورة البنيان المتداعي الذي تحسبه قائماً قوياً أمامك، في حين أنه على وشك السقوط، لأن عوامل الفساد والتناحر تنخر فيه: **﴿بأسُهم بينهم شديدٌ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾** [سورة الحشر: الآية ١٤].

يقول الإمام الباقر (ع): «تزاوروا وتلاقوا وتحابوا فإني والله لأحب ريحكم وأحب مجالسكم»،

حرمة قطع الأخوّة

ولكي يحفظ الإسلام الأخوّة فإنه حرَّم كل شيء يقطعها، كذلك حرَّم كل عمل يوهن قوة الجماعة ويضعف وحدتها ويبذر الشقاق والفتنة فيها.

فقطع صلة الرحم حرام، لأنك عندما تقطع صلة أرحامك تضرب الأخوة في المجتمع. فمن لا خير فيه لأهله وأرحامه وذوي قرباه كيف يمكنه أن يكون مصدر خير للمجتمع؟ والذي يقطع صلته وعلاقته بشقيقه أو قريبه أو جاره عند أول خلاف في الرأي أو تضارب بسيط في المصالح، هذا الإنسان بعيد كل البعد عن روح الإسلام وعن الغايات والمقاصد التي أرادها الإسلام من الحفاظ على الأخوة وصلة الرحم.

ولكي نعلم الأهمية العظيمة لصلة الرحم في الإسلام علينا أن

نلاحظ أن الإسلام لم يجعل من الشرك سبباً كافياً لقطع صلة الرحم. فإذا لم يكن أخوك أو والداك على دينك فإن الإسلام لا يسمح لك بقطع صلة الرحم معهم والإسلام يقول لك: إذا دعاك والدك المشرك إلى ترك دينك واتباع دينه، فلا تطعه، ولكن إيَّاك أن تعامله بسوء أو تقطع صلتك به: **﴿وإن جاهداك على أن تشرك ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾** [سورة لقمان: الآية ١٥].

والرسول الأعظم (ص) ظل يوصي بالجار حتى ظن البعض أنه سيورثه.

والغيبة والنميمة حرام لأنهما يضربان علاقات الأخوة في الإسلام. فإذا بدر من أخيك بادرة صغيرة فلا يجوز لك أن تطلق لسانك في الكلام والنقد والتجريح والغيبة، لأن ذلك يسبب الجفوة والبعد ويدفع بالعلاقات باتجاه القطيعة، . كذلك يدعونا الإسلام إلى الظن خيراً بالإخوان. والمثال يقول: احمل أخاك على أحسنه.

وقد نهى القرآن الكريم عن سوء الظن والغيبة والنميمة نهياً قاطعاً شديداً، وشبَّه من يقوم بذلك بالذي يأكل لحم أخيه ميتاً: **﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إن بعض الظن إثم ولا تجسّسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾** [سورة الحجرات: الآية ١٢].

وقد نهى الإسلام أيضاً عن شرب الخمر لأنه يهدم البيوت ويضرب علاقات الأخوة. فشارب الخمر يفقد ميزان المنطق والعقل وتضعف رقابة الإيمان لديه مما يجعله يتصرّف دون إحساس بالمسؤولية ودون مراعاة لاعتبارات الأخلاق والأخوة.

قـال رسول الله (ص): «شـارب الخمر لا تصـدّقـوه إذا حـدَّث، ولا تزوجوه إذا خطب، ولا تعوده إذا مرض». ابتعدوا عن شارب الخمر واعزلوه حتى يتأدّب لأن وجوده خطر على المجتمع. من بات سكرانـاً بات عـروساً للشيـطان. ويقول: ملعـون من جلس على مـائـدة عليهـا الخمـر. ويقـول الـرسـول (ص): «يخـرج الخمّـار من قبـره مكتـوب بين عينيــه: آيسٌ من رحمة الله» لأنه اقترف جميع الآثام.

وهكذا نجد أن المحرّمات في الإسـلام إنما حـرّمت لأنها تسيء إلى الآخرين وتضرب الوحدة الاجتماعية وتقطع الأخوّة بين المسلمين.

المفهوم الشامل للأخوة

والأخـوة بالمفهـوم الإسلامي معنى واسـع يتضمن مستويـات ثلاثـة: أخوة في الإنسانية، وأخوة في الدين، وأخوة في العائلة والرحم.

أمـا الأخوّة في الإنسـانية فـإنها تنـطلق من النظرة الشمـولية لـلإسلام الذي يرى البشـر جميعاً بصـرف النظر عن ألـوانهم وأجناسهم ومعتقـداتهم وعصبياتهم، يراهم إخوة في الخلق. فالخلق كلهم عيـال الله، وأحبُّهم إليه أنفعهم لعياله، كما في الحديث الشريف.

ويقـول القرآن الكـريم: **﴿وجعلناكم شعـوبـاً وقبـائـل لتعـارفـوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** [سورة الحجرات: الآية ١٣].

ويقول أمير المؤمنين (ع) في عهده إلى مالك الأشتر عندما وجّهه إلى ولاية مصر: «وأشعـر قلبك الـرحمة للرعيـة والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكـونّن عليهم سبعاً ضـارياً تغتنم أكلهم، فـإنهم صنفـان: إمـا أخٌ لـك في الدين أو نظير لك في الخلق».

فهذه هي الأخوة العامة الشاملة التي تعتبر البشر جميعاً إخوة في الإنسانية لأنهم من آدم وحواء. وهذه النظرة التي جاء بها الإسلام سبقت جميع النظريات الحديثة التي دعت إلى تجاوز العرقيات والقوميات والأجناس والأديان. فالإسلام منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة نظر إلى المجتمع الإنساني كوحدة متكاملة يجب أن تقوم العلاقات فيها على أسس المحبّة والتعاون والعدل.

أما الأخوة في الإسلام فهي الأخوة التي تقوم على أساسها الأمة ويبنى عليها المجتمع. وقد أولاها الإسلام عناية خاصة وجعلها مدار الكثير من التشريعات والأحكام والشعائر. كذلك جعل من الأخوة مدار ثواب وعقاب.

وفي الحديث: «من سعى في قضاء حاجة أخيه المؤمن كتب الله له سبعين ألف حسنة، ومحا عنه سبعين ألف سيئة، ورفع له سبعين ألف درجة».

كان الإمام الحسن (ع) معتكفاً في المسجد، ومن شروط الاعتكاف أنك لا تنصرف إلى شيء خارج عبادة الله لمدة لا تنقص عن ثلاثة أيام. كما أنه لا يجوز أن يطول الاعتكاف بحيث يخرجك من المجتمع ويعزلك عن إخوانك. بينما كان الإمام الحسن في اعتكافه دخل عليه رجل من المسلمين. فقال له الإمام: ما لي أراك حزيناً مهموماً! قال: إن لفلان عليَّ ديناً لا أدري كيف أسدّه. وإني متردّدٌ في الطلب إليك أن تسعى معي لتدبُّر أمري، فأنت في حالة اعتكاف في مسجد رسول الله (ص)...

قال الإمام الحسن (ع): لا بأس عليك يا أخي. وقام من مجلسه وخرج مع الرجل لقضاء حاجته. وكان ابن عباس في المجلس، فسأل

الإمام قائلاً: يا ابن رسول الله، أنت كنت معتكفاً، فكيف تخرج من المسجد؟ قال الإمام: «وحقِّ صاحب هذا القبر (أي قبر رسول الله) لقد سمعته يقول: من مشى في قضاء حاجة أخيه المؤمن أعطاه الله ثواب عشر سنوات اعتكاف في مسجدي هذا».

وفي الحديث: «من أدخل السرور على قلب أخيه المؤمن جعل الله له سروراً يوم القيامة». وفي الأخبار أن المؤمن في عرصات القيامة يأتيه شاب جميل كله بهاء ونور، فيأخذ بيده ويجتاز به كل البوابات والعقبات والاختبارات حتى يوصله إلى بوابة الجنَّة، ويقول له: تفضّل، هذه جنّتك!.. فيقول المؤمن: من أنت؟ يقول: أنا السرور الذي أدخلتني في قلوب المؤمنين في الحياة، والله ـ تعالى ـ خلقني من ذلك الفرح.

أما الأخوة في الرحم فقد جعلها الإسلام من أقدس المقدسات. وفي الأخبار والأحاديث أن الرحم أقدس المقدسات. وفي الأخبار والأحاديث أن الرحم موصولة بالعرش، تقول: أي ربِّ، صل من وصلني، واقطع من قطعني.

هذه هي الأخوة في الإسلام التي تصنع إنساناً محباً مطمئناً، وتصنع مجتمعاً قوياً وأمة موحَّدة متراصة، وتصنع مجتمعاً إنسانياً شاملاً قائماً على السلام والمحبة والخير.

أخوّة أمير المؤمنين ورسول الله (ص)

رأينا أن أول عملية قام بها رسول الله (ص) عندما بدأ ببناء الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي الموحَّد هي عملية المؤاخاة بين المسلمين. فتآخى المهاجرون والأنصار، وتشاركوا في أموالهم وممتلكاتهم، ولم يفصل بينهم إلاَّ ما حرَّم الله. وبذلك أصبحوا بنعمة الله، ونعمة الإسلام،

إخواناً: ﴿فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣].

وقف أمير المؤمنين ينظر فرحاً مستبشراً بصنيع رسول الله (ص)، ولكنه أحسَّ بانكسار وحزن لأن الرسول أبطأ عليه ولم يؤاخِ بينه وبين أحد. لاحظ الرسول ذلك، فالتفت إلى عليّ وقال: أنت أخي يا عليّ، وأنا اصطفيتك لنفسي، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى، أنت ابن أمي.

إن أم أمير المؤمنين فاطمة بنت أسد هي التي قامت بتربية رسول الله (ص). ويوم اشتدت المحن وقت الأحداث على أمير المؤمنين جاء إلى قبر رسول الله وجلس عنده يبكي ويقرأ القرآن ويقول: يا ابن أمي، إن القوم استضعفوني!...

وعبارة «استضعفوني» لا تعني أنه ضعيف فهو بطل الإسلام الذي صنع انتصاراته في المعارك والحروب، وهو صوت الإسلام الذي ينطق عن علم رسول الله، وهو مستودع الرسالة الذي يدور معه الحق أينما دار. ولكن القوم الذين غرّتهم الدنيا ونسوا وصايا الرسول وتعاليم القرآن تجرأوا على الزهراء (ع) وهاجموا دارها وأحرقوها وسلبوها حقها. وكان أمير المؤمنين يقف متماسكاً صابراً لأن عينه وقلبه على الإسلام. لذلك ظنّه القوم ضعيفاً وتجرأوا عليه وعلى بيت رسول الله.

يقول أمير المؤمنين (ع) في خطبته الشقشقية: «أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة، وإنه ليعلم أن محلّي منها محلُّ القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إليَّ الطير. فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتأي بين أن أصول بيد جذّاء أو أصبر على طخية عمياء. فرأيت أن الصبر على هاتِ أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق

شجى أرى تراثي نهباً...».

إذن فقد اختار أمير المؤمنين الصبر وتحمّل المكاره والظلم في سبيل مصلحة الإسلام، وتسامح في حقه مدة خمس وعشرين سنة، أما الذين أحرقوا باب الزهراء (ع) فقد فوَّض أمير المؤمنين أمرهم إلى الله ـ تعالى ـ، وبثَّ شكواه إلى رسول الله عند قبره، وقال له: يا ابن أمي، إن القوم استضعفوني وكادوا أن يقتلوني.

هل يمكن لمسلم يعرف الأخوّة الإسلامية أن يهجم على دار فاطمة الزهراء فيحرق بابه ويهتك حجابه ويتجاوز حرمته؟! إن حرق الباب هو حكم شرعي يطبق على من ترك الصلاة وهجر الجماعة وامتنع عن المشاركة في صلاة الجماعة عامداً متعمداً. هذا المفارق للجماعة ينبَّه ويحذَّر، فإذا استمر في غيّه ومعاندته يحرق عليه بابه. فهل كانت الزهراء مخالفة للجماعة، وهل كان أمير المؤمنين تاركاً للصلاة هاجراً للمسجد؟!

إن الزهراء وأمير المؤمنين ـ عليهما السلام ـ هما ميزان الأعمال وبهما تقاس الأمور، ولا تقاس الأمور بموازين المنحرفين عن مبادىء الأخوة الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف. إن الميزان هو الفطرة السليمة التي يعبّر عنها أهل البيت (ع) وليس الفطرة المشوّهة التي يمثلها الظالمون وفقهاء السلاطين.

• • •



الدِّيـن والفطـرة

الدِّيــن والفطرة

بسم الله الرحمن الرحيم

قـال الله تعالى: ﴿لا إكـراه في الدين قـد تبيَّن الرشـدُ من الغيّ فمن يكفر بالـطاغوت ويؤمن بـالله فقد استمسـك بالعـروة الوثقى لا انفصـامَ لها والله سميع عليم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦].

القلب منطقة حرَّة

تـطرح الآيـة الكـريمـة قضيـة دقيقـة وهي عـلاقـة الإنســان بـالله ــ تعالى ــ. وأول ما ننبّه إليه هو أن هذه العلاقة قائمة على المحبَّة والرضا والقبول وليس على الإكراه.

هذه العلاقة تتمثل بـالدين، والـدين منبعه القلب والـوجدان. وهـذه المـنطقة في الإنســان هي منطقـة حرَّة محـرَّمـة على جميـع أنـواع الإكـراه والعنف.

فـالإكـراه يكـون في الأمـور المـاديـة. يسـتـطيـع إنســان أن يهـددك بالمسدس ويكرهك على نزع ثيابك أو التخلّي عن مالك، ولكنه لا يستطيع أن يجبرك على محبته والإخلاص له. فالإكراه عمل خارجي يفـرض سلطته على المادة ولا يمكنه فرض سلطته على الروح.

أمية بن خلف كان يـطرح بـلالاً الحبشي أرضـاً في لهيب الشمس،

ويضع على صدره صخرة كبيرة حامية، ويوسعه ضرباً بالسياط، ويقول له: اكفر بدين محمد. وكان بلال ينظر إلى السماء ويرفع سبابته ويقول: أحدٌ أحد.

لقد سيطر أمية بن خلف على جسد بلال المادي، ولكنه لم يستطع أن يسيطر على قلبه وروحه. تخلّى بلال عن جسده، ولم يعد يشعر به، وبقي لسانه يترجم عن قلبه وروحه وينطق باسم تلك المنطقة الحرَّة التي تستعصي على الاحتلال القسري. لقد احتلَّها دين محمد بن عبد الله (ص) بأخلاقه ولطفه وسموّه، ولم تعد قوّة في الكون قادرة على احتلالها. **﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾** [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]. **﴿لا إكراه في الدين﴾**.

الإيمان قمة الرشد

يصل الإنسان إلى قمة الرشد والوعي بامتلاكه للدين القويم والتمسّك به. فعندما يصل إلى الإيمان يشعر بأنه وصل إلى الدرجة العليا من إثبات وجوده ومن معرفة الطريق الصحيح المؤدي إلى الخلاص والنجاة والسعادة. عندها يقبض على دينه وإيمانه بثبات، لأنه بذلك يتمسك بإنسانيته ومعنى وجوده. فالإيمان بالله نفي لجميع الآلهة المزيفة، والخضوع له هو تحرر من جميع قوى الاستعباد، واتباع طريقه هو ابتعاد عن طريق الجهل والغواية ودخول في منطقة النور. هنا يصبح الإنسان قادراً على التمييز بين الحق والباطل، بين الخطأ والصواب، بين ما ينفعه في دنياه وآخرته وما يورده موارد التهلكة والخسران.. إنه إذن قمة الرشد. والرشد هو الكمال والنضوج والقدرة على التمييز وتحمل المسؤولية. والغيّ يجمع كل معاني الضلال والتّيه وفقدان الدليل والموازين.

الإنسان مؤمن بفطرته

يـولد الإنسـان على الإيمان. وهـذا الإيمان لا يكتسبـه ولا يتعلمـه، وإنما هو موجود في طبيعته الإنسانيـة لا يأتيـه من الخارج. الـذي يأتيـه من الخارج هو الانحراف. فالتربية والمحيط يمكنهما التأثير على هذا الإنسـان فيشوهان فطرته السليمة وتصبح فطرة منحرفة. لذلك يقول الـرسول (ص): «كل مولود يولد على الفطرة، إلاَّ أن أبويه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه». أما إذا ترك الطفل على فطرته الطبيعية السليمـة فإنـه يكون مشـدوداً تلقائيـاً إلى رحاب الله ورحمته.

إن أعمق نـزعة في النفس البشـرية هي النـزعة الـدينيـة التي تـوجـه الإنسان نحو الخالق. وهذه النزعة منشؤها الفطرة التي تـرى وراء كل سبب مسبِّب ووراء كـل حركـة محرِّك، وأن كـل أثر يـدلُّ على مؤثـر. فـالإنسـان البدائي الأول إذا أفاق صبـاحاً وخـرج من كهفه فـرأى الأرض مغطاة بـطبقة طينية رطبة يعرف بأن السماء قد أمطرت بغزارة أثنـاء الليل بـالرغم من أنهـا صافية أمامه الآن. وإذا رأى آثار حيوان على هذا الطين فإنه يعـرف أن هذا الحيـوان بعينـه أو ذاك قـد مـرَّ من أمـام كهفـه. وهــذه العمليـة البـديهيـة الاستدلالية هي التي تؤدي إلى الإيمان الفطري بـوجود الخـالق. وقد جـاء في التنـزيل العـزيز: ﴿قـل سيروا في الأرض فـانـظروا كيف بـدأ الخلق﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٢٠].

إن تـاريخ البشـرية الحقيقي والـواقعي هو تـاريخ التديُّن والإيمـان، والإلحاد هو الظاهرة الاستثنائية الانحرافية المشوَّهة.

يقول علماء الآثار بأنهم لم يكتشفوا آثار مـدينة في العـالم القديم إلاَّ ووجدوا فيها أثراً لمعبد من المعابد. وإذا ركبنا اليوم طائرة وطفنا فيها حـول

العالم وفوق مدنه وقراه فإننا نقع دائماً على مسجد أو كنيسة أو معبد أو حتى صنم يتخذه الناس رمزاً دينياً تعبدياً.

إن العلم والمعرفة والثقافة لا تبعد الإنسان عن الدين وإنما تقرّبه منه. وكلما ازداد علم الإنسان ومعرفته كلما ازداد قرباً من الله لأنه يزداد معرفة بعظمته وقدرته. لذلك يقول القرآن الكريم: **﴿إنما يخشى اللَّهَ من عباده العلماء﴾** [سورة فاطر: الآية ٢٨].

وإذا قلنا بأن الإنسان بحاجة إلى الدين وبأنه لا يستطيع بوجه عام أن يعيش بلا عقيدة دينية، فهذا لا يعني أن كل عقيدة دينية هي صحيحة. فقد يدخل على الدين عقائد مزيفة. ولكن رفض العقائد المزيفة لا يعني رفضاً للدين بالمطلق. يقول أحد المفكرين الإسلاميين بأن الدين بشكل عام يمكن تشبيهه بالمعدة. فإذا أدخل بعض الناس طعاماً فاسداً على المعدة فإن هذا لا يعني الاستغناء عن المعدة، وإنما يجب تنظيفها من المفاسد. فالمعدة حاجة لجسم الإنسان، والدين حاجة لحياته ووجوده. والطفل الصغير الذي يشعر بالجوع يتناول الطعام الذي يقدّم إليه، ولكنه يمدّ يده إلى التراب ويأكله إذا لم يقدم إليه الحليب. والنتيجة المستخلصة من هذه الأمثال أن الدين يمثل غريزة فطرية لدى الإنسان لا بد من إشباعها.

يقول جواهر لآل نهرو: أشعر بارتياح كبير عندما أذهب إلى ضريح المهاتما غاندي وأركع أمامه، كذلك لا أستطيع إلاَّ أن أشعر بخشوع ورهبة أمام البقرة.

هذا الرجل يعرف بعقله أن البقرة هي حيوان عادي ليس فيه شيء من القداسة، ويعرف أيضاً أن ضريح غاندي هو قبر مثل سائر القبور، ولكنه يقول: بصراحة لا أستطيع أن أتخلّص من هذا التأثير العقائدي

ولا يستطيع الإنسان ان يتخلص من العقيدة الدينية.

وهناك مثل آخر أكثر وضوحاً يدل على أن الإنسان مهما بلغ من إنكار الدين فإنه عندما يرجع إلى نفسه في لحظة من لحظات الصدق والفطرة السليمة لا بد له من الاعتراف بوجود الخالق وبالتالي يعترف بأهمية الاعتقاد الديني. ماوتسي تونغ قائد ومفكر ماركسي كبير، وهذا يعني أنه ملحد علمياً وعملياً لا يعترف بوجود الله ولا يقرّ بأهمية الدين. ماوتسي تونغ هذا قال وهو يحتضر على فراش الموت: إني ذاهب لملاقاة ربّي! وهذا الكلام نقلته وتداولته جميع وسائل الإعلام منذ سنوات على أثر وفاة الزعيم الصيني الكبير.

الدين والأنبياء

خلق الله ـ سبحانه ـ الإنسان وزرع فيه الفطرة والعقل وأرسل إليه الأنبياء. ولله على الإنسان حُجتان: ظاهرة وباطنة. فالحجة الباطنة هي العقل والفطرة، والحجة الظاهرة هي الأنبياء.

الحجة الباطنة هي التي توجه الإنسان نحو الإيمان بالله، نحو الدين. والحجة الظاهرة هي التي توجهه في الطريق المستقيم والدين القويم.

عندما يبتعد الإنسان عن طريق الإيمان فإن ناقوس الفطرة والعقل يبدأ بالعمل وينبّهه إلى أنه ابتعد عن طبيعته. وعندما ينحرف الإنسان عن الدين القويم فيعبد الأصنام أو المال أو السلطة وسائر الآلهة المزيفة فإن الأنبياء يأتون ليعيدوه إلى الخط الصحيح. فالفطرة تشدّ إلى الإيمان، والأنبياء يشدّون إلى العقيدة الصحيحة.

والأنبياء في حياة البشرية يمثلون ثورات حقيقية إما بالتغيير الجذري

الثوري وإما بالتصحيح. فموسى ــ عليه السلام ــ قام بثورة إيمانية كبرى وواجه ثلاث قوى عاتية: الملك الظالم فرعون، والمسرف الظالم قارون، والعالم الضال الظالم بلعم بعورا. ثم جاء عيسى ــ عليه السلام ــ فقام بثورة تصحيحية سلمية ولم يكن عنيفاً مثلما كان موسى. ثم جاء خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد (ص) فقام بالثورة الكبرى التي تصدّت للظلم وصححت المسار.

إن التصدي والعنف يكونان بمواجهة الظالمين، وفي مواجهة الانحراف العقائدي يكون الإصلاح. فالدين الصحيح لا يفرض بالقوة، ولكن الظلم الناتج عن الانحراف الديني والعقائدي والفطري هو الذي يواجه بالعنف والقوة. كذلك تلعب الظروف التاريخية دوراً في تحديد الأسلوب الذي يلجأ إليه الأنبياء لنشر الدين أو لمواجهة الفساد.

والأنبياء جميعاً يصدرون عن علم واحد ويسعون إلى غاية واحدة، وإن اختلفت درجات التبليغ وأشكالها. والمصدر الأساسي لعلم الأنبياء هو الله الواحد ــ سبحانه ــ، والغاية هي إعادة الإنسان إلى فطرته السليمة والتصدّي للمفاسد التي نتجت عن انحراف الفطرة.

ونحن إذا تأملنا في آيات سورة التّين نجدها تشير إشارة عميقة إلى هذه المسألة، وهي علاقة الفطرة والدين والأنبياء، بحياة الإنسان: **﴿والتّين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين. لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غيرُ ممنون. فما يكذّبك بعد بالدين. أليس الله بأحكم الحاكمين﴾** [سورة التين].

فعندما يقسم الله ــ تعالى ــ بالتين والزيتون وطور سينين (أي جبل سيناء) والبلد الأمين (أي مكة) فإنما يقسم بأشياء ترمز إلى أنبياء وإلى

مـراحل تـاريخية من عمـر البشر والرسالات. فـالتين يرمـز إلى مرحلة آدم ـ عليـه السلام ـ ، والـزيتون إلى مـرحلة نـوح، وطـور سينين إلى مـرحلة موسى، والبلد الأمين إلى مرحلة الرسول الأعظم (ص).

وبعدما أقسم الله ـ تعالى ـ بهذه الرموز المباركة لأنها مرتبطة بأنبياء عظام وبرسالات سماوية ربط ذلك مباشرة بمسـألة الفـطرة الإيمانيـة فقال: ﴿**إنا خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾.

أي على أحسن هيئة وسويَّة وفطرة، أي على الاستقامة والإيمان.

والإنسـان بهذا التقـويم الحسن يرتفـع إلى أسمى الـدرجـات وأعلى المـراتب. ولكنه ينحـدر إلى أسفل سـافلين عندمـا تنحرف فـطرته وتفسـد عقيدته وإيمانه: ﴿**ثم رددناه أسفل سافلين**﴾.

أي أن فساد الفطرة ينحدر بوضعية الإنسان، وعندها لا بـد من وجود الأنبياء. ويستثنى من هذا الانحدار الذين آمنوا وعملوا الصالحـات. فهؤلاء لهم أجرٌ غير ممنون، أي أجر عظيم يعطى لهم دون حساب ودون منَّة. فهو أجر مستحق، لأنهم كانوا أبطالاً صامدين أمام موجات الانحراف التي تسود حياة البشرية في مراحل التاريخ المختلفة.

وعندما يرسل الله الأنبياء ويزرع في الإنسـان الفطرة السليمـة والعقل المدرك المميِّز فإنه يكون قد ألقى عليه حجّتين: حجَّة ظاهرة وهي الأنبياء، وحجة باطنة وهي العقل والفطرة. فإذا كذَّب الإنسان بالدين بعد ذلك فقـد استحق العذاب والعقاب: ﴿**فما يكذِّبك بعدُ بالدين**﴾.

إذن الفـطرة والأنبياء ركنـان أساسيـان في مسـألـة العقيـدة والإيمـان والدين ملازمان للإنسان منذ بداية خلقـه، أي منذ آدم، وإلى يـوم يبعثون. وإذا كـان الأمـر كـذلـك فكيف يكـون حضـور الأنبيـاء بعـد خـاتم النبيين

محمـد (ص)؟ إن هـذا الحضـور يتمثـل بـالأئمـة المعصـومين من أهـل البيت (ع). فهؤلاء يمثلون استمـراريـة حضـور الأنبيـاء في حيـاة البشـر ولا يخلو زمان من وجود إمام حجَّة قائم. لذلك نقول: لـولا الإمام الحجَّـة لساخت الأرض بمن عليها.

ولقد وقعت على كتاب منذ مدة بعنـوان «أهل البيت في سفينـة نوح» يذكر أن سفينة نوح قد اكتشفت وهي موجـودة إلى الآن، وأن على ألواحهـا أسماء أهل البيت من محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع).

وقـد أشار القـرآن الكريم إلى أن سفينـة نـوح (ع) سـوف تبقى آيـة للعالمين باقية لا تفنى على مرّ الدهر. يقـول ـ تعالى ـ : **﴿وحملنـاه على ذاتِ ألواحٍ ودُسُر. تجري بأعيننا جزاءً لمن كـان كفر. ولقـد تركنـاها آيـةً فهل من مُدَّكِر﴾** [سورة القمر: الآيات ١٣ ــ ١٥].

وإذا انحـرف الإنسان عن طـريق الفـطرة السليمـة وتـاه في ظلمـات الفساد والخطيئة، فإن فطرته لا تلبث أن ترفع صـوتها وتـدقُّ ناقـوس الخطر الذي يوقظه من سباته وينتشله من غيِّه.

العلـم والديـن

إن مـا تقـدّم يبيّن لنـا أنـه لا بـد للعلم من الـدين. والعلم والـدين توأمان: العـلـم يقول لك كيف تصنع القنبلة الذرية، والدين يقول لك لمـاذا تصنعهـا. هـل تصنعهـا لقتل الأبـرياء، أم عليـك أن توجـه علمك وقـدرتك باتجاه بناء المـجتمع وإحياء الناس؟

العلم يجيبـك عن سؤال: كيف؟ والدين يجيبـك عن سؤال: لماذا؟ وإذا انفصل العلم عن الدين تحوّل إلى طاقة عمياء يمكنها أن ترتكب أبشع الجرائم.

الدين يجب أن يكون ملازماً للعلم والسياسة والتربية والأخلاق وتنظيم العلاقات الاقتصادية في المجتمع، وإلاَّ تستحيل الحياة جحيماً لا يطاق وغابة من الوحوش.

* * *

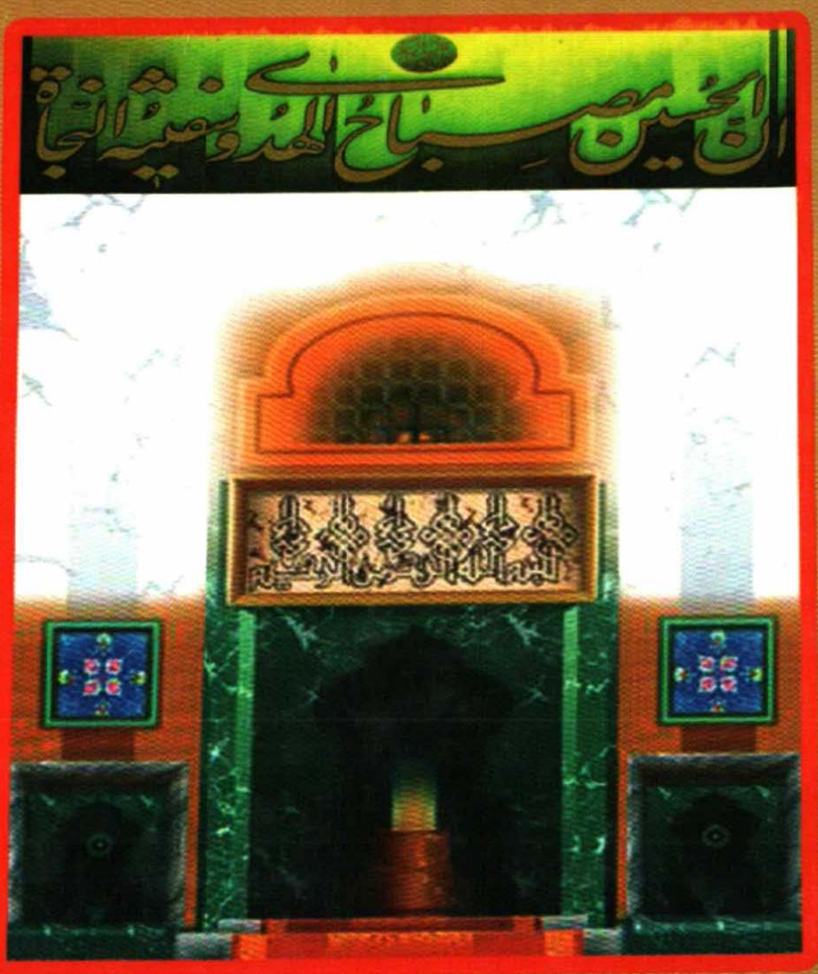
محتويات الجزء الأول

الفصل الثالث

الفصل الخامس

● ● ●





مراكز التوزيع

مكتبة النجار - نقال - ٠٩٣٥٨٢٢١٥٢١ - ٠٩١٢٧٥٧٠٧٢١

E- mail : maktabat_alnajar@naseej.com

معرض الشهيد محمّد باقر الصدر - بغداد - مدينة الصدر - داخل - قرب محطة الوقود